

إشراف وتحرير: أ.د علي العبيدي

صفحات من تاريخ الجزائر
(الوسيط/ الحديث / المعاصر)

دراسات تاريخية

- الجزء الأول -

النشر الجامعي الجديد

صفحات من تاريخ الجزائر

(الوسيط/ الحديث / المعاصر)

دراسات تاريخية

- الجزء الأول -

الفهرسة أثناء النشر- إعداد النشر الجامعي الجديد

صفحات من تاريخ الجزائر (الوسيط/ الحديث / المعاصر) دراسات تاريخية - الجزء الأول -

أ.د. علي العبيدي

424 ص (تاريخ)

يشتمل على فهرس

ردمك : ISBN 978-9947-78-046-6

الإيداع القانوني: السداسي الأول 2020

الأفكار الواردة في هذا الكتاب
مصدرها المؤلف ولا يتبناها بالضرورة النشر الجامعي الجديد

النشر الجامعي الجديد

نشر – طباعة – توزيع

محل رقم 2 تعاونية الدواجن، حي الدالية، الكيفان

تلمسان – الجزائر

الفاكس:

+213 (0) 43 277 687

الهاتف:

+213 (0) 661 904 998

+213 (0) 661 904 999

البريد الالكتروني:

npu_editions@yahoo.fr

مجموعة مؤلفين

صفحات من تاريخ الجزائر
(الوسيط/ الحديث / المعاصر)

دراسات تاريخية

إشراف وتحرير

أ.د. علي العبيدي

جامعة أبي بكر بلقايد/ تلمسان

- الجزء الأول -



المشاركون في الكتاب حسب ترتيب البحوث

د. علي عشي
دة. حفصة معروف
دة. فطيمة مطهري
دة. نعيمة بوكرديمي
د. رشيد يماني
د. حسين تواتي
دة. نعيمة طيب بوجمعة
دة. الزهراء بوكرابيلة
دة. هوارية بكاي
د. محمد عجوط
د. عمر سي عبد القادر
دة. خديجة دوبالي
د. محمد الزين
دة. حياة ثابتي
د. حميد ايت حبوش
د. حمدادو بن عمر
د. رياض بولحبال
د. صباح نوري العبيدي
د. سلوان رشيد رمضان
أ.د. توفيق دحماني
د. نور الدين ايلال
د. الجيلالي شقرون
د. اياد تركان الدليمي
دة. فاطمة حباش
د.صبري كامل هادي التميمي
د. عبد المنعم هامل
ا.بوسيف برحو
دة. اسامة صاحب منعم
دة. وردة هشماوي
د. عز الدين زايدي
د. سيدي محمد رامي
أ.د. جيلالي بلوفة عبد القادر
أ.د. يوسف قاسمي
د. رشيد زبير
أ. رانية هدار
دة. مها ناجي حسين
د. بشير سحولي
أ.د. عبد الله مقلاتي
أ.د.علي العبيدي
د. عبد الكريم طهير

فريق التنسيق والمتابعة

د. نعيمة طيب بوجمعة	جامعة تيارت
د. صباح نوري هادي العبيدي	جامعة ديالى / العراق
د. فطيمة حباش	جامعة تيارت
د. سيدي محمد رامي	جامعة خنشلة

بسم الله الرحمن الرحيم

نۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2)
وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)

صدق الله العظيم

سورة القلم : الآيات 1– 4

الإهـــداء

إلى

الأجيال التي عمرت وبنت

والأجيال التي سوف تعمر وتبني

من أجل جزائر حرة آبيه

المقدمة

للمؤرخ دور بارز، لاسيما في عصر الأزمات، في تحديد عوامل القوة وعناصر الضعف لأية أمة، لتتجاوز أزماتها وبناء حاضرها والتطلع لمستقبلها وفقاً لقاعدة راسخة تستند على عناصر القوة في الماضي. والمؤرخ العربي اليوم يتحمل واجباً قوميا وعلمياً وأكاديمياً في أن يشارك أبناء مجتمعه في تقديم تجربته للنخب بمختلف توجهاتها واختصاصاتها، ومن هنا، فان مسؤولية المؤرخ كبيرة لايمكن أن تحتمل أي تقاعس عن أداء هذا الدور الفاعل والمؤثر في حياة مجتمعه.

ومن منطلق أهمية الدور المحوري للمؤرخ، كما أشرنا من قبل، فإن الواجب الوطني يستدعي منا تعريف الأجيال، حاضرها وقادمها، بالتاريخ الوطني الذي يتزاحم بالأحداث والمآثر والبطولات. وعلى الرغم من الأهمية التي يحتلها تاريخ الجزائر (الوسيط / الحديث والمعاصر)، وصدور عدد كبير من المؤلفات والبحوث والدراسات، وانجاز المؤسسات الأكاديمية في الجزائر والوطن العربي والعالم لعدد لا يستهان به من البحوث الأكاديمية الجادة في هذا الاتجاه، فإن هذا الحقل المعرفي ما زال بحاجة إلى مزيد من الاهتمام وتسليط الضوء على جوانب عديدة ما زالت تتطلب دراسات وبحوث جديدة تدرس هذا التاريخ ضمن رؤى وآراء متعددة، وربما متباينة في بعض الأحيان، فالأختلاف في الرأي، حتى وإن وصل إلى نقطة التقاطع لا يقلل من أهمية الدراسات الجادة، طالما كان التاريخ في أحد تعاريفه عبارة عن "وجهات نظر" .

ومن منطلق الأهمية التي يحتلها تاريخ الجزائر شارك مجموعة من الباحثين الأكاديميين الجزائريين والعراقيين في مناقشة قضايا هامة منه توزعت في ثلاث محاور (الوسيط/ الحديث والمعاصر)، إذ اختار كل واحد منهم جزئية من هذا التاريخ الثري والأصيل لدراستها وتوضيح الغموض في مكنونها لإخراج الدروس والعبر . وعلى الرغم من أن كل واحد من هؤلاء الباحثين قد ركز على دراسة جانب محددمن تاريخ الجزائر، إلا أنهم كانوا يعملون على نحو منسق، كفريق واحد، لأن كل واحد منهم يحاول أن يلقي

ضـوءاً على هذا التاريخ المميز من الزاوية التي يختص بها، فكان التركيز على الجزئيات وإخضاعها للدراسة المركزة، للوصول إلى الوقائع الدقيقة بكل موضوعية وحيادية.

ولابد من تذكير القارئ الكريم قبل شروعه في قراءة مقالات هذا الكتاب أن الموضوعات التي يتناولها تغطي جوانب سياسية، اقتصادية واجتماعية، إلا أنها بمجملها تقدم آراء وأفكاراً جديدة تشكل إضافة معرفية وتاريخية. وبالإضافة إلى ما ذكرت هناك أهمية أخرى تميز بها الكتاب هو ذلك التزاوج بين أجيال متعددة، فمنهم مؤرخين تمرسوا في الميدان وامتلكوا تجربة كبيرة وآخرين شباب حديثي التخصص، وقد أنجزوا أطروحاتهم الأكاديمية مؤخراً، وحتى إن بعضهم مازال يعكف على انجازها. وقد أعطى هذا التزاوج فضلا عن إبراز حالة التطور المتسارع في حقل الدراسات التاريخية وتغير اهتماماته واتجاهاته عندنا، نكهة أخرى للكتاب تمثلت في اختلاف الرؤى والتصورات، وتباعدها أحياناً. كما إنني انوه إلى سمة أخرى لهذه البحوث هو طابعها التحليلي والنقدي للإحداث، مبتعدة عن السرد التاريخي المجرد، قدر الإمكان.

وعلاوة على ذلك، ختم الباحثون دراساتهم باستنتاجات نهائية شاملة لبحوثهم، يمكنها أن تفسح المجال أمام دراسات أخرى مستقبلية تحاول استكمال تلك الموضوعات، فكلما تمكن الباحث من استكشاف مصادر جديدة يمكنه أن يأتي بالجديد. ومن هنا، لم نحاول أن نفرض على المشاركين في هذا الكتاب أي أفكار مسبقة، لأننا على قناعة تمامه من أن فسح المجال لهم للكتابة بحرية تامة هو الغاية التي نسعى إليها، فالتنوع في الآراء يمكن أن يجعل القارئ أكثر فهماً للأحداث، ودون التقيد بالتفسيرات المسبقة، التي تشوه الحقائق التاريخية أحياناً، ومن هنا،يكون للقارئ الحرية التامة في التوصل إلى النتائج والتحليلات النهائية،

لقد توزعت البحوث التي تضمنها الكتاب على ثلاث محاور، وجاء هذا التقسيم ليتلائم مع خصوصية كل حقبة تاريخية من حيث تداخل الأحداث وتشابكها، وهي كما يأتي:

1. الدراسات الوسيطية (العهد الزياني)
2. التاريخ الحديث (فترة الوجود العثماني)
3. التاريخ المعاصر (الحقبة الاستعمارية والثورة التحريرية)

كما لايفوتني بهذه المناسبة، من الإشارة مسالة مهمة تزيدنا فرحا في صدور هذا الكتاب، واعني النجاح الذي حققناه في المزاوجة بين مدرستين تاريخيتين، الأولى لها من التجربة والخبرة الكثير والتنوع في مجال الكتابة التاريخية (واعني المدرسة التاريخية العراقية)، والأخرى هي مدرسة اختط لها مسارها وديناميكيتها من روح نوفمبر العظيمة(واعني بها المدرسة التاريخية الجزائرية). وهنا سجلنا سبقا في هذا الاتجاه، ولن نجعلها محاولة لتنتهي، وإنما سنحاول في القادم، إن قرب أو بعد، طرح قضايا أخرى للنقاش المشترك والكتابة بها، وذلك حرصا منا على أن قضايانا هي واحدة ومشتركة.

ولابد من الإشارة هنا، من أن هذا الكتاب يمثل حلقة في سلسلة الجهود التي نبذلها في نطاق التعريف بالتاريخ الجزائري، ولكننا هنا نؤكد إننا لا ننكره ما يقوم به الآخرين من جهد، إلا أننا حاولنا من خلال هذه الجهود السماح للجميع أن يكون له دورا في توثيق هذا التاريخ، والذي يزدحم بالإحداث الجسام وفيه من المآثر والبطولات كتب بدماء الشهداء، الذين نذروا أرواحهم من اجل جزائر حرة آبية. فلا يحق لنا التقاعس والتكاسل في التعريف بها واستظهاره من بين صفحات التاريخ، لكي يعرف الأحفاد ما سطره الأجداد.

وأخيراً، نقدم هذا الجهد المتواضع، خدمة لوطننا العزيز، الذي يحتاج في هذا الوقت بالذات إلى تلاحم أبنائه ونخبه الفكرية والسياسية والاقتصادية، والمؤرخون أحد هذه النخب المهمة، التي ينتظر الوطن منهم مزيداً من الجهود والدراسات الأكاديمية الجادة .

والله ولي التوفيق

أ.د. علي العبيدي

تلمسان في 2019

المحور الأول

التاريخ الوسيط للجزائر
الحقبة الزيانية

دور البعث الثالث للدولـة الزيانية
بين الهيمنة الاجنبية والسيادة المحلية

د.علي عشي
جامعة باتنـــة 1

مقدمة:

كان الدور الثاني(749هـ/1348م-753ه/1352م) لانبعاث الدولة الزيانية كالوميض الذي انبعث من جذوة كانت نهايتها الانطفاء وقد يبدو هذا الدور التاريخي في البداية غير مؤهل لهذه التسمية بسبب قصر الفترة التي استغرقها وهي أربع سنوات فقط، ولكنه في الحقيقة جدير بها، لأنه يختلف عن الدور الاول:

- كونه بدأ بعد فترة زمنية دامت تسع سنوات انتهت خلالها دولة بني عبد الواد [1].

- انتقال الحكم الى فرع جديد من بني عبد الواد لا ينتمي تسلسليا الى السلطان عثمان بن يغمراسن بن زيان[2] كما هو الحال في الفرع الأول الذي حكم الدولة بل يرجع إلى أخيه الأكبر أبي يعقوب يحي بن يغمراسن، وبذلك يلتقي الفرعان في شخص يغمراسن مؤسس الدولة [3].

- كما يمتاز هذا الدور بكون الدولة قد زالت من الساحة لمدة سبع سنوات.
- إن شكل النظام في الدور الثالث يختلف كثيرا عما كان عليه خلال الدور الثاني.

- رغم قصر مدة هذا الدور إلا أن كان يمتاز باستقلال تام عن نفوذ الدولتين المجاورتين "المرينية والحفصي" سياسيا ودينيا إذ كان السلطان العبد الوادي أبو سعيد عثمان في هذه الفترة لا يلتزم بالولاء لأحد غيره ولا يخضع لأي سلطان غير سلطانه [4].

أولا: التعريف بدور البعث الثالث للدولة الزيانية

وهو دور الأبهة والسلطان المطلق وشغل هذا الدور سلطان واحد فقط هو أبو حمو موسى الثاني الذي حكم من عام 760ه/1358 م الى سنة 791هـ/1389م). ويعتبر هذا الدور بمثابة الذروة من حيث النظم: السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية..وكذا الحال بالنسبة للسيادة المطلقة التي عرفتها الدولة في هذا الدور[5]. عرفت هذه الدولة بدولة بني عبد الواد، إلى أن غير اسمها السلطان أبو حمو(موسى الثاني) باسم الدولة الزيانية نسبة إلى زيان بن ثابت والد يغمرسن [6].

لقد بذل السلطان أبو حمو الثاني خلال هذا الدور طاقة جبارة كي يجعل من دولته منارا للعلم والأدب والفن في المغرب الإسلامي ولو حظي هذا السلطان بشيء من الاستقرار لوصل بدولته الى مراتب في منتهى الرقي والازدهار نظرا لما كان يتحلى به من علم وأدب وما لديه من طموح وحوافز تؤهله للنجاح في مهامه [7].

كانت أيام حكم أبي حمو الثاني حافلة بالاضطرابات حيث انقسم على أربع جبهات:فهو يحارب من جهة الدول المعادية، ومن جهة أخرى يقاتل القبائل المتمردة، ويخضع العمالات التي خرجت عن طاعة الدولة أيام المحنة، ومن جهة ثالثة يتصدى للفتنة التي أشعلها ابن عمه أبو زيان ابن ابي سعيد[8]، كما بقي يعالج عقوق ابنه وولي عهده أبي تاشفين عبد الرحمن الثاني

ثانيا: أركان الدولة الزيانية بين التوفر والغياب خلال دور البعث الثالث.

يشترط في الدولة بعض المقومات أو الأركان أهمها : الشعب وهو مجموعة من السكان يسكنون في إقليم الدولة تجمعهم روابط مختلفة، والإقليم وهو رقعة جغرافية معلومة الحدود يعيش بها الشعب معترف بحدودها من قبل الدول المجاورة، السلطة السياسية وهي الهيئة التي تنظم وتسير البلاد وقد تكون ملكية أو شورية أو وراثية، والسيادة: وهي قوة الدولة وتحكمها في شعبها وأقاليمها واعتراف الدول المجاورة لها بذلك [9].

أ- رقعة الدولة الزيانية بين التمدد والتقلص والاضمحلال:

لقد ذكر ابن خلدون أن إقليم الدولة وحدودها يسمح بفرض هيبة الدولة بقوله:"وقد بلغت الممالك حينئذ إلى حد يكون ثغراً للدولة، وتخماً لوطنها، ونطاقاً لمركز ملكها. فإن تكلفت الدولة بعد ذلك زيادة على ما بيدها بقي دون حامية وكان موضعاً لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور، ويعود وبال ذلك على الدولة، بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة" [10].

امتدت حدود المغرب الأوسط (وسط الجزائر وغربها حاليا)، [11] واختلف المؤرخون والرحالة في ضبط حدودها، إذ يقدم صاحب الاستبصار (6ه/13م) وصف دقيق لمدن المغرب الأوسط جاعلا نهر ملوية وجبال تازا حدا غربيا بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى "وآخر بلاد المغرب الأوسط وأوّل بلاد المغرب بلاد تازا وهي جبال عظيمة حصينة،"[12] أما الحدود الشرقية للمغرب الأوسط فهي غير مضبوطة وغير خاضعة لحاجز طبيعي يعتمد عليه في التقسيم،[13] يذكر ابن سحنون الراشدي الحد الشرقي من واد ملوية إلى بجاية [14]بينما يذكر المراكشي ت(894ه/1488م) مدينة قسنطينة كحد لبلاد المغرب الأوسط[15] .

أما مملكة بني زيان فلم تكن لها حدود مستقرة، بل كانت في حالة مد وجزر، تتوسع وتتقلص حسب الظروف السياسية وقـوة السلاطين واستعداداتهم العسكريـة وولاء القبـائل المجـاورة لهم[16] يحدهـا من الشمـال البحر الأبيض المتوسـط ومن الجنوب المفـاوز الفاصلـة بين المغرب وبـلاد السودان[17] ومن الغرب واد زاغ ونهر ملوية [18] الذي ينحدر قرب مدينة أون[19] ومن الشرق يحدها عن افريقية الواد الكبير،[20] تعددت المخاطر التي تحيط بالدولة الزيانية سواء من جيرانها أو الخطر القادم من وراء البحر بسقوط مملكة غرنـاطة ومساعي الأسبان لإخلاء بـلاد المغرب وإعمارها بالمسيحيين[21] .

عرفت حدودها من الجهة الغربية بعض الاستقرار بينما امتدت شرقـا منذ عهد أبو تاشفيـن الأول (718-737ه/318-1337م)[22]ووصلت مدينة تونس سنة (730ه/1329م) وهـزم ملكها أبويحي[23] وهذا تطبيقا لوصية جدهم يغمراسن وعُدّ أقصى اتساع لها، إذ أقام بها أربعين يوما ثمّ رحل عنها[24] كما ملك بنو زيان مدينة سجلماسة[25]باقليم تافيلالت إلى أن دخلها بنو مرين سنة (673ه/1274م)[26]غير أنّها عرفت في بعض الحالات تقلصا خطيرا اقتصرت على محيط قاعدتهم أي أنّهم يحكمون نظريا ما بين ذلك إنّما لا

يحكمون عمليا إلاّ تلمسان[27] وضواحيها من سواحل البحر على مقربة من مدينة الجزائر،[28]ففي معظم الأوقات أجبر بنو زيان على اتخاذ موقف دفاعي أثناء الهجومات المستمرة لبني مرين كما وقع في القرن (8ه/14م) باحتلال الجزء الأكبر من المملكة لعقود طويلة[29].

ب-قبائل الدولة بين الولاء والتمرد:

في كثير من الاحيان عامل العاهل الزياني شعبه بعقلية رئيس القبيلة رغم تسميه بألقاب مختلفة كالملك والسلطان، ومع هذا فقد بذل يغمراسن جهدا كبيرا لكي يرتقي بدولته، حيث يذكر ابن خلدون " ولبس شارة الملك والسلطان، واقتعد الكرسي ومحا من آثار الدولة المؤمنية، وعطل من الأمر والنهي دستها، ولم يترك من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلا الدعاء على منابره للخليفة بمراكش، وتناول التقليد والعهد من يده تأنيسا للكافة ومرضاة للأكفاء من قومه [30].

يمكن تصنيف قبائل الدولة أو ما يعرف بالشعب والرعية إلى عدة فئات حسب خضوعها لسلطة الدولة: الفئة الأولى وهي فئة الحكام والمؤلفين العاملين في جهاز الدولة. اما الفئة الثانية هي فئة الحضر (سكان المدن) ومنهم التجار وأصحاب الصنائع والخدم والعبيد بينما الفئة الثالثة: وهي فئة القبائل الرحالة عبر البوادي والأرياف والجماعات المحصنة في المناطق الجبلية الوعرة [31].

والدولة الزيانية كغيرها من الدول كانت تعتمد في وجودها على بعض القبائل القوية التي اقطعتها مساحات واسعة من الأراضي في المغرب الاوسط مقابل ولائها للدولة والحفاظ على أمنها، وبالتالي كانت لتلك القبائل تأثيرات خفية وغير مباشرة على النظام السياسي للدولة [32].

والقبائل السالفة الذر انقسمت بين مؤيد لبني عبد الواد ومنضوية تحت سيادتهم ومدافعة معهم وناصرتهم في مختلف الحروب ومنها: بني واسين، وأولاد منديل وكومية، وبني يلومي، وبني مانو وبني تغرين وهوارة وازداجة وبني ورنيد ووجديجن وغيرها؛ أما القبائل التي كانت تثور ضدها وتسبب لها القلاقل خاصة في فترة ضعفها منها: مغراوة وتوجين وصنهاجة، ومنها من تذبذف في موقفه كبني يفرن ومغيلة [33]. وكانت سلطة

الدولة متراخية اتجاه قبائل البادية وسكان الجبال، بخلاف سلطتها تجاه سكان المدن(الحضر) التي كانت تتميز بالقهر والسلطان [34].

ورعية الدولة الزيانية ممثلة بفئاتها السابقة الذكر هي مصدر الدولة ومعين ثرائها فهي تزود جيش الدولة الزيانية بالمقاتلين، ومنها تكسب الدولة خبراتها واداريها ومنها تأتي أموال الدولة وتعمر خزائنها بفضل الضرائب والجبايات وبفضل ما ينتجه أفراد الرعية من موارد فلاحية ومواد مصنعة...الخ [35].

ج-سيادة الدولة وتلاشيها:

أشار ابن خلدون الى موضوع السيادة والسلطة حين قال:" اعلم أن مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله أو ملاحة وجهه أو عظم جثمانه أو اتساع عمله أو جودة خطه أو ثقوب ذهنه، وإنما مصلحتهم فيه من حيث إضافتة إليهم، فإن الملك والسلطان من الأمور الإضافية، وهي نسبة بين منتسبين. فحقيقة السلطان أنه المالك للرعية القائم في أمورهم عليهم، فالسلطان من له رعية والرعية من لها سلطان" [36].

وقد عرفت الدولة العبد الوادية فترات زمنية تغير خلالها شكل سيادتها تدريجيا حتى اكتمل نهائيا في عهد أبي حمو موسى الثاني. حيث تأسست الدولة الزيانية فعليًا على يد يغمراسن بن زيان (633-681ه/1235-1282م) بتلمسان[37]وعمل على تنظيم الجيش وتدعيمه بعناصر من الروم والغز[38]للدفاع عن دولته الفتية، أما إداريا فقد استحدث مجلس وزاري لتسيير شؤون الدولة بعد ان ألغى سلطة الموحدين ولم يبقى لهم سوى الدعاء على المنابر[39]وتبادل الهدايا مع المأمون الموحدي[40]واتفقا على محاربة بني مرين بالمغرب[41]الأمر الذي أغاض منافسيه من زناتة إذ طلبوا مساعدة سلطان تونس[42]لغزو تلمسان، فكان ذلك سنة (639ه/1241م)،[43]استطاع يغمراسن الخروج من باب العقبة مع أولياءه ثم لجأ إلى جبل "بني يزناسن" وقيل "ترني" وخلا الجو لأبي زكريا ونظر فيمن يوليه على تلمسان فتدخلت الداهية السياسية "سوط النساء" (والدة يغمراسن) لإبرام الإتفاق بين يغمراسن ومنافسه الذي أعاده لحاضرته شرط الجباية، واضعا له منافسين من توجين ومغراوة كحد فاصل[44]. لم يُرضِي الإتفاق سلطان مراكش صاحب السلطة الشرعية[45]جعله يجرّ جيوشه ضد تلمسان سنة (646ه/1248)، فتحصّن يغمراسن بـ "تامزيزدكت"[46]واستطاع ابن خزرون يوسف من قتل السعيد وفرّ جنده كما استولى على ذخائره[47].

اضطر يغمراسن إلى القيام باثنين وسبعين حملة ضد بني مرين[48]إلى أن خلفه السلطان أبوسعيد عثمان الأوّل[49] (681-703ه/1283-1304م)، عرف عهده عدة ثورات مع القبائل ووزع دولته إلى مازونة[50]وتنس[(51)]لكن أعظم حدث هو الحصار الطويل من طرف السلطان أبو يعقوب يوسف(685-706ه/1286-1306م)[52] وبناءه لقصور[53]الملك بخارجها،[54]لكن لم تفتح أبوابها مدة فاقت ثماني سنوات [55].

فالفترة الأولى (فترة حكم يغمراسن بن زيان633ه/1235-681م/1282م [56]. وعثمان بن يغمراسن681-703ه/1303م) كانت الدعوة في منابرها للموحدين بمراكش أولا ثم بتونس ثانيا، الى أن ألغاها عثمان بن يغمراسن، لأن السيادة ضمن هذا الاطار كانت زمنية فقط وليست دينية، حيث ترك الجانب الديني لخلفاء الموحدين ثم الحفصيين [57].

فيغمراسن بن زيان اشترط عليه أبو زكريا الحفصي اعلان الدعوة له على منابر تلمسان فقال:" تلك أعوادهم يذكرون عليها من شاؤوا" [58]، ويقصد بذلك كون الحفصيين والموحدين عائلة واحدة وأنهم أصحاب الحق بالخلافة في المغرب الاسلامي والأندلس[59].

وهذا لا ينفي السيادة عن الدولة الزيانية باعتبار الامر سائدا في ذلك الوقت ضمن الدول الإسلامية حيث له دلالات دينية أكثر منها سياسية [60]، والدليل على ذلك تنازل الحفصيين منذ عهد أبي زكريا على جباية احدى مقاطعاتها"مملكة بجاية" لسلطان بني عبد الواد [61].

كما تبين بأن سيادة بني عبد الواد كانت محفوظة، رغم انها كانت تدعوا على المنابر للحفصيين، لأن مفقود السيادة يدفع الضرائب لغيره لا يجمعها، وجباية الأموال شرط من شروط السيادة وواحدة من خواص الملك والسلطان [62].

ومن هنا تتجلى المؤسسات السيادية للدولة الزيانية في العاهل وولي العهد والوزراء والحجاب والكتاب ورسوم تنظم الحكم بواسطتها، رغم بساطتها في بعض فتراتها [63].

د- السلطة الفردية ودورها في تثبيت دعائم الدولة:

يقول ابن خلدون:"إنما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجبي الأموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور، ولا تكون فوق يده يد قاهرة. وهذا معنى الملك وحقيقته في المشهور. فمن قصرت به عصبيته عن بعضها، مثل حماية الثغور أو جباية الأموال أو بعث البعوث فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته" [64].

حاول بني مرين اخضاع تلمسان لملكهم بالمقابل سعى الأمراء الزيانيون للإستقلال[65] حيث تولى أبو زيان محمد السلطة سنة (703-707ه/1303-1308م) في ظروف مأساوية، إذ فقدت الدولة الزيانية معظم املاكها باستقلال القبائل عنها ثمّ تعاونها مع أعداءها المرينيين،[66] فحاول إصلاح ما أفسدته الحرب،[67] خلفه السلطان أبوحمّو موسى[68] (707-718ه/1308-1318م)، الذي أقام عمود الملك بعد أن شارف على الهلاك فقارع الثوار واقتحم الأجناد والأغوار ثم حاول التوسّع لبجاية[69] وأخضع مغراوة وتوجين إلى أن تآمر عليه ابنه أبو تاشفين[70] (718-737ه/1318-1337م) وتمّ التحالف الحفصي المريني بعقد المصاهرة فاجتمعت الدولتان على بني زيان وسيطروا على هنين ووهران ودخلوا تلمسان (737ه/1337م) وقتل أبوتاشفين مع أبناءه ووزيره موسى بن علي الكردي[71].

بقيت تحت السيطرة المرينية وضمّ جيشها إلى جموع بني مرين واحتفظوا لهم بمكانتهم في القيادة، منهم أبوسعيد وأخوه أبوثابت،[72] الذين اغتنما فرصة اجتياح بني مرين لتونس بقيادة أبوالحسن[73] بانحيازهم إلى جانب العرب وجرّ الهزيمة عليه (749ه/1348م)[74] وبايعوا أبا سعيد بتحالف مغراوة وتوجين.

عّين أبوثابت مسؤولا عن الشؤون العسكرية وأمور الحرب[75] وقام بتوحيد السواحل وإلحاق الهزيمة بأبي الحسن ثم سيطرة ابنه أبوعنان[76] على عرش بني مرين وكان صاحب أطماع كأبيه، فالتقى مع الجيش الزياني في معركة واد القصب سنة(753ه/1352م) فتم أسر الأمير عثمان وبه احتلت تلمسان واندثرت دولة بني عبد الواد للمرّة الثانية[77] .

لم تتجاوز فترة الدعوة للحفصيين سبعة وستون سنة وهي مدة صغيرة مقارنة بعمر الدولة العبد الوادية، بل هي الفترة الاولى من حياتها، حيث تلتها فترات أخرى تطورت خلالها نحو السيادة المطلقة التي تتميز بالسلطتين الزمنية والدينية[78].

وخلال الدور الثاني من حياة الدولة أي من سنة707ه/1307م باعتلاء أبي حمو موسى الأول عرش تلمسان الى سنة 753ه/1352م بسقوط تلمسان في قبضة أبي عنان المريني على أن تحذف منها 12 سنة كانت ربوع الدولة خلالها محتلة من قبل المرينيين، فخلال هذه المرحلة سجلت نظم الحكم عامة والنظان السياسي خاصة في دولة بني عبد الواد تقدما ملموسا، حيث انتقلت تلك النظم من المرحلة البسيطة الى مرحلة أخرى أكثر تقدما

ورقيا وذلك بفضل الاصلاحات التي أدخلها السلطان أبو حمو موسى الأول على نظم دولته [79]، وبفضل الخطوات الهامة التي خطاها أبو تاشفين الأول في تطوير الدولة [80].

ويتميز هذا الدور عما سبقه بأنه شهد استفحال سلطان بني عبد الواد واتساع نطاق نفوذه شرقا حتى شمل تونس في عهد أبي تشفين الأول وفي بداية هذه المرحلة بالذات ألغيت دعوة الحفصيين من منابر تلمسان واقتصر الدعاء على السلطان العبد الوادي فقط [81].

ثالثا: دور البعث الثالث على يد أبوحمّو[82]:

هذا الدور يبدأ من بعث الدولة من جديد بثوب ذي أبهة وتعال، فبينما اكتف سلفهم بنظام الامارة والسلطان وألقابهما قفز أبو حمو الثاني الى نظام الخلافة والتلقيب بألقابها، إذ بويع منذ اليوم الأول لدخوله تلمسان كخليفة في الدولة العبد الوادية

ان فترة حكم عثمان بن يغمراسن وابو زيان محمد وأبو حمو موسى الاول وأبو تاشفين عبد الرحمن الاول وأبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن، هذه الفترة تقدر ب ثلاثة وخمسون سنة حيث تبدأ من عام700ه/1300 وتنتهي 753ه/1352م بسقوط تلمسان في أيدي المرينيين، وفقدان سيادتها واستقلالها [83].

لقد فقدت الدولة الزيانية سيادتها من سنة 737ه/1336م الى سنة 749ه/1348م بعد سقوطها في قبضة السلطان المريني أبي الحسن، لكن خلال هذه الفترة حدث تطور في شكل سيادتها، إذ أصبحت الدولة خلالها لا تذكر على المنابر غير سلطانها، رغم أن أمر السلطة الدينية لم يضيفوها لأنفسهم ولا نسبوها لغيرهم [84].

أما الفترة الثالثة التي مثلها السلطان أبو حمو موسى الثاني(760/1358م-791ه/1389م) فقد اكتمل بناء الدولة الزيانية في شكلها المثالي، حيث نصب أبو حمو خليفة للمسلمين، بذلك اصبحت سيادة الدولة مكتملة الأطراف فلم يعد لأي دولة خارجية تأثير يذكر على دولة بني عبد الواد سواء كان ذلك ضمن طابع ديني أو طابع دنيوي [85].

قضى عل الحامية المرينية وأعاد مجد أجداده[86]بمساعدة عرب زغبة وتصاعد الحماس بموت السلطان أبوعنان[87]فافتك وهران ثم ابرم الصلح مع بني مرين تأمينا لظهره[88]وتوجه ناحية الشرق بغية القضاء على إمارة الثعالبة[89]بمتيجة وشيّد قرية آقبو

بضفة واد الصومام،[90]لكن بتطاوله إلى مدينة فاس فتح باب الحروب من جديد علاوة على ذلك خروج الأمراء عليه بالخصوص ابنه أبوتاشفين الثاني وتحالفه مع عرب سويد وبني مرين الذين زوّدوه بجيوش عظيمة فقضى عليه(791ه/1359م)[91]في وقعـة الغيـران بجبل بني ورنيد[92].

وقد ذكر التنسي عن أبي حمو الثاني "ولما استقر المولى أبو حمو من هالة في نصابها، وانتزع دولته من يد غصابها، ساس أهل مملكته بالسيرة الحسنى، وغمر الرعية قسطاس عدله الأسنى، وقسم أوقاته بين حكم يقضيه وحق يمضيه، وعاق يرضيه، وسيف لحماية الدين ينضيه، وجفن عن عوراء الأمة يغضيه، وسبيل إلى .رضاء الله تعالى ورسوله يفضيه" [93].

وخلال فترة حكم أبو حمو موسى الثاني انفرد بالسلطة السياسية وجمع معها السلطة الدينية وأصبحت سيادة وسلطة الدولة الزيانية مكتملة الاطراف كما أن العامل الديني أخذ يلعب دورا كبيرا في نظام الحكم خلال هذه الفترة وأصبح السلطان بذلك يمثل السلطة الدينية المعلن عنها والسلطة الزمنية التي لا تخفى عن أحد [94]. أي أن الدولة الزيانية عرفت منذ نشأتها تطورا تدريجيا في نظمها، فبينما كانت في عهد يغمراسن في طور النمو والتأسيس، وصلت في عهد أبي حمو موسى الثاني الى درجة لابأس بها من الرقي [95].

هذا وقد تعرضت دولة أبي حمو الثاني لهزات خطيرة كادت تقضي على كيان الدولة نهائيا، وكانت نهاية أبي حمو موسى الثاني خلال معركة دارت بينه وبين بني مرين وحليفهم أبي تاشفين، وابنه العاق[96].

الخاتمة:

إن الدور الرابع هو دور الانحدار والسقوط ودام 171 سنة أي من 791ه/1389م الى سنة 962ه/1554م سنة انهيار الدولة العبد الوادية وزوالها نهائيا على يد خيرالدين بربروس [97].

وخلال الفترة الرابعة فقد ذبلت وأفلت سيادة الدولة الزيانية رغم المدة الطويلة لهذا العهد الذي استغرق 171 سنة والذي يبدأ باعتلاء أبي تاشفين عبد الرحمن الثاني عرش تلمسان سنة 791ه/1389م الى سقوط الدولة الزيانية في ايدي العثمانيين أي سنة 962ه/1554م

يمثل هذا الـدور بدايـة مرحلة الضعف، حسب الضريبة التي تدفع لبني مرين [98]وثورة أبوزيـان والي الجزائـر ضد أخيه مطـالبا بدم أبيه، لمّـا استعصى عليه الأمر استنجد بملك المغرب ووعـده بالمسـاعدة، حتى علـم بوفاة أبي تاشفين وتعيين صبي صغير من أبنـاءه فاغتاظ لهذا الأمر والي الجـزائر المعروف بابن الزابيـة[99]فسار إلى القضاء على الصبي المكفول، ممّـا أثـار الإضطراب وسـط الرعيـة وتجـدد الأطماع المرينيـة[100]الأمر الذي شجع التدخـل الحفصي الثاني بعد ضعـف الدولة المرينيـة واحتلـت تلمسـان (827ه/ 1424م)[101]واستـولى السلطان أبوفارس عزوز[102]على جميع ما فيها[103].

ومن خلال هذا العرض يتضح ضعف هذا الدور رغم طول فترته الزمنية فبمجرد قتل أبي حمو الثاني وتولي ولده أبي تاشفين الحكم في تلمسان تحت الوصاية المرينية، أصبحت سيادة الدولة بعد ذلك ناقصة وتابعة للدولة المرينية حينا وللدولة الحفصية حينا آخر الى سقوط الدولة النهائي.

ومع ذلك فقد تخللت هذا الدور فترات قصيرة حظيت فيها الدولة بلاستقلال المطلق، بل استطاعت الدولة في عهد السلطان أبي مالك عبد الواحد بن أبي حمو الثاني(الذي اعتلى الحكم في تلمسان سنة 814ه/1411م) على انتزاع المناطق الشرقية للجزائر من يد الحفصيين، وكذلك تمكن هذا السلطان من احتلال فاس(عاصمة المرينيين) حيث نصب من قبله حاكما يدين بطاعة الدولة العبد الوادية [104].

كانت الدولة العبد الوادية خلال هذه الفترة تحت رحمة الدولتين المرينية حينا والحفصية حينا آخر باستثناء عهد السلطان أبو مالك عبد الواحد بن أبي حمو الذي دام حكمه 13 سنة تمكن خلالها من تعزيز سلطانه ونشر سيادة الدولة ووضع حدا لتدخل المرينيين في تلمسان [105].

أفل نجم بني زيان بعد عمر قدر بحوالي 327 سنة وسط تكالب جيرانها على أراضيها، إلّا أنّها استطاعت الصمود بفضل قوّتها العسكرية وحنكة أمراءها، بداية من يغمراسن مثبت الملك ثم أبوتاشفين الأوّل وأبوحمّو موسى الثاني، مجدد الملك وباعث الثقافة

بذل بعض حكام هذا الدور كأبي مالك وابن الحمرة والعاقل مجهودا كبيرا لتحقيق الاستقلال لدولتهم، فاجتهدوا في الذود عن سيادتهم ولكن الاطماع والانشقاقات العائلية

كانت هي العدو الأكبر لدولة بني عبد الواد، بحيث أضعفتها تلك الخلافات ومكنت الاعداء من السيطرة عليها وبالتالي إملاء شروطهم [106].

ولقد وصل الانحلال والتفكك بالدولة العبد الوادية خلال هذا الدور حدا لا يوصف من جراء خلافات الأمراء وتآمرهم على بعضهم بعضا، حتى أضحى السلطان يحكم لعدة أيام أو لنقل لعدة أشهر، مثل أبو زيان الثالث حكم عدة أسابيع، كما حكم أبو ثابت بن أبي تشفين الثاني أربعين يوما فقط، وعبد الرحمن بن أبي محمد (ابن خولة) حكم شهرين لا غير، والسعيد بن أبي حمو الثاني خمسة أشهر [107].

الهوامش:

1. بنو عبد الواد من الطبقة الثانية من قبيلة زناتة البربرية، اشتهروا بالفروسية والرعي عاشوا حياة البداوة والترحال، يجوبون صحراء المغرب الأوسط بحثا عن المراعي الخصبة، تمتد مواطنهم من تاهرت إلى نهر ملوية وهم ينتمون إلى فرع بني واسين، احدى بطون زناتة، لهذه الطبقة بطون عديدة منها: بنو مرين، بنو عبد الواد وبنو توجين .ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ضبط المتن والحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000،ج7، ص4.

وبني عبد الواد نسبة لجدهم "عابد الوادي" كان يتبتل بواد. عبد الرحمان بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان الجزائر، دط، 2009 م، ج 2، ص20 .

ينقسم بنو عبد الواد إلى عدة بطون ذكر ابن خلدون ت (808ه/1406م) بنو ياتكين بنو وللّو، بنو تومرت، مصوجة، بنو ورسطف، بنو القاسم، يجتمعون مع بني مرين في شجيح، يعتقد أنهم كانوا في جملة الجيوش التي قادها عقبة بن نافع في زحفه نحو المغرب (62ه/682م)، استقـرو بالجنوب الوهراني إلى أن هاجمهم الغزو الهلالي من زاب قسنطينة. الوزان (حسن بن محمد ليون الإفريقي، ت 960ه/1252م): وصف افريقيا، ترجمة محمد حاجي، محمد الاخضر، دار الغرب ألإسلامي لبنان، ط2، 1983، ج2، ص7 .

2. ولدسنة (605ه/1206م)، بويع بعد أخيه عرف بدهاءه وشجاعته ومكارم أخلاقه، وايثار ذوي الفضل والعلم، من اشدّ بني عبد الواد بأسا ومهابة واعرفهم بمصالح قبيله، مؤسس ملك بني زيان، توفي أثناء العودة من عرس ابنه(681ه/1282م) وكانت ولايته 44 سنة وخمسة أشهر واثنا عشر يوم، يتهمه ابن الأحمر بالجبن وذلك لولاءه لبني مرين، في حين يمدحه ابن الخطيب قائلا :

أوّل ملاكهـــــم يغمـــــور   ليث الثرى والبطل المشهـور
لاقى الجموع من بني مرين   كالليث يحمي جانب العرين

ينظر: الإحاطة في اخبار غرناطة، تحقيق محمد بن عبد الله عنان، ط2، الخانجي، مصر، 1973، ج1، ص363.

3. بوزيان الدراجي: نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، ديوان المطبوعات الجامعية، 1993، ص33-34.

4. ابن خلدون: العبر، ج7، ص239، 244-252.

5. بوزيان الدراجي: نظم الحكم، ص34.

6. عثمان سعدي: الجزائر في التاريخ من العصور القديمة وحتى سنة1954 ، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1 ، 2011، ص333.

7. بوزيان الدراجي: نظم الحكم، ص34.

8. وهو أبو زيان محمد بن عثمان بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن كان في سجن السلطان المريني أبي عنان منذ الاطاحة بدولة أبيه أبي سعيد عثمان، وعمه أبي ثابت ولما استفحل أمر أبي حمو موسى الثاني أخرجه السلطان أبو سالم "الذي خلف أبا عنان" من السجن وجهزه لفتنة ابن عمه في تلمسان. بوزيان الدراجي: نظم الحكم، ص35، هامش2.

9. الجرف طعيمة: نظرية الدولة والاسس العامة للتنظيم السياسي، مكتبة القاهرة الحديثة، ط1، 1969، ص52.

10. ابن خلدون: المقدمة، تحقيق عبد السلام الشدادي، خزانة ابن خلدون، بيت العلوم والآداب والفنون، الدار البيضاء، ط1، 2005، ج1، ص273.

11. الوزان، المصدر السابق، ص8 .

12. مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار تعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ص176 .

13. خالد بلعربي: الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، ط1، دار الألمعية، الجزائر، 2011، ص41 .

14. ابن سحنون (أحمد بن محمد بن علي الراشدي، ت 1424ه /2003م): الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص477 .

15. (1)المراكشي،عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الاندلس الى اخر عصر الموحدين،تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي، ط1، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1368هـ/1948م، ص225.

16. مارمول كرفجال: افريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف، المغرب، 1984، ج1، ص303 .

17. السودان أرض واسعة ينتهي شمالها إلى أرض البربر وجنوبها إلى البراري وشرقها إلى الحبشة وغربا إلى البحر المحيط وهي أراضي محترقة لأثر الشمس الكبير واهلها عراة لا يلبسون من شدة الحر، منهم مسلمون وكفار، أرضهم منبت الذهب، ينظر القزويني (أبو عبد الله زكريا بن محمود، ت 628ه/1230م): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر،لبنان، 1960، ص24.

18. الوزان:المصدر السابق، ج2، ص7 ؛ ومارمول، المصدر السابق، ص231 .

19. مارمول: المرجع السابق، ص291، والسلاوي، أبو العباس احمد : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق محمد الناصري وجعفر الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1418هـ/ 1997 م، ج2، ص76.

20. هو واد الصومام، ينظر، الوزان: المصدر نفسه، ص7 .

21. ابن سحنون، المصدر السابق، ص17 ؛ وعمر سعيدان: علاقات اسبانيا القطلانية بتلمسان، ط1، منشورات سعيدان، تونس، 2002، ص7

22. ولد (692ه/1293م)، بويع بعد وفاة أبيه، قتله السلطان أبو الحسن المريني في (737ه/1337م) .

23. محمد عبد الله التنسي: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان وهو مقتطف من نظم الدر والعيقان في بيان شرف بني زيان، تحقيق وتعليق محمد بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص149 .

24. [1]هوارية بكاي: العلاقات الزيانية المرينية، مذكرة ماجستير، اشراف بودواية مبخوت، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2008، ص13 .

25. بنيت سنة (140ه/741م) بها دور رفيعة ومنازل سرية، بنيت على أنقاض مدينة رومانية في الجنوب الشرقي لمدينة فاس، حكمها بنو زيان خمسة عشر سنة، ينظر اسماعيل العربي: المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص122-123-124-125...130 .

26. ابن خلدون: المصدر السابق، ص114.

27. بكسر التاء وسين مهملة، من لفظين تلم وسان بمعنى تجمع بين البر والبحر، تقع أربعة درجة طولا والعرض ثلاثة وثلاثون درجة واثنان وأربعون دقيقة، مدينة جليلة، تقع أوائل الإقليم الرابع، غير اسمها من تاجرارت إلى تلمسان، لها ثلاثة عشر بابا وهي قاعدة بني عبد الواد، ينظر ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، ت 300ه/967م): المسالك والممالك، مطبعة بريل، لندن، 1889، ص88 .

28. أحمد توفيق المدني:حرب الثلاثمائة سنة بين اسبانيا والجزائر (1492-1792)، ش ون ت، الجزائر، د ت، ص93 .

29. ج ت نيابي: تاريخ افريقيا العام من القرن 12 إلى القرن 16م، اليونيسكو، لبنان، 1988، مج4، ص107 .

30. ابن خلدون: العبر، ج7، ص106.

31. بوزيان الدراجي: نظم الحكم، ص39.

32. المرجع نفسه، ص40.

33. عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ج1، ص16.

34. بوزيان الدراجي: نظم الحكم، ص40.

35. نفسه، ص41..

36. ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص323.

37. مختار حساني: تاريخ الدولة الزيانية، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009، ج1، ص9.

38. ابن خلدون: المصدر السابق، ص106 ؛ مجهول: زهرة البستان في دولة بني زيان، تقديم محمد بن احمد باعلي، ط1، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ج2، ص51 .

39. محا أثار الدولة المومنية وعطل الامر والنهي باسمها ولم يترك من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلاّ الدعاء على المنابر للخليفة بمراكش. ابن خلدون: نفسه، ص106 .

40. حكم المأمون الموحدي (640-646ه/1242-1248م).

41. ابن خلدون: المصدر السابق ج6، ص390 .

42. هو السلطان أبو زكريا الحفصي (627-647ه/1228-1249م) .

43. يختلف المؤرخون حول تاريخ الحادثة يذكر ابن خلدون وابن أبي دينار سنة639 ه بينما ابن مرزوق (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر التلمساني،ت 781ه/1379م)، ينفرد بذكر سنة (646ه/1241م) المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهري، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 2008، ص172.

44. ابن خلدون: المصدر السابق،ج7، ص108؛ الزركشي (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم، ت 894ه/1488م): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضود، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966، ص29 ؛ التنسي، المصدر السابق، ص115 .

45. محمد رمضان شاوش: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، د م ج، الجزائر، 2011، ج1، ص69

46. تقع بجبل بني سنوس غرب تلمسان، شيدت على صخرة وجعله ملوك تلمسان في حالة تأهب دفاعي،ينظر الوزان، المصدر السابق، ص11-12 ؛ مارمول، المصدر السابق، ص293 .

47. التنسي: المصدر السابق، ص118.

48. شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، ط 4 الدار التونسية 1983، ج1،ص202 .

49. ولد عام (639ه/1241م) بويع بتلمسان (681ه/1282م)، توفي أثناء الحصار(703ه/1303م) وله 55 سنة ودولته 12سن، ينظر وابن الأحمر: تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، بور سعيد، مصر، ط 1، 2001، ص61 .

50. بناها الرومان على نحو أربعين ميلا من البحر، تحيط بها أسوار متينة، تعرضت لتخريب ملوك تونس. ينظر الوزان: المصدر السابق، ص36 .

51. بناها الأفارقة في منحدر جبل على مقربة من البحر، خضعت لملك تلمسان، ينظر، الوزان: نفسه، ص35 .

52. ابو يعقوب يوسف بن يعقوب المنصور، موطد الدولة المرينية، ينظر ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص550 .

53. على نحو 4كلم غرب تلمسان، من بناء السلطان يوسف سنة(702ه/1303م)، جعلها معسكرا لجنده وقاعدة للتوسع على بني عبد الواد سماها محلة المنصورة أوتلمسان الجديدة، عرفت ازدهار عمراني واقتصادي، هدمها ملوك تلمسان انتقاما لحصارهم، ينظر الجزنائي (أبو الحسن علي، ت 766 ه/1374 م)، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب منصور، ط 2، المطبعة الملكية، المغرب، 1991، ص82؛ محمد عياش: الإستحكامات العسكرية المرينية من خلال مدينتي فاس الجديد والمنصورة بتلمسان، مذكرة ماجستير في الآثار ألإسلامية اشراف صالح يوسف بن قربة، جامعة الجزائر، 2006، ص69 .

54. ابن الخطيب: رقم الحلل في نظم الدول، مطبعة تونس، تونس، 1934، ص72 .

55. مختار حساني: المرجع السابق، ص72 .

56. كان يغمراسن، وأبو حمو موسى الثاني الأكثر أهمية، بالنظر إلى ما اتسم به كل منهما من خصال حميدة وسمعة طيبة وذلك حسب ما جاء في كتاب" تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرو العقيان في بيان شرف بني زيان "لمحمد بن عبد الله التنسي عن" يغمراسن "بأنه " أول من قام بوظيفة الملك، ونظم درره بعد التفرق في أوثق سلك، وأحي من خلافة آبائه رسما كان دارسا، وأيقظ من الدولة الحسنية جفنا طال ما كان ناعسا، الملك الهمام الأسد الضرغام، فخر الملوك وتاج الأعيان :أمير المسلمين أبو يحي يغمراسن بن زيان، نهض فاستولى وحل من تراث آبائه في الملك، فكان خليفة الله المرتضى، وسيف حمايته المنتضى، شرق بشروق ولايته ملوك المشرق والمغرب...بويع في سابع عشر جمادى الأخيرة من سنة سبع وثلاثين وستمائة". محمد بن عبد لله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرو العقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياد، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص289.

57. بوزيان الدراجي: نظم الحكم، ص41-42.

58. ابن خلدون: المقدمة، ج2، ص54.

59. خدم بنو عبد الواد الدولة الموحدية ثم استقلوا عنها بالمغرب الأوسط واتخذوا تلمسان قاعدة لهم. التنسي: المصدر السابق، ص109-110 .الزياني (أبو القاسم محمد بن أحمد، ت 1249ه/1833م): الترجمانة الكبرى، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، ط1، دار العلم، المغرب، 1991،ص70؛

Berge , labb , complement de l'histoire de Beni_Zeiyan ; Roi de Tlemcen , Dar alif , 2011 , p21

يذكر يحي بن خلدون ت(780ه/1378م)، أن عبد المومن بن علي استنجد بشيخ قبيل بني عبد الواد " أبو محمد عبد الحق" لرد أمواله وغنائمه التي استولى عليها بنو مرين وتمكن من ردّها.

60. دعا للحفصيين كل من حكام اشبيلية وسلطان غرناطة وألمرية وطنجة وسبتة وسجلماسة وبن مرين –في عهد يعقوب بن عبد الحق- بالإضافة الى بني عبد الواد وحتى أهل الحجاز بايعوا المستنصر بالله . بوزيان الدراجي: نظم الحكم، ص43، هامش 1.

61. حددها يحي ابن خلدون ببمائة ألف دينار. بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، مطبعة بيير فونطانا الشرقية، الجزائر، 1903، ج1، ص113؛ ومحمد عبد الله التنسي: المصدر السابق، ص113.

62. ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص285.

63. بوزيان الدراجي: نظم الحكم، ص50.

64. ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص322.

65. يحي بوعزيز : الموجز في تاريخ الجزائر، د م ج، الجزائر، 2007، ص224 .

66. مختار حساني: المرجع السابق، ص72 .

67. ابن خلدون: المصدر السابق، ص130 .

68. أبيض اللون، تعلوه صفرة قوية، مجدد الملك، تآمر عليه أعوانه وقتل من طرف ابنه (718ه/1318م) ودولته 21 سنة، ينظر ابن الخطيب، الإحاطة، مج1، 382؛ وشكيب أرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ط1، المطبعة الرحمانية، المغرب، 1936، ج1، ص327 .

69. التنسي: المصدر السابق، ص132 .

70. دولته 19 سنة قتل على يد أبو الحسن علي، ينظر أبو زكريا، نفسه، ص132-133 . ابن الأحمر:نفسه، ص62

71. ابن الخطيب: رقم الحلل، ص73؛ والتنسي: المصدر السابق، ص146؛ والسلاوي: المصدر السابق، ج2، ص61 .

72. حكما بين (794-753ه/1349-1352م)ابن الأحمر:المصدر السابق، ص74 ؛ والتنسي: نفسه، ص150 .

73. حكم ما بين (732-749ه/1131-1348م) ابن الأحمر: نفسه، ص74 .

74. ابن خلدون: العبر، ج7، ص154 .

75. ابن خلدون: المصدر نفسه، ص154 ؛ والتنسي: المصدر نفسه، ص152 .

76. ولد(724ه/1324م)وبويع(749-759ه/1348-1358م)، شخصية سياسية وعسكرية، ينظر: النميري (ابن الحاج ابراهيم بن عبد الله، ت (678 ه/1366م):فيض العباب وافاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة محمد ابن شقرون، ط1، دار الغرب الإسلامي، المغرب، 1990، ص221 ؛ إبن خلدون يحيى، المصدر السابق، ج2، ص19.

77. التنسي: المصدر السابق، ص151.

78. بوزيان الدراجي: نظم الحكم، ص44.

79. يقول عبد الرحمن ابن خلدون في أبي حمو الأول "وهو أول ملوك زناتة. رتب مراسم الملك وهذب قواعده، وأرهف لذلك لأهل ملكه حده، وقلب لهم مجن بأسه، حتى دلوا لعز الملك وتأدبوا بآداب السلطان. سمعت عريف بن يحيى أمير سويد من زغبة وشيخ المجالس الملوكية لزناتة يقول، ويعنيه: موسى بن عثمان هو معلم السياسة الملوكية لزناتة؛ وإنما كانوا رؤساء بادية حتى قام فيهم موسى بن عثمان، فحد حدودها وهذب مراسمها" ابن خلدون: العبر، ج7، ص131-132.

80. بوزيان الدراجي: نظم الحكم، ص53.

81. نفسه، ص53.

82. أبوحمو موسى بن أبي يعقوب يوسف بن عبد الرحمن ابن يحي بن يغمراسن، ولد بغرناطة (723ه/1323م)، تميّز بالدهاء وحسن التدبير، دخل تونس(753ه/1352م) وقام بجمع أفلال عشيرته، شاعر فصيح قُتل سنة (792ه/1389م) ودولته 31 سنة، ينظر التنسي: المصدر السابق، ص157؛ المقري (أحمد بن محمد التلمساني، ت 1401ه / 1631 م): أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، 1940، مج2، ص37 ؛ عبد الحميد حاجيات: أبوحمو موسى الزياني، حياته وآثاره، ش ون ت، الجزائر، 1974، ص69؛ وزهير احدادن: معجم مشاهير المغاربة، جامعة الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، لجزائر، 1995، ص 147.

83. بوزيان الدراجي: نظم الحكم، ص44..

84. المرجع نفسه، ص45.

85. المرجع نفسه، ص45.

86. الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحي، ت 914ه/1308م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والمغرب، دار الغرب الإسلامي، المغرب، 1981، مج12، ص174 .

87. محمد عيسى الحريري: تاريخ المغرب والأندلس في العصر المريني، دار القلم، الكويت، 1987، ص123 .

88. شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص206 ؛ وحاجيات، المرجع السابق، ص103.

89. عبد الحميد حاجيات: المرجع السابق، ص136 .

90. المرجع نفسه، ص104 .

91. ابن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص182 ؛ التنسي: المصدر السابق، ص181 .

92. يقع على بعد ثلاثة أميال من تلمسان وهو اسم لأحد بطون زناتة، ينظر ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص151 .

93. التنسي: المصدر السابق، ص111.

94. بوزيان الدراجي: نظم الحكم، ص45

95. كانت نظم الدولة الزيانية أرقى من نظم الدولة المرينية وهذه الخلاصة وصل اليها الباحثون السابقون ومنهم جورج مارسي G.Marçaisخلال دراسته Le Makhzen des Beni Abd-AL-Wad Rois de Tlmcenبوزيان الدراجي: نظم الحكم، ص51.

96. بوزيان الدراجي: نظم الحكم، ص34.

97. المرجع نفسه، ص35.

98. التنسي: المصدر السابق، ص180 .

99. أبو الحجاج يوسف بن أبوحمّو (795-796ه/1393-1394م)، نفسه، ص209 .

100. عبد العزيز الفيلالي: المرجع السابق، ج1، ص69 .

101. التنسي: المصدر السابق، ص241 .

102. أبو فارس ابن أبي العباس أحمد (786-788ه/1384-1386م) وكان على تلمسان أحمد العاقل (834-866ه/1431-1462م) الذي توسط بالشيخ ابركان أن يتدخل لدى سلطان تونس لإبرام الصلح وتجنب الغزو، ينظر ابن الأحمر: المصدر السابق، ص17 من مقدمة التحقيق .

103. الزركشي: المصدر السابق، ص126 .

104. بوزيان الدراجي: نظم الحكم، ص35.

105. المرجع نفسه، ص46.

106. بوزيان الدراجي: نظم الحكم، ص36.

107. المرجع نفسه، ص36.

إمدادات الدولة الزيانية لمملكة غرناطة
خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي

(دراسة تحليلية من خلال معطيات رسائل ديوانية)

د. حفصة معروف
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

ما من شك أن التضامن الإسلامي بين المسلمين فريضة شرعية، بيد أنه في بعض الظروف يصبح قضية مصير، ويكون السعي إليه والالتزام به ضرورة وجود، وفي مثل الظروف المعقدة والصعبة التي نشأت وتطورت فيها مملكة غرناطة خاصة ما يتعلق بإحاطة النصارى بها من كل جانب متحيّنين الفرص للإجهاز عليها، فإنّ الواجب الإسلامي فرض على دول المغرب الإسلامي مد يد العون لها من أجل الصمود والبقاء. وقد أدرك بنو زيان ضرورة التضامن مع إخوانهم بني نصر في غرناطة، فرغم الظروف السياسية التي مرت بها دولتهم، فإن المصادر حفظت لنا صورا عن الدعم الزياني لمملكة غرناطة، ويأتي في مقدمة هذه المصادر الرسائل الرسمية الصادرة عن الديوان النصري.

فما هي طبيعة الإمدادات الزيانية لمملكة غرناطة التي أشارت إليها هذه الوثائق الرسمية؟ وما مدى تأثير الصراع السياسي الإقليمي الدائر بين دول الغرب الإسلامي على حجم واستمرارية هذا المدد؟وماهي النتائج الإيجابية التي حققتها هذه المساعدات على أرض في الأندلس؟

1. الأوضـاع العامـة في مملكـة غرناطـة والدولـة الزيانيـة خـلال القـرن 8ه/14م:

يمكن إجمال الوضع العام في كلا الدولتين، مملكة غرناطة في الاندلس والدولة الزيانية في المغرب الاوسط بما يلي:

- تذبذب العلاقات النصرية المرينية رغم الدعم الكبير الذي كانت تقدمه الدولة المرينية لغرناطة وهذا بسبب تدخل هذه الأخيرة في شؤون سبتة وبسبب منطقة الثغر المريني بالأندلس وعدم رضى النصريين عن الجوازات المرينية في بعض المرات؛ ففي عهد السلطان أبي سعيد عثمان (710-731ه/ 1310-1330م) صمم المرينيون على دعم نفوذهم بالثغر المريني بالأندلس مع شن الغارات على الأراضي القشتالية، وكان ذلك سنة 711ه/ 1311م، غير أن أسطولهم تعرض للهزيمة في المضيق أمام الأسطول القشتالي [1]، وقد استغلت غرناطة هذه الهزيمة وأجبرت السلطان المريني في 712ه/ 1312م على التنازل لها عن ممتلكاته شمال المضيق (الجزيرة ورندة). كما تمردت سبتةالعزفية ضدهم وساهمت في نشاط القرصنة ضد السفن النصرانية[2]بافريقية في نهاية سنة 715ه/ بداية 1316م، وقد تمكن المرينيون من استرجاعها وإخضاعها لحكمهم المباشر ووضع نهاية لسيادة العزفيين عليها التي دامت حوالي 70 سبعين سنة[3].

- تدهور الأحوال السياسية في غرناطة خلال عهد الأمير "محمد ابن أبي الوليد " المعروف بمحمد الرابع (725-733ه/1325-1333م)، والذي كان فرصة بالنسبة لمملكة قشتالة خاصة بعد استقرار أحوالها للملك ألفونسو الحادي عشر[4]، حيث أخذت تطمح إلى تشديد الخناق على النصرين، فإلى جانب سيطرتها جبل الفتح وماحوله من الحصون والذي كان بمثابة باب لوصول الإمدادات المرينية، بدأت تشن الغارات على شرق الإمارة واستولت على أهم المدن بها [5]، وهذا ما فرض التعاون بين المرينيين والنصريين ضدّ قشتالة، حيث تنازل ابن الأحمر للمرينيين عن بعض مدن المضيق[6] سنة 727ه/ 1327م والذي عزز النفوذ المريني في المنطقة خصوصا بعد استرجاع جبل الفتح من يد القشتاليين آخر سنة 733ه/ 1333م.

- عدم استقرار الأمور في الدولة الزيانية فقد عانت كثيرا من موقعها الوسط بين الدولتين الحفصية شرقا والمرينية غربا، وعرفت تراجعا كبيرا في كثير من المراحل، فقد

تعرضت أكثر من مرة للزوال على يد المرينيين، خلال القرن8ه/14م في إطار مشروع هؤلاء لتوحيد بلاد المغرب، حيث زالت من الوجود (ماعدا مدينة تلمسان) في مطلع القرن 8ه/14ه على يد السلطان أبي يوسف يعقوب(685-706ه/1286-1306)، ثمّ زالت ما بين 737-749ه/1336-1349م على يد السلطان أبي الحسن علي(731-752ه/1330-1351م)، وكذلك سنة 753ه/ 1352م على يد السلطان أبي عنان فارس(749-759ه/1348-1358م)، وتكررت بشكل متقطع ومحدود نسبيا خلال ما بقي من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. كما حدث أن قطعت تلمسان التبعية للحفصيين نهائيا[7] بعدما كانت خاضعة للتبعية الإسمية لهم[8] حسب تدل على ذلك مجموعة من الرسائل[9] مستغلة بذلك التقارب الذي حدث بينها وبين أمراء بجاية المنفصلين عن السلطة الحفصية من جهة وتحريض الحفصيين للمرينيين على غزو بجاية من جهة ثانية ، وما ساعد الزيانيين على هذا الانفصال هو تمكنهم من إخضاع بعض القبائل[10] التي كانت تشكل حاجزا لهم في اتجاه الشرق، بالإضافة إلى انتهاء الحصار المريني عليها.

2. عرض وتقديم الرسائل :

أ. تعريف الرسائل الديوانية وأهميتها التاريخية:

يعرف ابن خلدون الرسائل الديوانية فيقول أنها : « تعني المخاطبات لمن بَعُد عن السلطان، وتنفيذ الأوامر فيمن حجب عنه»[11][11] ، في حين أنّ القلقشندي أعطى لها مفهوما أكثر وضوحا وتفصيلا إذ يذكر أن المراد بكتابة الانشاء « كل ما رجع إلى صناعة الكتابة وإلى تأليف الكلام، وترتيب المعاني، من المكاتبات والولايات والمسامحات، والاطلاقات ومناشير الاقطاعات، والهُدف، والأمانات والأيمان وما في معنى ذلك»[12]

يمكن أن نجمل مفهوم الرسائل الديوانية بأنها نوع من أنواع فن الرسائل وهي تلك الكتب الواردة عن ديوان الانشاء، متضمنة غرضا محددا، يكون فيها اسم السلطان أو ما ينوب عنه صريحا أو ما يشير إليه باعتبارها صادرة عنه وبأمره، كما تتضمن اسم المرسل إليه صريحا باعتباره المقصود بهذه الرسالة[13]، كما تتضمن تاريخ الإرسال وختم السلطان[14]؛ وكانت الرسائل تصدر عن ديوان الخليفة أو الملك يوجهها إلى ولاته وعماله وقادة جيوشه، أو إلى نظرائه من السلاطين والملوك، بل وإلى أعدائه أحياناً منذراً متوعداً،

وقد كان لكل خليفة أو ملك كاتبه الذي يتولى الكتابة عنه في كل مهام الدولة وشؤونها من رسائل ومنشورات وعهود ومبايعات وغيرها، ولم يكن يرقى إلى منصب الكتابة لدى الخلفاء والملوك إلا كبار الأدباء والشعراء في عصرهم[15] .

تعد الرسائل مصادر قيمة تؤرخ للدولة من جوانب متعددة خاصة ما يتعلق بسياستها الخارجية وعلاقاتها الخارجية، وعلى الرغم من أن كل رسالة تكتب في أمر ما وغاية محددة، لكنها تتميز بكونها شاهد عصر تنبض بالحياة، حيث تختص بمواضيع مختلفة كالتهاني والشكر على الهدايا والتعازي، كما تلقي الضوء على مجموعة من الحوادث التاريخية التي نستخلص منها قضايا الأحداث التاريخية وجملة من الجوانب الحضارية كالجانب الإداري، وأسلوب الحكم، كما تبرز خط ير المجال الاقتصادي والعلاقات الخارجية مع الدول المختلفة في حالتي السلم والحرب معا[16].

ب. التعريف بكاتب الرسائل: لسان الدين ابن الخطيب (ت.776ه)

لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني ابن الخطيب أحد أعلام القرن الثامن الهجري البارزين، ولد بمدينة لوشة[17]سنة 713ه/ وسط عائلة مرموقة، إذ كان أبوه في خدمة السلطان النصري أبي الحجاج يوسف(733-755ه/1333-1354م). تلقى دراسة متنوعة في الطب والفلسفة والشريعة والآداب، وكان بروزه في النظم والنثر حتى قال فيه معاره وصديقه عبد الرحمن بن خلدون أنه "آية من آيات الله في النظم والنثر والمعرف والآداب لا يُساجَل مداه"[18]، دخل في خدمة الحاشية السلطانية بعد استشهاد أبيه في معركة طريف[19]سنة 741ه/ 1340م كأمين سر الوزير الكاتب أبي الحن ابن الجياب، وبعد وفاة هذا الأخير بالطاعون سنة 749ه/1348م حل محله في الوزارة والكتابة لدى السلطان أبي الحجاج. وازداد ابن الخطيب حظوة لدى السلطان محمد الخامس المعروف بالغني بالله، حيث كان سفيرا له عند السلطان أبي عنان المريني أواخر سنة 755ه/1354م يستنجده ضد القشتاليين، ولما وقعت الثورة على الغني بالله استمر ابن الخطيب في منصبه مدة يسيرة، ثم أعتقل وصودرت أملاكه إلى أن تشفع السلطان المريني أبو سالم بن أبي الحسن له ولسلطانه المخلوع، فانتقل معه إلى المغرب، حيث التقى هناك بعبد الرحمن بن خلدون. وبعد استعادة الغني بالله لعرشه في غرناطة سنة أواسط سنة 763ه/1362م استدعى ابن الخطيب، فكان له دور مهم؛ إلا أنّ احتكاره

لأمور الدولة وقربه من السلطان أثار ضدّه حسّاده إلى أن توقع الشر منه فاتصل بالسلطان المريني أبي فارس عبد العزيز(767-774ه/1366- 1373م) من أجل الالتحاق بالمغرب وقد الديار المقدسة، فغادر الأندلس سنة 772ه/1371موتبعته السعايات إلى المغرب لكنها لم تؤثر في السلطان أبي فارس الذي ظل حاميا له، وظل كذلك حتى في عهد ابنه من بعده السلطان أبي زيان رغم استبداد الوزير بالأمر[20]، غير أن الانقلاب الذي حدث ضد السلطان أبي زيان لصالح الأمير أبي العباس ابن أبي سالم سنة 776ه/ 1375م المدعوم من السلطان النصري الغني بالله أدى إلى اعتقال ابن الخطيب ثمّ تدبير مقتله في نفس السنة .

ج- بيانات حول تاريخ الإرسال وأطرافه:

الرسالة الأولى: مؤرخة في سنة 751ه/1350م

المرسل: السلطان النصري أبي الحجاج يوسف (733-755ه/1333-1354م).

المرسل إليه: السلطان الزياني أبي سعيد عثمان (749-753ه/1348-1352م)

الموضوع: رسالة من إمارة غرناطة تفيد بوصولإمدادات غذائية من الدولة الزيانية إلى الأندلس.

ب.الرسالةالثانية: مؤرخة في سنة 751ه/1350م

المرسل: السلطان النصري أبي الحجاج يوسف (733-755ه/1333-1354م)

المرسل إليه: السلطان الزياني أبي سعيد عثمان (749-753ه/1348-1352م)

الموضوع: رسالة من إمارة غرناطة تفيد بوصولدفعة من الخيل من الدولة الزيانية إلى الأندلس.

وردت هاتين الرسالتين ضمن كتاب ابن الخطيب :"ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب"، وقد قام الدكتور أحمد عزاوي بنشرهما ضمن كتاب "الغرب الإسلامي خلال القرنين 7و8ه دراسة وتحليل لرسائله"، حيث جمع وحقق فيه عدد كبير من رسائل الغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجريين والتي كانت متناثرة في كثير من المصادر . ويمكن القول أن كلا الرسالتين هما رسالتين جوابيتين لأخرى بعثت بها الدولة الزيانية مع

المندوب المكلف بإيصال هذه الامدادات؛ وإذا كانت الرسالة الثانية أشارت إلى رسالة زيانية استلمها السلطان النصري لم تصل إلينا، فإن الرسالة الأولى لم تشر في مضمونها إلى تسلمه لمكتوب مع هدية حصة الخيل، لكن فرضية أن المندوب كان ينقل رسالة شفهية واردة وبشكل كبير، حيث يرى أحد الباحثين أنّ الرسائل الديوانية الصادرة عن الحضرة لم تقتصر على الرسائل المكتوبة فحسب، بل كان هناك رسائل شفوية ينقلها مندوبو السلطان وسفراؤه إلى الدول الأخرى، لذلك فالرسالة الشفوية هي كذلك رسالة ديوانية، وإن لم تكتب، باعتبارها صادرة عن السلطان[21].

3. تحديد طبيعة الإمدادات:

جاء في الرسالة الأولى : «...فإنه ورد على بابنا فلان... صادرا عن جهتكم الرفيعة...، فحضر بين أيدينا... ووصل صحبته ماحمّلتم جفنه من الطعام برسم إعانة هذه البلاد الأندلسية، والإمداد الذي افتتحتم به ديوان أعمالكم السنية... وأخبر أن ذلك إنما هو رشة من غُمام وطليعة من جيش لُهام، ورفد من عُدد وبعض من مدد، وأنّ عزائمكم في الإعانة والإمداد على أولها، ومكارمكم يُنسي الماضي بمستقبلها... فليست إعانة هذه البلاد الجهادية ببدع من مكارم جنابكم الرفيع... فقد علم الشاهد والغائب... ما تقدم لسلفكم في هذه البلاد من الإرفاق والإرفاد، والأخذ بالحظّ الموفور من المدافعة والجهاد، وأنتم أولى من جدّد عهود قومه...»[22]

أما الرسالة الثانية: «...وفي هذه الأيام وصلنا كتابكم صحبة الخيل الذي تفضلتم بإهدائها، وسلكتم بها سبل الملوك مع أودّائها؛ فكرم عندنا موقه ودكم، وواصلنا الثناء على أصالة مجدكم، وقلنا: فضل صدر عن محله، وبرّ جاء من أهله، وإمداد أتى من عنصر الإمداد، وإعانة ولت من مكان الإعانة والإرفاد والمعاضدة في سبيل الله والجهاد، وماجد سلك سبيل سلفه الأمجاد...»[23]

يتضح وبشكل صريح من خلال ما جاء في الرسالتين وصول إمدادات متنوعة أرسلتها الدولة الزيانية لمملكة غرناطة بالأندلس، تمثلت الأولى في مواد غذائية دون تحديد طبيعتها، أما الثانية فهي حصة من الخيل. وما من شك وفي مثل الظروف التي كانت تعيشها مملكة غرناطة من حالة الحرب شبه الدائمة مع قشتالة، فإن المواد الغذائية

المرسلة من الدولة الزيانيةكانت عبارة عن مواد أساسية مثل الحبوب لأنها كانت موجهة للجيش المحارب، وما يؤكد صحة هذه الفرضية هو ما أشارت إليه الرسالة نفسها حيث جاء فيها«... وسنّى الله سبحانه بين يدي وصول ما به تفضلتم، وفي سبيله بذلتم، أن فتح جيشنا حصنا من الحصون... فجعلنا من ذلك الطعام الذي وجهتم طعمة حماته، ونفقات رجاله ورماته، اختيارا له في أرضى المرافق من سبل الخير وجهاته»[24] أما حصة الخيل المشار إليها في الرسالة الثانية، فالأكيد أنها ليست للنزهة والترفيه، بل لتدعيم الجيش، لكن سلطان غرناطة قد أخبر في نفس الرسالة السلطان الزياني المهتم بأحوال الأندلس بأنه عقد صلحا مع مملكة قشتالة« ولم يتزيد عندنا ما نطالع به مقامكم الرفيع لما نعلمه من تشوفكم لأحوال المسلمين بهذا القطر... إلا أننا فقدنا في هذه الأيام الفارطة السلم مع سلطان قشتالة... »[25].

ويبدو جليا من خلال هذه المادة المصدرية التي زودتنا بها الرسالتين أن تضامن الدولة الزيانية مع مسلمي غرناطة لم يكن عسكري ميداني كالمشاركة في القتال أو غير ذلك، بل كانت المساهمة إنسانية بدافع ديني[26]، وهي ارسالامدادات متنوعة يحتاجها الجيش أثناء الحرب سواء في ساحة القتال أو تحت وقع الحصار. وهذا بطبيعة الحال يعكس لنا الحالة السياسية غير المستقرة للدولة الزيانية التي تحول دون إرسال جيوش للقتال كما هو الحال بالنسبة للدولتين الحفصيةوالمرينية[27]، لكنها تؤكد المدد الزياني لمملكة غرناطة كان وظل متواصلا كلما كانت ظروف الدولة مناسبة وما يؤكد ذلك هو الإشارة المصدرية التي زودنا بها يحي بن خلدون حول رسالة نصرية تؤكد المشاركة الميدانية لبعض القوات الزيانية في معارك غرناطة بالأندلس وكذلك إمدادات متنوعة من سلاح ومؤن كان لها عظيم الأثر سيأتي الحديث عنها [28].

4. أسباب وخلفيات هذه الإمدادات:

- تضامن اسلامي حقيقي أم تأثير صراع :

يعد التضامن الاسلامي بين بلاد المغرب والأندلس حقيقة قائمة في الكثير من المراحل، فطالما أدركت الحكومات الإسلامية المغاربية بالخطر المحدق بالمسلمين في الأندلس، فهبت لنجدتهم في مختلف الظروف والمراحل مجسدة بذلك أقوى صور التضامن ولعل معركة

الزلاقة479ه/ 1086م[29] أيام حكم المرابطين خير مثال على ذلك، وفي مثل الظروف التي نشأت وعاشت فيها مملكة غرناطة من إحاطة الممالك الاسبانية بها من كل جهة متحينين الفرص للإجهاز عليها، كان الواجب الإسلامي يفرض على بنى زيان أن يكونوا عند حسن ظن اخوانهم وأن يمدوا لهم يد العون . وفي الحقيقة فإن مسألة التضامن مع مسلمي غرناطة لم تقتصر على الدولة الزيانية فقط، فرغم أن المغرب الإسلامي كان مقسما إلى ثلاث دول متنافسة ومتصارعة فيما بينها، لكنها كانت مستوعبة ولو بدرجات متفاوتة الوضع الخطير الذي آلت إليه الأندلس فأخذت على عاتقها لواء التضامن والجهاد لنصرة المسلمين، وهذا انطلاقا من إيمانهم الإسلامي وواجبهم التاريخي من جهة ومن التحديات المفروضة عليهم التي جعلتهم يدركون أن الخطر سيمتد إليهم كذلك. ولا يمكن في هذا المقام أن نتجاهل الصراع السياسي القائم بين هذه الدول حول أحقية الخلافة من جهة وبين مدّ النفوذ والسيطرة على أكبر قدر من الأراضي ومدى تأثيره على حركية المدد والدعم للأندلس، حيث تنافس سلاطين الدول على الظهور بمظهر الوصي الشرعي على مسلمي الأندلس وإرث الدولة الموحدية، فقد تحرك الأسطول الحفصي في محاولة فاشلة لفك الحصار عن مدينة بلنسية التي أعلنت بيعتها للحفصيين[30]، كما أرسلت الدولة الكثير من الإمدادات الغذائية والعسكرية لبعض المدن الأندلسية التي أعلنت بيعتها للسلطان الحفصي[31].

كما تحملت الدولة المرينيةعبئا كبيرا في الجهاد والذَّبِّ عن حمى الاسلام والمسلمين بالأندلس في وقت ازدادت فيه حركة استردادالممالك الاسبانية للمدنالاسلامية في الأندلس وشمال المغرب الأقصى الأمر الذي أدى إلى تنازل ابن الأحمر له عن الجزيرة الخضراءمن أجل تنظيم عمليات العبور العسكري[32]، فأصبحت نواة لما يمكن تسميته بالثغر المريني الذي امتد إلى منطقتي طريف ورندة[33]؛ وقد آلت الأوضاع إلى التأزم أكثر في حالات عدم رضى غرناطة على جوازات المرينيين إلى الأندلس التي أصبح بنو الأحمر كثيرا ما يتضايقون منها، لهذا مالوا إلى التحالف مع القشتاليين[34] كلما عزم هؤلاء على الحركة للأندلس بغير رضى منهم[35].وما يؤكد تأثير الصراع على عمليات الإمداد والمساعدات وتصنيف هذا الأخيرة في دائرة التنافس وتخليد الأثر، نجد مثلا الدولة الزيانية التي شهدت انبعاثا جديدا، قام سلطانها أبو حمّو موسى الثاني(760-791ه/1359-1389م) في سنة 763ه/1361م بإرسال "خمسين ألف قدح من الزرع وثلاثة آلاف دينار من الذهب للكراء

عليه في البحر"[36]، وقد أنشد الفقيه أبو محمد عبد العزيز بن علي بن يشت[37] الذي رفع قصيدة بهذه المناسبة إلى السلطان الزياني مطلعها[38]:

عرجْ على الدارِ من سلْمى نُحيّيها | واستوقِفِ العِيسَ في أطلال ناديها
وَ نَادِ يا دَارَهـا بِالجَزْع مِنْ كَثَـبِ | حَيّيتِ من دِمْنَةٍ رَاقَتْ مَغَـانِيهَـا

ورغم التطاحن الذي كان بين هذه الدول واستعانتها بالنصارى في هذا الصراع في كثير من الأحيان لا يمكن أن ننكر مظاهر التعاون والاشتراك بينها في المجال الحربي من أجل مد الدعم للأندلسوالوقوف أمام زحف الممالك الاسبانية، وقد حدث هذا بطبيعة الحال في فترات التوافق السياسي بينها وازدياد حدّة الخطر النصراني المشترك، وتعد معركة "الملند" البحرية حسب التسمية الواردة في المصادر العربية[39] يوم السبت 6 من شوال 740ه/ أفريل1340م[40] من أهم مظاهر التلاحم والتعاون بين الأساطيل الاسلامية وأحد أشهر المعارك البحرية الاسلامية التي حقق فيها المسلمون انتصارا باهرا بفضل تعاونهم وتلاحمهم من أجل مواجهة الخطر المشترك، حيث تحالفت غرناطة مع الدولة الحفصيةوالمرينية ضدتحالف الممالك الإسبانية المتمثلة في قشتالةأراغون، ميورقة، والبرتغال[41]وهذا بعد سيطرة الدولة المرينية على تلمسان والقضاء على الدولة الزيانية بشكل مؤقت.

- **طلبات الاستغاثة:**

أدركت غرناطة منذ نشأتها خطورة الأوضاع والأخطار المحدقة بها، ولهذا لم تتردد في طلب النجدة من الدول الزيانية أيام قوتها وذلك عندما ازدادت الظروف صعوبة وخطورة، ففي سنة 767ه/1365م تحركت الكنيسة بثقلها لمحاولة حسم الصراع السياسي داخل مملكة قشتالة[42] لصالح الأميرإنريك[43] أخ ملك قشتالةبيدرو الأول[44]، حيث وجه البابا في روما نداء إلى أهل ملّته لمحاربة الملك بيدرو الذي كان على علاقة طيبة مع مسلمي غرناطة ومن ثم استباحة دماء المسلمين في مملكة غرناطة، فوجّه السلطان الغرناطي الغني بالله[45] نداءً إلى إخوته في الاسلام بني زيان ليهبّوا لنصرة إخوانهم في الأندلس، وكان النداء من نظم الشيخ الفقيه "أبي البركات محمد بن ابراهيم البلفيقي"[46]، ومما جاء فيه[47]:

هَلْ مِنْ مُجِيبٍ دَعْوَةَ المُسْتَنْجِدِ أَمْ مِنْ مُجِيرٍ لِلْغَرِيبِ المُفْــــرَدِ
هَلْ مِنْ وَلِّيٍّ نَاصِرِ دِينَ الهُــدَى أَوْ ذِي حِمَى يَحْمِي حَنِيفَةَ أَحْمَدِ

وبرفقة تلك القصيدة رسالة من إنشاء الوزير لسان الدين بن الخطيب مؤرخة في شهر رمضان 767ه/ ماي 1366م وممّا جاء فيها: " وبالله سبحانه نستدفع ما لا نطيق، وبالله ندرا في نحور هذا العدد الكبير، وبالله نستظهر على هذا الخطب العظيم، ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[48]، ولا مفزع بعد الله لهذه الأمة في الشدائد إلاّ إخوانهم في الدين ...وقد كنّا عجلنا تعريفكم وتعريف الجهة المرينية خروجا عن العهدة وإبلاغا لضرورة الإسلام، وتذكيرا بوجوب الإعانة على من يرجو لقاء ربه من المسلمين، فصدر الجواب منهم بما يرضي القلوب من الإعانة والامتعاض، والمساهمة والشروع في المبادرة وتعيين المعونة، والله لا يضيع ﴿ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا ﴾[49]؛ ومثلكم من يتنافس في الخير.. ويرغب في بقاء الذكر "[50]، ولقد كان لهذا النداء أكبر الأثر في تحريك الهمة الاسلامية في قلب السلطان الزياني أبي حمّو، وعلق على ذلك يحي بن خلدون بقوله: "فامتعض خليفة -الله أيده الله- لدين الاسلام، واستفزته أريحية الشجاعة وعطفته على غرباء المسلمين بالعدوة؛ رحم الملة؛ وحجزه البحر الزاخر عن الوصول إليهم بنفسه؛ فأمدهم -في سبيل الله- بالأحمال العديدة؛ من الذهب، والفضة، والخيل المسومة، والمراكب المشحونة زرعا، أجزل الله ثوابه"[51].و ويجب الإشارة أن غرناطة لم توجه طلبات النجدة للدولة الزيانية فقط، فقد سجلت لنا المصادر الكثير من النداءات خاصة في فترات الوفاق السياسي بينها وبين أحد الأطراف،، حيث شهد مطلع القرن 8ه/ 14م توالي الإمدادات الحفصية لمملكة غرناطةوالتي تضمنت المال والسلاح والغذاء، وكان ذلك نتيجة للتواصل السياسي والمراسلات المتبادلة بين الطرفين؛ وفي ذلك يقول شاعر السلطان النصري من قصيدة مطولة في مدح السلطان الحفصي"أبي عبد الله محمد ابن الواثق الملقب بأبي عصيدة" (694-709ه/1295-1309م)[52]:

وَلْتَفْخَـرْ أَنْدَلُسُ أنهـــــــا بِعَدْلِهِ المَشْهُورِ دَارَ القَـــــــرَارْ
بِسَعْدِهِ دَانَتْ لَها تُونُـــسَ فَاعْتَمَدَتْهَا بِالهَدَايَا الكِبَـــــــارْ
وَأَتْحَفْتَ قَوْلًا وَفِعْـــــــلًا بِمَا قَدْ أَلْبَسَ الأَعْدَاءَ ثَوْبَ الصَّغَارْ
وَخَلَّدْتَهُ أَثَرًا بَاقِيًـــــــا مُشْتَهِرًا فِي الأَرْضِ أَيَّ اِشْتِهَـــارْ

أما ما بتعلق بالمرينيين، فقد توصل السلطان المريني أبي يوسف يعقوب(656- 685ه/ 1258-1286م)برسالة من أمير غرناطة محمد الثاني المعروف بالفقيه (671-701ه/1273-1302م) يحبب إليه الجهاد في الأندلس بمثل هذه العبارة:" فإن شئت الدنيا فالأندلس قطوفها دانية.. وإن أردت الآخرة فجهاد لا يفتُر"[53]، وكان الردّ بالإيجاب مع تحديد تاريخ الجواز "عند انصرام شهر المحرم من سنة أربع وسبعين وستمائة"[54]، وفي أواخر سنة 732ه/1332متوجه سلطان غرناطة محمد بن اسماعيل (725-733ه /1325- 1333م) بنفسه مستنجد ابالمرنيين وذلك عقب احتلال القشتاليين لجبل الفتح، فأرسل معه السلطان المريني أبي الحسن (731-752ه/1330-1351م) قوة عسكرية متكونة من أربعة آلاف مقاتل بقيادة ابنه الأمير عبد الواحد ومعهم الطعام والمال والعدة. كما تلقت الدولة المرينية طلبا بالمدد من بني الأحمر لدعم القوات في جبل الفتح المتوجهة لاسترجاع الجزيرة الخضراء من يد القشتاليين[55].

4. أثر الإمدادات الزيانية والنتائج التي ساهمت بها:

مهما يكن من أمر المساعدات وشكلها، فقد كان لها الأثر الإيجابي في تدعيم قوة بني نصر العسكرية، ففي سنة 767ه/1366م اتفق السلطان محمد (الغني بالله) وأعضاء دولته على البدء في شنّ الحرب وإطلاق الغارات على الممالك الإسبانية من جميع الجهات[56]، وأمر بتحصين الثغور استعدادا لصد هجمات مملكة قشتالة وأرغون اللتين أصبحتا متحديتين في الهدف بعد طرد الملك القشتاليبيدرو الأول استجابة لنداء البابا.

في شهر شعبان من نفس السنة 767ه/1366م هاجم السلطان الغرناطي حصن برغة[57] والذي كان سقوطه في أيدي النصارى سببا في قطع الاتصال بين مسلمي رندة وإخوانهم في بقية المدن الغرناطية، ففتحه المسلمون بعد قتال عنيف، وطُهرت مساجد الحصن من الصلبان وزينت بآيات من القرآن الكريم[58].

في أواخر شهر رمضان من نفس السنة فتحوا حصن آشر[59] بالقوة بعد معركة شديدة قادها سلطان غرناطة بنفسه، ثمّ توجه إلى سهل قرب جبل طارق فتمكن من السيطرة على قراه واشتركت في هذه المعارك قوات من دولة بني زيان ساهمت في التعجيل بالانتصار[60]. وحسب رسالة نصرية فإنه في أوائل شهر رمضان من سنة 768ه/ 1367م

هاجم الجيش الغرناطي بقيادة السلطان محمد الغني بالله مدينة أطريرة[61] القريبة من إشبيلية والتي كان أهلها قد قتلوا أسرى المسلمين الذين أطلق سراحهم الملك بيدرو الأول، وحاصرها الجيش الغرناطي وإلتحموا مع النصارى في معركة ضارية هزم فيها النصارى حيث إلتجأوا إلى قصبة المدينة ونزلوا قسرا على حكم السلطان الغرناطي، وبلغ عدد أسرى النصارى خمسة آلاف أسير[62]؛ ثمّ عقد السلطان محمد الغني بالله العزم على تحرير الجزيرة الخضراء وطرد النصارى منها، ودخلها المسلمون بقيادته، ولم يلبث أن أمر بتدميرها خوفا من عودة النصارى إليها حيث أصبحت خاوية كأن لم تكن بالأمس[63]. كما شن الجيش الغرناطي بقيادة هذا السلطان حملات على مملكة قشتالة كان من أهمها الاستيلاء على مدينة قرمونة[64] . ويرى أحد الباحثين أن الأسباب المهمة في هذه الانتصارات هو الدعم والتضامن الاسلامي المقدم من بني زيان لمملكة غرناطة ولاسيما في فتح الجزيرة الخضراء[65] والتي كان لبني زيان اليد الطولى فيها ممثلين في سلطانهم أبي حمّو موسى الزياني الذي خاطبه الوزير ابن الخطيب بقصيدة يشكره فيها على تضامنه مع مملكة غرناطة وفي ذلك يقول:

لَقَدْ زَارَ الجَزِيرَةَ مِنْكَ بَحْـــرٌ *** يَمُدُ فَلَيْسَ نَعْرِفُ مِنْهُ جـــزرَا
أَعْدْتَ لَهَا بِعَهْدِكَ عَهْدَ مُوسَى *** سَمِيِّكَ فَهِيَ تَتْلُو مِنْهُ ذِكْـــرَا
أَقَمْتَ جِدَارَهَا وَأَفَدْتَ كَنْـــزَا *** وَلَوْ شِئْتَ اِتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرَا[66]

كما دوّن ابن الخطيب أبياتا شعرية يصف فيها الدعم الزياني الكبير الذي قدمه السلطان أبو حمّو الزياني بقوله[67]:

أَنْتَ الذِي افْتَكَ السَفِينَ وَأَهْلَـــهُ   إِذَا أَوْسَعَتْ سُبُلَ الخَلاَصِ طُمُوسَا
أَنْتَ الذِي أَمْدَدْتَ ثَغْرَ اللهِ بِالصَـ   دَقَاتِ تُبَلِـسُ كَرَّةَ إِبْلِيسَـــــــا
وَأَعَنْتَ أَنْدَلُسَا بِكُلِ سَبِيكَــــةٍ   مَوْسُومَةٍ لَا تَعْرِفُ التَدْلِيسَـــــا
إِنْ لَمْ نَجُرْ بِهَا الخَمِيسَ فَطَالَمَا   جُهَزَتْ فِيهَا للنُوَالِ خَمِيسَــــــا
وَمَلَأْتَ أَيْدِيهَا وَقَدْ كَـادَتْ عَلَـى   حُكْمِ القَضَاءِ تُشَافِهُ التَفْلِيسَــــا

لكن مع نهاية القرن8ه ومطلع القرن9ه (14-15م) ومع اشتداد العدوان النصراني على مملكة غرناطة وكذا الضعف الذي انتاب مملكة بني زيان وعدم توفر المصادر التاريخية فإن ستارا من الظلام يحيط بتلك الفترة،

ونظرا لهذه الإمدادات المتواصلة[68] وتدعيم الدولة الزيانية لثورات المسلمين في قشتالة وإقليم مرسية، فقد تحالفت أرغون مع قشتالة، وتحرك الأسطول الأرغوني لضرب سفن المسلمين في البحر لإحتمال أنها تحمل المتطوعين أو الدعم لأهل مرسية[69].

في ختام القول نستنتج أنه رغم الظروف غير المستقرة التي مرت بها الدولة الزيانية وحالات الانهيار المتعددة التي أصابت حكمهم وبالضبط خلال القرن 8ه/14م، لكن ذلك لم يمنع بنو زيان من لعب دور فعال في الأندلس ومدّ يد العون لمسلمي غرناطة، ورغم الخلفيات السياسية التي حركت العمليات في كثير من المراحل، لكن لا يمكن أن ننكر الدافع الديني والتضامن الإسلامي الذي كان المحرك الأساسي .

ملحق رقم(1)

راسالة تشير إلى وصول إمدادات غذائية

من الدولة الزيانية إلى الأندلس [70]

المقام الذى تجدّدت بسعادته[1] دولة أسلافه، وانتسق بها قولها[2] بعد اختلافه، وعاد العِقْد إلى انتظامه، والشّمل إلى ائتلافه، مقام ولينا فى الله، الذى هيأ الله له من جميل صنعه أسبابا، وفتح به من مُبْهَم السعد أبوابا، وأطلع منه فى سما قومه شهابا. وصَفِيّنا الذى تسهب القول فى شكر جلاله ووصف خلاله إسهابا، السلطان الكذا أبى سعيد عثمان ابن الأمير أبى زيد ابن الأمير أبى زكريا ابن السلطان أبى يحيى يغمراسن بن زيّان، أبقاه الله للدولة الزيّانية، يزين بالأعمال الصالحة أجيادها، ويملك بالعدل والإحسان قيادها، ويجرى فى ميدان النّدى، والبأس، ووضع العرف بين الله والناس جيادها. سلام كريم، كما زحفت[1] للصباح شُهب المواكب، وتفتحت على نهر المجرّة أزهار الكواكب، ورحمة الله وبركاته.

أمّا بعد حَمْدِ الله جامع الشّمل بعد انصداعه وشَتاته، وواصل الحبل بعد انقطاعه، وانْبِتاته، سبحانه لا مبدل لكلماته[2]، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله، الصّادع بآياته[3] المؤيد ببيّناته، الذى اصطفاه لحمل الأمانة الكبرى[4]، وحباه بالقدر الرفيع والمحل الأسنى، والله يعلم حيث يجعل رسالاته. والرضا عن آله وأنصاره وحزبه وحُماته، المتواصلين فى ذات الله وذاته، القائمين بنصر دينه وقهر عداته. فإنّا كتبناه إليكم، كتب الله لكم سعداً ثابت الأركان، وعزًّا سامى[5] المكان، ومجداً وثيق البنيان، وصُنْعاً كريم الأثر والعيان. من حَمراء غَرناطة حرسها الله، والثقة بالله سبحانه أسبابها[6] وثيقة، وأنسابها عتيقة، والتوكُّل عليه لا تلتبس من مذاهبه[7] طَرِيقة، ولا تختلط منه بالمجاز حقيقة. وعندنا فى الاعْتِداد بكم فى الله عقودٌ مُبْرَمة، وآىٌ فى كتاب الإخلاص مُحْكَمة. ولدينا من السرور بما سناه الله لكم من أسباب الظهور الذى حُلَلَه مُعْلَمة، وحُجَجه البالغة مُسْلَمة، ما لا تفى العبارة ببعض حقوقه الملتزمة. وإلى هذا أيد الله سلطانكم، [وسَنَّى أَوْطَارَكم، ومهَّد أقطاركم][1]، فإننا ورد على بابنا فلان وصل الله كرامته، وسنَّى سلامته صادراً عن جهتكم الرفيعة الجناب[2]، السامية المراتب، طلق اللسان بالثنا بما خصّكم الله به من فضل

الشمائل ، وكرم المذاهب ، محدثاً عن بحر مكارمكم بالعجائب ، فحضر بين يدينا . ملقياً ما شاهده من ازديان المشاهد بتلك الإيالة ، واستبشار المعاهد بعود ذلك الملك الرفيع الجلالة . الشهير الأصالة ، ووصل صحبته ما حمّلتم جفنه من الطعام إغاثة لهذه البلاد الأندلسية ، والأمداد التي افتتحتم به ديوان أعمالكم السنية ، وأعربتم عمّا لكم في سبيل الله من إخلاص[3] النية . وأخبر أن ذلك إنما هو رشّةٌ من غمام وطليعة من جيش لُهام ، ورفدٌ من عُدد ، وبعضٌ من مدد . وإن عزائمكم في الإعانة والإمداد على أولها ، ومكارمكم تُنْسى الماضي بمستقبلها ، فأثنينا على قَصْدكم الذي لله أخلصتموه ، وهذا العمل البرّ [الذي][1] خصّصتُموه ، وقلنا لا يُنكر الفضل على أهله ؛ وهذا برٌّ صدر عن محلّه ، فليست إعانة هذه البلاد الجهادية ببدع من مكارم جنابكم الرفيع ، والإشارة فيها أسدى على الأيام من حسن الصّنيع . فقد علم الشاهد والغائب ، ولو سكتوا ، أثنت عليك الحقائب ، ما تقدم سَلَفكم [في هذه البلاد][5] من الإرفاق والإرفاد ، والأخذ بالحظ الموفور من المدافعة والجهاد ، وأنتم أول من جدّد عهود قومه ، وكان غَدُه في الفخر أكبرُ من يومه . وقد ظهر لله في جبر [تلك][6] الإيالة الربّانية نتيجة تلك المقدمات ؛ وعرفت بركة ما أسلفته من المكرمات ، وسنّى الله سبحانه بين يدي وصول ما به تفضلتم ، وفي سبيله بذلتم ، أن فتح جيشنا حصناً من الحصون المجاورة لغربي مالقة ، يعرف بحصن قنيط ، من الحصون الشهيرة المعروفة ، والبقع المذكورة بالخِصْب الموصوفة ، دفع الله مضرّته عن الإسلام وأهله ، ويسّره[1] بمعهود فضله . فجعلنا في ذلك الطعام الذي وجهتم ، طُعْمة حماته ، ونفقات رجاله ورُمَاته ، اختياراً له في أرضى المرافق من سبيل الخير وجهاته . وأما نحن فإن ذهبنا إلى تقرير ما عندنا من الثنا على مُلْككم الأصيل البنا ، والاعتماد على مقامكم الرّفيع العماد ، والاستناد إلى ولائكم الثابت الإسناد ، لم نَبْلُغ بعض المراد ، ولا وَفّى اللسان بما في الفؤاد . فمن الله نسل أن يجعله في ذاته ، ووسيلة[2] إلى مَرْضاته ، ومرادنا من فضلكم العميم ؛ وودكم السليم أن تحسبوا هذه الجهة كجهتكم فيما يعنّ من الأغراض ؛ ليعمل [في تتميمها][3] [بحسب الود الصافي الحِياض][4] . والله يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم .

والسلام .

ملحق رقم (2)

رسالة جوابية تفيد بوصول حصة من الخيل

من الدولة الزيانية لمملكة غرناطة[71]

من الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر [أيده الله بنصره وأمده بمعونته ويسره][1] إلى محل أخينا الذى ودادُنا له فى ذات الله وثيق البُنْيان ، وخلوصُنا له كبير[2] الأثر والعِيان ، وتشيُّعنا لجانبه فسيح الميدان ، وثناؤُنا على مكارمه ومكارم سلفه ، تركض فى مجاله الرَّحْب جياد البيان . [السلطان الكذا أبي عثمان ابن الأمير أبي زيد بن الأمير أبي زكريا ابن السلطان أبي يحيي يغمراسن بن زيَّان][3] أبقاه الله ، وقواعد ملكه به راسخةٌ راسيةٌ ، ومعالِم فضله ساميةٌ عالية ، وعناية الله له كالية ، وفواضله لديه متواترة متوالية ، حتى ينسي بمآثره الراضية ، مَنَاقب أسْلافه الماضية ، ويُخَلد له فى سبيل الجهاد المفاخر الباقية ، والأعمال الصَّاعدة إلى محل القبول الراقية . سلام كريم عليكم ورحمة الله وبركاته .

أمَّا بَعد حَمْد الله ولى الحمد وأهله ، والثناء عليه [بما أولاه][4] من مواهب فَضْله ، والاستعانة به سبحانه على الأمر كلِّه ، والضراعة إليه فى صلة تيسيره وحَمْله . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد الكريم المصطفى ، خيرة أنبيائه وخاتَم

رسله ، المفضل بعلو مكانه ورِفْعة محلِّه ، ملجأ الخلق يوم لا ظل غيرَ وارف[1] ظلِّه ، الذى هدانا إلى سلوك الحق ، واتباع سبله ، وأمدَّنا بالمؤاخاة فى ذاته ابتغاء مَرْضاته ومن أجله ، والرضا عن آله وصحابته وقرابته وأهله ، المثابرين على اتباع سُنته فى قوله وفعله . والدعاء لمقام أخُوَّتِكم الْفُضْلَى بتأْييده ، ونَصْره فى سبيل الله ومَضَاء نَصْله ، واستيلائِه من ميدان السَّعد على قَصَب خَصْله . فإنَّا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم سعدًا[2] باسماً باسقاً ، وعزًّا[3] متناسباً مُتَناسقاً ، وصُنْعاً جميلاً رائقاً ، وتوفيقاً من لدنه موافقاً . من حَمراء غَرناطة ، حرسها الله ، ولا زائِد بفضل الله جل جلاله ، ثم بما عندنا من جميل الاعتقاد فى مقامكم الرَّفيع ، الذى تسنَّت من فضل الله آماله ، وسَعُد حالُه ومآلُه ، إلاَّ النِّعم الواكِفة ، والصَّنايع المترادفة ، والحمد لله كثيراً كما هو أهله ، فلا فضل إلاَّ فضْلُه . وعندنا لأُخوتكم الكريمة تشيُّع واضحةٌ مذاهبه ، ووُدادٍ كريم شَاهده وغَايبه ، وإخلاص أشرقت فى سما الصَّفا كواكبُه ، ولِمَ لا ووُدادكم ، قد أحكم السَّلف المبارك [رضىَ الله عنه][4] معاقدَه ، وأوضح فى مرضاة الله مواردَه ، وأقام على التعاون فى سبيل الله سبحانه قواعده ، فهو يتأكَّد وعلى مر الأيام يتجدَّد . وإلى هذا وصَل الله سَعْدَكم ، وحرس مجدكم ، فلو استطعنا ، لاتمر ساعة إلاَّ عن مكاتبة ، بيننا وبينكم تتردّد ، وذمامٌ كريم يتأكَّد ، اغتباطاً بولائِكم ، وارتباطاً إلى مصافاة علائِكم ، وفى هذه الأيام وصلنا كتابكم صحبة الخيل الذى تفضَّلتم بإهدائِها ، وسلكتم بها سُبُلَ الملوك مع أوْدائِها ، فكَرُم عندنا موقع وُدِّكم ، ووصلنا الثنا على أصالة مجدكم ، وقلنا فضلٌ صدر عن محلِّه ، وبرٌّ جاء من أهْلِه ، وإمدادٌ أتى

من عنصر الإمْداد ، وإعانة وصلت من مكان الإعانة والإرْفاد ، والمعاضدَة فى سبيل الجهاد ، وماجِدٌ سلك سبيل سَلَفِه الأمجاد ، فوجب علينا أن نبعث إليكم هذا الكتاب ، نشكر به ما كان من أفضالكم ، ونشير بالثنا على كمالكم وباهِر خِلالكم ، ونستطلع ما يسرُّ إن شاء الله من متزيِّدات أحوالكم ، عملا على شاكلة الوُدِّ الكريم ، والاعتقاد السليم ، والرعى لما سلف بين قومنا وقومكم ، من الذِّمام القديم . ولم يتزيد عندنا ما نُطالع به مقامكم الرفيع لما نعلمه من تشَوُّفِكم لأحوال المسلمين بهذا القطر ، دافع الله عن أهله ، وحملهم على أنهج طرق السداد وأقوم سُبُله . إلا أننا عَقَدْنا فى هذه الأيام الفارطة السلم مع سلطان قشتالة وأحكمناها ، وجدّدنا شروطها ورسمناها ، وتم المراد من ذلك بنيتكم التى منها يُلتمس ، ومن بركتها يُقْتبس ، والناس والحمد لله قد شملهم التمهيد ، وتشاور فى الأمر منهم القريب والبعيد . والله سبحانه المستعان فى جميع الأحوال، والمرجو لصلة النَّوال. هذا ما تزيَّد عندنا طالعنا به مقامكم ، وبادرنا به أعلامكم ، فعرِّفونا بما يتزيَّد لديكم ، ويتجدد من فضل الله عليكم ، لنُسر بوارده ، ونتأنَّس بوافده ، [والله سبحانه يصل سعدكم ويحرس مجدكم][(1)] . والسلام الكريم عليكم كثيراً أثيراً ورحمة الله وبركاته ، وكتب فى كذا من التاريخ عرَّف الله خَيرَه .

الهوامش:

1. ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص.398 ؛ ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد: "تاريخ ابن خلدون" المسمى "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1421ه/2000م، ج.7، ص ص.503-504.
2. الغرب الإسلامي خلال القرنين 7 و8 ه (دراسة وتحليل لرسائله)، تح. أحمد عزاوي، مطبعة الرباط نيت، الرباط، 1427ه/2006م، ج.2، ص. 289-290، ر.210.
3. ابن خلدون: نفس المصدر والجزء، ص. 514-515. وقد كان السلطان أبو سعيد قد أعاد العزفيين إليها سنة 714ه/ 1315م كسابق عهدهم قبل ان ينفيهم النصريين عنها سنة 705ه/ 1306 م أيام سيطرتهم عليها. ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص. 400
4. ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالةAlphonse XI de Castille، ابن الملك فرناندو الرابعFerdinand IVوانفانتاكونستانس من البرتغالConstance de Portugal، حكم مابين1312-1351م/ 712-751هـ ينظر http://www.astrotheme.fr/astrologie/Alphonse_XI_de_Castille، datede visite: 15/2/2017.
5. من أهمها مدينة إلبيرة Elvira . ابن الخطيب أبو عبد الله محمد لسان الدين: "الإحاطة في أخبار غرناطة"، تحقيق: محمد عبد الله عنان،ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1394ه/1974م، ج1، ص. 536؛ المقري أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408ه/1988م.، ج5، ص458-461.
6. ذكر ابن خلدون أنها الجزيرة الخضراء، بينما عند ابن الخطيب رندة Ronda ومربلة Marbella. العبر، ج7، ص.530؛ الإحاطة، ج1، ص.536.
7. ابن خلدون: العبر، ج7، ص.202، 203.
8. عزاوي أحمد : الغرب الإسلامي، ج2، ص.53
9. هذه الرسائل وردت كلها في" فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر بن خطّاب" لمؤلفه أبي بكر محمد بن خطّاب المتوفى بتلمسان سنة 686ه/1287م، وهو عبارة عن مخطوط من نسختين، نسخة بالخزانة الحسينية بالقصر الملكي بالرباط تحت رقم 5605، ونسخة أخرى موجودة في الخزانة العامة بالرباط تحت الرمز د.3787، وقد قام الدكتور أحمد عزاوي بدراستها وتحليلها ضمن كتابه الضخم المتكون من أربعة أجزاء تحت عنوان الغرب الإسلامي خلال القرنين 7 و8 ه دراسة وتحليل لرسائله. ينظر الرسائل التي تؤكد التبعية الزيانية للحفصيين ضمن ج.2، ر: 143، 144، 150-154، 156-159، 163، 164، 167، 169، 170.
10. من هذه القبائل تُجين ومغراوة ومليكش التي كانت تتحصن في جبال يصعب اخضاعها، فمغراوة كانت تستقر بين وادي الشلف والبحر، ويقابلها من جنوب نهر الشلف في جبال الونشريبس قبائل تجين التي تتمدد أحيانا إلى الجنوب والجنوب الشرقي على مراعي الهضاب العليا إلى شمال الصحراء، بحيث تكوّن حاجزا في وجه امتداد نفوذ تلمسان نحو الشرق، بينما كانت قبائل مليكش تستوطن المرتفعات شرقي مدينة الجزائر، وإن كان يغمراسن قد تمكن من استمالة بعض قبائل بني عبد

الواد عصبيته وبعض القبائل العربية، فإنه فشل في اخضاع هذه القبائل المذكورة حيث كانت تشكل خطورة على سلطته خاصة بتحالفها مع أعدائه. عزاوي أحمد : الغرب الإسلامي، ج1، ص. 67، 68.

11. ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد: المقدمة، تح. علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، ط.1، القاهرة، 1958، ج.1، ص. 159.

12. القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي صبح الأعشى في صناعة الانشا، شرح وتعليق نبل خالد القطب، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1987، ج1، ص.84.

13. عبد الحليم حسين جدوع الهروط: الرسائل الديوانية في مملكة غرناطة في عصر بني الأحمر، رسالة ماجستير، إشراف د. عبد الكريم خليفة، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 1994م، ص.25.

14. رغم هذه الخصائص الثابتة، لكن سجل أحد الدارسين وجود الكثير من رسائل الغرب الإسلامي غير المؤرخة وكذا التي حذفت منها أسماء الأعلام واستبدلت برموز كفلان، أو أبي فلان، أو فلانة كناية عن اسم البلد الموجهة إليه أو الموجهة منه، وهذا مايزيد في تعقيد المضمون. رسائل موحدية مجموعة جديدة، تح. أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، ط1، القنيطرة، 1416ه/1995م، ج1، ص.12.

15. عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، 1976، ص449.

16. خياري محمود محمد عبد الرحمن: أدب الرسائل الديوانية في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، رسالة ماجستير، إشراف أ.د. عبد الكريم خليفة، قسم الدراسات العليا للعلوم الإنسانية والاجتماعية، كلية الدراسات الاسلامية، الجامعة الأردنية، 1999. ص.49.

17. مدينة لوشة بالأندلس، من "أقاليم البيرة بينهما ثلاثون ميلا وبها جبل في غار يصعد إليه". 41. الحميري محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح. إحسان عباس، بيروت 1975، ص .513.

18. العبر، ج7، ص.959.

19. معركة طريف في 8 جمادى الأولى 741ه/ أخر أكتوبر1340م، انهزم فيها الأسطولين المتحالفين المريني والغرناطي أمام التحالف البحري بين البرتغال، قشتالة، جنوة وأراغون، وقعت المعركة على ضفة الوادي المالح El Rio Saldo، ولهذا حملت تسمية النهر معركة صلادو، كما عرفت بمعركة الملوك الأربعة نسبة سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف (733-755ه/1333-1354م)، السلطان المريني أبي الحسن علي(731-752ه/1330-1351م)، وملك قشتالة ألفونسو الحادي عشر Alphonse XI de Castille (1312-1351م/712-751هـ)، وملك البرتغال ألفونسو الرابع Alphonse IV (1291-1353م/690-754م). معروف حفصة: دور الأسطول المغربي في النشاط الحربي والحركة التجارية من العهد الموحدي إلى القدوم العثماني لبلاد المغرب، أطروحة دكتوراه، إشراف أ. د عبد العزيز لعرج، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية، جامعة الجزائر 2 أبو قاسم سعد الله، 2016-2017م، ص ص. 304-305.

20. شهد الحكم المريني فترة من الضعف بداية من أواسط القرن 8ه، تميزت بسيطرة الوزراء والحجاب واستبدادهم بالحكم وتمزق وحدة البلاد، وقد برز منهم الوزير الحسن الفودودي، عمر الياباني. للمزيد حول هذه المرحلة ينظر أحمد عزاوي: الغرب الاسلامي، ج4، ص. 17 ومابعدها.

21. عبد الحليم حسين: الرسائل الديوانية، ص. 24.

22. ابن الخطيب لسان الدين: ريحانة الكُتّاب ونُجعة المُنتاب، تح. محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1440ه/1980م، مج1.، ص ص. 415-418؛ ينظر كذلك الغرب الإسلامي، ج.3، ص ص. 285-287، ر.324.

23. ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، ج1،ص ص.413-415؛ الغرب الإسلامي، ج3، ص ص. 288-290، ر325.

24. المصدر نفسه، ص. 287.

25. المصدر نفسه، ص. 289.

26. معروف حفصة: دور الأسطول المغربي، ص.294.

27. نقلت المصادر التاريخية الكثير من مساهمات الحفصيين والمرينيين الميدانية في الأندلس ويمكن الاطلاع عليها عند معروف حفصة: دور الأسطول المغربي، ص288- 289، 297-299.

28. يورد يحي بن خلدون نص الرسالة التي أرسلها سلطان غرناطة إلى السلطان الزياني أبي حمّو يشكره فيها على تضامنه مع مسلمي غرناطة ويذكر فيها أن لبني زيان في تلك المعارك النصيب والسهم المصيب وهذا ما يوحي بوجود قوات زيانية في الجيش المحارب، وقد كانت الرسالة من إنشاء الوزير ابن الخطيب. ابن خلدون أبو زكريا يحي: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح. بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ج2، ص ص 353-354؛ الغرب الإسلامي، ج4، ص ص. 302-305، ر450.

29. معركة الزلاقة Sagrajas، انتصر فيها المسلمون بزعامة يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد على جيش ملك قشتالة ألفونسو السادس Alphonse VI، وتعتبر من أشهر المعارك الاسلامية . ينظر الحميري: الروض المعطار، ص ص. 287-292.

30. للمزيد حول محاولة الأسطول الحفصي فك الحصار عن مدينة بلنسية ينظر معروف حفصة: دور الأسطول المغربي، ص ص 288-289.

31. أمام اشتداد خطر النصارى في الأندلس وضعف الموحدين وقيام الثورات ضدهم، سارعت الكثير من المدن في إرسال البيعة للسلطان الحفصي أبي زكريا ومن هذه المدن بلنسية، مرسية، دانية، إشبيلية، شريش، وطريف بل وحتى سبتة وطنجةوسجلماسة بالعدوة المغربية، فأصبح السلطان الحفصي بذلك سيد المضيق مؤقتا. ينظر الرسائل 43،47، 48، 49، 73 في الغرب الإسلامي، ج1، ص 195، ابن عُذاري (أبو العباس أحمد بن محمد) ت بعد سنة 712هـ: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (قسم الموحدين)، تح: محمود ابراهيم الكتاني، محمد زنيبر، محمد بن تاويت، عبد القادر رزمامة، ط1، دار الغرب الإسلامي ودار الثقافة، بيروت، الدار البيضاء، 1406ه-1985م؛ ص379، ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح. محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، ص109؛ الوزير السراج أبو عبد الله محمد بن محمد الأندلسي: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تح محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ج2، ص144؛ برنشفيكروبار: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، تر: حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988 ، ج1، ص62-63.

32. ابن أبي زرع الفاسي: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1392ه/1972م، ص.144.

33. عزاوي أحمد : الغرب الاسلامي، ج2، ص.17.

34. التحالف لم يكن مع القشتاليين فقط، ولكن أيضا مع تلمسان من أجل تهديد الثغور الشرقية للمرينيين، وكان ذلك من دواعي الحملة المرينية ضد تلمسان أواخر سنة 679 وأوائل سنة 680ه/1281م . ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص. 336-337 .

35. تحرك ملك قشتالة ألفونسو العاشر Alphonse X(1245-1284م/652-683ه) لحصار الجزيرة الخضراء في ربيع الأول سنة 677ه/ أوت 1278م، مستغلا وفاة أبي القاسم العزفي أمير سبتة والتوتر الذي حدث بين المرينيين وبني الاحمر ونزولا عند طلب ابن الأحمر الذي استدعاه لحصار الجزيرة الخضراء ليمنع السلطان المريني من الجواز، غير أن الأساطيل المغربية بما فيها أسطول سبتة نجحت في فك حصار الجزيرة الخضراء سنة 678ه/1279م. - ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص.329،405؛ ابن الخطيب لسان الدين : تاريخ إسبانيا الإسلامية" أو كتاب "أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام"، تح ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، 1956، ج2، ص.333؛ الإحاطة، ج1، ص.566.

36. ابن خلدون: بغية الرواد، ج 2، ص. 245.

37. الفقيه أبو محمد عبد العزيز بن علي بن يشت أو يست، وهو من أهل غرناطة، ويلقب بأبي سلطان. يحي ابن خلدون: نفس المصدر والجزء والصفحة؛ ابن الخطيب : الإحاطة، ج3، ص ص.572-574؛ المقري: نفح الطيب، ج6، ص ص.113-118.

38. ابن خلدون يحي : بغية الرواد، ج2، ص ص. 245-246.

39. ابن الخطيب لسان الدين: اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تح. محمد مسعود جبران، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2009، ص.105؛ ابن خلدون: نفس المصدر والجزء، ص345-346، والملند هو قائد الأسطول القشتاليوإسمهAlonso JofreTenerio. عزاوي أحمد : الغرب الإسلامي، ج3، ص. 66

40. ابن الخطيب لسان الدين: ديوان لسان الدين ابن الخطيب السلماني، تح. محمد مفتاح، دار الثقافة، الدرا البيضاء، 1409ه/1989م، مج1، ص55.

41. تم عقد التحالف القشتاليالأرغوني في1 ماي1339م/20 شوال739ه، وهو تحالف موجه ضد النصريينوالمرينيين، أما ملك ميورقةخايمي الثاني آنذاك وحسب زعمه فإن ضغط البابا عليه جعله يبعث قطع بحرية نحو المضيق لدعم الأساطيل النصرانية ضد المسلمين ناقضا بذلك اتفاق السلم الأخير الذي عقده مع المرينيين في5 شوال 739ه/15 أفريل 1339م، في حين البرتغاليون فقد انضم ملكها ألفونسو الرابع لمساندة صهره ملك قشتالة وهذا بعد معركة الملند التي انتصر فيها الأسطول الإسلامي.الغرب الإسلامي،ج3، ص.145-146، ر.278، ص. 181-182، ر.296؛ ابن خلدون: العبر، ج7، ص. 545؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، ط4، القاهرة، 1417ه/1997م، ج4، ص.127-128؛عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1969، ص.325؛ جوليان شارل أندري : تاريخ إفريقيا الشمالية، تر. محمد مزالي والبشير سلامة، الدار التونسية، تونس، 1979، ج2، ص.230 ؛ التازي عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مطابع فضالة، المحمدية، المملكة المغربية، 1986، ج7، ص 133

42. عن هذا الصراع ينظر عزاوي أحمد: الغرب الاسلامي، ج4، ص، 88 وما بعدها.

43. الكونت إنريك دي تراستمارا Henri de Trastamare والذي سيعرف بإنريك الثاني ملك قشتالةمابين 1368-1379م/769-780ه، وابن غير شرعي لملك قشتالة ألفونسو الحادي عشر Alphonse XIمن عشيقته إليانورا دي غوزمانÉléonore de Guzman حفيدة ألفونسو التاسع من ليون، وكان إنريك منافسا لأخيه غير الشقيق ملك قشتالة آنذاك بيدرو الأولPierre Ier de Castille، وقد تلقى أنريك الدعم من الكنيسة، في حين لجأ بيدرو إلى طلب دعم الفرنسيين ضد أخيه. ينظر ابن خلدون يحي : بغية الرواد، ج2، ص. 335؛

http://terrescontees.free.fr/gouvernement/espagne.htm, date de visite : 21/2/2017.

44. بيدرو الأولPierre Ier de Castille ملك قشتالةمابين 1350-1368م/751-769ه، الابن الشرعي لألفونسو الحادي عشر والأميرة البرتغالية ماريا كونستانسMarie-Constance de Portugal.

http://terrescontees.free.fr/gouvernement/espagne.htm, date de visite: 21/2/2017.

45. تولى الحكم مرتين، الأولى مابين 755-760ه/1354-1359م والثانية مبين 763-793ه/ 1362-1391م، ومابين الفترتين تولى كل من الأمير أبي الوليد إسماعيل(760-761ه/1359-1360م)، ثم الأمير محمد الغالب بالله (761-763ه/1360-1362م). عزاوي أحمد : المرجع السابق، ج2، ص. 368.

46. هو القاضي الأديب الشاعر أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم البلفيقي المعروف بابن الحاج، أحد شيوخ ابن الخطيب، توفي سنة 771ه/1369م. الدراجي بوزياني: بغية الرواد، ج2، ص.336،هامش 1.

47. المصدر نفسه، ص.335.

48. من الآية 250 من سورة البقرة

49. من الآية 30 من سورة الكهف.

50. ابن خلدون يحي: نفس المصدر والجزء، ص ص.345-346.

51. المصدر نفسه، ص.348.

52. ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص.91

53. الغرب الإسلامي، ج2، ص. 78، ر 136.

54. الغرب الاسلامي، ج2، ص.79 ر 137 .

55. ينظر الرسالة التي تفيد بذلك وهي صادرة عن السلطان النصري الغني بالله إلى أبي فارس المريني مؤرخة في أواسط ذي القعدة سنة 768ه/ جويلية 1367م. الغرب الاسلامي، ج4، ص.345 – 351، ر. 462.

56. ابن الخطيب: الإحاطة، ج2، ص.78.

57. حصن برغةEl Burgo بين مدينتي رندةRonda ومالقةMalaga، يقع على مقربة من شرق رندة، ويدخل ضمن كورة مالقة. عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج5، ص.148.

58. رسائل الغرب الإسلامي، ج4، ص ص.288-290، ر447؛ ابن الخطيب: ابن الخطيب: الإحاطة، ج2، ص.78.

59. حصن آشِرIznájar وورد باسم آش كذلك، من حصون جنوب الأندلس في ضواحي قرطبة، ذكر الإدرسي أنه: "من أرشذونة إلى حصن أشِر عشرون ميلا، وهو حصن حسن، حصين، كثير العمارة، آهل وله سوق مشهودة"، ووصفه ابن الخطيب بأنه الحصن القريب الجواز لأرض النصارى، وحدد موقعه بوادي شنيل Genil قرب لوشة Lojà ضمن الثغور النصرية. الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد: كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة

الثقافة الدينية، ط1، القاهرة، 2010م، مج2، ص ص. 570-571؛ ريحانة الكتاب، مج1، ص.146؛ نُفاضة الجراب في علالة الاغتراب، نشر وتعليق، أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ج3، ص.115 وما بعدها.

60. ابن خلدون يحي: بغية الرواد، ج2، ص ص 353-354؛ الغرب الإسلامي، ج4، ص ص. 302-305، ر450.

61. أطريرةUtrera بنت إشبيلية، وهي مدينة صغيرة حصينة في الجنوب الشرقي من إشبيلية وشرق نهر الوادي الكبير. وتعتبر المصدر إشبيلية الأم والحصون القريبة منها بناتها. عزاوي أحمد : الغرب الإسلامي، ج4، ص336، هامش رقم 9 .

62. ينظر الرسالتين التي أنشأهما ابن الخطيب وزير السلطان الغني بالله يعرف فيهما كل من أهل غرناطة والسلطان المريني أبا فارس بفتح أطريرة. ريحانة الكتاب ص.63-159 ؛ الغرب الإسلامي، ج4، ص ص. 333-334. ر459، ص ص335-341، ر460؛ المقري: نفح الطيب، ج6، ص.339-340.

63. ابن خلدون عبد الرحمن: العبر، ج7، ص.328.

64. المصدر نفسه، ص.353.

65. عبده بن محمد عواجي عبد القاهر: علاقات مملكة غرناطة مع الدول الإسلامية 635-897ه، رسالة دكتوراه، اشراف، أ.د سعد بن عبد الله البشري، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1419ه/1998، ص.115.

66. المقري: نفح الطيب، ج6، ص ص. 507-508.

67. ديوان لسان الدين ابن الخطيب، مج1، ص. 60.

68. هناك رسائل عديدة تتحدث عن جواز المغاربة للأندلس برسم جهاد النصارى. ينظر الغرب الإسلامي،ج1، ر 112، 113، 114،116، 115، 117، 121، 122، 124.

69. Dufourcq Charles-Emmanuel : L'Espagne Catalane et le Maghreb aux XIIIe et XIVe Siècles, Presses Universitaires de France,Paris, 1966, p 147-148.

70. ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، مج1، ص ص. 415-418.

71. المصدر نفسه، ص ص. 415-418.

الوسطيّة في الحكم والسياسة والأخلاق بالمغرب الأوسط من خلال كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك" لأبي حمّو موسى الثاني الزيانّي

د. فطيمة مطّهري.
جامعة أبي بكر بلقايد/ تلمسان

مقدمة:

حقيقة فقد شدّني وجذبني موضوع الوسطيّة في الغرب الإسلامي، وأوّل ما فكّرت فيه عندما عزمت على إعداد هذا البحث، هو الجزء أو الإقليم الأوسط من بلاد المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، وبخاصّة بعد فترة الفتح الإسلامي أي القرون الهجرية الثلاثة الأولى وبالضّبط بعد نشأة الدول المستقلّة وفي مقدمتها الدولة الرستميّة في المغرب الأوسط، وهذا بسبب ما اتصف به أئمتها من عدل وتسامح وتعايش مع الغرباء ومع الطرف الآخر، مما أثّر على استقرار وأمن وازدهار المغرب الأوسط في تلك الفترة المحصورة مابين القرنين (2- 3 ه/ 8- 9 م) من جهة، ثمّ رواج التواصل الحضاري بين هذا الإقليم وباقي دول الغرب الإسلامي، وعلى رأسها العلاقات التجارية والثقافية، وتخبرنا المصادر[1] عن تلك المعالم التي تبرز التأثّر والتأثير بين المغرب الأوسط والأندلس والسودان الغربي وبخاصّة نشر اللغة العربية والإسلام، والتعاون الثقافي والسياسي والعسكري وحتى في مجال الفنّ المعماري الإسلامي ولاتزال الشواهد[2] والآثار تؤكد ذلك في زماننا هذا.

إلا أنّ فكري استقر بعد ذلك إلى عهد آخر أقرب إلى العهد الحديث ألا وهو: العهد الزياني وذلك بحكم أن هذا العهد هو ضمن محاور الكتاب من جهة، ومن جهة أخرى

لبروز سيمات الوسطية في سياسة الملوك، وعلى رأسهم الملك "أبو حمّو موسى الثاني الزيّاني 723-791ه/1321-1389م"، والذي ترك لنا وثيقة رسمية ضمّنها الوصايا والآداب التي ترشد وليّ عهده إلى الصوّاب، وقواعد الملك وأركانه، وما يحتاج إليه الملك في تنظيم سلطانه، والأوصاف الدّالة على كمال الملك وجماله، وهو ما سمّاه ب: "واسطة السلوك في سياسة الملوك" وهذا الذي ذكره أبو حمّو موسى في مقدمة كتابه بقوله: "...فرأينا أولى ما نتحف به وليّ عهدنا، ووارث مجدنا، والخليفة إن شاء الله من بعدنا وصايا حكيمة، وسياسة علمية وعملية ممّا تختصّ به الملوك، وتنتظم بها أمورهم انتظام السلوك في سياسة الملوك، ولذلك سميت هذا الكتاب بواسطة السلوك في سياسة الملوك"[(3)].

إن أهمية موضوع الوسطيّة في المغرب الأوسط في العهد الزيانّي مرتبطة ارتباطا وثيقا بأهمية كتاب "واسطة الملوك"، وهذا الكتاب تعددت أهميته من أهمية علمية إلى ثانية تاريخية وثالثة أدبية، وتبرز أهميته العلمية من وجهتين:

إن الكتاب يقدّم للقارئ معلومات هامة حول الأسس الأخلاقية والاجتماعية والسياسية التي يقوم عليها أي نظام سياسي، ومن هذه الناحية فهو يساهم في طرح النظرية الإسلامية في الحكم كما عرفها علماء الإسلام في أزهى عصور الدولة الإسلامية، كما يقدم هذا الكتاب نموذجا لمفكر سياسي مسلم يجمع بين الخبرة العلمية وممارسة السلطة مدة تفوق الثلاثين سنة، وتشربه معارف عصره واطلاعه على آراء وأقوال سابقيه من الملوك والعلماء على حد سواء، وأما من الناحية التاريخية فإن لكتاب واسطة السلوك أهمية كبرى من وجهتين:

- إن الكتاب يتحدّث عن مرحلة تأليفه وما عاصره المؤلّف من أحداث لذلك فهو من هذه الناحية وثيقة تاريخية هامة تساعد على فهم أسباب الصراعات التي كانت قائمة في تلك الحقبة وما تلاها، وكذا حركة القبائل المختلفة وأهم مكوناتها وأصولها.

- كما يقدم الكتاب معلومات هامة عن الكثير من الأحداث التاريخية التي أطّلع عليها المؤلف في مختلف المصادر التاريخية، أو السماع المباشر من أشخاص اتصل بهم أو سمع عنهم، وهذه المعلومات تساعد القارئ والباحث على فهم حقيقة ما كان سائدا سواء في المغرب الاسلامي أو في غيره، وأما من الناحية الأدبية فقد اشتمل الكتاب على الكثير من القصائد الشعرية التي كتبها المؤلف، وهذه القصائد تتضمن معلومات مهمة حول الحياة

الأدبية في تلمسان في ذلك الحين، والتي تميزت بعد بمميزات منها: بلوغ التذوق الفني مستوى راقيا، إذ أن لغة قصائد أبي حمّو موسى الثّاني وأسلوبه تدل على أن النخبة العلمية والأدبية في ذلك الوقت كانت مهتمة بمختلف الأنواع الأدبية، كما أن أبا حمّو موسى مع كونه بربريا في الأصل، قد تمكن من أصول العربية، وتحكم في أدواتها مما جعله يعبر بأقل الألفاظ على أقوى المعاني، مما يدل على الاهتمام.

والاشكالية التي تطرح نفسها تتمثل في نظرية أبي حمّو موسى في الحكم ونظرته الوسطية في سياسة وأخلاق الملوك، ومدى مطابقة وتطبيق هذه النظرية في عهد ولي عهده (أبو تاشفين) على أرض الواقع، ومدى تأثيرها على المستويين المحلي والخارجي.

لقد شهد المغرب الأوسط عدة أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية ثقافية دفعت العديد من الذين عاصروها إلى تكريس أقلامهم لكتابة ذلك التاريخ ونقشه في ذاكرة الشعوب، لهذا وصلتنا الكثير من المصادر والمصنّفات والمدوّنات في مختلف المجالات، نقلت لنا زخما وافرا من المعارف والمعلومات مكّنتنا من معايشة ومسايرة تاريخ وأحداث المغرب الأوسط، والتي توحي في جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية بمدى التقدم والازدهار الذي حقّقته حضارة هذا الاقليم من بلاد المغرب الاسلامي.

ولكن كما ذكر الأستاذ سمير مزرعي إذا سلّمنا بأن التاريخ السياسي قد استهلك من قبل الباحثين والروّاة والمؤرخين أمثال الأستاذ عبد العزيز فيلالي الذي كتب حول تلمسان في العهد الزيّاني[4]، والأستاذ عطاء الله دهينة الذي كتب حول المملكة العبد الوادية[5]، وما كتبه الأستاذ بوزيّاني الدرّاجي حول نظم الحكم في دولة بني زيّان[6]، وأيضا دراسة الأستاذ حسين تواتي حول الوظائف السلطانية في الدولة الزيانية[7]، إلّا أنّ هناك بعض الجزئيات لم تصلها أقلام المؤرخين ولم تتناولها بكثير من التحليل والتفصيل، ومنها مثلا المواضيع التي تخصّ أدبيات وأخلاقيات وفلسفة وحتّى قضاء الدولة الزيانية وخاصة في عهد أبي حمّو موسى الثاني المنظّر المسلم صاحب نظرية الحكم والسياسة من خلال كتابة "واسطة السلوك في سياسة الملوك " والذي هو موضوع بحثنا، فقد عثرت على بعض الدراسات ومنها مقالان مهمّان استفدت منهما في فهم أفكار ومقاصد نظرة ونظرية أبي حمّو موسى في السياسة وهما: مقال "النظرية السياسية لأبي حمّو موسى الثاني ومكانتها بين النظريات السياسية المعاصرة لها" لوداد القاضي في مجلة الأصالة، ومقال "نظرية الحكم عند أبي حمّو موسى

الثاني (723- 791هـ/ 1323- 1389م) لسمير مزرعي[8]، وكتابات "دراسات حول نظام الحكم في الإسلام" لمحمود بوترعة ومنها: الكتاب موضوع الدراسة "واسطة السلوك في سياسة الملوك" الذي حققه محمود بوترعة خاصة وأنه أوجد بعض العناصر الأساسية والفرعية ضمّنها بعض المصطلحات التي تدلّ على الوسطيّة منها (التوسّط، متوسّطا، الوسط، أوسط...) خاصة في جوانب الآداب والأخلاق التي يجب على الحاكم أن يتحلّى بها، وهذا ما أفادني كثيرا في فهم وتحليل واستقراء عدّة أفكار صعبة ومبهمة.

إنّما يهمنا في هذا الموضوع ليس الجوانب الإيديولوجية والنظرية بقدر ما تهمنا الجوانب التطبيقية لمصطلح الوسطيّة في الوظائف والآداب السلطانية والتي حاول الملك أبو حمو موسى إرشاد وليّ عهده إليها والتمسك بتنفيذها بعده، لهذا فسوف نعالج الموضوع وفق الخطة التالية:

أولا: نظرة ونظرية الملك أبي حمّو موسى الثاني في الحكم والسياسة.

ثانيا: استقراء مضمون ومحتوى الكتاب واستخراج سمات وملامح الوسطيّة في الحكم والسياسة وأخلاق الملوك.

ثالثا: مدى مطابقة وتطبيق هذه النظرية الوسطية في الواقع في عهد ابنه أبي تاشفين.

رابعا: تأثير هذه السياسة على أمن واستقرار وازدهار تلمسان في هذا العهد من جهة، ومن جهة أخرى، مدى التواصل الحضاري مع دول الجوار (بلاد المغرب الاسلامي).

أولا- نظرية الحكم عند أبي حمّو موسى الثّاني[9]:

لا شكّ أن العالم الإسلامي قد عرف بعض المنظّرين السياسيين كابن المقفّع، والفارابي والماوردي والمرادي وابن ظفر الصقلّي، ويبدو أن منظّر المغرب الأوسط أبا حمو موسى الثاني قد تأثر كثيرا بما ألفه هؤلاء المنظرون بل أخذ الكثير، واستقى معلومات مما كتبه الأدباء والمفكرون الذين عالجوا موضوع الأخلاق بصفة عامة وأخلاق الملوك بصفة خاصة، فكان مما قدموه للقارئ عرضا حول ما يجب على الملوك أن يراعوه من التقاليد وأن يتحلوا به من الخصال في شتى المجالات من دون التركيز على جانب معين، ويهتمون بسلوك الملك وسياسته وعلاقاته بالوزراء والكتاب والعلماء والحكماء وسائر الرعية،

ويذكرون أقوالا مختارة وردت في القرآن والحديث أو رويت عن الصحابة والخلفاء والحكماء والشعراء، أو يقصون حكايات وقصصا من قصص الأنبياء وملوك العصور القديمة، وغير ذلك، ثم إنهم يرصعون ما يتخلل كل باب من الأفكار والنّصائح بأمثال مناسبة للموضوع، وحكم جميلة التعبير وجليلة المغزى[10].

إلا أنّ ابن المقفع في كتابه "كليلة ودمنة" وجه عنايته للحث على التحلي بالخصال الحميدة، وتزويد الناس عامة، والملوك ورجال السلطة بوجه خاص بما يفيدهم في حياتهم من الحكم والنصائح، واضعا ذلك في قالب الرّمزية، أي القصّة على لسان الحيوان.

أما ابن ظفر الصقلي، فإنه استمد من "كليلة ودمنة" طريقة ابن المقفع الرمزية، فأورد كثيرا من قصص الحيوانات وشرح رموزها، كما استمدّ من المؤلّفين الآخرين طريقتهم التحليلية لاجئا في أغلب الأحيان إلى إيضاح مفاهيم ما ذكره من الخصال، ومدعّما ذلك بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والحكماء العرب والعجم، وقصص الرسل والملوك، وغير ذلك فمزج بين الطريقتين[11].

ويظهر أنّ ابن ظفر تجنّب ملل القارئ، فأعطى لكل عنصر من عناصر تأليفه ما يناسبه من الحجم الذي يسمح به هدف الترفيه والإفادة، فلم يكثر مثلا من سرد الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، ولم يطل في الشّرح والتفسير، فأضاف للنّص الأصلي بعض التفاصيل ملبيا بذلك رغبة القارئ وشغفه بالأخبار العجيبة، فنال كتابه إقبالا كبيرا واقتبس منه المصنّفون في الأخلاق والسياسة والتاريخ، فنقل عنه يحيى ابن خلدون قصتين من بين تلك القصص الثلاث في كتابه "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد"[12].

و ألف سبط بن الجوزي كتابا سمّاه "كنز الملوك في كيفية السلوك"، نقل فيه معظم ما جاء في "سلوان المطاع" من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال والحكم والقصص وقسمه إلى خمسة أبواب تحمل نفس العناوين التي تحملها السلوانات الخمس[13]. أما كاتبنا أبو حمو موسى فنقل في كتابه ثلاث قصص هي أطول ما ورد في سلوان المطاع من القصص، ويبلغ حجمها ربع حجم هذا الكتاب يقول الأستاذ عبد الحميد حاجيات[14].

لقد تحدث بوزياني الدراجي عن نظام الحكم في دولة أبي حمو موسى وطبيعته بقوله: "أن الدولة الزيانية توفرت على المقومات الأساسية لقيام الدول والمتمثلة في: الرقعة الجغرافية، الرعية، النظام السياسي"، ولحماية هذه السيادة وتجسيدها في كيان المغرب

الأوسط أراد أبو حمو موسى إرجاع وإحياء مفهوم الخلافة، فكيف حاول التأسيس لها في نظريته السياسية؟

فمن خلال استقراء النصوص التاريخية نستنتج أن أبا حمو موسى الثاني أرسى قواعد ملكه وفق سيادة شرعية إسلامية تنادي بعودة النظام السياسي الذي ساد الدولة الإسلامية وقت ميلادها، فهذا عبد الرحمن بن خلدون يقول: "ودخل أبو حمو موسى تلمسان لثمان خلون من الربيع الأول سنة ستين وسبعمائة، واحتل منها بقصر ملكه، واقتعد أريكته، وبويع بيعة الخلافة، ورجع إلى النظر في تمهيد قواعد ملكه وإخراج بني مرين من أمصار مملكته"[15]، والذي يمكننا أن نستشفه من هذا النص، هو أن أبا حمو موسى أراد من خلال ذلك تجديد الفكر السياسي الذي قامت عليه دولة بني عبد الواد، حيث أنه بدأ بأول خطوة يقبل عليها أي نظام سياسي في العالم وهو تغيير نمط اختيار الحاكم، فبذرة التجديد وجدت مع أول خطوة قام بها، وهذا النص يمكن أن يؤكد ذلك حيث يقول يحيى بن خلدون: "صرف خلد ملكه وجه العناية إلى إحياء رسوم الخلافة وتوطيد قواعد الملك"[16].

ومن خلال هذين النصين يمكننا معرفة اللقب الذي كان يسعى أبو حمو موسى إلى تعميمه واستعماله طول فترة حكمه، بل ويعتبر أبو حمو موسى أوّل من تلقّب بلقب الخليفة من حكام بني عبد الواد الذين تلقبوا بألقاب الملك والسلطان إلا هذا اللقب[17]، خاصة بعد نجاحه في استرجاع ملك آبائه وأجداده وتمكنه من إعادة بناء الدولة الزيانية بصورة لم تعرفها من قبل، فأعلن نفسه خليفة الله في أرضه، لأنه كان يرى بأن الحاكم "هو خليفة الله في أرضه والموكّل بإقامة أمره قلده بقلائد الخلافة"[18]، فهو الموكّل بإقامة الشرائع على أرض الله لا أن يحكم من تلقاء نفسه[19].

وكان يحيى بن خلدون يقرن لقب الخليفة بلقب أمير المؤمنين وهو ثاني أشهر لقب اختص به حكام بلاد المغرب والأندلس كدولة عبد الرحمن الداخل[20]، والدولة الموحدية والدولة الحفصية[21] والدولة المرينية[22].

إن لقب الأمير لم يتلقب به من سلاطين بني عبد الواد إلا أبو حمو موسى، كما تلقب في بعض رسائله ومعاهداته بأمير المسلمين، وإذا حاولنا فهم ما جاء به أبو حمو موسى وأمعنّا النظر في الوصايا والآداب السلطانية التي أوردها، نجد أنه يذكر التحلّي بالعدل

والفضل وتغليب العقل على الهوى والبعد عن الملذات والشهوات كالنساء[23]، والدوران في محيط الفكر والعلم لا الأشخاص والأشياء، وهذه الشروط التي تشترطها في اختيار الخليفة لم تكن جديدة في فكره، بل كانت موازية في جمهورها لما جاء به المنظرون السابقون ومنها التي ذكرها ابن رشد، وابن الأزرق، ومما ذكره ابن رشد في شروط اختيار الحاكم: "من شروط الرئاسة الثبات على الرأي وعدم الحيدة عنه ولو غصبا، كأن يكره على فعل أمر من الأمور قسرا أو التهديد، أو يرتكب الخطأ، أو يتعرض للتضليل والإغراء بلذة من اللذات أو يصاب بالنسيان"[24].

ونخلص إلى أنّ ما كان يفكر فيه أبو حمّو موسى كان نابعا من صميم النظام الإسلامي الذي يكرّس الحرية الفردية للرّعية في اختيار نظامها وطريقة معيشتها وسياستها من خلال مفهوم الخلافة، فالتّنظير قبل أن يكون شرعيا كان منطقه العقل لتحرير نفسه من صفة العبودية والاستبداد، وانطلاقا من هذا المعنى يقول سمير مزرعي يمكننا أن نفنّد وننقد صفة الملك المستبّد عنه[25].

أما فيما يخصّ البيعة فقد أشارت المصادر إلى وجود أنواع كثيرة من البيعات[26] في الدولة الزيانية، إلاّ أنّ النصوص التي تضمنها كتاب أبي حمّو موسى ماهي إلا رسما للطريق التربوي والسياسي المستوحى من الشرع الإسلامي للحصول على البيعة باعتبارها السند الشرعي للوصول إلى الحكم، وهذا ما طبّقه أبو حمّو موسى في مساره السياسي لاعتلاء العرش، إذ لعب الجانب الأخلاقي دورا في بعث الهمم في نفوس مناصريه[27]، بل هدف من تحرّكه ودخوله تلمسان في شهر ربيع الأول إلى القول بأنه فاتح دولته بنسبه وشرفه وبركته، مثل بركة الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الشهر بميلاده، وأشار عبد الرحمن بن خلدون إلى البيعات التي أقبلت عليه تكريما وطاعة له، لقد كانت البيعة عند أبي حمو ذات مدلول نفسي وسياسي واجتماعي.

وأما ادّعاء أبي حمو موسى النسب الشريف العلوي فلتعزيز عصبيته، صداقا لقول ابن خلدون: "فيكون الحسب والشرفأصليين في أهل العصبية"[28]، في وقت أصبحت فيه الدولة الزيانية تشرف على النهاية، وتقع بين خطر دولتين مجاورتين: الدولة الحفصية من جهتها الشرقية والدولة المرينية من الجهة الغربية، فإحياء فكرة النّسب كانت مبرّرة بالنسبة لأبي حمو موسى الذي هدف إلى استعادة دولته والنهوض بها من جديد كما أن

النسب يوفر له السند السياسي زيادة إلى السند الشرعي(البيعة) ووجودهما مجتمعين يوفران ضمانا شرعيا وسياسيا

ثانيا- ملامح وسيمات الوسطية في حكم الزيانيين من خلال "واسطة السلوك":

يعدّ كتاب:"واسطة السلوك في سياسة الملوك" وثيقة سياسية رسمية أصدرها الملك أبو حمّو موسى، موجّها وصاياه لوليّ عهده، فهو بذلك يعتبر درسا أخلاقيا وسياسيا يندرج ضمن الوصايا والآداب السلطانية، وقد جاء عنوانه على نفس سياق كتب الفكر السياسي السابقة التي تحدثت عن أخلاق الملوك ومنها:" التبر المسبوك في نصيحة الملوك" لأبي حامد الغزالي، وكتاب "سراج الملوك" لمحمد الطرطوشي، وكتاب " المنهج المسلوك في سياسة الملوك" لعبد الرحمن الشيرزي، وكتاب" سلوان المطاع في عدوان الأتباع" لابن ظفر الصقلّي، فلم تختلف طريقة أبي حمّو موسى في عرض أفكاره وآراءه عن سابقيه من حيث الاستدلال ومحاولة الإقناع، فوصف مضمون الكتاب في المقدمة بقوله:" فرأينا أولى ما نتحف به وليّ عهدنا، ووارث مجدنا، والخليفة إن شاء الله من بعدنا وصايا حكيمة، وسياسة علمية وعملية ممّا تختصّ به الملوك، وتنتظم بها أمورهم انتظام السلوك في سياسة الملوك، ولذلك سميت هذا الكتاب بواسطة السلوك في سياسة الملوك"(29).

وبعدها فصل تلك الوصايا والسياسة فذكر أنها تشمل الوصايا والآداب التي ترشد الملك إلى طريق الصواب، وقواعد الملك وأركانه وما يحتاج له الملك في ترتيب سلطانه، والأوصاف الدالة على كمال الملك وجماله، وختم الكتاب بمسألة الفراسة التي هي أساس اتخاذ القرارات الصائبة(30).

فجاء تقسيم أبي حمو موسى كتابه إلى أربعة أبواب، وفي كل باب فصول أو عناوين مستقلة دون فصول.

الباب الأول: الوصايا والآداب والحكم المرشدة إلى طريق الصواب، وفيه أربعة فصول(31):

الفصل الأول: توصية ترشد إلى الاتصاف بالعدل والتحلي بالفضل(32)

الفصل الثاني: توصية ترشد إلى الانصاف بتحكيم العقل على الهوى، والتحصن على ملازمة التقوى

الفصل الثالث: توصية ترشد إلى حفظ المال لبلوغ الغرض والآمال.

الفصل الرابع: توصية ترشد إلى حفظ الجيوش والأجناد والأمراء والقواد.

الباب الثاني: في قواعد الملك وأركانه وما يحتاج الملك إليه في قواعد سلطانه وهي أربعة قواعد[33].

القاعدة الأولى: قاعدة العقل

القاعدة الثانية: قاعدة السياسة

القاعدة الثالثة: قاعدة العدل

القاعدة الرابعة: قاعدة جمع المال والجيش

الباب الثالث: في الأوصاف المحمودة، وهي أربعة قواعد[34]:

القاعدة الأولى: قاعدة الشجاعة

القاعدة الثانية: قاعدة الكرم

القاعدة الثالثة: قاعدة الحلم

القاعدة الرابعة: قاعدة العفو

الباب الرابع: في الفراسة، وهي خاتمة السياسة، وهذا الباب يتضمن نصائح موجهة إلى ابنه أبي تاشفين جاءت بشكل خطابات موجهة إليه مباشرة، وتبدأ بقوله: "يا بني"[35].

أما من أهم ملامح وسمات الوسطيّة في وصايا أبي حمو موسى لابنه وولي عهده أبي تاشفين، فنجدها بارزة خاصة في الباب الثالث ممثلة في الأوصاف المحمودة والتي هي نظام الملك وجماله وبهجته وكماله ولخصها لنا في أربعة قواعد نذكر منها:

القاعدة الأولى: وهي الشجاعة، وقد قسمها إلى أربعة أقسام:

* <u>القسم الأول</u>: يوصي ابنه بالشجاعة التي يصحبها الرأي فيقول: "اعلم يا بني أنه ينبغي لك أن تكون حاضر الذهن عند الملاقاة رابط الجأش عند تلاقي الساعات لا تزحزحك الرياح العواصف ولا ترهبك القواصف ولا الحروب على اختلاف أنواعها

ومعظمات إيقاعها[36]... يا بني إذا لقيت عدوك في الحرب فاجعل رأيتك أمامك، ونظرك أمامك، ولا تلتفت يمينا ولا شمالا...يا بني لا تخل شجاعتك عن الرأي تنجح مطالبك في كل سعي يرجى لك الظفر والنصر والاستيلاء على العدو.. يا بني رتب جيشك يوم الحرب واللقاء، فإن ترتيبه إرهاب للأعداء، وهيئه تهييئا حسن الانتظام، مضبوط الانقسام على أربعة أقسام: ميمنة من حماة أنجادك، وميسرة من كفاة أجوادك، وتقدمة من أبطال فرسانك (وساقة) من أسود شجعانك، وتقدم على كل واحد من الميمنة والميسرة قائدا مقدما مرغاما.. يا بني وينبغي لك أن تتخذ فرسانا بين يديك تقتد بهم إذا أقبل العدو إليك يكونون يواجهون عدوك وساقته إذا عزمت على ملاقاته.. فإياك يا بني والانتقاز عند الملاقاة في القتال فإن ذلك سبب الانفشال.

يا بني إذا قربت من عدوك فلا تعجل عليه بالجملة ولتأخذ في أمرك بالتأني والمهلة فإنه لا بد لكل دفعة من رجعة، ولكل كره من رفعة، ليكن انتهاضك إلى عدوك زحفا، فإنك ترهبه خوفا ورجفا، فإذا كنت يا بني بهذه المثابة في الاجتهاد فلا يتصل منك العدو بمراد.

* القسم الثاني: يوصيه بقوله: "وهو أن يكون الملك عاقلا في نفسه يقظانا في أحواله، دهقانا غير طالب فتنة، ولا خالف محنة، يشتغل بآخرته، ويغفل عن رعيته، ولا ينظر في أمر جنده، وفي شأن من دخل في عهده، ويرى أنه في زهده، ولا يضر أحدا من الأعداء، ولا تصله يد الاعتداء، حتى إذا نزل به أمر، وساءه من عدوه مكر، أظهر حينئذ شجاعته وبدأ برعايته، وذلك حين لا ينفعه إظهارها، ولا يستحر له نارها، ولا يغنيه استحقارها . فهذا يا بني شجاعته غير محمودة، ومنقلة النجابة معدودة، لأنها شجاعة عن الرأي قاصرة، فهي مذمومة بالنسبة إلى الدنيا والآخرة[37].

* القسم الثالث: يوضح له الشجاعة المذمومة والمرفوضة وهي التي لا يصحبها عقل ولا رأي بقوله: "فهذا يا بني شجاعة مذمومة وبالجهالة موسومة، وهي في الحقيقة هدر، والعمل بها خطر، لأنه إذا كان جره، لا يتمالك أن ينغمس في القتال، ويلمح بهروه، في معمهة الأبطال من غير رأي ولا نظر في الأمور ولا تقدير، فمثل هذا يا بني أوله للملك وآخره لزوال الملك.

* القسم الرابع: وهو الذي يفضله أبو حمو موسى ويرغب فيه ولي عهده، وهو أيضا ما يبرز لنا الوسطيّة في الشجاعة أي أن تكون شجاعته غير مفرطة بل متوسّطة بين ذلك

بقوله: "فهذه يا بني شجاعة محمودة الأثر، جميلة السير وإن كان الذي في قبله أشجع منه فهما يقصران عنه فإن الشجاعة المتوسطة إذا صحبها الرأي لا يكون صاحبها إلا ناجح السعي لأنه يحاول برأيه ما لا يحاول بشجاعته وينتفع بنفسه إن نجا إلى براعته فبرأيه يقص عن الحروب ويبلغ غاية المرغوب لأنه يحاول في دفع المكاره ويلاقي ملاقاة الأسد الشاره، فهذا يا بني إذا حل به كرب أو دهمه من عدوه خطب لا يرجف له قلب، ولا يداخله رعب، هذا وإن لم يبلغ في شجاعته الغاية فهو تدبيره في غاية النجابة الكافية، كصاحب القسم الأول قدمناه، وبالشجاعة والعقل ذكرناه.

فمثل هذا يا بني إذا كان الأمر عليه واحد من رايته ما يرجع إليه، فهذا أحسن حال من الذي قبله وإن لم يكن في الشجاعة مثله.

القاعدة الثانية: وهي قاعدة الكرم:

قسمها هي الأخرى إلى أربعة أقسام، وما يراه أبو حمو موسى محمودا ويجب التحلّي به، وما نراه من التوسّط والوسطيّة هو ما ذكره أبو حمّو موسى في:

* القسم الأوّل: أن يكون الملك كريما متوسّطا في كرمه بقوله: "اعلم يا بني أنه ينبغي للملك أن يكون كريما متوسّطا لا مقترا ولا مفرطا، يا بني ليكون كرمك على نفسك ورعيتك من غير تبذير ولا إسراف في التقدير، فإن ذلك هو الكرم المحمود، والذي يستعمله أهل الديانة والجود، لأنك يا بني إذا كنت كريما تحبك النفوس وتميل إليك القلوب، وتخضع لك الرؤوس، والإحسان أملك شيء للإنسان، والكرم من الشجاعة والشجاعة من الكرم.

يا بني فمن كان كريما كان محبوبا مطاعا، يجد من يعضه في المهمات والحروب، ويفرج عنه نوازل الكروب، ويفديه بنفسه، ويود دونه حلول رمسه[38]، وإذا كان الملك شجاعا بخيلا كان في شجاعته دليلا يسلمه قومه في المواقف، ولا يساعده من الشجعان، بل يعد من أهل الحسد والهذيان، فإذا اشتهر الملك بمكارم الأخلاق هرع له الناس من جميع الآفاق، وكثرت له المادة من أنصاره، وتحلّى بالمحامد في أمصاره...وعظم مجده، وقلّ معانده، وكثر مساعده، وانقهر حاسده...لأنه يتحلّى بصفة من صفات الباري فلا يجاريه في سلطانه مجاري.

فهذا يا بني غاية الكرم المحمود الذي يتصف به المتحلّى بالجود[39].

* القسم الثاني: أن يكون الملك كريما على رعيته دون نفسه وخاصته وأهل بيته، فهذا كرم غير محمود، ولا هو من الجود...اللهم إلا إذا كان ذلك إيثارا على أهل الحاجة، فهذه صفة أهل الجود...وفي مثلهم قال الله تعالى في:﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[40].

*القسم الثالث: أن يكون الملك كريما على نفسه وأهله دون رعيته، فهذا الكرم يا بني غير محمود، والمتصف به متصف بصفة الحسود...فهذا يا بني يأخذ من الضعيف والقوي، ولا يبالي بفقير ولا غني، فهذا إذا احتاج إلى المال فلا يجد من أين، كان إسرافه قد أفضى به الجبن...والله لا يحب المسرفين(الآية).

فإياك يا بني والجري على هذا المثال فإنه سبب الهلاك والزوال[41]

*القسم الرّابع: أن يكون الملك كريما على نفسه دون خاصته ولا رعيته، فهذا لا يعد يا بني من الكرام...

القاعدة الثالثة: وهي قاعدة الحلم:

وقد قسمها كذلك إلى أربعة أقسام وما يراه محمودا وفيه نوع من التوسّط أيضا ما جاء به في:

* القسم الأول: أن يكون الملك حكيما على خاصته ورعيته، يعاملهم بحسن نية، يحلم عنهم في صغار الجرائم، يقتص منهم في العظائم، فهذا ملك غالب عقله على هواه، فإنما فضله على سواه.

فهذا يا بني هو المحبوب عند الناس، الكثير الحلم والإيناس، يحبه الضعيف على حلمه، وصفحه عن صغير جرمه، فرعيته مأمونة، الغالبة لحسن سيرته، سالمين لمجاوزته عن زلاتهم وصفحه عن هواهم، بل هفواتهم، فهذا حلم محمود ينتفع به في الوجود، والحلم وصف من أوصاف الباري تعالى، والمتصف به محمود في الآخرة والأولى.

* القسم الثاني: أن يكون الملك حليما على الرعية دون الخاصة، لا يؤاخذ إلا خاصته خاصة، فمن عمل من الخاصة ذنبا فتستوجب عليه العقوبة عاقبه، ومن عمل من الرعية عملا يستوجب به العقوبة ترك مطالبته، ولا يأخذ من زلاتهم، بل ويصفح عن هفواتهم، وليعاقبهم لضعفهم، وقلة قدرتهم وخوفهم، وضعف عقولهم وحقارتهم وخمولهم، ولاختلاف طبائعهم ولقلة وقائعهم، إلا أن الخاصة ينتقم منهم، ولا يعفو عنهم، يرى أن ذلك زجر لهم وردع، وكفا عن العامة وقمعا، لئلا يتأذى الضعيف، ويقع من أهل الجناة لهم التخويف.

فهذا علم غير محمود، منكور في الوجود، لأن من العدل المساواة في الأحكام بين الخاص والعام، بل الخاص أولى بالحلم في صغائر الجرائم العامة.

* القسم الثالث: أن يكون حلمه على الخاصة دون العامة، يا بني من العدل في الحلم والمساواة بين القوي والضعيف، والمشروف والشريف، وفي العقوبة كذلك أحسن ما يسلك السالك، فإن كان بخلاف هذا فهو الظلم الصراح، الذي ليس يباح فاعله.

* القسم الرابع: أن يكون حلمه مظطربا أحيانا، تارة وتارة، لا يقف عند حد في أقواله وأفعاله، ولا يأمن أحد من اغتياله، فهو طبع المجانين بغير تأمين.

فهذا يا بني حلمه مذموم ولو نسب له الحلم، لأنه لا يأمن أحد حلمه، ولا من عائلته وسمه، فالعامة تخاف نكاله، والخاصة لا تأمن اغتياله.

القاعدة الرابعة: وهي قاعدة العفو

إن صفة العفو صفة محمودة ذكر الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[42].

و قد قسمها أيضا إلى أربعة أقسام وما يراه محمودا وما يفضله ونرى فيه أيضا التوسط والوسطية ما جاء به في:

* القسم الثالث: أن يكون العفو من الملك متوسطا، لا تاركا للعقوبة ولا مفرطا، لا تنتهي عقوبة الجناية إلى مقدار الجناية، ولا يتوصل فيها إلى الغاية، بل يعاقب من وجب عليه القتل بالقرب، ولا يبالغ في الانتهاك والنكب، ويرى أن ذلك عفو، والعمل به مورد، فيرى أن ضربه اتقاءه على نفسه، وهو عفو منه إذ لم يلحقه برمسه.

فهذا يا بني عفو غير محمود، لا من صفاة الجود لأنه يا بني من استحق القتل فجزاؤه القتل، ومن استحق الضرب فجزاؤه الضرب، وهو الأصل.

كما تبرز الوسطية في الوصايا والآداب المرشدة إلى طريق الصواب ومنها:

* ما جاء به في الفصل الثالث والخاص بوصايا حفظ المال لبلوغ الأهداف والآمال حيث يقول: "اعلم يا بني أن المال حرز الملك وبه ينتظم انتظام السلك، فأحرز حرز مالك بقليل الثناء وتصرف فيه تصرف أهل العقل والذكاء.. فليكن جودك معتدلا في التقدير غير منسوب إلى التقصير ولا محسوب في السرف والتبذير... فخير المال ما وقع به الانتفاع وشر المال ما تركته للضياع يقتر المرء على نفسه توفير أمنه على غيره فاجمعه من مواضعه ووفره ونم حيالته وثمره، وقوم ذمته بالعدل وتوسط في العطاء والبذل... يا بني خذ المال من حقه وأنفقه في مستحقه تكن أعدل الناس وأفضل من ملك وساس، فما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا الخرق في شيء إلا شانه، حاسب نفسك وعمالك يحفظون مالك.

يا بني وبالجملة فالمال أعظم الذخائر الفاخرة وبه تنال الدنيا والآخرة، عليك بالإيثار مما أفاء الله عليك من الأنعام.

* ما جاء به في وصايا قواعد الملك وأركانه بقوله: أن يكون الملك جاريا مع الرعية على العوائد المألوفة والأحوال المعروفة من غير خرق ولا أحداث زيادة، مقبلا على أموره الدنيوية، وإن كان مفرطا في بعض الأمور الأخروية، فهذا يا بني عدله متوسّط وهذا كثير في ملوك زماننا.

* ما ذكره في جمع المال والجيش، أن يجمع الملك الجيش والمال بقدر ما تحب إيالته من البلاء، وما له من الأقاليم والأعداء لا أقل من ذلك ولا أكبر ولا أصغر، فأوصى ولي عهده بالآتي: اعلم يا بني أنه ينبغي لك أن تتخذ جيشا بقدر ما تحكم به بلادك، ولا يحملك الحرص على أن تكثر أعدادك، فليكن جيشك قدر ما يكفيك من المال، ولا تكون مفرطا لئلا يتعذر عليك الحال... واعلم يا بني أنه ينبغي لك أن لا تنفق مالك إلا في حقه، ولا تخرجه إلا في مستحقه، ولا تعطيه إلا فيما يصلح عنك ويجلب المنفعة إليك، ولا تسرف فيه في لذات دنياك، ولا في محارب لا تصلك إلى هواك، كالخروج عن الحد في الزينة واللباس والبناء المفرط، الخارج عن القياس، فإن خير الأمور أوسطها، وأحسنها أوفقها وأضبطها.

يا بني ينبغي لك ألا تعطي لغير فائدة فإن تلك سجية فاسدة، ولا تعطي ألفا لمن يستحق مائة، ولا مائة لمن يستحق ألفا، فإن فعلت ذلك كان ظلما وسرفا، يا بني إياك أن تحملك شهوة الشكر على بذل المال فيفضي بك ذلك إلى الإقلال، فإنه إذا نفذ المال نفذ الشكر.

يا بني إياك أن تحتقر ما تجمعه من المال، لا من كثير ولا من إقلال، ولا تستأهل بإخراجه وإن سهل عليك جمعه من خراجه، فرب بحر تجمعه من نقطة، ورب مستبحر يرف بالنزح، فإن التبذير يؤدي إلى التدمير، والإمساك يؤدي إلى الهلاك، فليكن يا بني مالك موازيا لجيشك، ومقاوما بجندك.

يا بني ينبغي لك أن تتشاغل بجمع أجنادك، وتوفير أحشادك وأعدادك، وترتيب خدمك وقوادك، فتعدهم في زمن الرخاء لتجدهم عند الشدة والإواء.

يا بني ينبغي لك أن تكون في كل سنة تدرك جيشك وتدبر أمرك وترتبه شيئا بعد شيء، وذلك بقدر تنمية المال وتكثيره، وضعفه وتوفيره، وعلى قدر الاستطاعة والسياسة، والحركات والرياسة، لأن زيادة المال ولجيش للملك تنويه بملكه وزيادة في نظم سلكه، فيعظم قدرك في أعين أوليائك، وتقطع رهبة في قلوب أعدائك وقل أعوانك، ونقص ملكك وتلاشي سلطانك.

ويكون ترتيب الجيش في العطاء على قدر بيتاتهم وشجاعتهم وسباقتهم للخدمة، واصطناعاتهم وصحبتهم وانقيادهم، والفتهم واجتهادهم...و بالإضاعة والتفريط فسد كثير من الملوك فأخرجوا على الملك والمملكة. كما اتفق لبني أمية وبني العباس، وكلمتونة والموحدين والشيعة والعبيديين، لما أهملوا جيوشهم بالتفريط وسوء التدبير، وركنوا إلى اللذات والتبذير.

ثالثا- واقعية النظرية الوسطية وتأثيرها محليا وخارجيا:

يعتبر ابو حمّو موسى الثاني مجدّد رسوم الدولة الزيّانية وباعثها من جديد، بعد أن كادت تزول من سنة 760-791هإلى 1358-1388م[43]، وعرفت الدولة في عهده تجربة حكم ونظم وهياكل متعددة ومنفردة، فوصلت بذلك إلى أوج تطورها ورقيها، ولبست الدولة خلاله ثوب الأبّهة والسلطان في أبهى صوره، وفاقت هذه النظم في تطورها ورقيها

تلك التي عرفها المرينيون، وهذا ما توصل إليه صاحب العبر والباحث جورج مارسيه في كتابه: مخزن بني عبد الواد ملوك تلمسان.

لقد تلقّب أبو حمو موسى بألقاب الخلافة، حيث بويع من أوّل وهلة دخل فيها تلمسان وجلس على عرش أسلافه بيعة الخلافة، وهذا النظام لم تألفه الدولة الزيانية من قبل، وقد صاحب هذا التطور في النظم وأجهزة حكم الدولة نهضة عمرانية وثقافية وفكرية كبيرة، حيث شيّد السلاطين المدارس والمساجد والدور والقصور، وقرّبوا إليهم العلماء وتقرّبوا منهم، وشجّعوا على العلم والتعلّم، وانتدبوا للوظائف السلطانية أكفأ الرجال وأفضلهم علما وفقها وأخلاقا من أمثال: أبو بكر بن خطاب، وابن خميس، وابن هدية القرشي، ويحيى بن خلدون والآبلي وغيرهم كثير[44]، فمثلا كان يختار الحاجب والذي غيّر اسمه إلى اسم " المزوار" من بين الشخصيات ذات المكانة الفقهية والعلمية في الدولة كالفقيه" عبدون بن محمد الحبّاك" والفقيه "أبو عبد الله محمد بن سعيد".

اهتم السلطان أبو حمو موسى بجهاز القضاء فأخرجه بذلك عن قاعدة الإقصاء من دائرة اهتمامات الباحثين والكتاب من خلال كتابه" واسطة السلوك..." مبرزا مهام القاضي وشروط اختياره بقوله: "يا بني فأما قضائك فيجب عليك أن تتخيّر قاضيا من فقهائك، أفضلهم في متانة الدين وأرغبهم في مصالح المسلمين، لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يسمح بظلامة ظالم،...يساوي بين الشريف والمشروف، والقوي والضعيف، عالما بتنفيذ الحكام، مفرقا بين الحلال والحرام، قاضيا بالعدل..." [45]، والدولة الزيانية واحدة من دول المغرب الإسلامي التي عنيت بالقضاء نظرا لارتباطه بالحياة اليومية للمجتمع لا من حيث الأحوال الشخصية فحسب، بل إلى جوانب عديدة تهتم بالأمور الدينية والتعليم وتنظيم الأسواق وغيرها، وكانت مهمته الفصل في الأحكام بعد التثبّت من القضايا المرفوعة وعدم قبول من لا عدالة له من الشهود[46]، كان القضاة ينتقون من بين فئة الفقهاء ذوي المكانة واليد الطولى في العلوم الشرعية[47]، ولم يكن قاضي كبير في الدولة الزيانية يحترم مسؤوليته بدقّة كقاضي الجماعة "محمد بن أحمد بن قاسم العقباني(804-871ه) ليجد غضاضة في مراقبة الأسواق بنفسه والمعاقبة على الغشّ[48]، وكانت ميزة القضاة سعة الاطّلاع وغزارة العلم والمعرفة بالنوازل كما هو الشأن بالنسبة لأبي الله محمد العقباني[49]. لقد أوجد أبو حمو موسى خطط مكملة للقضاء كخطة المظالم أو ولاية المظالم، وهي أشبه بمحكمة الاستئناف والقضاء الإداري والاستثنائي في الوقت الحاضر، وكان يتولاها السلاطين بأنفسهم

بتخصيص يوما في الأسبوع للنظر في المظالم، وسماع شكاوي رعيته، وقد أفرد أبو حمو موسى بعض الفقرات في كتابه لهذه الخطة في وصيته بقوله: "وبعد فراغك من الصلاة(الجمعة) تجلس بمجلسك للشكايات وتأخذ في قضاء الحاجات...وهذا المجلس من اليوم مخصوص للرعية والجمهور"، وكذا خطّة الحسبة ومهمتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد أعطيت لهذه الخطة أهمية كبيرة في تلمسان والمغرب الأوسط في العهد الزياني عامة وعهد أبي حمو موسى خاصة الذى إليها في وصيته لابنه[(50)].

لم يهمل أبو حمو موسى الجوانب الاقتصادية، فكان مهتما بالصناعة ويشجع عل احترافها بل وضع أصحابها في مرتبة الأشراف والفقهاء، وقام بتشييد دار الصناعة سنة766ه/1365من استقطب لها الصناع على اختلاف مشاربهم، وكان العمل بها نشيطا[(51)]، ووصفها يحيى بن خلدون بقوله: "إنّ دار الصنعة السعيدة، تموج بالفعلة على اختلاف أصنافهم وتباين لغاتهم وأديانهم...فتصطكّ لأصواتهم وآلاتهم الأسماع، وتحار في أحكام صنائهم الأذهان، وتقف دون بحرهم الهائل الأبصار..." [(52)].

واحتلت التجارة الدرجة الثانية باعتبارها أهم مورد لخزينة الدولة، فمداخيل هذا النشاط كانت معتبرة خاصة على مستوى مدنها الساحلية كوهران وهنين ومستغانم وتنس، واعتبرت الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط نقطة عبور وتواصل نحو السودان فالاتصال بين اوروبا والسودان كان يتم انطلاقا منها، إذ كان أغلب التجار الأوروبيون يقيمون بالمدن الساحلية ويفضلون الاستقرار بتلمسان لمراقبة القوافل التجارية القادمة من السودان وإجراء مبادلتهم التجارية عن طريقها، وهذا ما جعل الدولة الزيانية بأن تصبح سوقا كبيرة لتبادل السلع والبضائع القادمة من أوروبا والسودان الغربي وجعل منها أيضا دولة مزدهرة تجاريا[(53)].

وظلّت المناطق الصحراوية توفّر للزيانيين مداخيل كبيرة إذ كانت تستقطب أعدادا متزايدة من تجار الدولة الزيانية التي جذبتهم تجارة الذهب التي كانت رائجة بمنطقة مالي وغانا وبلاد السودان، ووجدوا في تجارة العبيد مكسبا مربحا إلى جانب العاج وريش النعام والبهارات التي كانت تلقى إقبالا من طرف التجار الأوروبيين[(54)].

لقد راجت تجارة القوافل بين المغرب الأوسط وممالك السودان الغربين فكان التجار يقومون برحلة تجارية مرة في السنة، تبدأ من تلمسان ثمّ تتجه غربا نحو فاس، ومن

هناك تأخذ طريقها إلى سجلماسة في اتجاه السودان الغربي، ورغم الصعوبات التي واجهت التجار إلا أن السلع عرفت طريقها إلى تلمسان حتى أصبحت هذه المدينة مركزا تجاريا يوازي ما كانت عليه مدينة سجلماسة وفاس من ازدهار اقتصادي.

مثلت تلمسان الزيانية محطة عبور للقوافل التجارية ومحطة شحن وتفريغ لمختلف السلع القادمة من بلاد السودان الغربي والمشرق وأوروبا ومن المغرب أيضا، وهذا ما زاد من تنشيط التواصل الحضاري بين مختلف أقاليم وبلاد المغرب الإسلامي.

الخاتمة:

من خلال العناصر التي تناولناها في هذا البحث ندرك ونخلص إلى مجموعة من النتائج نذكر منها:

- أن أبا حمو موسى سنّ نظام حكم خاصا بدولة بني عبد الواد على نمطه الخاص، الذي يمتاز بالليونة والمرونة، والذي نجد أنه يتفاعل كثيرا وإلى حد كبير مع المجتمع البربري آنذاك.

- إنّ النظام الذي أراد تجسيده وتطبيقه في كيان الدولة الزيانية لم يكن مرده ومبعثه الفقهاء بحجة أنه نظام إسلامي، بل يعد هو من أسس هذا النظام بصفته رجل سياسة وصاحب حنكة وحسّ سلطوي، دون أن يغلق دائرة السياسة على رجال دولته من قضاة وفقهاء وعمال ووزراء وحجاب وغيرهم.

- لقد قدم كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك" نموذجا رائعا لمفكر سياسي مسلم جمع بين الخبرة العلمية وممارسة السلطة لمدت فاقت الثلاثين سنة، واطلاعه على آراء وأقوال سابقيه من الملوك والعلماء، ودرايته وتشربه معارف عصره.

- والحقيقة التاريخية التي يمكننا الوصول إليها هي أن أبا حمو موسى وضع الأسس الأولى لنظريته السياسية (نظرية الحكم) كفرضية للتنظير لباقي الأسس الأخرى باعتبار أن موضوع نشأة الحكم وقيام الدولة هي أول موضوع تعالجه النظريات السياسية، وهذا الذي بينه كل من يحيى وعبد الرحمن ابن خلدون، أنه مباشرة بعد اعتلائه العرش شرع في تنظيم السلطات وأركان دولته، استكمالا لنظرية الحكم.

- إن نظرية الحكم عند أبي حمو موسى فاقت في محتواها ما جاء به كتاب "واسطة السلوك"، فقد ترك لنا مصدرا تضمن مفاهيم يمكن أن تطبق على أرض الواقع، فمرجع هذا الفكر هي التجربة التاريخية، وكونه بربري الأصل، درس نفسية الفرد البربري فكان التخطيط لنظام حكم صالح التطبيق والتنفيذ.

- إن السياسة في نظره ليست هي كسب الحرب فقط، بل كسب الحرب وكسب السلم وقت السلم، وبهذا جدد تاريخ الدولة من خلال فكرة "النسب الشريف"، فاشتراط النسب طرحه من أجل رفع التنازع على السلطة وحماية الدولة من الانهيار، فحتى لو فكّر في المصلحة الفردية فهي في نفس الوقت مصلحة عامة، بهذا أسقط عنه الكثير من الباحثين تهمة الملك المستبد.

الهوامش:

1. كثيرة هي المصادر التي تحدثت عن عدل وتسامح وبساطة ووسطية الأئمة الرستميين وعن حكمهم الراشد خصوصا الأوائل منهم: عبد الرحمن بن رستم، عبد الوهاب بن عبد الرحمن، أفلح بن عبد لوهاب...ومن هذه المصادر: الشماخي "سير المشائخ"، ابن الصغير "أخبار الأئمة الرستميين"، الدرجيني "الطبقات"، أبو زكرياء يحيى "الأئمة الرستميون وأخبارهم، وغيرها.

2. أبرزت العديد من المراجع والدراسات الحديثة العربية والأجنبية عن تلك الآثار والشواهد التي تدل على تأثير المغرب الأوسط في العهد الرستمي في دول الجوار خاصة الأندلس والسودان الغربي ومن هذه الدراسات: ابراهيم بحاز "الدولة الرستمية.." و"عبد الرحمن بن رستم"، محمد علي دبوز "تاريخ الجزائر الكبير"، عبد الكريم جودت "أوضاع الدولة الرستمية الاقتصادية والاجتماعية.."، علي بن معمر "الإباضية تسير"، وداد القاضي "عبد الرحمن بن رستم" ...، وجورج مارسيه ودوسوس لامار وغيرهم كثير.

3. أبو حمو موسى الثاني: واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق محمود بوترعة، دار النعمان للطباعة والنشر، برج الكيفان، الجزائر، 2012، ص37.

4. عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزيّاني، دار موفم للنشر والتوزيع، ج1وج2، الجزائر، 2002.

5. عطاء الله دهينة : المملكة العبد الوادية في عهد أبي حمّو موسى الأوّل إلى أبي تاشفين الأوّل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985.

6. بوزياني الدراجي : نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993.

7. حسين تواتي : الوظائف السلطانية في الدولة الزيانية– الكتابة أنموذجا- (633-791ه/1236-1391م)، مذكرة ماجستير في التاريخ الحضاري للمغرب الإسلامي، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة تلمسان،2013-2013.

8. سمير مزرعي: نظرية الحكم عند أبي حمو موسى الثاني، مجلة عصور، العدد 24- 25، جامعة وهران، جانفي- جوان، 2015، ص346.

9. هو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان بن محمد بن زكرار بن بندوكس بن طاع الله...للمزيد ينظر، يحيى بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح، ألفريد بل، مطبعة بيير فونتان الشرقية بالجزائر، 1903،عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ بن خلدون، كتاب البر، ج7التنسي: نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان، لسان الدين بن الخطيب: نفاضة الجراب في علال الاغتراب، تح، أحمد مختار عبادي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة.

10. ابن ظفر الصقلي: سلوان المطاع في عدوان الأتباع، تقديم وتحقيق د.عبد الحميد حاجيات، دار الألمعية للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2011، ص33.

11. المصدر نفسه، ص34.

12. يحيى ابن خلدون: بغية الرواد، المصدر السابق، ج2، ص- ص 53- 78- 333- 354.

13. سبط ابن الحوزي: كنز الملوك في كيفية السلوك، تحقيق: جوستاف يتستام، لوند (السويد)، 1970.

14. ابن ظفر الصقلي: سلوان المطاع، المصدر السابق، ص55.

15. عبد الرحمن بن خلدون : العبر، المصدر السابق، ج7، ص164.

16. يحيى بن خلدون : بغية الرواد، المصدر السابق، ج2، ص 37- 38.

17. حسين تواتي : الوظائف السلطانية في الدولة الزيانية، المرجع السابق، ص59.

18. أبو حمو موسى: واسطة السلوك، المصدر السابق، ص51.

19. سمير مزرعي: نظرية الحكم، المرجع السابق، ص349.

20. عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة، ص242.

21. المصدر نفسه، ص243.

22. ابن الأحمر: روضة النسرين، ص- ص 12- 33، القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص487.

23. أبو حمو موسى: واسطة السلوك، ص 55- 56.

24. ابن رشد محمد بن أحمد القرطبي: الضروري في السياسة (مختصر كتاب السياسة لأفلاطون)، تر أحمد شحلان، إشراف محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص102.

25. سمير مزرعي : نظرية الحكم، المرجع السابق، ص 355.

26. ومن هذه البيعات نذكر : المصافحة بصفقة اليد، تقبيل اليد، أيمان البيعة...، بوزيان الدراجي: المرجع السابق، ص88.

27. سمير مزرعي، المرجع السابق، ص357.

28. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص 167.

29. أبو حمو موسى الثاني: واسطة السلوك في سياسة الملوك، ص37.

30. المصدر نفسه، من ص 239إلى ص269.

31. المصدر نفسه، من ص50 إلى ص78.

32. المصدر نفسه : من ص 50 إلى ص78.

33. المصدر نفسه : من ص 81 إلى ص 208.

34. المصدر نفسه، من ص 209 إلى ص 225.

35. المصدر نفسه، من ص 226 إلى ص 252.

36. المصدر نفسه، ص211.

37. المصدر نفسه، ص- ص 212- 216.

38. الرمس: القبر المستوي مع وجه الأرض، فإذا كان القبر مدرما مع الأرض فهو رمس أي مستويا مع وجه الأرض، ابن منظور: لسان العرب، مادة رمس.

39. أبو حمّو موسى: المصدر السابق، ص219.

40. سورة الحشر، الآية 9.

41. أبو حمو موسى : المصدر السابق، ص220.

42. سورة آل عمران، الآية 134.

43. حسين تواتي : المرجع السابق، ص127.

44. المصدر نفسه .

45. أبو حمّو موسى : المصدر السابق، ص124.

46. خالد بلعربي: تلمسان من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الزيانية (55-633ه/675-1235م)، ط1،دار الألمعية للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2011، ص281-282.

47. بوزياني الدراجي، ص-ص10-24.

48. بطيب الهوارية : السوق في الدولة الزيانية 646-952ه/1248-1545م) مذكرة ماجستير، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2002-2003،ص75.

49. خالد بلعربي: الدولة الزيانية في عهد السلطان يغمراسن-دراسة تاريخية وحضارية، دار الريّان للنشر والتوزيع، تلمسان،2005ن ص143.

50. خالد بلعربي: تلمسان من الفتح الإسلامي،ص307؛ بوزياني الدراجي، ص85.

51. عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج2، ص221.

52. يحيى بن خلدون، المصدر السابق،ج2،ص161.

53. بطيّب الهوارية : المرجع السابق، ص9.

54. خالد بلعربي : تلمسان من الفتح الاسلامي، ص267-268.

الوضع الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الأوسط في العهد الزياني

الأستاذة نعيمة بوكرديمي
جامعة حسيبة بن بوعلي/ الشلف

تمهيد:

اتسم الوضع الاقتصادي والاجتماعي في البلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني بنوع من التدهور والانهيار مقارنة بالقرون التي سبقته، ويرجع ذلك لعدة عوامل، أبرزها العامل السياسي الذي اتسم بعدم الاستقرار وتأثره السلبي على الإنتاج الزراعي والصناعي من جهة، والحروب والصرعات بين دول المغرب الإسلامي، وانتشار الفتن الداخلية، وسطو القبائل وقطاع الطرق التي أظرت بمصالح السكان، زيادة على ارهاق صغار الفلاحين بالضرائب الثقيلة والظروف الطبيعية المتردية كالجفاف والمجاعات التي تعود أسبابها إلى الحصار الذي فرضه السلطان أبي يعقوب يوسف الزياني على مدينة تلمسان لمدة ثماني سنوات وثلاثة أشهر الامر الذي أثر تأثيرا سلبيا على النشاط الاقتصادي ومن ثم ساهم في تدهور الوضع الاجتماعي.

أولا- الأوضاع الاقتصادية:

تنوعت الحياة الاقتصادية في بلاد المغرب الاوسط وشملت مجالات متنوعة مثل الزراعة والصناعة والتجارة، وجاء هذا التنوع في مصادر الاقتصاد لبلاد المغرب الاوسط هو الموقع الجيوسياسي الذي جعلها مركزا لطرق التجارة من مختلف الجهات. ويمكننا القاء نظرة مركزة على هذا القطاع كمايلي:

1. الإنتاج الزراعي:

لقد تنوعت ألوان النشاط الزراعي في المجتمع الزياني، بينما هو منتوجات زراعية ومنتوجات حيوانية، وذلك لكثرة السهول الخصبة والمراعي الطيبة[1]، ومن أهم المحاصيل الزراعية والمنتوجات الحيوانية التي كانت تشتهر بها بلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني ما يلي:

أ- زراعة الحبوب:

تعد الحبوب اكثر المزروعات انتشار بالدولة الزيانية، باعتبارها المورد الغذائي الرئيسي سواء بالنسبة للعائلة الزراعة أو بالنسبة للحيوانات المستخدمة في الزراعة[2]، وكانت هذه الزراعة تشمل القمح والشعير والحمص والفول والعدس والذرة والجلبانة بالدرجة الأولى، بالإضافة إلى زراعة القطن والكتان وقصب السكري وسائر الحبوب الأخرى والفواكه. ومن بين العوامل التي ساعدت على هذا التنوع والوفرة في زراعة الحبوب، تفنن السكان في استجلاب المياه من الأنهار، واستخراجها من باطن الأرض، وإقامة السدود وحفر القنوات لتوصيل مياه السقي إلى الأماكن المحرومة منها، وإقامة الطواحن المائية على الأنهار[3]. أما عن المناطق التي كانت تنتشر فيها فنجد سهل تسالا[4]، وكذلك سهل ملاتة ناحية وهران[5]،وسهل البطحاء[6]وسهل تنس وسهول أرزيو ومستغانم وبرشك ومدينة ندرومة وأرشكول[7]. ونظرا لهذا الانتشار الواسع لزراعة الحبوب، فقد تمكنت الدولة الزيانية خلال هذه الفترة أن تنتج أكثر مما تحتاجه وتصدر لبلاد الأندلس ما تحتاجه من مختلف الحبوب[8].

ب- الأشجار المثمرة:

اهتم سكان الدولة الزيانية بزراعة الأشجار المثمرة ومنها أشجار الزيتون والتين والكروم والرمان والسفرجل والتفاح والكرز والمشمش والزعرور والخوخ والبرقوق والجوز واللوز والتوت والليم والنارنج والنخيل بجنوب البلاد[9]. أما عن مناطق انتشارها، فتشير المصادر إلى وجود زراعة الزيتون والكروم في كل من هنين وتلمسان الذي كان يستعمل بهما كطعام من جهة، كما كان يستعمل للإضاءة ولعلاج وتزين المنازل من جهة أخرى وزراعة التمور في نيكوارين في شمال توات، والقطن الذي كانت تنتشر زراعته في ندرومه ومستغانم، حسب ما يؤكده الحسن الوزان بقوله عنها: تبدو ندرومة الأن مزدهرة، لأن الصناع كثيرون فيها وتصنع بها على الخصوص أقمشة القطن الذي ينبت بالمنطقة كمستغانم التي كان يبذر في أراضيها فيجود[10].

ت- **الثروة الحيوانية:**

لقد كانت أراضي الدولة الزيانية مرتعا ومرعى لمختلف الحيوانات، وخاصة الأغنام والخيول والأبقار والحمير، التي كانت تحضى بعناية كبيرة من قبل الدولة الزيانية وكان ينتفع بألبانها وزبدها ولحمها وجلدها وصوفها، علاوة على استعمال الثيران في حرث الأرض. وكانت الأبقار تربى في المناطق الشمالية من الدولة، حيث تكثر المراعي الخضرة والاعشاب الكثيرة، أما تربية الأغنام، فكانت تنتشر في الهضاب العليا جنوب تلمسان، كما كانت تربي في تاهرت، وكانت تمول الحرفين بالدولة الزيانية بكميات كبيرة من الصوف[11].

وفيما يخص تربية الخيول، فقد عرفت هي الأخرى اهتماما كبيرا لدى الزيانين ويعود سبب ذلك إلى استعمالها في وقت الحروب الزيانية مع جيرانها الحفصين والمرينين، كما كانت معدة لركوب الفرسان منتشرة في السهول والهضاب العليا[12].

ج- تربية الطيور الداجنة والنحل:

كذلك، نجد ان سكان الدولة الزيانية ابدوا اهتماما بتربية الطيور الداجنة من دجاج وحمام وبط واوز من أجل الانتفاع من بيضها ولحومها[13]، كما اعتنوا بتربية النحل، لحاجاتهم لعسلها، فقد ذكر الحميري أن تاهرت لها العسل واللبن وسائر غلاتها كثيرة[14]، وكانت برشك لها بادية يشترون العسل من الشجر والأجباح لكثرة النحل بالبلد[15].

2. الإنتاج الصناعي:

لقد ساعد توفر المادة من ثروة زراعية وحيوانية ومعدنية كالصوف والحرير والكتان والجلود والأخشاب والخزف على تنوع الصناعات بمختلف المدن الزيانية كصناعة النسيج التي ازدهرت وتطورت بفعل الهجرة الأندلسية لتلمسان في عهد السلطان يغمراسن واشتغال هؤولاء الاندلسين في الطرز ونسج الحرير وحياكة القطن والكتان وغزل الصوف التي كانت في المدن الزيانية كالعاصمة تلمسان وهنين وندرومة وبرشك[16].

وحول ذلك يذكر صاحب زبدة التاريخ قائلا: "وكان لعهد نزول الاندلسين بها (تلمسان) مزدانة بالمصانع المفيدة، فما شئت من أطرزة ومنتوجات الحرير والقطن والكتان والصوف"[17]، بالإضافة إلى ذلك عرفت الدولة الزيانية صناعة الأحذية الجلدية مثل البشماق الخاص بالنساء وصناعة السروج والطبول والدفوف وصناعة السروج

وصناعة الاواني الفخارية ذات الاستعمال المنزلي كالكؤوس والأطباق والأقداح والأباريق وصناعة الصابون والحلف، والقفف والسلال وصناعة مواد البناء مثل الأجر والقرميد اللذان كان يستعملان في بناء المساجد الزيانية وصناعة الأثاث الخشبية مثل الأبواب والنوافذ والخزائن، والتي عرفت ازدهارا بوفرة الأشجار بها، والتي تأثر فيها الزيانيون بالصناعة الأندلسية[18] وصناعة العطور والشمع والزجاج والحديد، وصياغة الذهب والفضة، وصناعة الزليج وصناعة الثياب الرفيعة التي اشتهرت بها مدينة تلمسان، وهي تعتمد على الاتقان في النسيج وجودة النوع والشكل مع الدقة واللطافة والخفة كصناعة البرانيس والكساء الحريري، وحول هذه الجودة والرونق الجمالي، يؤكد العمري في كتابه مسالك الايصال قائلا: "كان السلطان الحفصي يلبس قماشا يعرف بالتلمساني مما يصنع بتلمسان، وهو إما صوف خالص أو حرير خالص مختم"[19]، وهذا النشاط الصناعي من النشاطات الثمنية التي كانت ولازالت تفتخر بها مدينة تلمسان[20].

3. النشاط التجاري:

لقد ساعد الموقع الجغرافي الممتاز للدولة الزيانية باعتبارها ملتقى للقوافل البرية والبحرية من جهة وهمزة وصل بين الشرق والغرب والشمال والجنوب من جهة أخرى على ازدهار تجارتها بنوعيها الداخلية والخارجية فالنسبة للتجارةالخارجية فقد أشار الرحالة العرب والجغرافيين الذين تحدثوا عنها على ان تلمسان كانت بمثابة محطة تلتقي فيها البضائع القادمة من الشمال، كما كانت القوافل الجنوبية تتوافد عليها لما كانت تتلقى فيها من تسهيلات وهذا ما كان يغري التجار على الدوام[21]، كما ظلت لعدة قرون ملتقى للمبادلات التجارية بين افريقيا السوداء من جهة وبين بلاد الأندلس وأوروبا من جهة أخرى[22].

وقد تأسست لذلك شركات تجارية أشهرها شركة الاخوة المقري التلمسانين الذين قاموا بتنظيم المبادلات التجارية بين الدولة الزيانية وبلاد السودان ولعبوا دور الوسيط بين تلمسان وما كان يستورد من سلع من بلاد الاندلس وجنوب أوربا، وهمزة وصل بين تلمسان وبلاد السودان، وكان هؤلاء الاخوة يقومان بتوثيق الاتصال بين الأسواق المغربية والسودانية، ويبلغان الاخبار عن أسعار السلع، وحول هذه الشركة يقول المقري: "كان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع ويبعث إليه الصحراوي بالجلد

والعاج والتبر"[23] وقد وصف الحسن الوزان في كتابه التجار الزيانيون بقوله "وكان تجار بني عبد الواد على قول الوزان أناس مخلصين أمناء في تجارتهم، فكانوا يحرصون دائما على أن تكون بلادهم مزودة بالمؤن على أحسن وجه"[24].

بينما شملت الواردات بالدرجة الأولى تجار الذهب التي ساهمت في اثراء السكان الزيانيون[25]، أما فيما يخص التجارة الداخلية فقد كانت نشيطة بين مختلف مدن الدولة الزيانية، ومما ساهم في تنوع المنتوجات الزراعية والصناعية ووفرة الأسواق الأسبوعية وانتظامها بحيث كان لكل سوقا نوعا من المنتوجات الخاصة به[26].

ثانيا: الأوضاع الاجتماعية:

1. التركيبة السكانية للمجتمع الزياني:

مما لا شك فيه أن غالبة سكان المجتمع الزياني كانوا يتكونون من البربر والعرب الذين وحد بينهم الدين الإسلاميوللغة العربية من جهة، ورابطة المصاهرةمن جهة أخرى[27] فالنسبة للعنصر البربري، فله أجناس كثيرة، ومن أشهر تلك الاجناس زناته، ومن أشهر قبائلها مغراوة وبنو يفرن وجراوة وجديجن وغمرة وبني راشد وبني زردال وبني ورنيد وبني زنداك وغيرهم[28].

أما بالنسبة لمعيشة هذه القبائل، فقد اختلفت فمنهم الفلاحون ومنهم البدو الرحل الذين استقروا بالسهول العليا وامتهنوا حرفة الرعي حيث المراعي الخصبة[29]، ومنهم من امتهنوا الصناعة والتجارة[30].

أما فيما يخص العنصر العربي فقد استقر في بلاد المغرب الإسلامي مع العرب الفاتحين وخاصة عرب الشمال وعرب الجنوب (القبائل اليمنية والمضرية) كما استقرت به قبائل أخرى قدمت من العراق والشام والحجاز ومصر وبلاد فارس[31]، وقد نتقلت هذه القبائل إلى بلاد المغرب الأوسط واستطاعت أن تختلطفيما بينها عن طريق المصاهرة، وتتحضر شيئاً فشيئاً حيث شغلوا مناصب سامية، وسكنوا الدور والقصور بعد ما كانوا سيكنون الخيام[32].

وتجدر الإشارة إلى أن الأندلسيون الذين لجأوا على بلاد المغرب الأوسط كانوا أهل حضارة وعلم وفن وصناعة، فنشروا حضارتهم وعلمهم في الأوساط المجتمع الزياني

وبفضلهم أصبحت تلمسان العاصمة تضاهي العواصم العربية الإسلامية الأخرى كفاس وتونس وغرناطة[33]. ويؤكد صاحب فصل الخطاب بأن السلاطين الزيانين، وفي مقدمتهم يغمراسن فضل إسكان المهاجرين الاندلس في مدينة تلمسان دون سواها من المدن الأخرى، كما أسقطوا عنهم في الكثير من الأحيان الضرائب وخصوهم بالكثير من الأعمال الخيرية التي عادت عليهم وعلى البلاد بالنفع والرفاهية[34]

أما عن فئة المسيحيون، فتعود علاقتهم بالمغرب الأوسط إلى الفترة التي سبقت تأسس الدولة الزيانية ويظهر أنهم وفدوا من مدن أراجونة وقشتالة وميورقة، ومن جمهوريات إيطاليا مثل البندقية وجنوة وبيزة ومن فرنسا[35]، وقد وظفهم السلطان يغمراسن كمرتزقة في جيشه، وبعد ازدياد نفوذهم حاولوا القيام بانقلاب ضد يغمراسن، غير أنه استطاع أن يفتك بهم[36]، وإلى جانب الأجناس السابقة عرف المجتمع الزياني فئة اليهود الذين استقروا بالدولة الزيانية نظرا لما كانت تتمتع به من موقع جغرافي ممتاز، نضراً تحكمها في الطرق التجارية الكبرى[37] كان اليهود يعتبرون من العناصر الأساسية في المجتمع الزياني، وقد استطاعوا أن يتمتعوا فيه بمكانة هامة خصوصا نتيجة مساهمتهم الفعالة في الحياة الاقتصادية، ومن ثم حظو بالعناية الفائقة من قبل السلطان يغمراسن[38].

أما الأغزاز فهم من القبائل التركية، التي كانت تسكن أواسط آسيا غير أنه منذو سقوط دوحة الموحدين وظهور الدويلات المستقلة الثلاث على أنقاضها استخدموا ضمن جيش الدولة الزيانية، وقد اختلفت المصادر في تحديد انتمائهم فمنهم من أرجع نسبهم إلى الأغزاز[39] ومنهم من جعلهم أكراد، وبدوا هذا الاختلاف في بينهم يرجع إلى وجود فرقتين في جيش السلطان الزياني يغمراسن الأولى من الأعزاز من الاكراد قبل أن يدمجوا في المجتمع الزياني[40] .

2. طبقات المجتمع الزياني:

يمكننا أن نميز طبقتين في المجتمع الزياني هما الطبقة العامة، والطبقة خاصة.

أ. الطبقة الخاصة: تتكون من:

- الطبقة الحاكمة: وتتمثل في السلاطين والحكام والأمراء والوزراء والولاة وهم في الغالب ما ينتمون إلى الأسرة الحاكمة[41].

- طبقة الجنود: وهم الفرسان المحاربون، وكانوا يتمتعون بامتيازات خاصة في عهد الدولة الزيانية جعلت منهم طبقة متميزة خاصة فيما يتعلق بالراتب الشهري[42].
- طبقة رجال الدين: وهم مجموعة الفقهاء والخطباء والقضاة وأهل العدل[43].
- اهل العلم: ويعرفون بأهل القلم أو أهل الكتابة، وهم يشتغلون في دواوين الدولة[44].
- طبقة كبار التجار: وهي فئة احتلت مكانة مرموقة في المجتمع ويبدوا أن هؤلاء التجار قد احتلوا مناصب عالية في الدولة بحكم الثروة الطائلة التي كانت بحوزتهم من وراء الأرباح التي كانوا يحصلونها من وراء نشاطهم التجاري[45].

ب. الطبقة العامة:

وتشمل الفئات الاتية:

- الفلاحين: ويشكلون الغالبية العظمى من سكان البلاد، كانت الزراعة هي النشاط الأساسي الذي يمارسونه في حياتهم[46].
- الصناع والحرفيين: تدخل هذه الفئة ضمن الفئات الدنيا، وصفهم الحسن الوزان بقوله: "والصناع أثرياء يعيشون في هناء ومتعة ويحبون التمتع بالحياة"[47].
- صغار التجار: وهم أصحاب الحوانيت المختلفة في المدينة، وهم يعتمدون على ما يكسبونه من أرباح في تجارتهم البسيطة[48].
- العبيد: أصلهم من بلاد السودان الغربي، وكان أغلبهم يعملون في مجالات الفلاحة، وكجنود في الجيش. وهناك الجواري واللاتي يعملن في المنازل [49].

3. <u>العادات والتقاليد الاجتماعية:</u>

هنالك العديد من العادات والتقاليد الاجتماعية التي اعتاد على القيام بها سكان منطقة المغرب الاوسط، ومنها نذكر:

أ- <u>الاحتفال بالمولد النبوي الشريف:</u>

لقد انتشرت هذه العادة بين بلدان المغرب الإسلامي بصفة عامة والزيانيين على وجه الخصوص، وتطورات تطورا بلغ غايته في الزينة والبهجة في عهد الدولة الزيانية وخاصة في

عهد السلطان أبو حمو موسى الزياني الثاني الذي كان يخصها باحتفالات وبهيج وعرس حافل كان يحضره الخاص والعام، بما فيهم السلطان نفسه الذي كان يحييها باشتعال الشموع وتلاوة القرآن الكريم، وتكريم حفظته والتغني بسيرة الرسول(صلى الله عليه وسلم) من خلال القصائد لشعرية والمدائح النبوية[50] ومن العادات الاجتماعية التي اهتم بها الزيانيون الاحتفالات بمناسبة ختم أولادهم القرآن الكريم وخير مثال على ذلك قيام السلطان أبو حمو موسى الثاني بتنظيم احتفال كبير 770ه بمناسبة ختم ولده الناصر لسورة البقرة[51].

ب-<u>عادات وتقاليد الزواج:</u>

لم تكن عادة الزواج بالمجتمع الزياني تختلف عما كانت موجودا في بقية البلاد الإسلامية، فقد كانت الاسر التلمسانية في العهد الزياني تتقدم لخطبة احدى البنات لأحد أبنائها، بعدما يقع اختيار الشاب عليها ويرتضيها زوجة أو شريكة له في حياته، أو التكلم عنها وهي لازالت في سن الصبا، وقد كان الصداق خاضعا للحالة الاجتماعية والمادية للزوج، فمن كان ثريا كان يقدم صداقا من الحلي والفرش والألبسة، ومن كان فقيرا فكان مهره يحدد بالدنانير[52]، أما فيما يخص وليمة العرس، فقد كان الزيانيون يقومون بذبح الذبائح وتقديم الأطعمة للمدعوين، وفي الحقيقة فإن وليمة العرس وليمتان أحدهما للنساء تقام ببيت العروس، وأخرى في بيت العريس، وربما أقيمت الوليمتان في بيت واحد[53].

ت-<u>أنواع المأكولات:</u>

لقد عرف المجتمع الزياني بتنوع المأكولات ويأتي في مقدمة المأكولات الكسكس والبسيسة، وكانت تصنع بسميد الشعير المحمص والزيت والماء، كما عرفوا الدشيش، وهي عبارة عن شربة مصنوعة بالشعير المطحون بطريقة خشنة، كما عرفوا أكل لحم الدجاج بالزيت والفول المطبوخ واللبن والسمن والسلق المطبوخ بالحمص واكل الشواء بالنسبة للطبقة الثرية، إضافة إلى الأشربة كشراب الجزر والنعناع والتفاح وغيرها[54]. أما فيما يخص الحلويات، فقد كانوا يصنعونها في موسم الأعياد الدينية كعيد الفطر وعاشوراء وعيد الأضحى ورمضان مثل الكعك والزلابية وغيرها[55].

ث- الملابس:

كان سكان المدن في المجتمع الزياني يرتدون ثيابا ذات جودة ونوعية رفيعة وأنيقة، كانوا يستوردونها من بلاد الاندلس بحكم قرب الموانئ التي تشتهر بصناعة المنسوجات كالمرية أما سكان البوادي، فكانوا يرتدون الألبسة الخشنة المصنوعة من الصوف والكتان حسب طبيعتهم[56] إذا قرنوا بالأثرياء الذين كانوا يرتدون الألبسة الفاخرة من الحرير والقطن والصوف الرفيع[57].

ج- عادة زيادة الأولياء:

تعد عادة زيادة الاولياء من بين العادات المنتشرة بشكل كبير داخل الدولة الزيانية خاصة لدى الطبقة العامة التي عرفت بتقديرها واحترامها للأولياء الصالحين والظاهر أن هذا التقدير لم يحظى به الاحياء فحسب، وإنما كذلك الأموات منهم، فقد كان كل من السلاطين الزيانين والعامة في المجتمع الزياني يترددون على زيارة الأولياء نظرا لما كانوا يتمتعون به من مكانة خاصة عند الله، وبحكم ما قدمون هؤلاء الأولياء من خدمات خليلة للعوام[58].

ح- الفروسية:

اشتهر بنو زيان بالفروسية، إلى درجة أنهم نالوا اعجاب السلاطين الزيانين الذين استخداموهم لديهم ومنحوهم الأراضي المحيطة بتلمسان[59].

خ- عادة الاتحاد:

الواقع أن أغلبية قبائل المغرب الأوسط في العهد الزياني كان يربطهما رابط الاتحاد القائم على مبدأ الود والتعاون وخصوصا قبائل بني راشد وهارة وبني سلامة ومطاطة وغيرهم، ولعل هذا الاتحاد كان يبنى على أساس المصلحة الاقتصادية، التي استفاد منها السلاطين في توطيد حكمهم وتوسيع رقعة دولتهم[60].

الخاتمة:

وفي الختام يمكننا القول من ان رغم الواقع السياسي المضطرب الذي ساد بين دويلات المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة، إلا أن ذلك لم يمنع من وجود حركية اقتصادية نشيطة ومزدهرة من جهة، وتنوع اجتماعي أفرزته الظروف المعيشة والبيئية من جهة أخرى. ومن هنا، وجدنا من خلال صفحات البحث كيف تميزت منطقة المغرب العربي خلال الحقبة الزيانية بهذا التنوع الاقتصادي الذي يعكس حالة من الرقي والرخاء مما ساعد في خلق حالة من التنوع الاجتماعي من حيث العادات والتقاليد التي رسخت قيم المجتمع وحافظ عليها السكان عبر سنوات طويلة.

الهوامش:

1. لخضر عيدلي، التاريخ السياسي والحضاري لدولة بني عبد الواد، دار ابن النديم للنشر والتوزيع، الطبعة 1، وهران، 2011، ص 189.
2. خالد بلعربي، الدولة الزيانية في عهد يمراسن، دراسة تاريخية وحضارية (633هـ-681هـ/1233– 1282)، دار الألمعية للنشر والتوزيع، الطبعة 1، الجزائر، 2011، ص 229.
3. العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق: محمد الفاسي، الرباط، 1968 ص 10؛ القلقشندي، الأعشى قي صناعة الانشا، المطبعة الأميرية، القاهرة 1915، الجزء 5، ص 150.
4. لمزيد من المعلومات حول ذلك ينظر: الحسن الوزان، وصف افريقيا، دار الغرب الإسلامي، الطبعة 2، بيروت، 1983، الجزء 2، ص 12.
5. لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 189.
6. الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 12.
7. المصدر نفسه، 26.
8. المصدر نفسه، ص 27.
9. محمد مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة جزائرية، 1966، الجزء 2، ص 378.
10. الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 386.
11. خالد بلعربي، المرجع السابق، ص 233.

12. المرجع نفسه، ص 223.
13. لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 191.
14. الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 126.
15. المصدر نفسه، ص 127.
16. ابن الأعرج، زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ، الخزانة الحسنية، الرباط، رقم 170، ورقة 96 – 97.
17. الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 36، خالد بلعربي، المرجع السابق، ص 338.
18. حسني مختار، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الدولة الزيانية، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم التاريخ/ جامعة الجزائر، 1986، ص 254؛ بلعربي خالد، المرجع السابق، ص 240.
19. العمري، كتاب مسالك الأبصار في عجائب الأمصار، القسم التابع مخطوط دار الكتب الوطنية، تونس مخطوط ورقة 197.
20. لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 191.
21. الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 23.
22. لخضر عبدلي، االمرجع السابق، ص 193.
23. المقري، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب تحقيق: احسان عباس، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ نشر، ج5،ص 206.
24. لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 193.
25. عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، ج2، ص 240، لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 193.
26. الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 21، لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 194.
27. المرجع نفسه، ص 197.
28. ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مطبعة بولاق المصرية، 1284، ص 54.
29. بلعربي خالد، المرجع السابق، ص 175.
30. عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، دار هوفم للنشر والتوزيع، الجزائر، ج1، ص 171.
31. النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مصطفى أبو ضيف، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1984، ص 175 – 200، بلعربي خالد، المرجع السابق، ص 277.
32. لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 198.
33. نفسه، ص 198.
34. نفسه، ص 198.

35. برد تشفيك روبير، التاريخ افريقية في العهد الحفصي إلى القرن 15، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 466.
36. ابن خلدون، العبر، ج7، ص 84 – 85.
37. خالد بلعربي، المرجع السابق، ص 285.
38. المرجع نفسه، ص 286.
39. المرجع نفسه، ص 287.
40. المرجع نفسه، ص 287.
41. لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 202.
42. الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 21؛ لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 202.
43. ينظر الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 20.
44. لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 202.
45. خالد بلعربي، المرجع السابق، ص 296.
46. لخضر عبدلي، التاريخ السياسي والحضاري لدولة بني زيان، المرجع السابق، ص 203.
47. الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 21.
48. خالد بلعربي، المرجع السابق، ص 290.
49. يحي ابن خلدون، بقية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الود، ج1، ص 206.
50. لخضر عبدلي، المرجع السابق، ص 204.
51. المرجع نفسه، ص 205.
52. خالد بلعربي، المرجع السابق، ص 298.
53. ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء العلماء بتلمسان تحقيق محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر (دت) ص 30.
54. المصدر نفسه، ص 90.
55. بلعربي خالد، الرمجع السابق، ص 305.
56. المرجع نفسه، ص 305.
57. ابن خلدون، المقدمة، ص 392.
58. عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، المرجع السابق، ج2، ص 390.
59. خالد بلعربي، المرجع السابق، ص 307.
60. المرجع نفسه، ص 307.

مكانة الـمدرسة اليعقوبية بتلمسان الزيانية
عند آل الشريف التلمسانيين

د. رشيد يماني
جامعة ابي بكر بلقايد/ تلمسان

عرفت مدينة تلمسان في العصر الوسيط بالعديد من الاسرة العلمية التي ذاع صيتها خارج حدود المدينة برجالها وانتاجهم العلمي المميز. لعل آل الشريف كانوا أولى البيوتات العلمية التلمسانية التي استأثرت بـمزاولة التدريس بالمدرسة اليعقوبية على اختلاف الـمواد المقدمة وطرق التلقين قبل أن تتولاها بيوتات أخرى . فقد كان بذلك أبو عبد الله الشريف من أوائل مشيخة هذه المدرسة، في حين زاول الدراسة بها فطاحل علماء المغرب الأوسط. وهذا يدفعنا لطرح التساؤلات الاتية: فهل كان للمدارس دورا في تأطير بيوتات العلم التلمسانية؟ أم أن بيوتات العلم التلمسانية هي التي كان لها الفضل في بروز وتطور تلك المدارس؟ .

النشأة، الموقع والملامح العامة :

توجد هذه المدرسة بجوار مسجد الشيخ ابراهيم المصمودي، شرق مسجد أبي الحسن وجنوب غرب المشور في حي باب الحديد، وبالتحديد عند باب إيلان[1]. بالقرب من مسجد إبراهيم المصمودي[2] والذي دفن هو الآخر بروضتها. للمدرسة موقعا استراتيجيا هاما من خلال توسطها المساجد التلمسانية غير بعيدة عن المسجد الجامع وعن المدرسة التاشفينية وفي الطريق المؤدية إلى القصر الملكي الزياني، والمدرسة تشرف على روضة ملوك آل زيان التي أقام بها السلطان أبو حمو الثاني مدفن والده وعميه . هذا وقد ذكر ابن كثير مدرسة مشرقية تأسست بهذا التاريخ وتسمى هي الأخرى باليعقوبية [3].

استغرق بناء هذه المدرسة قرابة سنتين حيث تم الانتهاء من إنجازها سنة 765ه/ 1364م حيث وصفها صاحب زهر البستان بقوله: " وأنشأ مدرسة القرآن والعلوم وأنفق فيها من الحلال المعلوم، فأقيمت مدرسة مليحة البناء واسعة الفناء بنيت بضروب من الصناعات" [(4)].

بالرغم من أنه وجد تضارب في الآراء التربوية بين أعلام هذا القرن في تلمسان بوجود مؤيدين ومعارضين لاختصاص المدرسة بالتعليم، فإنه يتضح جليا من أن الكتابات السلطوية قد أيدت ذلك من خلال التدريس والقيام على التأطير بالمدارس التي شيدها السلاطين، وإذا كان يحي ابن خلدون قد أبرز أهمية تشييد المدرسة اليعقوبية وحظوتها عند السلطان أبي حمو موسى الثاني[(5)]؛ ورغب التنسي في التدريس بها، وساند ابن مرزوق ذلك بإبداء رأيه صراحة في المسند [(6)]. فإن الشريف التلمساني لم نجد أي أثر لرأي من آراءه حول المدرسة وتشييدها إلا أننا ندرك أنه كان لا يأخد الجرايات والمرتب في مدرسته ولا في غيرها، إنما كان ينفق من مال أبيه ويكتفي به[(7)].

إن الـمدرسة اليعقوبية ونظرا لتعدد الخدمات والمرافق بها استلزم وضع جل الوظائف تحت رعايتها، فكان رسم جميع الخطط بهذه المدرسة بإشراف السلطان نفسه أبي حمو موسى الثاني، وهذا دليل على حضور السلطة بالمراكز التعليمية وتنظيمها إداريا، كما عملت كذلك على تنصيب وتعيين عميدها فمثل أبي عبد الله الشريف بـمثابة أول مدرس ومسؤول عنها[(8)] يتولى تدريس العلوم الشرعية والعقلية وفق برنامج ومناهج معينة .

مواد التدريس بالمدرسة اليعقوبية :

ذكر التنسي أثناء اشتعاله بالمدرسة عنايته بالتفسير وهذا لا يعني اقتصارها على هذه المادة فقط بل استأثرت مثل هذه المواد بالبرامج، ويبدو أن هذه المادة كانت تعد من البرامج اليومية مع الحديث والفقه واللغة .

كما ذكر الونشريسي في معياره أنه كان يتولى تدريس فن من ضروب العلم في فصل من فصول السنة أو جلها[(9)]، وأورد لنا العالم الرحالة الأندلسي القلصادي نزيل تلمسان عن وقت الدراسة، وإن كان تباين في تدريس المواد في أقطار بلاد المغرب الإسلامي حسب المؤرخين، فيبدو واضحا أن علوم التعاليم كان لها وقتا معينا بتلمسان الزيانية، وهو زمن الصيف حسب رواية القلصادي الذي كان متضلعا فيها، وذلك حين حل بتلمسان للأخذ عن أعلامها فدرس عند ابن زاغو الحساب والفرائض والهندسة[(10)].

ويروي لنا المجاري الأندلسي في فهرسة شيوخه أنه أخذ عن أستاذه سعيد العقباني بهذه المدرسة بقوله:" قرأت عليه بموضع إقرائه بالمدرسة ... وأجازني إجازة عامة"[11]. إلا أننا هنا لا يمكن الجزم إن كان مقصد المجاري من الـمدرسة هو فعلا الـمدرسة اليعقوبية، وأنها كانت متخصصة في علوم التعاليم، أو أن العقباني وحده كانت له خصوصية التدريس فقط في هذه المدرسة، أو أن بالمدرسة في حد ذاتها يوجد زوايا ومواضع مخصصة لتعليم مثل هذا اللون العلمي . ويقول القلصادي بطريقة غير مباشرة في شأنها حين ذكر حلقة ابن زاغو المغراوي :" لازمته في الحضور مع الجمهور في المدرسة اليعقوبية "[12]. وبالتالي يبرز جليا أن هذه الدراسة قد أخذت مكانتها واختصت بالرياضيات والحساب والفرائض، بل توارث الأساتذة في تدريس هذه المواد بها مدة زمنية طويلة فقد وجدنا على الأقل ثلة من هؤلاء الأعلام تتابعوا في التعليم بها وهم: سعيد العقباني، وابن زاغو المغراوي، وقاسم العقباني .

شيدت هذه المدرسة بأمر من الأمير الزياني أبو حمو موسى الثاني سنة 763هـ بعد أن تربع عرش تلمسان، خصصها لطلاب العلم وجعل فيها ضريحا إكراما لأبيه الأمير أبي يعقوب وعميه الأميرين أبي سعيد وأبي ثابت.وقد أخذت بذلك المدرسة اسم والد السلطان.

فقدت هذه المدرسة الكثير من ملامحها القديمة وأصبحت جزءا من مسجد الشيخ ابراهيم المصمودي ومن الضريح، فيصعب بذلك وصف أقسامها ومرافقها. وذكرها التنسي بقوله:"وله (أبو عبد الله المعروف بالشريف التلمساني) بنى مدرسة، حين توفي والده في تلمسان، ودفن بباب إيلان ثم نقل إلى جوار أخويه السلطانين أبي سعيد وأبي ثابت، فلما كملت المدرسة نقلوا ثلاثتهم إليها، واحتفل بها وأكثر بها الأوقاف، ورتب فيها الجرايات "[13].

يعد أبو عبد الله الشريف التلمساني أول المدرسين وعمدة المدرسة اليعقوبية حيث استدعي لهذه المهمة من فاس وذلك بعد عودة الحكم الزياني في عهد أبي حمو موسى الثاني وقد فال في شأنه ابن مريم : " استدعي الشريف من فاس .. فانطلق إلى تلمسان .. وتلقاه أبو حمو براحلته واصهر له ابنته فزوجها أياه وبني له مدرسة واقام الشريف يدرس العلم إلى وفاته ..." [14].

يبدو أن كل بيت من البيوتات خص بمدرسة من المدارس التلمسانية، كما جرى لبيت الشريف مع المدرسة اليعقوبية[15] ويرجع ذلك في غالب الأحيان إلى أوامر السلطة التي

ارتأت إلى توريث المنصب التعليمي . ومن جانب آخر لم تحدد السلطة المدة التي يقضيها الأستاذ الفقيه مسؤولا ومدرسا بالمدرسة حتى أنه في غالب الأمر كان يتابع مهمته التعليمية حتى وفاته، وعادة ما يستخلفه أحد أعقابه من بيته ابنا أو أخا، فقد خلف ابا عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني المتوفى سنة 771هـ / 1369م ابنه أبا محمد عبد الله الشريف بأمر من السلطان أبي حمو موسى الثاني وأعطاه المدرسة وأجلسه مجلس أبيه للتدريس ورتب له جميع مرتبه[16] والذي بدوره أخذ مكانه من بعده وبعد مرضه أخاه أبا يحيى عبد الرحمن الشريف[17].

قد لا يكون الإجراء السلطوي ساري المفعول مع كل البيوتات والمدارس، أو بالأحرى قد يتزامن جملة من الأعلام من ذوي البيتية فيكون وراثة كرسي العلم بالمدرسة من نصيب الأجدر حيث أن أعلام البيوتات التي زاولت مهمة التدريس بالمدرسة اليعقوبية من بعد الشريف كثيرون كالعقبانيون وابن زاغو المغراوي ...

لكننا لا يمكننا الجزم بأنه كان بالمدرسة عالم واحد يقوم بالمهمة، أو أعلام كثيرون ينفرد كل واحد منهم بزاوية من المدرسة لمباشرة فن من فنون العلم خاصة وأننا ندرك ان المدرسة كانت بها جل التخصصات من علوم نقلية وعقلية فقد أورد المجاري الأندلسي في فهرسة شيوخه أنه أخذ عن أستاذه سعيد العقباني بهذه المدرسة بقوله : " قرأت عليه بموضع إقرائه بالمدرسة ... وأجازني إجازة عامة "[18]. إلا أننا هنا لا يـمكن الجزم إن كان مقصد الـمجاري من المدرسة هو فعلا المدرسة اليعقوبية، وأنها كانت متخصصة في علوم التعاليم، أو أن العقباني وحده كانت له خصوصية التدريس فقط في هذه المدرسة، أو أن بالمدرسة في حد ذاتها يوجد زوايا ومواضع مخصصة لتعليم مثل هذا اللون العلمي . ويقول القلصادي بطريقة غير مباشرة في شأنها حين ذكر حلقة ابن زاغو المغراوي:" لازمته في الحضور مع الجمهور في المدرسة اليعقوبية "[19].

وبالتالي يبرز جليا أن هذه الدراسة قد أخذت مكانتها واختصت بالرياضيات والحساب والفرائض، بل توارث الأساتذة في تدريس هذه المواد بها مدة زمنية طويلة فقد وجدنا على الأقل ثلة من هؤلاء الأعلام تتابعوا في التعليم بها وهم: سعيد العقباني، وابن زاغو المغراوي، وقاسم العقباني .

أما عن وقت الدراسة، وإن كان تباين في تدريس المواد في أقطار بلاد المغرب الإسلامي حسب المؤرخين، لإانه يبدو واضحا أن علوم التعاليم كان لها وقتا معينا بتلمسان الزيانية، وهو زمن الصيف حسب رواية القلصادي الذي كان متضلعا فيها، وذلك حين حل بتلمسان للأخذ عن أعلامها فدرس عند ابن زاغو الحساب والفرائض والهندسة[20].

المعايير المعتمدة في اختيار الشريف التلمساني لتولي المدرسة اليعقوبية :

يبدو أنه كان للسلطة الزيانية مقاييس في اختيار وقبول المدرسين يرجع أولاها إلى التفوق العلمي محليا وإقليميا وسمعته في المجتمع التلمساني وشهرته في الحاضرة التلمسانية أو في الحواضر العلمية الأخرى إضافة إلى علو كعبه وموسوعيته ونبوغه في ضرب من ضروب العلم كالفقه ويُستحب كفاءته ونزاهته وفضله ومهابته.

إذا كان يحيى ابن خلدون مؤرخ السلطة الزيانية وبخاصة السلطان الزياني أبي حمو يورد الدافع الرئيسي في إنشاء المدرسة التي أرجعها لوفاة والده ابي يعقوب سنة 763هـ/ 1362 وأقام مقبرة لدفنه ودفن أسلافه كأبي سعيد وابي عثمان بباب إيلان فشرع لحينه في بناء مدرسة وزاوية على قبورهم[21]. وقد بين ذلك ألفريد بل وأكد أن اليعقوبية لقبا لاسم أبيه وهو مؤرخ في الرخامتين في باب المدرسة . فإنه في المقابل يرى عبد الرحمن بن خلدون أن سبب تشييد المدرسة هو اعتناءه ببيت الشريف وبخاصة بالفقيه أبي عبد الله الشريف التلمساني بقوله: " وله بني مدرسته الكريمة الذي كان به حفيا مكرما "[22]. وبين هاتين الروايتين نجد التنسي جمع بين النصين وذكر كلا السببين بقوله : " بنى له مدرسته الكريمة حين توفي والده[23].

وإذا كانت العوامل المؤثرة في السلطة آنذاك لاتخاذ مثل هذه القرارات وإسناد المهمة للبيوتات العلمية وأعلامها الكبار تتمثل في الجوانب السياسية من خلال التنافس السياسي بين الأقطار المغاربية في استقطاب العلماء واكتساب الشرعية لها، اعتمادا على علاقة المثقف بالسلطة وجلب الاسر العلمية الكبيرة ذات النفوذ التي تدور في فلكها البيوتات الصغرى والعامة من المجتمع. وكذا اعتماد المرجعية الدينية المتمثلة في المذهب المالكي ونشر تعاليمه والإفتاء من خلاله والاجتهاد فيه. فإن المعايير والأسس المعتمدة في انتقاء بيت الشريف للإشراف على اليعقوبية :

النسب :

انطلاقا من البناء الطبقي[24] الذي يمكن اعتماده في دراسة مكونات المجتمع المغربي الوسيط سنخلص إلى استئثار العنصر العربي سياسيا وفكريا واقتصاديا وليس ديموغرافيا، ويعود ذلك إلى عدة عوامل منها طبيعة الحكم السائد الذي يعتمد على العنصر العربي، وحتى إلى سكوت المصادر وشحها في تحليل ما أنتجته بقية العناصر من بـربر ومولـدين وذميين،إضافة إلى إمكانية عدم اندماجه مع بقية العناصر.

وقد خصص ابن خلدون في المقدمة فصلا حول أهمية النسب في اصطناع البيوتات: "في أن البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم"،ويستشهد ببعض الموالي الذين ينتمون إلى البيت العريق بقوله:"إنما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ في ولائها والأصالة في اصطناعها ويضمحل نسبه الأقدم من غير نسبها ويبقى ملغى لا عبرة به في أصالته ومجده" [25].

يضيف في فصل آخر :في أن البيت والشرف بالأصالة، وأن الشرف والحسب إنما هو بالخلال، فمعنى الحسب راجع إلى الأنساب ؛ويشرح ذلك: "إن البيت أن يعد الرجل في آبائه أشرافا مذكورين يكون له بولادتهم إيـاه والانتساب إليهم تجلة في أهل جلدته لـما وقر في نفوسهم من تجلة سلفه وشرفهم بخلالهم "[26] .

بل يذهب ابن خلدون إلى أن البيوتات الأخرى التي ليس لها نسب أساسي فلا جوهر لها بقوله :" ولا يكون للمنفردين من أهل الأمصار بيت إلا بالمجاز وإن توهموه فزخرف من الدعاوى "[27] .

ومن بين العوامل الأخرى التي امتلكها العنصر العربي وجعلته مستأثرا بكل شيء وعنصرا قويا فاعلا في تشكيل البيوتات وتطنب المصادر في ذكرهم ذلك العامل النفسي المتفوق على بقية العناصر من خلال إحساسه بأنه الحامل للواء الدين والمبشر به في هذا الصقع وهو المالك للفقه وتعاليمه وبالتالي توفره على أغلب وأقوى الشروط التي تجعل منه يحمل شارة القيادة .

انطلاقا من هذه التفاصيل اعتمدت السلطة الزيانية الجديدة ومن ورائها أبو حمو موسى الثاني على النسب الشريف الذي تدعيه الأسرة الزيانية[28] ولذلك اعتمد على هذا البيت ليكون محل تقة والتقاء إثني مع أسرة الشريف التلمسانيين .

وعن نسبه عالمنا يقول تلميذه السراج:" الشيخ الفقيه الإمام العالم العلامة الشهير الكبير الصدر القدوة، الشريف نسبا العظيم قدرا ومنصبا أبو عبد الله ابن الشيخ الفقيه الجليل الشريف الوجيه العاقد العدل المبرز أبي العباس أحمد بن علي بن يحي بن علي بن محمد بن القاسم بن حمود ابن ميمون بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله ابن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) [29]. ويؤكد معاصره ابن خلدون نسبه بل ويذم من أنكر عليه ذلك بقوله : " ومنهم صاحبنا الإمام العالم القدوة ... أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني، ويعرف بالعلوي نسبة إلى قرية من أعمال تلمسان، تسمى العلوين، فكان أهل بلده لا يدافعون في نسبهم . وربما يغمز فيه بعض الفجرة ممن لا يروعه دينه ولا معرفته بالأنساب ببعض من اللغو ..." [30].

<u>المكانة السياسية واعتماد الدولة الزيانية على البيوتات</u>

أشار ابن خلدون إلى أهمية البيوتات واصطناعها لخدمة الدول بقوله :"عصبية ذلك النسب مفقودة لذهاب سرها عند التحامه بهذا النسب الآخر وفقدانه أهل عصبيتها فيصير من هؤلاء ويندرج فيهم فإذا تمددت له الآباء في هذه العصبية كان له بينهم شرف وبيت على نسبته في ولائهم واصطناعهم لا يتجاوزه إلى شرفهم بل يكون أدون منهم على كل حال "[31].

وبالتالي فإن هذه الركيزة هي في حد ذاتها عاملا من عوامل تشكل البيوتات فابن خلدون يرى أن اصطناع هذا البيت وظهوره وشهرته تبدأ من رأس البيت الذي تشكله الدولة في منصب هام يسهر على خدمتها ومن وراءه أعقابه[32] .

من الركائز الأساسية والأسس الهامة التي تـنهي نباهة البيت واشتهار ذكره اعتماد الدول التي تعاقبت على حكم المغرب الأوسط على أبناء البيوتات خدمة لوظائفها ؛ فقد انـتهج حكامه سياسة تقريب ذوي البيوتات وأسندوا إليهم المناصب السياسية والإدارية واعتمدوا عليهم في تدبير أمورهم بل وصل الأمر أحيانا إلى أن يديروا الحكم ويقروا مكان الحاكم.

إننا لا نكاد نجد بيتا من البيوتات لـم يتقلد أبناءه منصبا هاما في هرم السلطة كمنصب الحجابة أو الوزارة فتُسند الخطط الرفيعة إلى أبنائها.

العلم والكفاءة العلمية :

يُعدُّ الانتساب إلى العلم والاهتمام به تَعلُّما وتعليما والاشتغال به إقراء وتأليفا وارتحالا من أهم الأسس والركائز التي قامت عليها البيوتات؛ وكثيرا ما بلغت النباهة ولقبت بذلك لاشتغالها بالعلم بل هناك من استطاعت أن تحافظ على مجدها عن طريق العلم.

وانطلاقا من هنا يمكن القول أن هذه الركيزة أساسية وهامة وقد تكون مشتركة مع الأساس الأول المتعلق بالنسب وكثيرا ما اختفت الاختلافات العرقية وزالت في رحاب العلم والأدب حيث تتساوى جميع العناصر المكونة للمجتمع المغربي حيث وجدنا عددا لا يُستهان به من بُيوتات البربر والمولدين والتي سادت بسبب اشتغالها بالعلم، وعموما فإن معظم البيوتات وعلى اختلاف أعراقها استطاعت أن تحافظ على مجد البيت ودخلت مجال النباهة عن طريق العلم والأدب .

وبالتالي فإنه ما كان للعلوم بالمغرب الأوسط أن تزدهر والبيوتات أن تنمو شوكتها ويرتفع شأنها إلا بعناية الآباء بالأبناء تلقينا للعلم وإسماعا وحثا على ملازمة العلماء والمؤدبين.

وبالتالي كان من البديهي أن تمنح السلطة الزيانية منصب الاستاذية والعمادة لأبي عبد الله الشريف حيث توفرت فيه الشروط العلمية حتى نوه معاصروه من المؤرخين وحتى من بعده على أنه "إمام عصره قائما على الفروع والأصول"[33] "جمع بين التحصيل والتأليف[34]، كما جمع بين العلوم النقلية والعقلية.

وكان أحد رجال الكمال علما وذاتا وخلقا، عالما بعلوم جمة من المنقول والمعقول، بلغ درجة الاجتهاد أو كاد بل هو أحد العلماء الراسخين وآخر الأئمة المجتهدين[35] .

كما كانت شهرة العالم ورسوخه في العلم دافعا هاما لالتحاق طلبة العلم بهم من كل صوب وحدب وملازمتهم إياهم، وقد كان لعوامل اخرى في استمالة الطلبة إليهم وجلبهم لحلقاتهم حتى اتسمت بطابع المنافسة بين المدارس وهي على مقربة من بعضها البعض مثل عامل الزهد والتصوف بعد ان أكتسح نسيج المجتمعات المغربية بحكم عدة عوامل، أو تطور علوم التعاليم خاصة وأن تلمسان بدأت تأخذ مكانتها العلمية في هذا اللون العلمي مع نهاية القرن الثامن الهجري .

ولعل كرامات ونسب هذه الأسرة العلمية وموسوعيتها واشتغالها في ضروب العلم جعل طلبة العلم يتوافدون على المدرسة اليعقوبية، خاصة وأنه كان لهذه الأخيرة توفر الخدمات كالإيواء .

الجاه والثراء :

اكتسبت بعض البيوتات ثروة من مصادر عديدة زادت من نباهتها ورفعت من مكانتها ولعل أهم مصادر دخلها كانت الثروة التي جنتها من الإقطاعات الموزعة عليهم أو من مناصبها التي حصلت عليها بفضل تفوقها العسكري والتي مكنتها من أن تظهر كبيوتات ميسورة؛ فيبدو أنه كان لبيت ابني الإمام إقطاعات غربي الحاضرة تلمسان، وللمرازقة شمالا ببضعة فراسخ، في حين يبدو جليا أن ثروة أو حتى إقطاعات هذا البيت الشريف بقرية علوية القريبة من تلمسان والتي تمركز بها الأشراف العلويون حتى أن معاصره عبد الرحمن ابن خلدون يشير إلى قريته وموطن بيته. ويقول في هذا الصدد: "ومنهم صاحبنا الإمام العالم القدوة، فارس المعقول والمنقول، وصاحب الفروع والأصول، أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني، ويعرف بالعلوي نسبة إلى قرية من أعمال تلمسان، تسمى العلوين "[36].

يكون للثراء علاقة وطيدة بالتعلم فالكسب المادي يفتح الآفاق للتعلم والتبصر في شتى أنواع العلوم وفي ذلك يقول صاحب التشوف:"ودرس الناس الفقه ثم تركه لما رآهم نالوا به الخطط والعملات "[37].

ما يمكن قوله في هذا المبحث أن للثراء دور أساسي في صناعة البيوتات والذي تنوعت مصادره كما أنه قد يتراجع دور البيت بتراجع مداخيله وتبدد ثروته ويعود للريادة والنباهة بعودة ماله

انتقال السند بين أبناء البيت الواحد :

تسلسل في البيوتات المغربية العلم والأدب والفضل مدة من الزمن حيث اعتنى رؤوس هذه البيوتات بتوريث أعقابهم من الأبناء والأحفاد الميراث العلمي ويضرب لنا كتب التراجم والفهارس أمثلة عديدة عن ذلك، ولعل أهم بيت يمكن التمويه له في هذا الصدد بيت الشريف التلمساني الذي كان له باعا طويلا في العلم وتوارث أبنائه وأعقابه العلم والتحصيل كابرا عن كابر، ولاحقا عن سابق حتى أنهم توارثوا التعليم والإقراء .

يبدو أن أعلام المغرب الأوسط كانوا كنظرائهم من المغربين الأقصر والأدنى وحتى الأندلس أكثر اهتماما بعلم الحديث لعدة عوامل ساعدتهم في ذلك منه أهمها الرحلة العلمية ورحلة الحج وطريقة تعليم الأبناء وانتشار المذهب المالكي وغيرها من الدوافع حتى وصل بهم الأمر أنهم يؤلفون في ذلك رحلاتهم ويترجمون لشيوخهم ويذكرون أسانيدهم .

برع أعلام تلمسان في مجال الأسانيد ومن ورائهم بيوتاتهم كبيت الشريف التلمساني حيث كانوا أشد حرصا على الحفاظ على تسلسل السند فاعتمدوا على الرحلة والتي غالبا ما كانت بين الأب وابنه فكونوا مصدرا للعطاء وواسطة بين الأجداد والأحفاد، وقد كتب أحد تلامذتهم ومعاصريهم من أهل القرن الثامن مناقبهم[38] .

وبالتالي فإن السلطة الزيانية عملت على توريت منصب أبي عبد الله الشريف إلى أعقابه من أهل بيته وذلك بعد وفاته حتى أن أبا حمو موسى الثاني تأسف لموته وقال لولده عبد الله: ما مات من خلفك وإنما مات أبوك لي لأني أباهي به الملوك ثم أعطاه المدرسة ورتب له جميع مرتبه[39].

المصاهرة :

يبدو أن الكثير من أبناء البيوتات الـمغربية عملوا على الحفاظ على استمرارية بيوتاتهم وفضلهم العلمي ليس فقط بالموارثة لكن حتى بمصاهرة البيوتات الأخرى خاصة منها العلمية كمصاهرة بني الحداد الوادي آشي لأسرة بني مرزوق في تلمسان[40].

فكثيرا ما نقف في كتب التراجم على عدد هام من علماء تلمسان ونُبهائها على أن أخوالهم كذلك هو من نفس الصنف العلمي فيدرسون على يدهم أو قد نجد منهم من أخذ عن جده لأمه، وهذا إن دل على شيء فإنـما يدل على أهل البيوتات العلمية في المغرب الأوسط يعملون على تخليد منزلتهم بالإنكاح من أهل العلم .

كما حرص حكام المغرب الاوسط على تزويـج بناتـهن لذوي البيوتات والذي نتج عنه استمرارية البيت الحاكم والعالم بل وزيادة الإنتاج الفكري.

إن استقدام السلطان أبي حمو موسى الثاني للعالم الشريف التلمساني من فاس قد توجه بتزويـجه إحدى بناته، وبالتالي يكون أول الأمر قد صاهره قبل أن يعطيه مسؤولية تولي المدرسة، وفي هذا الصدد يقول ابن مريم : "استدعي الشريف من فاس .. فانطلق إلى

تلمسان .. وتلقاه أبو حمو براحلته واصهر له ابنته فزوجها أياه وبني له مدرسة وأقام الشريف يدرس العلم إلى وفاته" [41].

عوامل تأسيس المدرسة :

1. العامل الديني :

عمل السلطة الزيانية على ترسيخ المذهب المالكي بكل ما أوتيت من قوة مستخدمين في ذلك وسائل ومؤسسات ومراكز علمية ودينية إضافة إلى الأعلام والبيوتات العلمية الكبيرة والصغيرة والتي كانت لها رؤية واضحة في مواقفها من المالكية ومساندة أئمتها والوقوف في وجه الأفكار الخارجية والتيارات المذهبية الأخرى، ومن جانب كثيرا ما تم استغلال الأفكار الدينية في التأثيرات السياسية.

2. العامل الثقافي :

والمتمثل في تقافة العاهل في حد ذاته فقد كان اهتمام السلطان أبي حمو بالعلوم النقلية والعقلية وتفوقه في الشعر والنثر حتى بلوغه مرحلة التأليف في السياسة الملوكية(كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك) عاملا حاسما في تشجيع بناء المدارس والمراكز الثقافية[42]. إضافة إلى بروز مجموعة هامة من الأعلام أو الأسر التي تحاول التقرب من السلطة والتواصل معها عن طريق المصاهرة أو التأثير الفكري والنبوغ العلمي .

3. العامل الاجتماعي :

يبدو أن التكوين والـمركز الاجتماعي الذي تصنف فيه هؤلاء البيوتات حيث أن أغلبها ينتمي إليها علماء وفقهاء وقضاة وكتاب وحتى وزراء وحجاب مما يجعلهم في سلم اجتماعي رفيع . وفي المقابل تحتاج السلطة لهذه البيوتات لما من تأثير اجتماعي من خلال مساندة بيعة الحاكم بشكل جماعي أو موزع بين طرفين وحتى أكثر وغالبا ما تكون في المؤسسات العامة أمام الملأ من طرف علماء كبار البيوتات مما ينتج عنه استمالة أطياف المجتمع والبيوتات الصغرى في فلكهم.

كما كان دور الصوفية والصلحاء كقوة اجتماعية ذات وزن، وكوسيط بين طبقة العامة والخاصة يتوجه إليها بالخطاب ملوك تلمسان لتعبئة السكان حتى يواجهوا التحديات .

4. العامل السياسي :

إن التنافس السياسي كان قويا بين الأنظمة القائمة في بلاد المغرب خلال القرن الثامن الهجري، حيث حرص كل من بني عبد الواد والحفصيون والمرينيون على تقويه حبهته اقتصاديا وجغرافيا وفكريا وانفتاحا على الخارج حيث عمل سلاطين هذه الدول على تقريب العلماء والأدباء البارزين والمختصين من ذوي العلم والأسر العلمية أكثر فأكثر.

من جانب آخر يبرز ابراهيم حركات المنظور الزناتي في تأطير المذاهب المالكية حيث كان لهم توجه سياسي مقصود في اختيار المراكز فتلمسان لها مرجعية تاريخية وهي موقع زناتي عريق لتصبح مقصودة في التشجيع والجرايات[43]. وبعض العلماء يتلقفهم أكثر من حاكم وسلطان حتى أضحوا مغاربيين بحكم مكانتهم العلمية عند العامة والخاصة فكان أبو حمو موسى الزياني وهو من المثقفين يضم في مجلسه ابني الإمام وغيرهم.

فالسلطة في حاجة إلى المثقف من خلال الاطلاع على سيرة المثقفين والعلماء من ذوي البيوتات كانت علاقاتهم بالسلطة السياسية في غرناطة متباينة وعندما يدخل المثقف لعبة السياسة والسلطة، هل يخضع لها؟ أم أنه يصطدم بها؟ أم يلتقي بها؟!

أمكن لنا تقسيمها إلى ثلاثة فئات: فئة تتقرب إلى السلطة لحاجة أو طموح أومتطلبات مهنية وتستطع أن تقتلع من يقف في طريقها من خلال الدسائس، وفئة محايدة ومعتدلة لا تتعامل مع السلطة إلى ضرورة قصوى ولا تعاديها إلا إذا اشتد جورها أو انحرافها، وفئة أخيرة معادية ومـجافية للسلطة مبدءا وموقفا كثيرا ما يؤول مصيرها إلى هلاك أو لنكبات من خلال ما يُحاك ضدها .

وفي المقابل فإن السلطة فتحتاج إلى المثقفين والعلماء من ذوي البيتية حيث أننا كثيرا ما عثرنا على مفردات في تراجمهم مثل استخدم، استعمل، تولى ...وهذا إن دل على شيء إنما يدل على حاجة السلطة للمثقف كوسائط لدى الرأي العام، أو كتقوية سياسية، وكهيأة لا مناص من الاستعانة بها في عدد من أجهزة الدولة ومرافقها السياسية والدينية والعلمية، وحتى في مهامها الدبلوماسية أي في السفارات، وأخيرا يمكن استخدامها كنماذج في حالات معينة، تصلح للثقة في مراكز حساسة، ولا تنافق أو تداهن؛ ولعل وأقرب مثال هو القضاء الذي رفضه كثير من هؤلاء الأعلام .

مظاهر التفوق العلمي عند آل الشريف :

هناك من المظاهر التي تدل على التفوق العلمي عدن اسر ة ال الشريف الكثير، وسنحاول من خلال الاتي استعراض جوانب من مظاهر التفوق تلك لكي يتضح لنا ما الاهمية التي كانت عليها هذه الاسرة العلمية، ومنها نذكر:

1. الكراسي العلمية والتحليق بالمدرسة اليعقوبية :

كثيرا ما نتحدث عن مدارس تلمسان الرائدة في أخذ العلوم خلال الفترة الزيانية، إلا أننا يمكن أن نقتصر على انموذج واحد من هذه المدارس ومقصدنا هنا "المدرسة اليعقوبية" لا لشيء بل لأن مكانة هذه المدرسة في التعاليم كانت بارزة حسب شهادات المؤرخين والعلماء المعاصرين.

2. درجة الأستاذية :

جاء في شهادات المؤرخين المعاصرين لبيت الشريف وتلامذتهم ما يبين المستوى العلمي الرفيع الذي بلغوه، حيث أبرز صاحب بغية الرواد هذه المكانة العلمية بأنه اشتغل هو الآخر بالتدريس في المدرسة اليعقوبية بعدما كان طالبا عند ابني الإمام وتفقه عليهما في الفقه والأصول[44]. وحلاه السراج بقوله : " كان إمام المالكية بالمغرب بلغ درجة الاجتهاد في المذهب "[45]. كما تبث عنه اهتمامه بالفقه وتركيزه على درس المدونة يوميا[46].

نجد دور المدرس أبي عبد الله بتوجيه طلبته من خلال اختصاصهم في فن معين ضروب العلم فيقرر رغباتهم وقدراتهم في العلوم التي يرغبون ويميلون إليها فينصحهم بقوله : " من رزق في باب من أبواب العلم فيلازمه " [47].

وقد كان علماء الأندلس أعرف الناس بقدره وأكثرهم تعظيما له حتى أن العالم الشهير لسان الدين بن الخطيب إذا ألف تأليفا بعثه إليه وعرض عليه وطلب منه أن يكتب عليه بخطبه وكان الشيخ الإمام الصدر المفتي أبو سعيد ابن لب شيخ علماء الأندلس كلما أشكل عليه شيء كاتبه ليبين له ما أشكل فأقر له بالفضل وأما زهده ومروءته ودينه فمعلوم[48].

انشغل بالإقراء والتعليم والنظر في العلوم حتى قيل انه لايرى اولاده عدة إيام لقيامه بكرة ورجوعه أصيلا، كما ابتدأ الإقراء وهو ابن أحد عشر عاما، "وشهد له شيوخه كلهم

بوفور العقل وحضور الذهن فاتسع في العلم باعه وعظم قدره فأقرأ العلوم في زمن شيوخه، وأقبل عليه الخلق مع سلامة العقل جاريا على نهج السلف عالما بأيام الله مائلا للنظر والحجة أصوليا متكلما جامعا للعقول العقلية القديمة والحديثة." [49]

إذا كان الوالد ابو عبد الله قد استاثر بتراجم كثيرة ونوهوا بفضل تعليميه فإننا لا ينمكنا إقصاء بقية أعقابه من أعل بيته حيث يقول ابن مريم نقلا عن أحد تلاميذهم: "وسمعت أبا يحي المطغري يقول: حضرت مجلس كثير من كبار العلماء فما رأيت مثل أبي عبد الله وولديه ".

3. التفوق التعاليمي :

تفوقت تلمسان عموما على بقية الحواضر، والمدرسة اليعقوبية في هذا اللون العلمي (الرياضيات والفلك) فقد أضحت تلمسان عاصمة التعاليم مع نـهاية القرن الثامن الـهجري وبداية التاسع الـهجري[50]؛ حيث تم اعتماد الـمدرسين على الطريقة الـحوارية والـمناضرة والـمناقشة والتدرج في مناولة الـمسائل الرياضية خلال تعليم العلوم العقلية كالرياضيات للطلبة في مراكز الفكر التلمسانية .

وبالتالي يبرز جليا أن هذه الدراسة قد أخذت مكانتها واختصت بالرياضيات والحساب والفرائض، بل توارث الأساتذة في تدريس هذه المواد بها مدة زمنية طويلة فقد وجدنا على الأقل ثلة من هؤلاء الأعلام تتابعوا في التعليم بها وهم : سعيد العقباني، وابن زاغو المغراوي، وقاسم العقباني .

ولعلنا نستحضر هنا شهادات حية لرحالة عايشوا ذلك سواء كانوا مشارقة أو أندلسيين شأن رحلة عبد الباسط واستقراره بتلمسان واحتكاكه بأعلامهم بخاصة أهل التعاليم والأطباء، بينما استوطن كل من القلصادي والمجاري الأندلسيان بالحاضرة للاستزادة من أعلامها[51].

4. الـموسوعية

مثلت سمة العصر عند أعلام المغرب الأوسط أو في بلاد المغرب والأندلس عموما فكثيرا ما تضرب لنا كتب التراجم عبارات تدل على موسوعية الأعلام مستعملة الدلالات المختلفة ومنها:" كثير التخصص"، أو"جمّ التحصيل"، و"جامع لفنون العلم" وغيرها.

فإذا كان أبو عبد الله الشريف رأس البيت فارس الـمعقول والـمنقول، فإن ابنه محمد أبو عبد الله الشريف كان من علية الفقهاء المدرسين في مدينة تلمسان له مشاركة في فنون التعاليم والنظر والفقه[52]. كما كان نحويا حافظا للغة والشعر وأخبار العلماء ومذاهب الفرق[53].وأما عبد الرحمن بن يحيى الشريف كان له تقدم في تحقيق العلوم ومعرفتها وإتقانها [54].

يقول ابن مريم عن موسوعية ابي عبد الله الشريف :" من أعلم الناس بالعربية والعلوم الأدب نحوا وبيانا حافظا للغة والغريب والشعر والأمثال وأخبار الناس ومذاهبهم وأيام العرب وسيرها وحروبها وأخبار الصالحين وسيرهم وإشارات الصوفية ومذاهبهم ... إماما في العلوم العقلية كلها منطقا وحسابا وفرائض وتنجيما وهندسة وموسيقى وتشريحا وفلاحة وكثيرا من العلوم القديمة." [55]. ويضيف قائلا : " وكان الفقيه المحدث القاضي أبو علي منصور بن هدية القرشي يقول: كل فقيه قرأ في زماننا هذا أخذ ما قدر له من العلم إلا أبا عبد الله الشريف فإن اجتهاده يزيد والله اعلم حيث ينتهي أمره "[56].

5. **التأليف**

حيث كانت ملازمة الطلاب لبعض الشيوخ تستغرق سنين طويلة بل عقودا، وطريقة نهل العلوم بهدف اكتساب أكبر قدر من المعارف وضروب العلم، على أن هناك من كرّس نفسه لعلم بعينه حتى ولو ألّم بغيره شأن الآبلي ابراهيم بن محمد أستاذ أبي عبد الله الشريف الذي كرس جهده لتدريس التعاليم دون أن يؤلف فيه.

يقول عنه ابن مريـم كان قليل التأليف وإنـما اعتناؤه الإقراء، ولعل من أهم ألف في أصول الفقه "مفتاح الأصول في بناء الفروع على الأصول" طبق فيه مسائل الفقه مع الأصول، وشرح جمل الخونـجي. كما ألف كتابا في "القضاء والقدر" وحقق فيه مقدار الحق بأحسن تعبير عن تلك العلوم الغامضة وإليه يفزع العلماء مغرب في حل المشكلات[57].

6. الجراية أو الراتب

والتي لاقت نقاشا كبيرا بين الدارسين في حقل الدراسات التربوية حول حصول العلماء في المغرب الإسلامي عموما على راتب شهري أو سنوي اتجاه ما يقدمونه من علم، إلا أن الحاصل أنه وجدت استثناءات لبعض الأساتذة وأن بعض العلوم خاصة منها العقلية لم يكن لها جراية عكس علوم الدين التي يبتغون بها مناصب كالقضاء والخطابة وحتى

تعليمها في حلقات العلم داخل المساجد الجامعة كفن القراءات والتفسير، كما كان الأديب والشاعر يحصل على هدايا من جراء مدحه للسلطان وحاشيته، ويشتغل أغلب العلماء في مهن أخرى أو تجارة لجلب قوت يومه.

لم يكن لأبي عبد الله الشريف جراية أو راتبا على ما يبدو حسب ما استقيناه من البستان لابن مريم اعتمادا على رواية ولده عبد الله بقوله :" أنه بقي في بعض الأزمنة ستة أشهر مشتغلا بالعلم لم ير فيها أولاده لأنه يقوم صبحا وهم نائمون ويأتي ليلا وهم نائمون وذكر أنه لم يأخذ مرتبا في مدرسته ولا غيرها في زمن طلبة وإنما ينفق من مال أبيه وربما وضع له طيب الطعام ليفطر به في رمضان وغيره فيشتغل عنه بالنظر حتى بسحوره فيتركهما حتى يصبح ويواصل الصوم بالنظر"[58].

7. **التلمذة :**

ويقصد بهم الطلبة والأعلام الذين أخذوا عن الشريف التلمساني بموضع إقرائه بالمدرسة اليعقوبية، "وكان اعتناؤه بالإقراء فتخرج على يده العديد من التلامذة من لا يحصى من صدور العلماء وأعيان الفضلاء ونجباء الأولياء"[59] .

أمكن لنا أن نضيف ملامح أخرى تبرز تفوق بيت آل الشريف واستئثارهم بالإقراء وتسيير المدرسة اليعقوبية ولعل أهمها الكرامات التي انفرد بها هؤلاء خاصة أبا عبد الله الشريف، ومذهب المالكية عنده حيث مثل أحد أبرز أعلامها بالمغرب الإسلامي، إضافة إلى مكانته عند العامة والخاصة .

جدول الطلبة الذين أخذوا عن بيت الشريف بالمدرسة اليعقوبية .

العالم الأستاذ	الطلبة العلماء	سنة الوفاة	المصادر
أبو عبد الله الشريف التلمساني (ت771هـ)	محمد بن يوسف الثغري		البستان، ص166
	عبد الله بن محمد الشريف	792هـ	نيل، ص 225.
	ابراهيم المصمودي أبو إسحاق	805هـ	نيل، ص54.
	أبو يحيى المطغري		البستان، 176.
	ابن السكاك محمد بن أبي البركات	818هـ	البستان، ص166.
	محمد بن علي المديوني	856هـ	البستان، ص128.
أبو محمد عبد الله الشريف التلمساني (ت 792هـ)	ابن مرزوق الحفيد	842هـ	البستان، ص120.
	أبو يحيى عبد الرحمن الشريف	826هـ	نيل، ص252 - البستان،ص128.
	أبو العباس البجائي أحمد بن موسى		نيل، 227- البستان، ص119.
أبو يحيى عبد الرحمن الشريف (ت826هـ)	ابن زاغو المغراوي أبو العباس أحمد	845هـ	نيل، ص118.
	ابن مرزوق الحفيد	842هـ	نيل، ص121.

الخاتمة :

أحدثت المدارس العلمية والـمراكز الثقافية التي أسسها سلاطين بنو زيان خلال القرن الثامن الهجري نهضة علمية بالغة الأهمية، حيث أضحت مدينة تلمسان عاصمة علمية استقطبت عديد العلماء وطلبة العلم مما أدى إلى بروز المتخصصين والموسوعيين في ضروب العلم، وكانت من ورائهم إسهامات في تطوير الحياة العلمية التلمسانية.

ومن نتائج هذه النهضة العلمية أيضًا أن صار السلاطين الزيانيون يسندون المناصب إلى العلماء، ويشيدون الـمدارس وينسبونـها إلى أكابر العلماء والبيوتات وفق معايير؛ فقد زاد تعلق السلاطين الزيانيين بالعلم ومؤسساته ويحضرون المجالس وخاصة منهم مؤسس الـمدرسة اليعقوبية السلطان أبي حمو موسى الثاني الذي احتفل بختم أبي عبد الله الشريف للتفسير .

كان للمدرسة اليعقوبية التي أسندت لبيت الشريف التلمساني دورا هاما في تنشيط الحركة العلمية والفكرية والتربوية بتلمسان من خلال حلقات العلم ونظام الكراسي العلمية والـمجالس الـمختلفة للعلوم سواء الدينية أو العقلية حتى أضحت المدرسة مركزا لتدريس العلوم النقلية والعقلية معا.

الهوامش:

1. أحد أبواب تلمسان الرئيسية، ينظر : التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تح: محمود بوعياد، موفم للنشر، الجزائر 2011، ص179، هامش 399. William et Georges Marçais , les monuments arabes de Tlemcen , paris 1903 , p117.

2. إبراهيم بن موسى المصمودي أبو إسحاق من كبار العلماء الصلحاء بتلمسان أخذ بفاس وتلمسان على الكثير من العلماء كالآبلي وسعيد العقباني، توفي سنة 803هـ . ترجمته في : التنبكتي، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، تح: علي عمر،ط1، مكتبة الثقافة الدينية، 2004، ص54- ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، اعتناء ومراجعة: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية،

الجزائر 1908، ص 64- محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة 1349هـ ج1،ص 249.

3. ابن كثير، البداية والنهاية، تح : عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، دار هجر، 1998، ج18، ص 566.

4. مؤلف مجهول، زهر البستان في شرف بني زيان، تحقيق : بوزياني الدراجي، مؤسسة بوزياني للنشر، الجزائر2013، ص336 .

5. يحي ابن خلدون، بغية، ص104- 136 .

6. ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تح: ماريا خيسوس بيقيرا، تق: محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص405.

7. ابن مريم، المصدر السابق، ص175.

8. يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص136؛ التنسي، نظم، ص179.

9. Abbé BARGES, Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom, sa topographie, son histoire, Paris, 1859, p.391

10. الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب، تحقيق:محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، الجزء 7، ص348 .

11. القلصادي، رحلة القلصادي، تحقيق : محمج أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1978، ص 104 .

12. المجاري الأندلسي، برنامج، تح: محمد أبو الأجفان، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981، ص 129 .

13. القلصادي، المصدر السابق، ص 104 .

14. التنسي، المصدر السابق، ص179، 180 .

15. ابن مريم، المصدر السابق، ص120.

16. التنبكتي، المصدر السابق، مج1، 243.

17. ابن مريم، المصدر السابق، ص173 .

18. التنبكتي، نيل، 253.

19. المجاري، المصدر السابق، ص 129 .

20. القلصادي، المصدر السابق، ص 104 .

21. المصدر نفسه، ص 104 .

22. يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص103، 104 .

23. ابن خلدون، العبر، ج7، ص480.

24. التنسي، المصدر السابق، ص179.

25. إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1998، ص118 .

26. ابن خلدون، المقدمة، تح:عبد السلام الشدادي، خزانة ابن خلدون بيت العلوم والفنون والآداب، د-ت، ج4،ص 157.

27. المصدر نفسه، ص153.

28. نفسه، ن ص .

29. نفسه، ص64 .

30. السراج، الفهرسة، تح: نعيمة بنيس، ط1،دار الحديث الكتانية، المغرب2013، ص360، 361.

31. ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، تح:محمد تاويت الطنجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت1979، ص69 .

32. ابن خلدون، المقدمة، ج4، ص 156.

33. المصدر نفسه، ن ص.

34. ابن خلدون، الرحلة، ص64.

35. ابن مريم، المصدر السابق، ص164.

36. السراج، فهرسة، ص361.

37. ابن خلدون، الرحلة، ص69 .

38. ابن الزيات يوسف بن يحيى التادلي، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 1984، ص 92.

39. يقوم الأستاذ ماحي قندوز من قسم العلوم الإسلامية جامعة تلمسان بتحقيق المناقب الشريفية أو مناقب التلمسانيين وينسبه عبد الله بن محمد بن يوسف القيسي ابن الثغري .

40. ابن مريم، المصدر السابق، ص 177.

41. المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تح: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1939، ج1، ص71 - ج3، ص ص 305، 308.

42. ابن مريم، المصدر السابق، ص120.

43. التنسي، المصدر السابق، ص 161 .

44. ابراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم في المغرب الإسلامي، ط1،دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء 2000، ص92.

45. يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص120، 136.
46. السراج، المصدر السابق، ص 361 .
47. ابن مريم، المصدر السابق، ص166 وما يليها .
48. المصدر نفسه، ص17 .
49. المصدر نفسه، ص 175.
50. المصدر نفسه، ن ص .
51. ابراهيم حركات، المرجع السابق، ص93.
52. ينظر: ابن خليل عبد الباسط، رحلة، نشر : روبروت برونشفيك، ضمن كتاب Deux récit de voyage inédit en Afrique de nord au XV sc, B.Halil et A . dorne , larose éditeurs ; Paris ,1936, p44- - القلصادي، الرحلة، ص 104 - المجاري، المصدر السابق، ص 129.
53. يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص120 – ابن مريم، المصدر السابق، ص120.
54. التنبكتي، نيل، ج1، ص244 .
55. ابن مريم، المصدر السابق، ص 17، ص128.
56. المصدر نفسه، ص173.
57. نفسه، ص171.
58. ابن الثغري، المصدر السابق، ص ص142، 163 .
59. ابن مريم، المصدر السابق، ص175.
60. المصدر نفسه، ص173.

دور البيئة التي نشأ فيها أبو عبد الله الشريف في تكوينه وإنتاجه الفكري

د. حسين تواتي
جامعة عباس لغرور / خنشلة

عرفت تلمسان على عهد دولة بني عبد الواد الزيانية نهضة فكرية وعلمية كبيرة كان من مظاهرها بروز العديد من العلماء والمؤلفات، وانتشار ظاهرة البيوتات العلمية التي توارثت العلم وتناقلته كابرا عن كابر، ونقلته إلى مختلف ربوع العالم الإسلامي مشرقا ومغربا.

ويعد بيت الشريف التلمساني أحد البيوتات العلمية التي ذاع صيتها في تلمسان خاصة والمغرب الإسلامي عامة، وحتى في المشرق الإسلامي، وخاصة أبو عبد الله الشريف الذي ينسب إليه هذا البيت.

فمن هو أبو عبد الله الشريف؟ وما هي الظروف السياسية والاجتماعية والعلمية التي نشأ فيها؟ وما تأثير هذه البيئة –التي نشأ فيها- على تكوينه، وإنتاجه الفكري؟

أولا: التعريف بأبي عبد الله الشريف (710 هـ/1310 م-771 هـ/1369 م).

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن يحيى بن علي بن محمد بن القاسم بن محمود بن ميمون بن علي بن عبد الله بن عمر بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بالحسيني والعلوي[1]. ولد سنة 710 هـ/1310 م[2] ببلدة العلويين قرب تلمسان [3].

كان أبو عبد الله الشريف يتمتع بقوة جسمانية كبيرة، وكان من أحسن الرجال كمالا علما وذاتا وخلقا وخُلقا، حسن الوجه والقدر كثير التبسم مهاب الجانب، جميل العشرة متواضعا جميل الطباع أنيس الطباع، عالي الهمة طويل اليد، كريما سمحا حسن اللقاء كريم النفس [4].

نشأ الشريف بتلمسان، وبها أخذ القرآن الكريم في بداية أمره عن أبي زيد بن يعقوب [5]. كما تتلمذ على يد كبار علماء تلمسان فأخذ فنون اللغة والأدب عن ابن هدية القرشي [6]، وعن موسى بن عمران المشدالي [7] وأبو محمد المجاصي [8] وابني الإمام[9] أخـذ الفقه والحديث والأصـول وعلم الكلام، وأخـذ العـلوم العقلية عـن ابن النجـار [10].

بعد مرحلته التعليمية الأولى بتلمسان ارتحل أبو عبد الله الشريف إلى فاس أين أخذ عن أبي فارس عبد المؤمن بن موسى الجناتي [11]، ودرس عليه مدونة الامام مالك، ثم أخذ العلوم العقلية من منطق وحساب فرائض وتنجيم وهندسة وبرع فيها عن الآبلي أبي عبد الله محمد بن ابراهيم العبدري التلمساني[12] الذي شهد الله بالتفوق العلمي وقوة التحصيل حيث قال: " قرأ علي كثير شرقا وغربا فما رأيت فيهم أنجب من أربعة ... أبو عبد الله الشريف أنجبهم عقلا وأكثرهم تحصيلا" [13]، وكان إذا أشكـلت مسألة على الطلبة عنـده يقول :" انتظروا أبا عبد الله الشريف." [14].

ومن فاس ارتحل الشريف إلى تونس أين أخذ عن قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن عبد السـلام بن يونس الهواري،[15] الذي قربه منه واستعظم مرتبته في العلم، وكان يأخذ عنه أصول العلوم العقلية من حساب ومنطق وفلسفة وغيرها حيث يذكر عبد الرحمن بن خلدون في ذلك: " وكان ابن عبد السلام يصغي إليه ويؤثر محله، ويغرف حقه حتى لزعموا أنه كان يخلو به في بيته، فيقرأ غليه فصل التصوف من كتاب الاشارات لابن سينا، بينما كان هو قد أحكم ذلك الكتاب على شيخنا الآبلي، وقرأ عليه كثيرا من كتاب الشفاء لابن سينا، ومن تلاخيص كتب أرسطو لابن رشد، ومن الحساب والهيئة والفرائض، علاوة على ما كان يحمله من الفقه والعربية وسائر العلوم الشرعية. "[16]

وبعد اتمامه مرحلة التعلم والتحصيل عاد أبو عبد الله الشريف إلى تلمسـان أين انبرى لمهمة التـدريس والتعليم،[17] ونظرا لغزارة علمه وحسن معاملته وأخلاقه اجتمع له

الطلبة من كل الأرجاء، وتخرج على يديه جملة من العلماء من أمثال الأخوين عبد الرحمن ويحيى ابن خلدون،[18] وأبي اسحاق الشاطبي [19] وابن قنفد القسنطيني،[20] ولسان الدين ابن الخطيب [21] وغيرهم.

وكان السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني قد ابتنى المدرسى اليعقوبية وأجلس فيها أبا عبد الله الشريف مدرسا حتى وفاته في الرابع من ذي الحجة من سنة 771 هـ/ 29 جوان 1369 م، وبها دفن بالقرب من قبر أبي يعقوب والد السلطان أبي حمو الثاني، وبأمر منه.[22]

ثانيا: بيته

1-البيئة السياسية.

عايش أبو عبد الله الشريف أربعة سلاطين من حكام دولة بن عبد الواد الزيانية وهم أبو حمو موسى الأول، وابنه أبو تاشفين الأول، وأبو زيان، وأبو حمو موسى الثاني. وقد تعرضت الولة الزيانية خلال هذه الفترة إلى الغزو المريني مرتين، الأولى كانت على عهد السلطان أبي الحسن، والثانية على عهد ابنه أبو عنان فارس.

تولى أبو حمو بن عثمان السلطة بعد وفاة أخيه أبي زيان سنة 707 هـ / 1307 م، وتلقب بالسلطان أبي حمو موسى الأول،[23] واستمر في الحكم احدى عشر سنة يبني صروح الدولة بالسيرة الحسنة، والآثار الجميلة،[24]حتى اغتيل خديعة ومكرا سنة 718 هـ / 1318م من تدبير ابنه أبي تاشفين،[25] الذي تولى الأمر من بعده، وتلقب بأبي تاشفين الأول وواصل بناء الدولة، فبنى القصور وخلد آثارا لم تكن في من قبله[26]، وأرسى قواعد الملك إلى أن قتل مدافعا عن قصره عندما هاجم أبو الحسن المريني تلمسان واحتلها سنة 737 هـ / 1337م[27] .

بعد احتلاله لتلمسان تمكن أبو الحسن المريني من تقويض أركان الدولة الزيانية، باستمالته قبيل بني عبد الواد واستعمالهم في توسيع نفوذه، بعد أن أقامهم على مراتبهم،[28]حتى تمكن الأميران أبي سعيد وأبي ثابت ابني عبد الرحمن بن يغمراسن اللذان من إعادة إحياء الدولة الزيانية مدة أبع سنوات وشهر واحد (749 هـ / 1348 م – 753 هـ / 1352 م).[29]بعدما استطاعا أن يرجعا الكثير من المدن تحت حكمهما، وأصبحت المساجد تدعوا لهما، كما ضرب السلطان أبو سعيد السكة[30]، لكن أبي عنان

فارس[31] ابن ابي الحسن المريني استطاع إعادة السيطرة المرينية على المغرب الأوسط مرة أخرى بعدما انتصر على الأميرين أبي سعيد وأبي ثابت في معركة سهل أنجاد بالقرب من وجدة[32]،و يقطع بذلك خبر الدولة الزيانية إلى أن تمكن السلطان أبو حمو موسى الثاني من استرجاع مدينة تلمسان سنة 760 هـ 1358 م،[33]و يعيد بعث دولة أسلافه من جديد، وينهي مرحلة دامت زهاء ثلاثة وعشرين سنة، كادت الدولة الزيانية خلالها أن تختفي من مسرح الأحداث.

استطاع أبو حمو موسى الثاني خلال مرحلة حكمه التي دامت واحد وثلاثين سنة أن يؤسس لدولة جديدة، قال عنها يحيى بن خلدون: " فأشرقت شمس الدولة بأفقها بعد تكويرها، وضاءت نجوم سمائها بعد الانكدار، وثبت مركز سياستها فاستقام المدار، فكأن العفاء لم يطرق لها ساحا ".[34]

كما اضطلع أبو حمو بإقامة الدولة، واعزاز جوانبها الاجتماعية والثقافية، بعد أن ساس مملكته بالسيرة الحسنة، وقسم أوقاته بين حكم يقضيه، وحق يمضيه، وعاق يرضيه، وسيف لحماية الدين ينضيه، وجفن عن عوراء الأمة يغضيه، وسبيل إلى رضاء الله تعالى ورسوله يفضيه[35]

و بلغت الدولة الزيانية في ظل حكم أبي حمو موسى الثاني أسمى درجات التطور والرقي، بعد أن دفع بها إلى مصاف الدول الكبرى آنذاك، فازدهرت الحضارة الزيانية، واصبح لها صدى واسع النطاق.[36]

غير أن أبا حمو موسى الثاني، وفي الوقت الذي استطاع أن يبني حضارة رفيعة المستوى، ويصمد أمام الخصوم والأعداء [37]،سقط في مؤامرة دبرها له أعداءه من بني مرين الذين استغلوا الخلاف الحاصل بينه وبين ولي عهده أبي تاشفين، فشجعوا هذا الأخير على النهوض ضد والده، وأمدوه بالمال، والسلاح، والرجال فوقعت بينهما معركة عند جبل بني ورنيد قتل فيها أبو حمو من طرف أحد رجال ابنه أبي تاشفين[38] .

2- البيئة العلمية.

تميزت البيئة العلمية التي نشأ فيها أبو عبد الله الشريف بالتطور والازدهار، ومن مظاهر ذلك انتشار المؤسسات التعليمية في ربوع المغرب الأوسط، وبروز مجموعة من

العلماء الذين ذاع صيتهم في المغرب والمشرق، سواء من المعلمين أو المتعلمين أفرانه، وعناية السلاطين بالعلم والعلماء، وازدهار الرحلة في طلب العلم .

1-2- المؤسسات التعليمية. ومنها:

أ. **الكتاتيب.**

تعد الكتاتيب من أقدم المؤسسات التعليمية التي عرفها المغرب الأوسط، حيث كان التمدرس فيها يمثل مرحلة التعليم الابتدائي، وقد انحصر التعليم بها في بادئ الأمر على حفظ القرآن الكريم باعتباره أصل التعليم ومنبع الدين والعلوم، فجعلوه بذلك في مقدمة ما يتعلمه الطفل حفظا وكتابة لأن تعليمه للصغار أشد رسوخا وحفظا حسب تعبير ابن خلدون،[39] الذي يقول في هذا الصدد: " فأما أهل المغرب فمنهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدرسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه، أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعهم في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة، وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم، إلى أن يجاوز حد البلوغ"[40] .

ب. الزوايا.

اشتهر المغرب الأوسط بالعديد من الزوايا والأضرحة، لاسيما بعد انتشار التصوف، وكثر رجاله، حيث أصبحت الزاوية تنافس المدرسة والكتاب والمسجد في التعليم ومن أشهر الزوايا التي ظهرت بالمغرب الأوسط :

- زاوية أبي يعقوب التي أنشأها السلطان أبو حمو موسى الثاني على ضريح والده.[41]
- زاوية سيدي الحلوي، التي أنشأها أبو عنان شمال المدينة.
- زاوية سيدي أبي مدين بالعباد.[42]
- زاوية سيدي السنوسي[43] وزاوية أحمد الغماري وزاوية عين الحوت.[44]
- زاوية أبي عبد الله، وهو من أشهر الأعلام، أسس زاوية وألزم كل من يدخلها أن يكون سلوكه وفق السنة والسلف الصالح، كما فرض عليهم سلوكا معينا في المأكل والملبس،[45] وزاوية ابن البناء بتلمسان.[46]

ج. المساجد.

- **المسجد الجامع بأغادير:**

يبدو أنه أقدم مسجد في المدينة يعود تاريخ تأسيسه إلى ما قبل استيلاء الأدارسة على مدينة تلمسان بقيادة إدريس الأكبر سنة 174هـ/ 790م، كما حظي هذا المسجد بعناية الأمير يغمراسن الذي قام بترميمه وبناء مئذنته،(47) وقد استؤذن في كتابة اسمه بها فقال بالزناتية " يسنت ربي "، أي عرفه الله.(48)

- **المسجد الأعظم بتاكرارت:**

من أبرز المساجد المغربية شيده الأمير يوسف بن تاشفين المرابطي، أثناء بنائه لمدينة تاجرارت سنة 473هـ/ 1080م، وقد أضيف إلى المسجد قسم ثابت في عهد يغمراسن بن زيان الذي أضاف اليه الجزء الشمالي من بيت الصلاة والقبة والصحن والمئذنة (49) الشبيهة بالعمارة الأندلسية وزخارفها بحيث تعلو السواري تيجان تشبه تيجان مسجد قرطبة.(50)

- **مسجد سيدي أبي الحسن:**

يقع هذا المسجد بالقرب من المسجد الأعظم، قام ببنائه السلطان الزياني أبو سعيد عثمان بن يغمراسن سنة 696هـ/ 1296م.(51)

- **مسجد ابني الإمام:**

أمر ببناءه السلطان أبو حمو موسى الأول سنة 710هـ/ 1310م ليكون ملحقا بالمدرسة القديمة التي بناها لابني الإمام، وهما عالمان قدما من مدينة برشك.(52)

- **مسجد سيدي إبراهيم المصمودي:**

شيده السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني إلى جانب القبة والزاوية والمدرسة،(53) وهي المباني التي بناها تكريما لوالده أبي يعقوب، لذلك كانت تحمل اسم المدرسة اليعقوبية.

د. المدارس:

انتشرت في مدينة تلمسان، حيث كان يعيش ابو عبد الله الشريف، العديد من المؤسسات التعليمية التي عكست تطور الحياة العلمية والتعليمية في المدينة، ومنها نذكر:

- **مدرسة ابني الإمام:**

تعتبر أول مدرسة أسسها الزيانيون في تلمسان، أسست من قبل السلطان أبو حمو موسى الأول ما بين 707هـ و718هـ بناحية المطمر[54] سميت على اسم العالمين الأخوين أبي زيد عبد الرحمن بن الإمام (توفي سنة 743هـ/ 1342م) وأخيه أبي موسى عيسى بن الإمام (توفي سنة 749هـ/ 1348م).[55]

- **المدرسة التاشفينية:**

أمر بتشييدها االسلطان أبو تاشفين عبد الرحمن الأول بن أبي حمو موسى الأول (718-736هـ) / (1317) – 1335م) بعدما أصبحت المدرسة التي بناها والده لا تستوعب عدد الطلبة المتهافتين على العلم والأدب.

- **المدرسة اليعقوبية:**

أسسها السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني [56] (760-791هـ) سنة 765هـ تخليدا لوالده أبي يعقوب المتوفى سنة 763هـ/ 1362م.

2–2– عناية سلاطين بني زيان بالعلم والعلماء.

أدرك سلاطين بني زيان أهمية العلم والعلماء في النهوض بدولتهم فأبدوا عناية فائقة بالعلم وأهله، فتقربوا من العلماء،وقربوهم منهم، واستقدموا الكثير منهم إلى حاضرة دولتهم تلمسان، وعملوا على تقريبهم من مجالسهم وحضور دروسهم وإجراء الأرزاق عليهم، وبناء المدارس والمساجد ومختلف المؤسسات التعليمية للخوض في مختلف العلوم، والسماح لهم بالتنقل لانتهال العلوم واستقدامها إلى بلادهم؛ مما جعل تلمسان الزيانية عاصمة الدولة حاضرة علمية وثقافية هامة تتوافد عليها قوافل العلماء وطلبة العلم من المشرق والمغرب والأندلس، للاستزادة والتحصيل والإجازة من كبار شيوخها وعلمائها .وذلك منذ عهد مؤسس دولتهم يغمراسن بن زيان الذي شجع الحركة الفكرية والتعليمية، وحيث عمل على مجالسة العلماء والصلحاء، وأكثر من زيارتهم . فقد كان يستقدم العلماء إلى تلمسان من كل أرجاء المغرب الأوسط وخارجه، ويحسن إليهم ويكرم منزلتهم، فقد كاتب عالم زمانه أبا اسحاق ابراهيم [57]بن يخلف بن عبد السلام التنسي (تـ 680هـ/ 1280م) ورغبه في الإقامة بتلمسان للتدريس بها، ولما شاع اهتمام يغمراسن

بالعلم وأهله، رغب الكثيرون في القدوم إلى عاصمته، ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الله بن الخطاب المرسي الأندلسي (تـ686هـ/1287م)، الذي قدم عليه فأحسن وفادته وأكرمه، وجعله صاحب القلم الأعلى في دولته،[58] كما أكرم مقام أبا عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق أحد كبار علماء تلمسان وأجلتها، وأوصى أن يدفن بجواره بالجامع الأعظم، إضافة إلى الكاتب ابن وضاح الأندلسي[59].

وعلى نهج يغمراسن بن زيان سار خلفاؤه حيث نجدهم يتقربون من العلماء، ويستقدمونهم إلى تلمسان عاصمة دولتهم، يبتنون لهم المدارس، ويقفون عليها الأوقاف، ويجرون عليهم الأرزاق، ويحضرون مجالسهم، ويعنونهم في الوظائف السامية.[60]وقد استمر سلاطين بني زيان على هذه التنقاليد حتى نهاية دولتهم،رغم حالة الضعف والتردي السياسي التي كانت تعيشها حيث نجد السلطان أبو العباس أحمد بن زيان الملقب بالعاقل [61](834- 866هـ/ 1431- 1462م) يجالس العلماء والصلحاء، ويشجعهم على التصنيف ويواظب على حضور دروسهم، ويزورهم بمنازلهم، ويمشي وراء جنائزهم، وكانت له عناية خاصة بالعالم الصوفي الزاهد أبي علي الحسن بن مخلوف أبركان [62] الذي بنى مدرسة بزاويته، وأوقف عليها أوقافا جليلة.[63]

وكان للسلطان أبي عبد الله محمد الرابع الثابتي الذي امتد عهده إلى نهاية القرن السابع الهجري، الخامس عشر الميلادي دور في تفعيل الحركة العلمية، رغم حالة التراجع والضعف التي كانت تعيشها الدولة الزيانية، بعد اشتداد الهجمات الاسبانية، حيث نبغ في عهده أئمة وفقهاء كثر [64] عاشوا في تلمسان وفي غيرها من حواضر المغرب الاسلامي[65].

كما حرص المشرفون على المدارس على إنشاء المكتبات، وعمروها بالكتب حتى تساعد الطلبة في تحصيل مختلف العلوم.[66]

يضاف إلى هذه العوامل هناك عوامل أخرى منها الاستفادة من العناصر الأندلسية التي هاجرت إلى المغرب الأوسط حاملة معها علمها وخبرتها في هذا الميدان، فاستفاد المغرب الأوسط من ذلك افادة كبيرة.[67] والتشجيع على الرحلة العلمية من وإلى المغرب الأوسط عبر مختلف حواضر المغرب الاسلامي، والتي تعد مظهرا من مظاهر الحضارة الاسلامية، إذ كانت – وما تزال- تعبر عن النشاط العلمي والثقافي للمجتمعات باعتبارها إحدى أهم وسائل نقل وتبادل العلوم والمعارف بين الأقطار الاسلامية.[68]

2-3- نماذج من علماء الدولة الزيانية.

من مظاهر ازدهار الحركة الثقافية والعلمية وتطورها بالمغرب الأوسط الزياني بروز عد كبير من العلماء انتشر علمهم ومؤلفاتهم في أصقاع العالم الإسلامي، واشتغلوا بالتدريس في العديد من حواضره. وإنه لأدل على ذلك انتشار مؤلفاتهم في مختلف مكتبات الدول العربية والإسلامية والأوربية، التي لا يزال الباحثين في مختلف التخصصات ينهلون منها.

ومن علماء المغرب الأوسط الذين برعوا في مختلف العلوم النقلية والعقلية نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

* أبو اسحاق ابراهيم بن يخلف بن عبد السلام (69) التنسي (70) (تـ680هـ/ 1282م).
* أبو عبد الله محمد بن أبي مرزوق التلمساني (71) (تـ681هـ/ 1283م).
* أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن يخلف التلمساني (تـ 690هـ/ 1290م).(72)
* أبو الحسن التنسي (تـ 706هـ/ 1306م).(73)
*ابنا الإمام، أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى ابنا محمد بن عبد الله.(74)
* عبد العزيز بن عمر بن مخلوف أبو محمد المكنى بأبي فارس.(75)
* أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق الخطيب(76) (تـ781هـ/1379م).
* أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي (77) البجائي (78) (تـ786هـ/ 1384م).

ساعدت هذه العوامل إضافة إلى الوضعية الاجتماعية الميسورة لعائلة الشريف التلمساني وحبها للعلم والعلماء، عالمنا أبا عبد الله على التفرغ للعلم والتحصيل، والانتهال من مختلف فنونه حتى برع فيها جميعها. كما ساعدته البيئة التي نشأ فيها واكتسب منها معارفه وعلومه على الاجتهاد، وبذل قصارى جهوده في التعليم والتأليف من أجل نقل تلك المعارف إلى السلف من طلبته وزائريه، الذين برز منهم كثير من أمثال الأخوين يحيى وعبد الرحمن ابن خلدون، ابن الخطيب وابن قنفد القسنطيني وغيرهم.

كما كان أبو عبد الله الشريف مثالا يحتدى به في الاجتهاد ونبذ التعصب، والتبحر في العلوم، وقد شهد له بذلك أساتذته كابن هدية، والآبلي، وابن عبد السلام، وأقرانه من العلماء مثل ابن مرزوق الخطيب، وتلامذته مثل ابن قنفد القسنطيني وغيره. كما شهد له بذلك اللاحقون من العلماء من أمثال ابن مرزوق الحفيد، والتنبكتي، والحفناوي وغيرهم.

كما شهد له قبل هؤلاء سلاطين الزيانيين والمرينيين وخاصة منهم أبي عنان فارس المريني، وابو حمو موسى الثاني الزياني.

كما خلف أبو عبد الله الشريف ولدان عالمان هما أبو محمد عبد الله (748هـ/1348م -792هـ/1390م)، من علماء تلمسان ومدرسيها جلس في مجلس أبيه بعد وفاته. وأبي يحيى عبد الرحمن (757هـ/1356م-825هـ/1422م)علامة من علماء تلمسان وأحد أكبر مفسريها.(79)

الهوامش:

1. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تح علي عمر، مج2، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004، ص 87 ؛ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 164 ؛يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، تح عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، ص 120 ؛عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا ضمن كتاب العبر، مج 4، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 2011، ص 3022.
2. عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ص 3022.
3. بلدة العلويين أو العلوين كما وردت عند ابن خلدون هي قرية عين الحوت الحالية تقع إلى الشمال من تلمسان. ينظر: نصر الدين بن داود، بيوتات العلماء بتلمسان من ق7هـ/13م إلى ق10هـ/16م، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة تلمسان، 2010/2009، ص 117، وص 119.
4. ابن مريم، البستان، ص 169، وص 174، وص 177؛ التنبكتي، ص 87 وما بعدها ؛أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، تح محمد أبو الأجفان،ج1، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، والمكتبة العتيقة، تونس، 1982، ص 114، 115.
5. هو أبو زيد بن عبد الرحمن بن يعقوب بن علي الصنهاجي من شيوخ تلمسان في تعليم القرآن وتربية النشأ عاش من النصف الثاني للقرن 7هـ إلى النصف الأول من القرن الثامن الهجري . ينظر: نصر الدين بن داود، المرجع السابق، ص 119.
6. هو أبو عبد الله محمد بن منصور بن هدية القرشي، من ولد عقبة بن نافع الفهري، تلمساني المنشأ والدار، تولى خطة القضاء بتلمسان مع كتابة السر للسلطان أبي تاشفين الأول، الذي كان يشاوره في تدبير شؤون الدولة، ولا يجري شيئا من الأمور إلى بعد استطلاع نظره.كان كاتبا بليغا، له حظ وافر

من التاريخ. توفي أواسط سنة 735هـ بتلمسان. عنه ينظر: يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 116 ؛ابن مريم، المصدر السابق، ص 225 ؛المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1963، ج5 ص 234 ؛أبو الحسن علي بن محمد النباهي المالقي، قضاة الأندلس، المعروف باسم كتاب المرتبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا، نشر ليفي بروفنسال، بيروت، 1983، ص 101-102 ؛ابن مرزوق الخطيب، المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق سلوى الزاهري، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2008، ص 175 ؛عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الثاني الزياني حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 52 ؛بودواية مبخوت، العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، رسالة دكتوراه، فسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2005 – 2006، ص 135. بن داود نصر الدين، المرجع السابق، ص 258.

7. ولد سنة 670هـ ببجاية حيث نشأ وتلقى تعليمه بها على يد الشيخ ناصر الدين المشذالي. اختص بالفقه والحديث والمنطق والفرائض والأصول، وكان من أعلم معاصريه بمذهب الإمام مالك، وحافظا لأقوال أصحابه وعرفانا بنوازل الأحكام في الفتيا.توفي سنة 745هـ. عنه ينظر: التنسي، المصدر السابق، ص 141 ؛يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 131.

8. هو أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن ابراهيم بن الناصر المجاصي المعروف بالبكاء، من علماء تلمسان وصلحائها، توفي سنة 741هـ ودفن بتلمسان .ينظر: البسان، ص 121 ؛نفح الطيب، ج5، ص 230 ؛نيل الابتهاج، مج1، ص 121.

9. هما أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى ابنا محمد بن عبد الله. أبو زيد هو أكبر ابني الإمام، أصلهما من برشك، كان أبوهما إماما، درسا العلوم الدينية على تلامذة ابن زيتون، وأبي عبد الله بن شعيب الدكالي. توفي أبا زيد سنة 743هـ/1343م، وتوفي أبا موسى سنة 749هـ/ 1349م. عنهما ينظر: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 130 ؛التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1985، ص 139 ؛التنبكتي، المصدر السابق، ج1، ص ص 139- 142 ؛ابن مريم، المصدر السابق، ص 123- 124 ؛المقري، المصدر السابق، ج7، ص ص 142- 147 ؛عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، تحقيق وتعليق محمد بن تاويت الطنجي، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951، ص ص 22- 47 ؛عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، 44-46 ؛محمد عمرو الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973، ص ص 109- 111.

10. فقيه أصولي نبغ في مختلف العلوم العقلية والنقلية، من تلامذته القلصادي الذي عرفه في رحلته قائلا: " كانت له مشاركة في العلوم النقلية والعقلية، قرأت عليه مختصر خليل ومستصفى

الغزالي وأصلي ابن الحاجب، وحضرت عليه تفسير القرآن ومنهج البيضاوي، وجمل الخونجي وتلخيص المفتاح. توفي سنة 846هـ/ 1442م. ينظر: نيل الابتهاج، ج2، ص 323، وأيضا، البستان، ص 221- 222.

11. هو الامام الفقيه أبو فارس عبد المؤمن بن محمد بن موسى الجناتي الفاسي، أعرف الناس بالمدونة وبمسائل التهذيب، توفي سنة 746هـ/1345م. عنه ينظر: أبو عبد الله الشريف التلمساني، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، تح محمد علي فركوس، ط1، المكتبة المكية، السعودية ومؤسسة الريان للطباعة والنشر، بيروت، 1998، ص 95.

12. هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد الآبلي المتوفى سنة 757هـ شيخ العلوم العقلية والنقلية في عصره، أشهر علماء المغرب الأوسط في القرن الثامن الهجري، أصل أجداده من آبله بالأندلس، ولد بتلمسان سنة 681هـ/ 1282م، ونشأ بها في كفالة جده القاضي ابن غلبون فشب على حب العلم والمعرفة فبرع في الحكمة والتعاليم واشتغل بالمعقولات، أخذ علوم المنطق والأصول عن أبي موسى بن الإمام وعن جده القاضي، وعن أبي الحسن التنسي عنه ينظر: المقري، المصدر السابق، ج5، ص 244 ؛نفح الطيب، ج5، ص 244 ؛البستان، ص 215 ؛نيل الابتهاج، ج2، ص 66 ؛هوارية بكاي، العلاقات الزيانية المرينية سياسيا وثقافيا، مذكرة ماجستير، فسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2007–2008، ص ص 131-134.

13. البستان، ص 170 ؛تعريف الخلف، ج1، ص 116.

14. نيل الابتهاج، ص 258 ؛ البستان، ص 170 ؛تعريف الخلف، ج1، ص 116.

15. عبد الرحمن ين خلدون، التعريف، صمن العبر، مج4، ص 3022 ؛نصر الدين بن داود، المرجع السابق، ص 120.

16. المصدرين نفسيهما.

17. عبد الرحمن ين خلدون، التعريف، صمن العبر، مج4، ص 3022.

18. بغية الرواد، ج1، ص 120.

19. ابو عبد الله الشريف، مفتاح الوصول، ص 113.

20. نفس المصدر، ص 108.

21. نفسه، ص 112.

22. بغية الرواد، ج1، ص120 ؛العبر، مج4، ص 3022 ؛نح الطيب، ج7، ص 269.

23. قال عبد الرحمن بن خلدون سمعت عريف بن يحيى – وهو أمير سويد، وعدو بني عبد الواد – يقول: "موسى بن عثمان – يقصد أبا حمو موسى الأول – هو معلم السياسة الملوكية الزناتية، وانما كانوا رؤساء بادية، حتى قام فيهم موسى بن عثمان، فحد حدودها وهذب مراسمها، ولقن ذلك أقتاله وأنظاره فتقبلوا مذهبه، واقتدوا بتعليمه. " ينظر: العبر، ج7، ص 204 .

24. من مآثر هذا السلطان مسجد، ومدرسة ابني الامام، وتعد هذه المدرسة أول مدرسة تشيد ببلاد المغرب الأوسط من قبل سلاطين بني زيان. للمزيد حول المسجد والمدرسة، وسيرة ابني الامام،

ينظر: ابن مريم، المصدر السابق، ص ص123-127 ؛ابن مرزوق الخطيب، المناقب المرزوقية، ص 202-203 ؛ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج6، دار الآفاق الجديدة، بيروت (د.ت)، ص 133 ؛مبخوت بودواية، المرجع السابق، ص 71 وص 82 ؛هوارية بكاي، المرجع السابق، ص 45 وص 48. وينظر كذلك:

Marçais (G) ,L'Architecture musulmane d'occident (Tunisie ,Algérie ,Maroc) ,métiers graphique ,Paris ,1954 ,p 115-116; Marçais (G) et (W) ,Les monuments arabes de Tlemcen ,vol 1 ,librairie Thorin ,Paris ,1903 ,p 168 ,et aussi: Marçais (G) ,remarques sur les medersas funéraires en berberie ,imprimeries de l'institut Français d'archéologie ,1937 ,p 263

25. عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، ص 219 ؛ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، ج6، ص 115.

26. من مآثر هذا السلطان، المدرسة التاشفينية التي تعد تحفة فنية لا نظير لها، حتى أصبحت قصرا من أعظم قصور الملوك، وهي – حسب زائريها – أكبر وأجمل مدرسة شيدت بالمغرب الاسلامي، وتصدر للتدريس بها أبو عمران موسى المشدالي. ينظر: التنسي، تاريخ بني زيان، ص 141 ؛المقري، المصدر السابق، ج8، ص ص 154-157 ؛محمود بو عياد، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري (15 م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص 82 ؛محمد عمرو الطمار المرجع السابق، ص 128 ؛محمد مكيوي، المؤسسات التعليمية في العهد الزياني، القرن 08 هـ / 14 م، مجلة الفكر الجزائري، مخبر المرجعيات الفلسفية والفنية للتفكير البلاغي والنقدي، الجزائر، العدد الرابع، ديسمبر 2009، ص 97 ؛Marçais (G) et (W) ,Les monuments arabes ,p 21؛ Marçais (G) ,L'Architecture musulmane ,p 265؛ وعن شخص أبو عمران موسى المشدالي ينظر: التنسي، المصدر السابق، ص 141-142 ؛يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 130.

27. نهض أبو الحسن المريني لمهاجمة تلمسان سنة 735 هـ / 1335 م، ولما لم يتمكن من اقتحامها حاصرها لمدة فاقت الثلاثين شهرا – بعدما أعاد بناء المنصورة - ولم يتمكن من دخولها إلا بعد أن تفطن لمصدر المياه التي تتزود منها المدينة، فدخلها من جهة الملعب (ملعب الخيل) الواقع أمام باب القرماديين في 27 رمضان 737 هـ / 1336 م، وفي اليوم الموالي قتل السلطان أبو تاشفين الأول، أمام قصره، وهو يدافع عنه رفقة أولاده وموظفيه، ودفن بباب وهب قرب ضريح أبي يعقوب التفريسي، ينظر: ابن مرزوق، المجموع، ورقة 34 ؛عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، ص 227 ؛يحيى بن خلدون، البغية، ج1، ص 219 ؛برونشفيك، المرجع السابق، ح1، ص 180؛ Marçais (G) et (W) ,Les monuments arabes ,p p 192-201 ؛لسان الدين بن الخطيب، شرح رقم الحلل في نظم الدول، تحقيق عدنان درويش، منشورات دار الثقافة، دمشق، 1990، ص 73.

28. حيث استعمل ضباط الدولة الزيانية وجنودها، إلى جانب جيشه في توسيع نفوذه، حتى أصبح المغربين الأقصى، والأوسط تحت نفوذه، ينظر: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 234-235 ؛التنسي، تاريخ بني زيان، ص 149.

29. استغل الأميران أبي ثابت، وأبي سعيد ثورة الأعراب بالقيروان بقيادة أحمد بن عثمان بن أبي دبوس على السلطان أبي الحسن المريني، وانضما إليهم، وبعدما أشيع خبر مقتل السلطان المريني، توجها نحو المغرب الأوسط - في جيش من بني عبد الواد -، الذي كان تحت حكم عثمان بن جرار العبد الوادي، ولما وصلا إلى تلمسان فتح لهما سكانها أبوابها، وأعادا بذلك احياء الدولة الزيانية، ولو لفترة وجيزة. للمزيد عن هذه الأحداث ينظر: ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 495 ؛ابن قنفد أبو العباس أحمد القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق محمد الشادلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، ص 171؛يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 236-237.

30. بعد استرجاعهما لعرش أسلافهما تقاسم الأميران أبا سعيد، وأبا عثمان السلطة حيث رجعت الخطبة والسكة، وكرسي العرش للأول، وتقلد الثاني ألوية الجيش، والتزم كل واحد منهما بصلاحياته. ينظر في ذلك: التنسي، تاريخ بني زيان، ص 152، ؛ابن مرزوق، المجموع، ورقة 47 .

31. تولى العرش المريني بعد والده أبي الحسن، وقد كان نائبا له على تلمسان أثناء رحلته لضم المغرب الأدنى، وبعدما أشيع مقتل والده غادر تلمسان إلى فاس بصفته ولي العهد، ووريث العرش .ينظر في ذلك: عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص 48.

32. سهل أنجاد، سهل قفر وعر، لا ماء فيه ولا شجر، يمتد على مسافة نحو ثمانين ميلا طولا، وما يقرب من خمسين ميلا عرضا، عسكر فيه أبو سعيد، وأبو ثابت عندما وصلتهما أخبار حشود بني مرين تحت قيادة أبي عنان، وعند هذا السهل دارت معركة حامية الوطيس بين الجيشان سنة 753 هـ / 1352 م، عاد النصر فيها لأبي عنان، وقتل أبا سعيد، وفر منها أبو ثابت الذي حاول التصدي لأبي عنان لكنه انكسر عند وادي شلف. ينظر: يحيى ابن خلدون، البغية، ج1، ص 245-246 ؛التنسي، تاريخ بني زيان، 154-155.

33. كان أبو حمو موسى الثاني ضمن جيش أبي ثابت الذي انهزم أمام جيش أبي عنان بالقرب من وادي شلف، وانسحب إلى مدينة الجزائر رفقة عدد قليل من الأنصار، ومن أسرة بني عبد الواد، ومن بينهم أبي زيان محمد بن سعيد، والوزير يحيى بن داوود .والذي نجا إلى تونس، بعد أن زال سلطان بني عبد الواد مرة أخرى على يد السلطان أبي عنان المريني الذي اتخذ من مدينة تلمسان مقرا له .للمزيد حول هذه الأحداث ينظر:يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 246-247 ؛التنسي، تاريخ بني زيان، ص 154-155 ؛عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، ص 254 ؛عبد العزيز لعرج، المساجد

الزيانية بتلمسان " عمارتها وخصائصها "، حوليات جامعة الجزائر، العدد 6، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991-1992، ص 107-108.

34. بغية الرواد، ج2، ص 36.

35. التنسي، تاريخ بني زيان، ص 180 ؛يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج2، ص 11 .

36. حيث عرفت الدولة الزيانية على عهده السيادة المطلقة على أراضيها، وبلغت الذروة من حيث النظم السياسية، والاجتماعية، والدينية، والثقافية، والعسكرية . ومن مآثر هذا السلطان مسجد سيدي ابراهيم المصمودي، والمدرسة اليعقوبية التي أسندت مهمة التدريس فيها للعلامة أبو عبد الله الشريف التلمساني .ينظر: بوزياني الدراجي، المرجع السابق، ص 34، وعن مآثر السلطان أبي حمو، ينظر: عبد الحميد حاجيات، الحياة الفكرية بالجزائر في عهد بني زيان، كتاب الجزائر في التاريخ،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 438 ؛أبو حمو موسى الثاني،ص 159 ؛مبخوت بودواية، المرجع السابق، ص 71، وص 84-85 ؛رشيد بو رويبة، جولة عبر مساجد تلمسان، مجلة الأصالة، العدد 26، جويلية / أوت، السنة الرابعة 1975، ص 176 ؛عبد العزيز لعرج، المرجع السابق، ص 110 ؛بابا خويا الحاج المهدي، الامام أبو عبد الله الشريف التلمساني وجهوده الأصولية والفقهية، رسالة ديبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة فاس، المملكة المغربية، 1992-1993، ص 42 وما بعدها .

37. تعرضت الدولة الزيانية في عهد أبي حمو موسى الثاني لعدة هجمات من بني مرين، اضطر خلالها هذا الأخير لمغادرة عاصمته أكثر من مرة، منها مغادرته تلمسان لمدة خمسة وعشرين بعد غزو بني مرين لها سنة 760 هـ / 1359 م، ثم لمدة أربعين سنة 761 هـ / 1360 م، ثم لمدة فاقت السنتين 772-774هـ/ 1371-1373 م، ثم لمدة قاربت السنتين 784-786 هـ / 1383-1385 م. اضافة إلى مواجهاته مع أبي زيان بن عثمان بن أبي تاشفين الأول، أحد أبناء عمومته المنافس له على العرش الزياني، والذي كان يجد الدعم والمناصرة من الحفصيين والمرينيين، ومن أشهرها معركة سنة 769 هـ / 1368م التي كادت أن تودي بحياة السلطان أبي حمو، وتذهب بمملكته . ينظر في ذلك: يحيى بن خلدون، البغية، ج2، ص 50 وما بعدها ؛ابن أبي الزرع، روضة النسرين، 56 وما بعدها ؛عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، ص 260 وما بعدها.

38. استنجد أبو تاشفين بالسلطان أحمد المريني (789-796 هـ / 1387-1394 م)، فبعث معه قوة عسكرية بقيادة زيان بن عمر الوطاسي، انضمت إلى أنصاره، وتوجهوا نحو مدينة تلمسان، فخرج أبو حمو الثاني إلى جبل بني ورنيد وقلبه يعتصر حزنا وألما من تصرف ولده، وولي عهده . وبعد اقتتال عنيف سقط أبو حمو بفرسه على الأرض، فعجل أحد أنصار ابنه بقتله فبل أن يصل إليه وكان ذلك سنة 791 هـ /1390 م .حول هذه الأحداث ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، ص 300، وما بعدها ؛ابن أبي الزرع، روضة النسرين، ص 58.

39. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة طبعة القاهرة 1958، ص 1038.

40. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة طبعة بيروت 2004، ص 397.

41. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 127 ؛ابن مريم، المصدر السابق، ص 68 ؛عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى، ص 182 – 183.

42. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 203 ؛التنسي، المصدر السابق، ص 256.

43. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16م-20م)، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 40.

44. المرجع نفسه، ص 264.

45. عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج1، ص 149.

46. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 124-125.

47. المصدر نفسه، ص 207 ؛صالح بن قربة، المئذنة المغربية الأندلسية في العصور الوسطى الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 85 ؛عطاء الله دهينة، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، الجزائر في التاريخ، ص 362؛ Marçais, (G), Tlemcen (ville d'art et d'histoire) , publié par les soins de la société historique Algérienne , Tome 1, Alger, 1936, p34.

48. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 207 ؛التنسي، المصدر السابق، ص 125.

49. رشيد بورويبة جولة عبر مساجد تلمسان، ص 172؛ Marçais, (G), Tlemcen (ville d'art et d'histoire), p. 34.

50. مبخوت بودواية، المرجع السابق، ص 69.

51. محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 213 ؛رشيد بورويبة وآخرون، الجزائر في التاريخ، ج3 ص 496.

52. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 136.

53. رشيد بورويبة وآخرون، الجزائر في التاريخ، ص 497.

54. يحيى بن خلدون، المصدر السابق،ج1، ص 130 ؛التنسي، المصدر السابق، ص 139؛

Dhina (A) : Le royaume Abdelouadide à l'époque d'Abou Hamou Moussa 1er et d'Abou Tachfin 1er, O.P.U , E.N.A.L, Alger , p.34 .

55. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 130 ؛عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص ص 821- 824 ؛التنسي المصدر السابق، ص 139، وأيضا، المقري، نفح الطيب، ج5، ص 215 ؛الحفناوي، تعريف الخلف، ص ص 201- 307.

56. [57]- يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص ص 104- 136؛ عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى، ص 182- 183 ؛عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق،ج1، ص 144.

57. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص114 ؛ التنسي، المصدر السابق، ص 125،126 ؛ ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان نشره محمد بن أبي شنب، وتقدم له عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1986، ص66 ؛ ابن مرزوق، المسند، ص 151، 273، 282 ؛ أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس فيه الديباج، تحقيق علي عمر، ج1، مكتبة الثقافة الدينية، 2004، ص 81، 82.

58. ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص 274،275 ؛ابن مريم، المصدر السابق، ص227 ؛ عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني، ص58.

59. ابن الأعرج، زبدة التاريخ، ج3، ورقة 35 ؛ عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، ص163.

60. عن عناية سلاطين بني زيا بالعلم والعلماء ينظر بالتفصيل: هوارية بكاي، العلاقات السياسية والروابط الثقافية بين المغرب الأوسط والأقصى خلال القرنين 7-8 هـ/13-14 م، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2015/2014 ص ص 128-136 .

61. التنسي، المصدر السابق، ص 247، 248.

62. هو الحسن بن مخلوف الراشدي الشهير بأبركان (تـ 817هـ/ 1453م)، كان عالما صالحا وقطبا في التصوف بتلمسان، أخذ عن ابراهيم المصمودي وابن مرزوق الحفيد، وأخذ عنه الحافظ التنسي والشيخ السنوسي، ينظر: محمد بن =سعد الأنصاري، روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، تحقيق يحيى بوعزيز، منشورات anep، الجزائر 2002، ص ص 125- 142 ؛ ابن مريم، المصدر السابق، ص ص 74- 93 ؛ محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1349هـ ص262 ؛ عبد الرحمن بالأعرج، العلاقات الثقافية بين دولة بني زيان والمماليك، رسالة ماجستير تاريخ المغرب الإسلامي، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2007- 2008، ص26.

63. عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج2، ص324.

64. ابن الأعرج، زبدة التاريخ، ج3، ورقة99.

65. من العلماء الذين عايشوا هذا السلطان، أبو إسحاق ابراهيم التازي نزيل وهران (تـ 867هـ/1462م)، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى الحباك (تـ 867هـ/ 1462م)، وابن العباس التلمساني (تـ 871هـ/ 1466م)، ومحمد بن مخلوف الراشدي أبركان (تـ 885هـ/ 1470م)، ومحمد بن يوسف السنوسي (تـ 895هـ/ 1480م)، القلصادي (تـ 891هـ/ 1486م)، وأحمد بن محمد بن زكري المانوي التلمساني (تـ 899هـ/ 1493م)، ومحمد بن أحمد بن أبي الفضل بن بسعين بن سعد (تـ 901هـ/ 1495م)، ينظر في ذلك: ابن مريم، المصدر السابق، ص ص 211- 220 ؛ أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ج1، ص84 ؛ ابن الأعرج، زبدة التاريخ، ج3، ورقة 100، ؛عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج2، ص360.

66. 67-نفسه، ص 158.

67. تشير العديد من الرسائل والمصنفات إلى مدى حب الأندلسيين للعلم واهتمامهم به، ومنها رسالة الشقندي (تـ 629هـ/ 1231م)، والتي ذكر فيها: "أن الإجماع حصل على فضل الأندلسيين، وقد نشأ فيهم من الفضلاء والشعراء بها ما اشتهر في الآفاق"، وقد أكد هذه الفكرة عبد الرحمن بن خلدون بوصف ذكاء الأندلسيين وحبهم الشديد للعلم واعتنائهم بالشعر الذي بلغ حسب قوله التنسيق فيه الغاية". ينظر في ذلك: عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ص 646؛ القلصادي، تمهيد الطالب ومنتهى الراغب في أعلى المنازل، المعروفة برحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، ص 26؛ أحمد أمين، ظهر الاسلام، ج3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص 10.

68. عن الرحلة العلمية في الاسلام، ينظر، غنيمة محمد، تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1953، ص ص 208- 217.

69. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص171؛ التنسي، المصدر السابق، ص 126، 127؛ العبدري، رحلة العبدري ص 11، 12؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص114؛ ابن مريم، البستان، ص ص 66- 68، التنبكتي، نيل الابتهاج، ص ص 35- 37؛ عبد الحميد حاجيات، أبو حمو، ص43.

70. تنس: مدينة قرب مليانة، تبعد عن البحر بميلين، وهي من مدن المغرب الأوسط، ينظر، الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان بيروت، 1975، ص138.

71. ينحدر ابن مرزوق من عائلة عريقة أصلها من القيروان، هاجرت إلى تلمسان واستقرت بها عندما نزل بنو هلال بالمنطقة خلال القرن 5هـ اشتهر منها العديد من العلماء الذين عرفوا بالورع والتقوى وحبهم للعلم، مما أكسبهم مكانة اجتماعية وثقافية ممتازة، ذاع صيتها عبر أنحاء المغرب الاسلامي، للمزيد من المعلومات ينظر، ابن مرزوق، المسند، ص ص 15- 17؛ ابن مرزوق، المجموع، ورقة3؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 114، 115؛ ابن مريم، المصدر السابق، ص226؛ التنبكتي، نيل الابتهاج، ج1، ص151؛ نصر الدين بن داود، أسرة المرازقة ودورها الثقافي بتلمسان من القرن 7هـ إلى 10هـ رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة وهران، 2004، ص ص 2- 5.

72. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص109؛ حاجيات وآخرون، الجزائر في التاريخ، ج3، ص440، حاجيات، الحياة الفكرية، ص140؛ نصر الدين بن داود، المرجع السابق، ص ص 25- 30.

73. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص130؛ التنسي، المصدر السابق، ص139؛ العبدري، المصدر السابق، ص11، حاجيات وآخرون، الجزائر في التاريخ، المرجع السابق، ج3، 440؛ حاجيات، الحياة الفكرية، ص140 وأبو حمو موسى، ص43.

74. يحييى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص130؛ ابن مريم، المصدر السابق، ص ص 123- 126؛ التنبكتي، نيل الابتهاج، ج1، ص ص 139- 142؛ المقري، المصدر السابق، ج7،ص ص142- 147؛ عبد الرحمن بن خلدون، التعريف، ص ص 821- 824،؛ ابن فرحون، الديباج، ج1، ص152؛ الحفناوي،

تعريف الخلف، ج1، ص210؛ حاجيات، أبو حمو موسى، ص ص 44- 46؛ عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج2، ص ص 152- 156؛ الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص ص 109- 111.

75. للمزيد من التفاصيل عن هذا العالم ينظر، التعريف بابن خلدون، ص 853، 854؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص ص 136- 145؛ التنبكتي، نيل الابتهاج، ج1، ص ص 250- 255؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص121؛ حاجيات، أبو حمو، ص ص 46- 48؛ هوارية بكاي، المرجع السابق، ص 68 - 69.

76. ابن مرزوق، المجموع، ورقة 91 وورقة 96؛ ابن فرحون، المصدر السابق، ص ص 305- 307؛ المقري، نفح الطيب، ج6، ص ص 323- 346؛ التعريف بابن خلدون، ص848؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص115؛ التنبكتي، المصدر السابق، ص ص 267- 270 ؛ ابن قنفذ، المصدر السابق، ص 60، 61؛ حاجيات، أبو حمو، ص ص 165- 168.

77. نسبة إلى بني وغليس وهي بطن من بطون قبائل البربر في جنوب بجاية بأعلى وادي الصومام، ينظر عادل نويهض، المرجع السابق، ص342.

78. محمد بن أبي عمران المغيلي المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، القسم الأول، مخطوط بالمكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1335، ورقة 132، 133، 153 وما بعدها، القسم الثاني، رقم 1336، ورقة 133؛ الونشريسي، المعيار، ج2، ص 385، 386، وج11، ص14؛ التنبكتي، نيل الابتهاج، ج2، ص270، حاجيات وآخرون، الجزائر في التاريخ، المرجع السابق، ج3، ص443؛ محمد الشريف قاهر، عبد الرحمن الوغليسي، معجم مشاهير المغاربة، تنسيق أبي عمران الشيخ، تقرير ناصر الدين سعيدوني، إعداد فرقة البحث العلمي، جامعة الجزائر، 1995، ص550؛ الطاهر بونابي: "اتحاد المؤرخين الجزائريين، العدد5، جوان، 2005، دار الكرامة للطباعة والنشر، الجزائر، ص ص 102- 121؛ هوارية بكاي، المرجع السابق، ص75.

79. عن ابني أبي عبد الله الشريف ينظر: مفتاح الوصول، ص ص 57- 60 ؛نصر الدين بن داود، المرجع السابق، ص ص 122- 125.

ابن مرزوق الحفيد التلمساني
وجهود في علم الحديث

دة.نعيمة طيب بوجمعة
جامعة ابن خلدون / تيارت

مقدمة:

بلغ ابن مرزوق الحفيد الدرجات العليا في التفوق والشهرة في عصره، ووصل إلى مكانة متميزة في العديد من مجالات العلوم النقلية والعقلية فاق بها أقرانه، فإذا ذكر علم أصول الدين والعقيدة والتوحيد فإننا نجد ابن مرزوق قمة من قمم هذه العلوم، وإذا بحثنا في اللغة وآدابها فان ابن مرزوق في الذروة، وإذا تناولنا الفقه فإننا نجد بأن عالمنا فقيه معتمد، وأصولي ثقة، وإذا عرضنا الوعظ والتدريس فإن شيخنا قدوة ومعلم ومرب للنفوس والقلوب والعقول والجوارح.

ولا نبالغ، إن قلنا إن قدرة ابن مرزوق الحفيد على استيعاب علوم عصره كانت كبيرة، وإذا ما قمنا بإحصاء العلوم التي درسها على يد شيوخه، وقام هو بتدريسها فيما بعد، لتبين لنا من أنه كان قادرا على أخذ كل العلوم التي كانت متداولة في زمانه في مختلف المراكز العلمية الإسلامية، وهذا لا يحتاج إثبات لكون علمه الواسع وشهرته وسعة اطلاعه فضلا عن المجالات التي كتب بها، تلزمنا بالاعتقاد من أنه أخذ أكبر قسط من كل العلوم التي كانت متداولة في الحاضرة تلمسان وبقية الحواضر العلمية التي زارها خلال مسيرته العلمية.

ومن خلال ما سبق من قول، فإننا نجد أن ابن مرزوق الحفيد كتب مصنفات عديدة وذات قيمة علمية كبيرة في مختلف العلوم النقلية والعقلية، ومنها: علم الحديث الذي

يعتبر هو والسنة النبوية المطهرة في مصاف الركائز العظمى للثقافة الإسلامية، من حيث اعتبارهما المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم، ولذلك ملئت المدونات الإسلامية بعلوم الحديث رواية ودراية، وتخريجا واستنباطا، وتحليلا وتعليلا. ومن هنا اجتهد ابن مرزوق الحفيد مثل بقية علماء المغرب الإسلامي في هذا الميدان، بما يتوافق مع قيمته الفقهية وعلمه الواسع، ومن هذا المنطلق، وضع عالمنا العديد من المؤلفات في هذا المجال، واستطاع بأسلوبه الموسوعي والمعرفي من تقديم مصنفات ذا قيمة علمية ودينية هامة، لها وقعها في منطقة المغرب الإسلامي، ومما ساعده على ذلك سعة إطلاعه وعلمه[1]، هذا جعل التنبكتي يعلق على ذلك بالقول: "الآخذ من كل فن بأوفر نصيب الراعي في كل مرعاه الخصيب"[2]. ومن خلال هذه الدراسة "ابن مرزوق الحفيد وجهوده في علم الحديث"، سنحاول تسليط الضوء على جوانب من حياته وما قدمه لنا من مصنفات في هذا العلم.

المبحث الأول: حياة ابن مرزوق الحفيد

عرفت شخصية ابن مرزوق الحفيد من قبل المصادر التاريخية وغيرها المعاصرة واللاحقة بكونها واحدة من أبرز الشخصيات في المغرب الإسلامي دينا وعلما وطبعا وخلقا ومعتقدا، ومن خلال هذا المبحث سوف نتطرق بالحديث عن سيرته الذاتية عبر الحديث عن اسمه ومولده ونسبه وأهم صفاته وصولا إلى وفاته.

أولا: اسمه وشهرته:

لم يختلف المترجمون[3] لحياة ابن مرزوق حول اسمه ولقبه وكنيته ونسبه، واتفقوا على أنه: محمد بن أحمد بن محمد[4] بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني، المعروف بـ"الحفيد" تمييزا له عن جده ابن مرزوق الخطيب[5].

يكنى ابن مرزوق بـ"أبي عبد الله"، أما عن نسبه فهو ينتمي إلى قبيلة عجيسة البربرية[6]. واشتهر عالمنا ابن مرزوق بلقب "الحفيد"، فيقال له: ابن مرزوق الحفيد تمييزاً له عن جده شمس الدين محمد بن أحمد بن مرزوق الخطيب، نظرا لتشابه اسميهما وكنيتيهما.

ثانيا: مولده:

ذكر السخاوي أن الإمام الحافظ أبا عبد الله محمد بن أبي بكر بن مرزوق الحفيد ولد في ثالث عشر ربيع الأول سنة ست وستين وسبعمائة [7] (13 ربيع الأول 766ه)[8]، ولكن

ابن مرزوق نفسه ذكر تاريخ ميلاده في كتابه "شرح البردة" وهو ليلة الاثنين 14 ربيع الأول 766ه الموافق لـ 8 ديسمبر 1364م بتلمسان[9]، وهو ذات التاريخ الذي ذكره غالبية المترجمين لحياته[10]. والده هو: أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن مرزوق العجيسي التلمساني[11]، وأمه هي عائشة بنت الفقيه العالم أبو العباس أحمد بن الحسن بن سعيد المديوني قاضي الجماعة بتلمسان[12] كانت من الصالحات، ذكرها ولدها ابن مرزوق الحفيد، وقال أنه كان لها قوة في تفسير الرؤيا من كثرة مطالعتها لكتب الفن، وأنها ألفت مجموعا في أدعية اختارتها، كما نقل عنها خبرا يتعلق بميلاده واسمه وأنه كان يسمى "أبا الفضل"، وكان كثير المرض وأشرف على الهلاك ثم سماه جده لأمه بـ"محمد". ترى أن هذه الصالحة عرف بها ابنها ونقل عنه الخبر ابن مريم في كتابه البستان ولم يضف معلومة أخرى تتعلق بها[13]، لاسيما وأنها من بيت علم وصلاح وأنها ممن يؤلف، وهذه فريدة من الفرائد فنادرا ما نجد ذكرا لكتاب ألفته امرأة إذ يعسر علينا استكمال صورة حياة هذه المرأة الصالحة في ظل ما توفر لنا حاليا من مصادر عنها، ولعل الزمان يسمح بالعثور على ما يجلي خبرها ويقرب سيرتها وأحوالها ضمن مناقب النساء الصالحات العالمات.

ثالثا: نشأته

لا تتوفر معلومات كثيرة عن النشأة الأولى لشيخنا ابن مرزوق الحفيد، فقد حاولنا مع مختلف كتب التراجم والسير التي وقعت بين أيدينا أن نجد ما يلبي ضالتنا، ولكننا لم نجد إلا نزرا قليلاً، وهذا راجع إلى كون أغلب أحاب تلك المصادر كانوا منشغلين بعلمه ومعارفه التي طغت على نشأته الأولى. ولكن، علينا أن نتذكر من أن ابن مرزوق الحفيد نشأ في بيت علم ومعرفة وصلاح ودين وما كان سائد آنذاك، فالأب العالم هو ألصق بابنه وأول أساتذته احتكاكا به. ولكننا، نجد أن ابن مرزوق كان أكثر حظا من غيره، إذ لم يكن الأب وحده عالما، وإنما الأسرة بأكملها فالجد من أعلم أعلام تلمسان والمغرب الإسلامي كافة والعم كذلك، وهذا ساهم على ما يبدو لي في نبوغ ابن مرزوق الحفيد منذ الصغر، وهنا نستعين بما قاله البلوي بهذا الخصوص، حين قال: "وهو يروي عن جده لأبيه السيد الخطيب نفع الله به، جميع مروياته بالإجازة العامة له من صغره، ويروي عنه أيضا بوساطة أبيه وعمه"[14].

على العموم، أخذ ابن مرزوق علومه الأولى عن عائلته إذ حفظ القرآن الكريم ودرسه على أبيه وجده محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسي التلمساني الخطيب الأكبر المشهور بالجد والرئيس (تـ:781ه/1479م)، كما تتلمذ أيضا على يد عمه محمد وعلى يد بعض شيوخ تلمسان[15]، ثم تلا القران الكريم بقراءة ورش عن نافع على يد شيخه عثمان الزروالي[16]، فكان كما وصفه المقري: "آية في تحقيق العلوم والإطلاع المفرط على النقول والقيام التام على الفنون بأسرها"[17].

وعلى ما يبدو لنا من خلال بعض الإشارات التي تخص شيخنا ابن مرزوق الحفيد في شبابه، أنه كان شديد التعلق بجده ابن مرزوق الخطيب، ويتجلى هذا في ملازمته وتنقله معه في العديد من المناسبات.

رابعا: صفاته وأخلاقه:

لقد عرّف العلماء الأخلاق الفاضلة بعبارة عن المواهب والقوى والسجايا المدركة بالبصيرة لا البصر، وأيضاً بالملكة النفسانية التي يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الحميدة[18]. والعلماء هم مصابيح تهتدي بهم الأمة بفكرهم وعلمهم وبسيرتهم، فهم ورثة الأنبياء وهم الأئمة، هذا إذا أحسنوا الوراثة عن نبينا (ﷺ)، ولا تخلو الأمة في جيل من أجيالها من الراشدين من العلماء الذين تجري سيرتهم العطرة بين الناس في حياتهم وبعد رحيلهم عن الدنيا، وذلك من فضل الله تعالى على هذه الأمة.

لقد اتفق المترجمون على أن ابن مرزوق الحفيد كان يتوفر على صفات عالية ونادرة، تدل على النبوغ والعبقرية والملكات الفكرية الحادة والذهن الثاقب وعلو الشأن، وأنه كان على هامش كبير من التواضع وحسن الخلق، وجمال الطبع وانس المعاصرة وعلو الهمة، ومن المفيد ذكر بعض من صفاته.

في مقدمة ما عرف به ابن مرزوق الحفيد هو خشية الله عز وجل، وهذه الصفة ملامحها واضحة وبينة في شخصه، وهي من أولى الصفات التي أكد عليها الإسلام، فإن خشية الله هي التي تجعل العالم يؤدي ما يجب عليه، وكلما كانت خشيته أكمل صار إخلاصه أعظم، وصار أداؤه للأمانة أكمل، وهنا نقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[19]، ويعلق أبو بكر محمد الآجري (تـ: 360ه)في كتابه "أخلاق العلماء على مكانة العلماء في الدنيا والآخرة، بالقول: "والعلماء في القيامة

بعد الأنبياء تشفع، مجالسهم تقيد، وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة، هم أفضل من العباد وأعلى درجة من الزهاد، حياتهم غنيمة، وموتهم مصيبة"[20].

إن ما سبق من كلام يذكرنا بصفات شيخنا ابن مرزوق الحفيد التي أشاد بها القاصي والداني، فكانت أخلاقه مثالا يحتذى بها. وهنا نستذكر قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[21]، أو كما ورد في قول الرسول محمد(ﷺ): (وَإِن فَضْلَ العالمِ على العَابِدِ كَفضل القمر ليلة البدرِ على سائرِ الكَوَاكِب)، وهنا أشير إلى ما ذكره المقري في كتابه "نفح الطيب" من دليلا على أن عالمنا ابن مرزوق الحفيد كان ورعا خاشعا محبا لذكر الباري عز وجل ورسوله محمد(ﷺ) ما نصه: "وختمت عليه أربعينيات النووي[22]، قرأتها عليه في منزله قراءة تفهم، فكان كلما قرأت عليه حديثا يعلوه خشوع وخضوع، ثم يأخذ في البكاء، فلم أزل أقرأ وهو يبكي إلى أن ختمت الكتاب"[23]. ويعلق التنبكتي في كتابه "كفاية المحتاج" على تمسك ابن مرزوق الحفيد بدينه وحرصه عليه، وهو دلالة على خشية الباري عز وجل، حين يقول: "سيف الله على ذوي البدع ممن عظم نعمة الله به على خلقه"[24]. وهذا ما يؤكده الآجري كصفة من صفات العالم وأخلاقه، حين يقول: "فمن صفات العالم أن يكون لله شاكرا وله ذاكراً دائم الذكر بحلاوة حب المذكور منعهم قلبه بمناجاة الرحمن يعد نفسه من شدة اجتهاده خاطئا مذنبا، ومع الدؤوب على حسن العمل مقصرا"[25]. وتتجلى صفات الشكر وحسن العمل، في الصورة التي ذكرها القلصادي حين قال: "كان من رجال الدنيا والآخرة، وكانت أوقاته كلها معمورة بالطاعات ليلا ونهارا من صلاة وقراءة قران وتدريس علم وفتيا وتصنيف، وكانت له أوراد معلومة وأوقات مشهودة"[26].

ومن الصفات التي يجب توفرها في العالم "التواضع" وعدم التكبر، وذلك اقتادا بنبينا محمد(ﷺ)، فالعلماء هم أكثر الناس تواضعا، وهذا ما نجده يتمثل في شخص ابن مرزوق الحفيد، فهو يزداد تواضعا كلما سما في سماء العلم والمعرفة، فهو الذي يشهد له القاصي والداني بمكانته وعالمه، ولكنه كان يزداد تواضعا لقناعته من أن هذا العلم هو لمنفعة الناس وخدمتهم، وفي هذا الصدد كتب القلصادي في رحلته يصف تواضع شيخه ابن مرزوق الحفيد، قائلا: "الشيخ الإمام العلامة الكبير الشهير شيخنا وبركتنا سيدي أبو عبد

الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي حل كنف العلم والعلاء"، ثم يعود ليزيد من وصف تواضعه ليقول: "وسما في النفوس موضعه وموقعه فلا عليك أن ترى أحسن من لقائه، ولا أسهل من إلقائه"[27].

ولو تأملنا في شخصية ابن مرزوق الحفيد فإننا نجد من بين الصفات التي امتلكها هو الصبر وتحمل مشاق العمل، فإن قد ينال العالم بعض الأذى وقد يتعب في ذلك، قد تحصل له المشاق في دنياه وفي بدنه، لكن عليه أن يجتهد في حفظ دينه، وفي الحرص على القيام بحق الله عليه وعليه أن يتذكر قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾[28]. فهو، أي ابن مرزوق الحفيد: "حجة الله على العلم والعالم، جامع بين الشريعة والحقيقة على أصح طريقة، متمسك بالكتاب لا يفارق فريقه"[29].

ومن صفات التي عرف بها عالمنا حب الناس بمجالسته والاستماع إليه، وهذا دليل على ما يحمله هذا العالم من علوم ومعارف قلما نجدها مجتمعه في شخص واحد، وتشير المصادر إلى أن ابن مرزوق الحفيد كانت تسعى إليه الناس لمجالسته ومؤانسته، وفي هذا يقول المقري: "وأجمع الناس على فضله من المغرب إلى الديار المصرية، واشتهر ذكره في البلاد، فكان بذكره تطرز المجالس، وجعل الله تعالى حبه في قلوب العامة والخاصة فلا يذكر في مجلس إلا والنفوس مشوقة إلى ما يحكى عنه"[30].

ومن مكارم الأخلاق وحسن الصفات التي عرف بها شيخنا ابن مرزوق الحفيد، هو التواضع والإنصاف وقول الحق مهما كانت نتائجه، وفي هذا يقول تلميذه عبد الرحمن الثعالبي(تـ 875ه): "كان التواضع والإنصاف والاعتراف بالحق في الغاية وفوق النهاية"[31]، وذكر ابن غازي تواضعه في التعامل مع طلبة العلم، حين قال: "وتواضعه لطلبة العلم"[32].

ومن خلال ما سبق لم يكن ابن مرزوق الحفيد إلا نموذجا لفضائل الأعمال، والصورة المثلى للعالم الحقيقي، الذي لا غرض له من العلم إلا خدمة الناس والتقرب به زلفى إلى الله عز وجل ليس أكثر. وهذا يظهر لنا بعد المسافة الفاصلة بين شيخنا ابن مرزوق الحفيد ومضمون حديث المصطفى(ت 875ه)ﷺ: ﴿مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إليهِ، فَهُوَ فِي النَّار ﴾[33].

خامسا: أبنائه:

لم يرزق ابن مرزوق الحفيد إلا ولدين اثنين، أحدهما ذكر والأخرى أنثى، وهما أيضا سارا على نفس نهج أبيهما في خط العلم والورع والدين، وهما: الابن ويدعى: محمد الكفيف (تـ: 901هـ)، وهو من تلاميذ والده، وكان من أبرز العلماء في عصره، وقد رزقه الله بولد وبنت، مثل أبيه الحفيد، وكان الولد هو: أحمد بن مرزوق الثالث (تـ: 925ه)، والذي يعرف بحفيد الحفيد، وأما البنت فهي: أم جد المقري صاحب "نفح الطيب". وأما الأنثى: فهي حفصة المرأة الصالحة التقية الورعة التي ورثت علم أبيها وحضرت مجالسه، وقد وُلد لها محمد الثامن الذي ورث هو الآخر علم وأخلاق آبائه فاشتهر بالعلم وعُرف بابن مرزوق الخطيب (كان حيا سنة 918هـ).

سادسا: وفاته:

بعد حياة حافلة بالبحث والتأليف والدرس توفي العالم الجهبذ ابن مرزوق الحفيد مساء يوم الخميس 14 شعبان 842هـ الموافق 30 جانفي 1439م بتلمسان(34)، وأكد هذا التاريخ تلميذه القلصادي إذ شهد وفاته وحضر جنازته فهو ممن لازموه في آخر سنوات حياته(35)، وذلك عن عمر ناهز الست والسبعين سنة. وصلي عليه بالجامع الأعظم بعد صلاة الجمعة ودفن بالروضة غربي المسجد في جنازة مهيبة حضرها السلطان وكبار رجال الدولة والعلماء، ذكر هذا القلصادي هذا المشهد بالقول: "كانت له جنازة عظيمة حضرها السلطان فمن دونه لم أر مثلها فيما قبل، جمعنا الله وإياه في دار كرامته وأسف الناس لفقده" وآخر بيتين سمع منه قبل موته:

إن كان سفك دمي أقصى مرادكم فما غلت نظرة منكم بسفك دمي"(36).

سابعا: وظائف ابن مرزوق الحفيد:

إن ابن مرزوق الحفيد كان واحدا من الأئمة الذين يفزع إليهم في الفتوى، وهذا بدليل ما نقله لنا الونشريسي والمازوني في نوازلهما نتيجة علمه، فقد ورد لدى الونشريسي: "شيخا الفتوى بتلمسان سيدي محمد بن مرزوق وسيدي أبو الفضل قاسم العقباني رحمهما الله ورضي عنهما"(37)، وكما صرح أبو زكريا يحيى المازوني في مقدمة نوازله بمصادر فتاويه التي اعتمدها، فقال: "واقتصرت في جميع ذلك على أجوبة المتأخرين من علماء تونس وبجاية

والجزائر وأشياخنا التلمسانيين كشيخي ومفيدي شيخ الإسلام علم الأعلام العارف بالقواعد والمباني سيدي أبو الفضل قاسم العقباني وشيخي الإمام الحافظ بقية النظار والمجتهدين ذي التواليف العجيبة والفوائد الغريبة مستوفي المطالب والتحقيق، سيدي أبي عبد الله محمد بن مرزوق"[38].

أما بالنسبة للقضاء لم تشر كتب التراجم إلى أنه تولى منصب القضاء، وهنا نستعين بما دونه تلميذه القلصادي في رحلته، وهو يتحدث عن شيوخه الذين أدركهم بتلمسان – وفي مقدمتهم ابن مرزوق الحفيد- فيصف أبا الفضل قاسم العقباني بقوله: "ولي خطة القضاء بتلمسان"[39]، ولم يذكر مثل ذلك في ترجمة شيخه ابن مرزوق الحفيد رغم كل ما ذكره عنه من مديح وإطراء كبيرين.

ذكر الونشريسي في وفياته أنه: "في سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة توفي قاضي الجماعة بتلمسان في النصف من شعبان إمام المعقول شيخ شيوخنا الرواية الرحال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن مرزوق العجيسي"[40]، فهل تحليته له بـ"قاضي الجماعة" من باب التشريف والتعظيم ولم يتول ابن مرزوق هذا المنصب قط؟، أم أنه كان كذلك، وهو أمر مستبعد لعدم ذكره في كتب التراجم فحتى الونشريسي لم يذكر ذلك رغم أنه اشار عليه كثيرا في كتابه المعيار إذا فقوله "قاضي الجماعة" هو من باب التشريف والتوسع فقط[41].

أما المقري فقد قال:"حدثني عمي الإمام سيدي سعيد المقري –رحمه الله تعالى- أن العلامة ابن مررزوق لما قدم تونس في بعض الرسائل السلطانية..."، وذكر قصة وقعت له مع بعض التونسيين يستفاد منها ان ابن مرزوق لم يكن منعزلا عن مجتمعه ولا غائبا عن الساحة السياسية بل كان متابعا لما يجري في واقع الناس مشاركا بما لديه من منزلة ومكانة في إصلاح ذات البين بين الحكام ولعل هذه المهمة هي نفسها التي تحدث إليها الثعالبي[42].

ومهما يكن من أمر فإن ابن مزوق لم يتول مناصب رسمية لأن مبلغ همه كان تحصيل العلم والمعرفة وتلقينهما لطلابه عن طريق التدريس والإفتاء والتأليف، كما كان يشارك في حل النزاعات والمشاكل الحاصلة في مجتمعه فكان يتولى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان واليد، يقول الونشريسي بعد ذكره لبعض البدع والمخالفات الشرعية التي كانت منتشرة في زمنه بتلمسان: "وقد تصدى لتغيير ذلك وشدة النكير فيه شيخ شيوخنا الشيخ

المحصل أبو عبد الله سيدي محمد بن مرزوق بَرّد الله ضجعته وأسكنه جنته، فانقطعت تلك المفاسد من تلمسان طول حياته رحمه الله ثم عادت بموته رحمه الله بل زادت"[43].

ولكن من المؤكد، وإن لم تكن الإشارات واضحة فيها أن ابن مرزوق الحفيد قد شغل مناصب في مجال التعليم، وعمله في هذا المجال لم يكن في تلمسان وحدها، وإنما نشط في كل مكان ذهب إليه.

أما بالنسبة للخطبة فكل من حقق مخطوطات بن مرزوق الحفيد من الباحثين المعاصرين نفوا أن يكون عالمنا قد تولى الخطبة، وأن صفة "فارس المنابر والكراسي" أطلقت عيه تشريفا له وفقط، ولكن العكس تماما فالمصدر الوحيد الذي يؤكد على أنه كان خطيبا وإماما بمسجد العباد هو ما ذكره لنا تلميذه المُجاري

فقد شغل ابن مرزوق الحفيد منصب إمام وخطيب، إماما للمصلين في مسجد منشر الجلد، وخطيبا في مسجد العباد، وقد أشار إلى ذلك تلميذه المجارى في سياق حديثه عن أخذه بعض العلوم عن شيخه ابن مرزوق الحفيد، حيث كتب يقول: "قرأت عليه جميع مختصر منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل للإمام أبي عمرو بن الحاجب، ثم أعدت قراءته إلى الأحكام قراءة تفهم وتحقيق ونظر وتدقيق في المرتين، قرأت أكثره بمسجده بمنشر الجلد وباقيه بمسجد خطبته بالعباد"[44]. وتأكيد على ذلك، ما تؤكده لنا النصوص التاريخية الواردة في كتب التراجم، فعلى سبيل المثال نجد أن التنبكتي يصفه على أنه :"إمام المسلمين والإمام المشهور"[45]. وهذا القول يجعلنا لا نوافق د.نصر الدين بن داود حينما يضع استفهاما على أهلية ابن مرزوق الحفيد في إمامته وخطبته، وهو العالم الفقيه المتبحر، صاحب الصفات والمواصفات العديد، حين يقول: "ويمكن لنا أن نتسأل عن إمامته وخطبته من خلال كلمة (الإمام الخطيب) فهل كلمة إمام يراد بها إمامة المصلين أم قد يراد بها معنى آخر ؟، ومن هنا يمكن اعتبار مدلول الإمامة هنا تقدم الناس وترأسهم في العلم، وبالنسبة للخطابة كذلك لم ترد عبارة صريحة عن خطبته عدا بعض الإشارات الخفيفة"[46].

والأكثر من هذا أن الأدلة التي ساقها د.نصر الدين بن داود تعزز ما نذهب إليه من أنه كان إماماً وخطيبا للمصلين. والسؤال هنا هل لنا الحق في إطلاق صفات وألقاب على علمائنا من دون أن يكون يحملونها حقا؟. فالعلوم التي يحملها تجعله قادرا وبكل بساطة على أن

يقوم بمهام الإمام والخطيب، والألقاب والصفات التي اتصف بها هي حقا يفعلها، فهو: "فارس الكراسي والمنابر"[47]، وبالتأكيد كان: "فخر خطباء الإسلام"[48]، وبعد كل هذا فهو حتما سيكون: "له خطب عجيبة"[49]، نتيجة غزارة علمه وكثرة معارفه، علما بأنه:"المقرئ المجود"[50]. والسؤال الذي يطرح نفسه، هل لنا بإمام خطيب الآن، في ظل تطور وسائل الاتصال، يحمل مثل ما يحمل شيخنا ابن مرزوق، بطبيعة الحال، وبلا تردد لا.

مجالات التأليف عند ابن مرزوق الحفيد

لقد تبوأ ابن مرزوق الحفيد الدرجات العليا في التفوق والشهرة في عصر وحتى الآن، ووصل إلى هذه المكانة من عدة جوانب، وفاق أقرانه، ومن سبقه ومن لحقه بعدة علوم، فإذا ذكر علم أصول الدين والعقيدة والتوحيد فإننا نجده قمة من قمم هذه العلوم، وإذا تناولنا الفقه فإننا نجده فقيها معتمد وأصولي ثقة، وإذا عرضنا الوعظ والتدريس فإن شيخنا ابن مرزوق قدوة ومعلم ومرب للنفوس والقلوب والعقول والجوارح. وهنا نتذكر مسألة هامة وهي أن إتقان ابن مرزوق الحفيد وتفوقه في مختلف العلوم، ولاسيما العلوم الشرعية، مرتبط في مقدرته على إتقان علوم اللسان العربي، وفي هذا الصدد يؤكد ابن خلدون في مقدمته على هذه القضية، حين يقول: "أركانه أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والأدب ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة إذ مآخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب وشرح مشكلاتها من لغاتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة"[51].

ولا نبالغ، إن قلنا إن قدرة ابن مرزوق الحفيد على استيعاب علوم عصره كانت كبيرة، وإذا ما قمنا بإحصاء العلوم التي درسها على يد شيوخه وقام هو بتدريسها فيما بعد، لتبين لنا من أنه كان قادرا على أخذ كل العلوم التي كانت متداولة في زمانه في مختلف المراكز العلمية الإسلامية، وهذا لا يحتاج إثبات لكون علمه الواسع وشهرته، وسعة اطلاعه فضلا عن المجالات التي كتب بها، تلزمنا بالاعتقاد من أنه أخذ أكبر قسط من كل العلوم التي كانت متداولة في تلمسان وبقية الحواضر العلمية التي زارها خلال مسيرته العلمية. وهنا استدرك قولي السابق، بما كتبه عبد الرحمن الثعالبي وهو يستجيز أستاذه ابن مرزوق الحفيد، حين كتب يقول: "أن يجيز لي ماله روايته من مسموع ومقروء ومجاز ومناول ومؤلف من فقه وحديث وعلمه، ولغة وتصريف ونحو وبيان، وأصول ومعقول

ومنقول، من منظوم ومنثور، وتصوف وآداب وغير ذلك مما جرت به عادة الحفاظ والأيمة والأعلام"[52]. وهذا القول بنظرة متفحصة بسيطة، يظهر لنا كم هي العلوم والمعارف التي كان يحملها ابن مرزوق الحفيد في صدره، وكانت مطمع واهتمام تلاميذه ومعاصريه.

ومن خلال ما سبق من قول، فإننا نجد أن ابن مرزوق الحفيد كتب مصنفات عديدة ومتنوعة وذات قيمة علمية كبيرة في مختلف العلوم النقلية والعقلية، مثل: الفقه والحديث واللغة والآداب والمنطق، تنوعها ارتبط بتنوع ثقافته، كما له شروح عديدة، منها ما أتمه ومنها ما لم يتمه إذ عاجلته المنية، بالإضافة إلى كثير من الخطب والفتاوى في مسائل متنوعة، وما يطبع أسلوبه هو الموسوعية والإطناب في الشرح والبيان من غير حشو وجلب الفوائد العلمية ومما ساعده على ذلك هو سعة إطلاعه وعلمه[53]، وهذا جعل التنبكتي يعلق على هذا التشعب والتنوع، حين قال: "الآخذ من كل فن بأوفر نصيب الراعي في كل مرعاه الخصيب"[54]. ولقد حفظت لنا الكتب التي ترجمت له والفهارس والمخطوطات أسمائها وموضوعاتها، والتي سنقوم بتوزيعها حسب المجالات التي كتبت فيها، ويمكن إدراجها كالآتي:

المبحث الثاني: اهتمام المغاربة بعلم الحديث:

أولا: أهمية علم الحديث:

يقف الحديث[55] الشريف والسنة النبوية المطهرة في مصاف الركائز العظمى للثقافة الإسلامية، من حيث اعتبارهما المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم، إذ جاوزت العلوم الخادمة للنص النبوي مائة علم، وناءت المكتبات بالشروح والتفاسير الخادمة للصحاح والمجاميع والسنن والمعاجم والمستدركات والمستخرجات والزوائد وكتب السيرة والشمائل والخصائص ودلائل ومعالم النبوة، فضلا عن كتب التخريج والتعليل والتصحيح والنسخ ومختلف الحديث وغريبة وبلاغته ولغته[56].

لقد كان الصحابة (رضوان الله عليهم) يعتنون في نقل الأخبار وقبولها، ولاسيما إذا شكوا في صدق الناقل لها. فظهر بناء على هذا موضوع العناية بالإسناد، وقيمته في قبول الأخبار أو ردها، وبناء على ذلك إن الخبر لا يقبل إلا بعد معرفة سنده، ونتيجة لذلك ظهر

علم الجرح والتعديل، والكلام على الرواة، ومعرفة المتصل أو المنقطع من الأسانيد، ومعرفة العلل الحقيقية، وظهر الكلام في بعض الرواة، لكن على نطاق ضيق، لقلة الرواة المجروحين في أول الأمر[57].

بمرور الوقت، توسع اهتمام العلماء بعلم الحديث حتى ظهر البحث في علوم كثيرة تتعلق بالحديث من ناحية، وكيفية تحميله وآدائه، ومعرفة ناسخه من منسوخه وغريبه، وغير ذلك من ناحية أخرى. ولكننا نجد أن ذلك كان يتم تناقله من قبل العلماء شفاهاً. ولكن مع اتساع أرض الإسلام، وتطور الحياة وتشعب المجالات، أصبح لازما على المسلمين المحافظة على السيرة النبوية وأحاديث الرسول الكريم(ﷺ)، ونتيجة لذلك بدأ الاهتمام بعلم الحديث مثل بقية العلوم النقلية الأخرى، ونضج العلم واستقر الاصطلاح وغدا علما مستقلا عن باقي العلوم، وإن كان يكملها وذلك خلال القرن الرابع الهجري.

والحديث ينقسم إلى ثلاثة أقسام، وهي: الصحيح وهو ما سلم من الطعن في إسناده ومتنه، وفيه متفق عليه؛ الحسن وهو ما كان إسناده دون الأول في الحفظ؛ أما الضعيف ما ليس واحدا منهما[58]. وكذلك الحديث أنواع بلغت أكثر من ثمانين نوعا، ومن أبرزها: المسند وهو ما اتصل إسناده إلى النبي(ﷺ)، ويسمى أحيانا موصولا. والمتصل وهو ما اتصل إسناده مرفوعا كان أو موقوفا[59].

ثانيا: عناية أهل المغرب الإسلامي بعلم الحديث:

اعتنى المغاربة بصحيح البخاري اعتناء كبيرا[60]، ويذكر ابن مرزوق الخطيب من: "أن أكثر ما كان يقرأ بين يدي السلطان أبي الحسن المريني كتاب الجامع الصحيح لأبي عبد الله البخاري، فقد واظب على حفظه وروايته في المشاهد"[61]. وكان دخول صحيح البخاري إلى بلاد المغرب الإسلامي متقدما فقد نقله أبو الحسن القابسي (تـ:403هـ) إلى إفريقية، ومن أوائل من نقله بعد الرحلة أبو محمد الأصيلي (تـ: 392هـ). وتعددت تفاسير البخاري واختلفت مناهجها بين الشرح المختصر أو التفسير الواسع، أو التي اهتمت به رواية وسندا وكذا التي اهتمت بغريبه، أو الجمع بينه وبين غيره، ومن أهم هذه الشروح التي تركت أثر من بعدها.

ثالثا: جهود ابن مرزوق الحفيد في علم الحديث:

ومثل بقية العلوم النقلية الأخرى، أبدى ابن مرزوق الحفيد اهتماماً بعلم الحديث، يتوافق مع قيمته الفقهية وعلمه الواسع في العلوم التي تخص اللغة العربية، ومن هذا المنطلق، وضع العديد من المؤلفات في هذا المجال وفي مقدمتها:

"شرح صحيح البخاري" والذي يعتبر من أهم الشروح التي وضعت لهذا الصحيح، والذي سار شرقاً وغرباً، وهو شرح مهم سماه: "المتجر الربيح والمسعى الرجيح[62] في شرح الجامع الصحيح"[63]. وقد أظهر ابن مرزوق الحفيد من خلاله أنه مسند محدث من الطراز الرفيع، وتميز في شرحه هذا بإجادة اختصار مقاصد البخاري وتبويبه للصحيح، وهي طريقة متميزة، قال عنها: "ومن أهم ما لم يذكروه جمع مقاصد الأبواب من كل كتاب من كتبه الكبيرة ككتاب الصلاة ونحوه، أو من أكثرها من ذلك الكتاب، ثم ينتقل إلى أبواب أخرى تشترك في معنى آخر من ذلك الكتاب كأنه فصل آخر منه، وتبيين المناسبة من تلك الأبواب والفصول ووجه الترتيب في تقديم بعضها على بعض، وغير ذلك من المحاسن[64]. وتتجلى صورة تأثره وأهمية الصحيح في مسيرة ابن مرزوق الحفيد في مقدمة شرحه، حين قال: "وكنت من زمن الشبيبة والكهولة قد من الله علي بالاشتغال به -يقصد صحيح البخاري- فرويته مدة ودرسته حتى ختمته في سنين عدة؛ وكان يمر بي في مجالس الرواية والإقراء ما استحسنه بزعمي من الفوائد، وما لم أره لغيري، وأظنه من جميل الفوائد، ولم أوفق حينئذ لتقييد تلك الزوائد الشوارد، ليتجمل بها من أراد نظمها في سلك الدرر"[65]. من خلال هذا الكلام نجد أن ابن مرزوق الحفيد اهتم بصحيح البخاري دراسة وتدريساً ورواية وتحملاً. وهو ما يعني اقتداره وتمكنه من هذا العلم. ونشير هنا، إلى شهادة تلميذه أبي الفرج التلمساني الذي وصف قدرات وإمكانيات أستاذه ابن مرزوق الحفيد في علم الحديث، حين قال: "كان شيخنا الإمام عالما علماً جامع شتات العلوم الشرعية والعقلية حفظا وفهما وتحقيقا، راسخ القدم، رافع لواء الإمامة بين الأمم، ناصر الدين بمقاله وبيانه، وبالعلم محيي السنة بفعالة وبالشيم... ملازم السنة على نهج محفوظي الأمة من البدع"[66]. وللأسف، لم يتمكن ابن مرزوق الحفيد من إكماله حيث أتم الجزء الأول منه فقط وبقي الجزء الثاني ناقصا[67]. ومن إضافاته في التعريف بصحيح البخاري، هو قيامه بجمع مكرراته ووضعها في مؤلف حمل عنوان: "أنوار الدراري في مكررات البخاري"[68].

ولم تقتصر جهود ابن مرزوق الحفيد في مجال نشر علم الحديث في منطقة المغرب الإسلامي على التعريف بصحيح البخاري فحسب، وإنما نشط في قراءة وتفسير صحيح مسلم ومؤطا مالك وسنن الترمذي وأبا داود وغيرهما. وأكد ذلك تلميذه أبو فرج التلمساني، حين قال: "قرأت عليه التفسير والصحيحين(69) والترميذي(70) وأبا داود(71) والموطأ"(72).

كما ألف رجزان في علم الحديث وتحديدا في رواية الحديث: الكبير منهما حمل عنوان: "الروضة" جمع فيها بين ألفيتي ابن ليون والعراقي في(1700) ألف وسبعمائة بيت سماها "روضة الأعلام بعلم أنواع الحديث السام"(73)، والصغير: "حديقة العلوم الفاخرة" عبارة عن أرجوزة صغرى اختصر فيها الأرجوزة الكبرى المسماة الروضة(74).

وكذلك وضع في علم الحديث كتاب آخر، سماه: "نور اليقين في شرح حديث أولياء الله المتقين"(75) وهو كتاب نفيس في الحديث شرح فيه أول حديث من "حلية الأولياء" لأبي نعيم، وهو شرح لحقيقة صفات وخصال أولياء الله ورد فيه عن البدلاء المبتدعين في الدين(76).

الخاتمة:

وفي نهاية المطاف، نجد أن ابن مرزوق الحفيد يترك بصمته الواضحة على هذا العلم، وكيف لنا أن نقول غير هذا، وهو حفيد من كتب في السيرة وخدمها(77)، جده ابن مرزوق الخطيب صاحب كتاب "شرح العمدة في الحديث(78)" (79)، وكذلك "شرح البخاري"(80). لقد كان ابن مرزوق الحفيد ملما بعلم الحديث محيطا بكل جوانبه وخباياه، إن صح التعبير وهو الذي قال فيه التنبكتي في كتابه "كفاية المحتاج" مادحا إياه: "مع الإحاطة بالحديث وفنونه، وحفظ رواياته ومعرفة متونه، ونظم أنواعه ووصف عيونه، فإليه الرحلة في رواياته، وعليه العمدة في حل مشكلاته"(81). وقد وصفه تلميذه الثعالبي وأنصف في ذلك حين خاطبه قائلا: "المحدث الثقة المحقق، بقية المحدثين وإمام الحفظة الأقدمين والمحدثين"(82). ومن هذا يتضح لنا قيمة الأثر الذي تركه شيخنا ابن مرزوق الحفيد في علم الحديث حيث أجاد وأبدع بما لهذين الكلمتين من معنى.

الهوامش:

1. ابن مرزوق الحفيد، المنزع النبيل في شرح مختصر خليل وتصحيح مسائله بالنقل والدليل. تح: جيلالي عشير، محمد بوزيان، مالك كرشوش، الجزائر، مركز الإمام الثعالبي للدراسات ونشر التراث، ط1، 1433هـ/2012م، ج: 1، ص: 98.
2. التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج. تح: عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس، كلية الدعوة الإسلامية، ط1: 1989م، ص: 293.
3. ينظر على سبيل المثال: ابن مريم أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المليتي المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تح: محمد بن أبي شنب، الجزائر، المطبعة الثعالبية، 1908، ص: 202. السخاوي. شمس الدين، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. بيروت، دار الجيل، ط1، د.ت.ن، ج: 7، ص: 50؛ التنبكتي، المصدر السابق، ج:1، ص: 499. القرافي بدر الدين محمد بن يحيى بن عمر، توشيح الديباج وحلية الابتهاج، تح: علي عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2004، ص: 154. المُجاري أبي عبد الله محمد الأندلسي، برنامج المُجاري. تح: محمد أبو الأجفان، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1982، ط1، ص 134. الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير، فهرست الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات. تح: إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1982، ج: 1، ص 524. المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د.ت.ن، ج: 5، ص ص: 421-422؛ الشوكاني محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. القاهرة، دار الكتاب الإسلامي. د.ت.ن، ج: 2، ص: 119.
4. ابن مرزوق الخطيب: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق .
5. ابن مرزوق الحفيد، إظهار صدق المودة في شرح البردة. تح: محمد فلاق، الجزائر، موفم للنشر، ط1: 2011، ج: 1، ص: 23.
6. عن قبيلة عجيسة، ينظر: المبحث الثاني من هذا الفصل.
7. هو ذات التاريخ يذكره الشوكاني، حين يقول:"المالكي المعروف بأن مرزوق ولد في ثالث عشر ربيع الأول سنة ست وستين وسبعمائة". ينظر: الشوكاني، المصدر السابق، ص: 119.
8. السخاوي، المصدر السابق، ج: 7، ص: 50.
9. ابن مرزوق الحفيد، المصدر السابق، ص: 23.
10. ابن مريم، المصدر السابق، 212.
11. انظر ترجمته في المبحث القادم.
12. مجهول، طبقات المالكية، و: 443، مخطوط بالمكتبة الوطنية، الرباط.
13. ابن مريم، المصدر السابق، ص: 212.

14. البلوي أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي (تـ: 938ه)، ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي. د تح: عبد الله العمراني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983، ص: 294.

15. ينظر الدراسة الواردة في: ابن مرزوق الحفيد، المنزع النبيل في شرح مختصر خليل. ج: 1، ص 58.

16. التنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 506.

17. المقري، المصدر السابق، مج: 5، ص: 421.

18. السنوسي أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي الحسني (832-895ه)، شرح المقدمات. تح: نزار حمادي، القاهرة، مكتبة المعارف، ط1، 2009، ص: 24.

19. سورة فاطر، الآية: 28.

20. الأجري أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله، أخلاق العلماء. مراجعة وتصحيح وتعليق: إسماعيل بن محمد الأنصاري، الرياض، دار الإفتاء والدعوة والإرشاد، 1978، ص: 66.

21. سورة السجدة، الآية: 24.

22. الأربعون النووية: هي مؤلف يحتوي على أربعين حديثا مؤلفها الإمام محي الدين أبي زكريا بن شرف النووي(631-676ه)، وكل حديث منها قاعدة عظيمة من قواعد الدين، وقد وصف الكتاب من قبل العلماء بأنه مدار الإسلام عليه. ينظر: محي الدين أبي زكريا بن شرف النووي (631-676ه)، الأربعون النووية. عني به: قصي محمد نوري الحلاق وأنور بن أبي بكر الشيخي، بيروت، دار المنهاج للنشر والتوزيع، ط:1، ص:

23. المقري، المصدر السابق، مج:5، ص: 452. التنبكتي، كفاية المحتاج، ص: 139.

24. التنبكتي، كفاية المحتاج، ص: 136. ابن غازي، المصدر السابق، ص:113.

25. الآجري، المصدر السابق، ص: 66.

26. القلصادي، المصدر السابق، ص: 102. المقري، المصدر السابق، مج: 5، ص: 426.

27. القلصادي، المصدر السابق، ص ص: 100-101.

28. سورة الأحقاف، الآية: 35.

29. التنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 502.

30. المقري، المصدر السابق، مج: 5، ص: 425.

31. المصدر نفسه، مج: 5، ص 425.

32. ابن غازي، المصدر السابق، ص:113.

33. سنن الترمذي، كتاب العلم، باب فيمن يطل بعلمه للدنيا، رقم (2654).

34. التنبكتي أحمد بابا، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج. دراسة وتحقيق: محمد مطيع، مراكش، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، 2000، ج: 2، ص ص: 140-141؛ القلصادي، المصدر

السابق، ص: 102. الونشريسي أحمد بن يحيى، وفيات الونشريسي. تح: محمد بن يوسف القاضي، القاهرة، شركة نوابغ الفكر، ط1، 2009، ص: 89.

35. القلصادي، المصدر السابق، ص: 89.
36. القلصادي، المصدر السابق، ص: 102-103.
37. الونشريسي، المعيار، ج: 2، ص: 402.
38. المازوني، المصدر السابق، ج: 1، ص:200.
39. القلصادي، المصدر السابق، ص: 107.
40. الونشريسي، الوفيات، ص: 89.
41. ابن مرزوق الحفيد، المنزع النبيل، ج: 1، ص: 139.
42. المقري، المصدر السابق، مج: 5، ص: 428.
43. الونشريسي، المعيار، ج: 2، ص: 472.
44. المجاري، المصدر السابق، ص: 135.
45. التنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 500.
46. نصر الدين بن داود، بيوتات العلماء بتلمسان، ص: 198.
47. التنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 499. ابن مريم، البستان، ص: 201. ويذكر في كتابه "كفاية المحتاج" على أنه: "فارس الكراسي". ينظر: التنبكتي، كفاية المحتاج،ج: 2، ص: 136.
48. المصدر نفسه، ص: 499.
49. المصدر نفسه.
50. التنبكتي، كفاية المحتاج، ج: 2، ص: 136.
51. ابن خلدون، المقدمة، ص: 753.
52. عبد الرحمن الثعالبي، غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد ويليها رحلة عبد الرحمن الثعالبي. تح: محمد شايب شريف، دار ابن حزم، بلا معلومات أخرى، ص: 114.
53. ابن مرزوق الحفيد، المصدر السابق، ج: 1، ص: 98.
54. التنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 293.
55. الحديث: لغة هو الكلام وجمعها أحادييث، واصطلاحا: هو أقوال النبي(ﷺ) وأفعاله وتقريراته وصفاته ينظر: الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مج: 1، ص 164. محمد أبو الليث الخير أبادي القاسمي، تخريج الحديث نشأته ومنهجيته. ماليزيا، اتحاد بكدبود يوبند، 2004، ص: 11.
56. الدمشقي شرف الدين أبي محمد الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي، الخلاصة في معرفة الحديث. حققه وعلق عليه: أبو عاصم الشوامي الأثري، القاهرة، الرواد للإعلام والنشر والمكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، 2009، ط:1، ص ص: 27-28.

57. الزهراني محمد بن مطر، تدوين السنة النبوية نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع الهجري. الرياض، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ط:1، ط:1، 1996، ص ص: 25-38.

58. ابن الملقن عمر بن علي ابن النحوي، التذكرة في علوم الحديث. قدم لها وضبط نصها وعلق عليها: علي حسن علي عبد الحميد، عمان، دار عمار، ط1، 1988، ص ص: 13-14.

59. للتفاصيل ينظر: المصدر نفسه، ص ص: 14-27

60. صحيح البخاري: واسمه "الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه" للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، وهو أول مصنف في الحديث الصحيح، صنفه البخاري على أبواب الفقه، وتفنن في الصناعة الحديثية وفي الترجمة للأبواب، كما أحسن الاستنباطات الكثيرة والفوائد الجليلة وغير ذلك مما يدل على غزارة علمه، وعمق فهمه، فضلا عن تحريه في الرجال والأسانيد، وبهذا احتل كتاب "صحيح البخاري" المكان الأول بعد القرآن الكريم، فعكف الناس على دراسته، كما اشتغل كثير من العلماء في شرحه وبيان ما تضمنه من علوم وفوائد، فكان هذا الكتاب محل حفظ وعناية ودراسة وتقدير الأمة الإسلامية على مر الزمان. ينظر: الغوري سيد عبد الماجد، الوجيز في تعريف كتب الحديث. دمشق، دار ابن كثير، ط1، 2009، ص ص: 9-10.

61. ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، ص150.

62. ذكره التنبكتي في كتابه نيل الابتهاج وابن مريم في كتابه البستان بعنوان: "المتجر الربيح والسعي الرجيح والرحب الفسيح في شرح الجامع الصحيح صحيح البخاري". ينظر: التنبكتي، المصدر السابق، ص: 298. ابن مريم، المصدر السابق، ص: 211.

63. ابن مرزوق الحفيد، المتجر الربيح والمسعى الرجيح في شرح الجامع الصحيح. دراسة وتحقيق: حفيظة بلميهوب، الجزائر، دار التنوير، ط1، 2011، ج:12، ص: 215. القرافي، المصدر السابق، ص: 154.

64. ابن مرزوق الحفيد، المتجر الربيح، ج: 1، ص: 226.

65. المصدر نفسه، ج: 1، ص: 1.

66. التنبكتي،كفاية المحتاج، ج:2، ص: 137

67. ابن مرزوق الحفيد، المفاتيح المرزوقية، تح: مجاهدي صباح، ص: 33.

68. ذكره كل من: القرافي وابن مريم والسخاوي بعنوان "أنواع الدراري في مكررات البخاري". ينظر: القرافي، المصدر السابق، ص: 154. ابن مريم، المصدر السابق، ص: 211. السخاوي، المصدر السابق، ج: 7، ص: 50.

69. هما صحيح البخاري وصحيح مسلم.

70. سنن الترميذي أو جامع الترميذي لأبي عيسى محمد الترميذي (209-279ه).

71. سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني(202-270ه).
72. التنبكتي،كفاية المحتاج، ج:2، ص: 137.
73. ابن مرزوق الحفيد، المفاتيح المرزوقية، ص: 34.
74. الكتاني، المصدر السابق، ج: 1، ص: 524. السخاوي، المصدر السابق، ج: 7، ص: 50. التنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 297. ابن مريم، المصدر السابق، ص: 210.
75. السخاوي، المصدر السابق، ج: 7، ص ص: 50-51. القرافي، المصدر السابق، ص: 172. التنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 298. الكتاني، المصدر السابق، ج: 1، ص: 525.
76. السخاوي، المصدر السابق، ج: 7، ص ص: 50-51. القرافي، المصدر السابق، ص: 172. التنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 298. الكتاني، المصدر السابق، ج: 1، ص: 525.
77. أشار ابن الخطيب القسنطيني من أنه درس على يده صحيح البخاري، حين قال:"سمعت منه البخاري وغيره في مجالس". ينظر: ابن مريم، البستان، ص: 187.
78. وهو كتاب جمع فيه بين شرحي تقي الدين ابن دقيق العيد وتاج الدين الفاكهاني.
79. ابن مخلوف، المرجع السابق، ص: 314.
80. يوسف الكتاني، مدرسة الإمام البخاري في المغرب. بيروت، دار لسان العرب، ج: 1، ص: 573.
81. التنبكتي، كفاية المحتاج، ج:2، ص: 137.
82. الثعالبي، المصدر السابق، ص: 115.

مناهج العارفين في فقه التعليم
عند بيت آل الشريف التلمساني

دة.الزهراء بوكرابيلة
جامعة ابي بكر بلقايد/ تلمسان

تقديم:

لقد سار علماؤنا على درب التعمير وسلكوا منهج التغيير ليصلوا إلى صناعة الحضارة الإسلامية شرقا وغربا فاستبحرت عمارة المدن والحواضر على غرار غرناطة، القاهرة، بغداد، فاس وتلمسان؛ هذه الأخيرة التي أنارت سماء الدولة الزيانية بإشعاعها الفكري وحراكها الثقافي، فهبّت لها جموع الطلاب والعلماء من كل أمصار العالم الإسلامي لتغدوا تلمسان منارة للعلوم بنشاط حركة مدارسها ومنابر مساجدها وكثرت فيها حلقات العلوم المنقولة منها والمعقولة، هذه الحاضرة التي تغنى بها الزاهد والشاعر. إذ يقول فيها القلصادي في رحلته:"ثم توجهنا إلى المقصودة بالذات، المخصوصة بأكمل الصفات، تلمسان... ذات المحاسن الفائقة والأنهار الرائقة، والأشجار الباسقة... والناس الفضلاء الأكياس المخصوصين بكرم الطباع والأنفاس... وأدركت فيها كثيرا من العلماء والصلحاء والعباد والفقهاء وسوق العلم حينئذ نافقة وتجارة المتعلمين رابحة والهِمم إلى تحصيله مشرقة، والاجتهاد فيه مرتقية، فأخذت فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان المشهود لهم بالفصاحة والبيان".
وإذ كنا نتكلم عن الحراك العلمي في تلمسان الزيانية خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين فنحن بالضرورة نتكلم عن جمهرة من نخب العلماء الذين درسوا بها أمثال: عبد الرحمن ابن خلدون وابني الإمام (أبو موسى عيسى والإمام عبد الرحمان والشيخ الآبلي وبيت المرازقة وبيت الشريف التلمساني[1] وغيرهما، لذلك البحث في سيرهم وتقصي

آثارهم من خلال ترجمة أحد كبار علمائها لأن دراسة تراجم العلماء لهو امتثال لسُنة الحبيب المصطفى(صلى الله عليه وسلم) التي تحثّ على ذكر قصص الصالحين وحبِّهم مع نية الإقتداء بهم، نحن اليوم نفتح سجل البيت الشريف ونحاول الإقتداء بمناقبه بحيث استوقفتني تفصيلة مهمة في دراسة هذا البيت وهي أدب الخطاب وفقه التعامل الذي صبغهم كابرًا عن كابرٍ، فاخترت محور التعليم للوقوف على مواطن التميز لعلماء آل الشريف التلمساني من خلال بحثي الموسوم بـ :"منهاج العارفين في فقه التعليم عند بيت آل الشريف التلمساني ."وقد اعتمدت في ذلك على بعض النقاط: ترجمة بيت الشريف التلمساني؛ أبو عبد الله الشريف – مسيرة ومواقف-؛ فقه التعليم عند علماء الشريف التلمساني.

أولا: ترجمة بيت الشريف التلمساني:

هو بيت شرّفه النسب وزاده العلم شرفا على شرف، يعدّ من البيوتات العلمية الكبرى في تلمسان في القرن الثامن هجري في فترة الدولة الزيانية، نسب هذا البيت يعود إلى الأصل النبوي من ذرية فاطمة الزهراء (رضي الله عنها) وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه).

1. مؤسس البيت :

مؤسس بيت الشريف التلمساني هو: أبو عبد الله بن أحمد بن علي بن يحي بن علي بن محمد بن القاسم بن حمود بن علي بن عبد الله بن ميمون بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه). وقد كُتب هذا النسب بخط يد ابنه عبد الله الشريف الحسني التلمساني، ويقول ابن خلدون في نسبه "...كان أهل بيته لا يدافعون في نسبهم وربما يغمر فيه بعض الفجرة ممن لا يزعه دينه ولا معرفته بالأنساب فيعدُ من اللغو ولا يلتفت إليه" [2].

ولد هذا العالم الجليل سنة 710هـ/1310م في قرية العلوين أو العلويين[3]، لذلك كُنّى بالعلوي، ثم انتقل إلى تلمسان ونشأ بها ودرس على يد شيوخها مثل: الشيخ أبي زيد بن يعقوب أخذ عنه القرآن الكريم حفظا وتجويدا، ثم قواعد اللغة العربية على يد الشيخ بن هدية المختص في البلاغة والأدب ثم الشيخ عبد الله المجاصي ليأخذ الحديث، ثم الشيخان القاضي التميمي وعمران المشدالي لينهل الفقه. وهي المرحلة الأولى من تعلم أبو عبد الله

الشريف حيث أصّل قاعدة معارفه لينتقل ويتدرّج إلى المرحلة الثانية ليوسع مداركه ويحسن فهمه فجلس عند حلقة ابني الإمام(4): أبو زيدعبد الرحمن أبوموسى عيسى، حيث تفقه في أصول الفقه وعلم الكلام. ثم لزم حلقات الشيخ الآبلي (ت:757هـ) (5) ليتشرب عنه العلوم العقلية ويستبحر وتتفجر ينابيع العلوم من مداركه كما قال العلامة ابن خلدون.

رحل إلى تونس سنة 740هـ/1339م ليلتقي بعالمها ورافع راية الصدارة فيها عبد الله بن عبد السلام(6) فاستفاد منه واستعظم رتبته العلم، ومن تونس إلى فاس ليجلس إلى علمائها منهم: محمد بن سليمان السطي(7) ومنها يعود إلى مسقط رأسه تلمسان ويتصدر الدرس فشاعت سمعته بين خاصة الطلبة في تلك المرحلة وهي الفترة أيضا التي تعرضت تلمسان لهجوم مريني على السلطان أبي العنان سنة 753ه/1352م. يقول ابن مريم عن اختيار أبي عنان للإمام الشريف ليكون في مجلسه العلمي مايلي:"... فاستخلص الشريف أبا عبد الله وأختاره لمجلسه العلمي مع من اختار من المشيخة ورحل به إلى فاس" (8). فجلس للدرس واشتهر بفتواه وبعلمه، ولمّا هلك السلطان أبو عنان سنة 759هـ/1350م، عاد الشريف إلى تلمسان لتقر عينه ويرحب به السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني وزوّجه ابنته ثم بنى له مدرسة سنة 765هـ/1364م عرفت بالمدرسة اليعقوبية، بقي فيها حتى توفي سنة 771هـ/29جوان1369م.

2. عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني(9):

هو العالم ابن العالم المتفنن المتقن ابن الإمام الحجة أبي عبد الله الشريف ولد سنة 748ه، فأحسن والده تربيته، فكان محمود الصفات، مرضي الأخلاق حريصا على طلب العلم مثل أبيه الذي بشر به قبل أن يولد أنه يزداد له ولد عالم لا يموت حتى يراه تصدّر العلماء. درس وقرأ القرآن على يد أبي عبدالله بن زيد بفاس، حفظ القرآن وألفية ابن مالك وجمل الخونجي، ثم أخذ عن الشيخ ابن حياتي الغرناطي الجمل، وعن الخطيب ابن مرزوق المدونة وعن أحمد القبّاب التلقين والرسالة وقصيدة الكفيف وعن الشيخ الحسن الونشريسي وعن أبي العباس الشماع فرعي ابن الحاجب وغيرهم. كما قرأ على أبيه الأصول والاقتصاد والاعتقاد للغزالي وبعض كتاب "النحاة" لابن سينا والمقاصد للغزالي وتأليفه "مفتاح الأصول "وفي الجدل والهندسة كتاب إقليدس وفي المنطق "جمل الخونجي" والتفسير

فقد حضر مجلس أبيه من سورة النحل إلى ختم القرآن،فكان مع طلبة أبيه حتى مات أبوه، ليخلف مكان والده، فحضر مجلسه كبار الفقهاء ولم ينتقدوه بل اعترفوا بتفوقه.

سافر إلى فاس فشهد له علماؤها بالتفوق بحيث لم يكن بالمغرب أكثر منه اجتهادا في الإقراء، قال فيه العباس بن موسى أنه لا يجد من يرحل إليه عن هذا البلد مثل شيخنا أبي محمد لغزارة عِلمه،وسهولة إلقائه، وقد أتى عليه كثير بحيث يذكر أنه لم يجد شفاء لعلته في العلم إلا عند عبد الله الشريف. اعترف له القاضي أبو عثمان العقباني بعلو شأنه حينما سئل عن أصول الدين فكتب له: "شرح الله صدرك ورفع من بين أهل العلم قدرك. وسافر للأندلس للإقراء ولما فرغ يريد العودة إلى تلمسان مات غرقا في البحر عام 792ه عن عمر لا يتعدى خمس وأربعين سنة.

3. عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الشريف[10]:

هو العالم ابن العالم الشريف التلمساني، اشتهر بأبي يحيى ولد في يوم 19 رمضان 757ه، يذكر من ترجم له أن أباه بشر به في منامه ويوم ولادته كان يبيت في دار أبو عبد الله العالمين الجليلين:أبو زيد بن خلدون وأبو يحي بن السّكاك فطلب كل منهما من الشريف أن يسمي إبنه باسمه، فسماه عبد الرحمن وكنّاه بأبي يحي.

تفرسّ فيه أبوه، قرأ عليه "التقصي"تفقها، و"ابن الحاجب الأصلي "ومثارات الغلط" و"الموطأ" وغيره من المتون ولما توفي والده أخذ عن أخيه أبا محمد عبد الله بن محمد الشريف علوما كثيرة وكتبا جمة وأخذ عن العالم أبو عثمان العقباني إيضاح الفارسي و"جمل الخونجي"وحضر له التفسير، ثم عن العالم ابن حياتي الغرناطي، سمع عن أبي القاسم بن رضوان،"صحيح مسلم" و"شفاء عياض" ثم أجازه.

وقد أخذ عنه الكثير من المشايخ كأبا زيد الجادري وابن زاغو، الشيخ أبو عبد الله القيسي، اقرأ في فاس بحضرة سلطانها وفقهائها. توفي فجر يوم 26 رجب عام 826 هـ .

ثانيا: أبو عبد الله الشريف التلمساني – مسيرة ومواقف -

إذا كان العلماء ورثة الأنبياء في الأرض فليس كل من وعى العلم في صدره عالم، لأن العالم من علم سير أنبياء الله في التعامل مع الناس خاصة نهج النبي الكريم وهو الذي

بُعث للناس كافة. فالعالم من زين العلم خلقه، فقد قال الله تعالى:" لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ..." [11]. هذا ما انطبق على هذا العالم الجليل فقد كان على خلق كريم تأدب به مع العلماء لذلك سأختار مواقف ذكرت عنه من خلال تتبع سيرته مع العلماء.

يذكر ابن مريم أن الشيخ أبو عبد الله تربى على العلم منذ حداثة عمره فلما علم خاله عبد الكريم نجابته وفطنته أحبه حبا شديدا وعمل على حمل ابن أخته إلى مجالس العلماء فذات مرة وهو في مجلس العالم أبي زيد ابن الإمام وكان يفسّر القرآن فذكر الجنة ونعيمها فقال أبو عبد الله وهو صبي يسأل: يا سيدي هل يقرأ فيها العلم، فقال:نعم فيها ما تحب النفس وتشتهي، فقال الصبي: لو قلت لا علم فيها قلت لا لذة فيها، فاستحسنه العالم ودعا له[12].

تذكر الكتب أنه لما سافر إلى تونس والتحق بحلقة عالمها ابن عبد السّلام لأول مرة جلس حيث انتهى المجلس، وهذا الفعل يدلّ على أدب صنيعه ومعرفته لفنِّ التعامل دون أن يقطع الدرس، ولما جلس سمع الشيخ يسأل عن موضع الذكر هل القلب أم اللسان، عندما كان يفسر قوله تعالى: "...يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا... "[13]، فقال ما المراد بالذكر اللسان أم القلب وهل هو حقيقته في ذكر اللسان ؟، فقال له أبو عبد الله: يا سيدي الذكر ضد النسيان ومحل النسيان القلب لا اللسان وتقرّر أن الضدين يجب إتحاد محلهما، فعارضه المعلم عبد السلام بأن الذكر ضد الصمت والصمت محله اللسان فيجب أن يكون اللسان محلّ ضده الذي هو الذكر فيكون حقيقته، قال أبو عبد الله فسكتُّ من مراجعته تأدبا معه وتوقيرا له، وقد علمت أن الصمت إنما ضده النطق لا الذكر[14].

وموقف آخر للمعلم أبي عبد الله الشريف يوم كان يحضر مجلس السلطان أبي عنان المريني، فلما اجتمع العلماء أمر المقري بإقراء التفسير فامتنع منه تأدبا لشيخه أبي عبد الله الشريف وقال الشريف أولى مني بذلك، فقال السلطان أنت تعلم علوم القرآن وأهلا لتفسيره فقال إقرارا منه وإنصافا لأبي عبد الله:"... إن أبا عبد الله اعلم بذلك مني فلا يسعني الإقراء لحضرته" ففسّر الشريف التلمساني بحضرة السلطان والعلماء فعجب السلطان لفهمه وبراعته حتى أنه نزل من كرسيه وجلس معه على الحصير ولما انتهى قال أبو عنان:"...إني لأرى العلم يخرج من منابت شعره.." اعترافا له بالكفاءة والتميز[15].

لقد تميز علماء ذلك العصر بميزة التأدب مع العلماء والجهر بفضل عالم عن عالم والإقرار بقوة علمه ولو كان أعلم منه، وهي خصّيصة ينعت بها كل عالم عرف فضل العلم وتواضع لعامة الناس فما بالك بالعلماء أنفسهم. فقد كان علماء الأندلس أعرف الناس بقدره وأكثرهم تعظيما له كما قال ابن مريم في بستانه،" فقد كان لسان الدين ابن الخطيب يبعث للشيخ أبي عبد الله كلما ألف كتابا جديدا ليعرضه عليه ويطلب منه أن يكتب عليه بخط يده" [16]. وهاهو الإمام المفتي "أبو سعيد ابن لب الأندلسي" كلما أشكلت عليه مسألة طلب من الشريف التلمساني التبيان فيها معترفا له بفضله[17]. وقد قال فيه الخطيب ابن مرزوق عند سفره إلى تونس:"...لقد كرهت فراقه ولكن أحمد الله على رؤية أهل إفريقية مثله من أهل المغرب..."وأما الفقيه موسى العبدوسي فقيه فاس فقد كان يبحث عن كل ماصدر من أبي عبد الله ويقيده رغم أنه كان أسن من عبد الله كما يقول "ابن مريم".

لقد عرف عن العالم أبو عبد الله الشريف إقباله على العلم تقربا لله به وإدباره عن الدنيا بابتعاده عن الملوك مع إقبالهم عليه، لذاك نذكر حادثة غضب السلطان أبو عنان وسجنه حين عرف كتمانه مسألة الوديعة التي أمّنه عليها السلطان الزياني أبو سعيد بالشهادة، فلما علم أبو عنان وجه إليه عتابا شديدا لأنه لم يخبره ومنَّ عليه تقريبه منه ورفعه لمنزلته عن باقي العلماء فأجاب الشريف قائلا:" إنما عندي شهادة لا يجب عليّا رفعها بل سترها، وأما تقريبك إياي فقد ضرني أكثر مما نفعني ونقص به ديني وعلمي" فغضب السلطان منه وسجنه[18].

هذا دليل على أن أبا عبد الله لم يخاف في الله لومة لائم فلم يرائي الملوك،وإن قربوه منهم عظّم أهل الحق في قلوبهم دون أن ينتصر لنفسه. ولما توفي سنة 771هـ وسمع الشيخ ابن عرفة عن موته قال "لقد ماتت بموته العلوم العقلية"، وتأسف عنه السلطان الزياني لموته وقال لابنه عبد الله "ما مات من خلفك وإنما مات أبوك لي لأني أباهي به الملوك"[19] ؛ ومثل أبو عبد الله الشريف لم يمت لأنه أورث علمه لطلبته وأبنائه "عبد الله" و"عبد الرحمن "وغرس فيهما أخلاق وأدب العلم.

فتذكر المصادر مسألة وراثة مهنة التعليم فقد ورثها الشيخ عبد الله ثم بعد مرضه طلب من أخيه الجلوس في موضعه لعلمه بتمكنه فرفض عبد الرحمن ذلك تأدبا مع أخيه

ولما ألحّ عليه خلفه سنة 784هـ وبلغ الغاية في العلم ورسّخ قدمه في العلوم وكتب إلى أخيه معترفا له بفضله: "...وقفت على ما أوّلتموه وفهمت ما أورثتموه فألفيته مبنيًا على قواعد التحقيق" [20].

ثالثا: فقه التعليم عند بيت الشريف التلمساني:

لقد شهد علماء عصر أبو عبد الله الشريف بتضلعه وتفرده في جميع العلوم بحيث يقول المحدث الفقيه القاضي أبو يحي المطغري:"...حضرت مواعيد كثيرة من العلماء الكبار فما رأيت مثل أبي عبد الله وولديه بعده"، ويقول القاضي أبو منصور بن هدية:"كل فقيه قرأ في زماننا هذا أخذ ما قدر له من العلم إلا أبا عبد الله الشريف فإن اجتهاده يزيد والله أعلم حيث ينتهي أمره"[21].

إن حب الشريف لتلمساني لمهنة التعلم وتضلعه تمكنه من فصولها جعلته يقبل عليها ويصبغها بأخلاقه ويورّثها لأبنائه ويتفرد بها عن جميع معاصريه من العلماء،قد فهم أبو عبد الله الشريف أن العلم إذا أعطيته كلك أعطاك كلّه.

يقول الديلمي:"أن العلماء ثلاثة عالم عاش بعلمه وعاش الناس به، وعالم عاش الناس به وأهلك نفسه، وعالم عاش بعلمه ولم يعش به غيره" [22]. فأبي عبد الله الشريف أول هؤلاء العلماء، عاش بعلمه ونفع الناس بعلمه فقد بلغ من التفنن في العلوم ما هو مشهور،جمع بين الشريعة والحقيقة وسعى في معراجها واعتمد على أصحّ الطرق، إذا تكلم في العلم بالله تعالى لا يُشق له غُبار... فسّر القرآن في خمسة وعشرين سنة أتى فيه بالعجب العجاب..." [23].

كان يعلم أن من وعى العلم في صدره يحتاج إلى من يفاتحه بالسؤال فلم يجد سبيلا لنقل ذلك سوى تصدره مجالس التعليم، فلم يخلُو مجلسه وحلقاته التعليمية من العلماء والصلحاء وخيرة الطلبة وأكابر الملوك، فقد كانت مجالسه مشيخة زمانه، بحكم سعة فهمه وتحكمه في مختلف العلوم ودرايته لبسطها بطريقة سلسلة واضحة وجلية، بحلاوة اللسان وقوة البيان تُقبل إليه النفس بلا لبس، فلم يعلم الفقه وأصوله فقط بل فقه في تعليمه وفقه كل العلوم بعده[24].

لقد اهتم أبو عبد الله الشريف بالتعليم دون المجالات الأخرى فقد فقه فصول هذه المهنة وصبغها بأخلاقه فسطع نجمه فيها، أحب هذه الوظيفة السامية فأعطاها وقته كله، وأحبه خاصته من الطلبة فأقبلوا عليه من كل فج عميق؛ انتصب للتعليم ولم يكترث لكثرة التأليف، فهو يرى أن تكوين الرجال أهم من تأليف الكتب متأثرا في ذلك بشيخه الآبلي الذي كان يقول:"...إنّ ما أفسد العلم كثرة التواليف..." فأصّل هو الآخر هذه الفكرة عند طلابه،بحيث يرى ابن خلدون أن كثرة التآليف عائقة عن التحصيل، وحتى تحصل الفائدة وتعمَّ غاية طلب العلم يجب مباشرة الرجال فتقوي الملكة العلمية وتصحح المفاهيم والمعطيات[25] ؛ لذلك قلّ تأليف الشيخ فلم يترك من الكتب غير "مفتاح الوصول إلى بناء الفروع والأصول " - شرح لمختصر نهاية الأمل في المنطق لأفضل الدين الخونجي (ت:624هـ)، ما يعرف بـ "شرح جمل الخونجي"، رسالة في الجدل تسمى:"مثارات الغلط في الأدلة" ساعيا من خلال هذه الرسالة الإشارة إلى الالتباس بين الأدلة العقلية والفقهية ليبين للطلبة بعض الإشكال الذي يطرح بين اللفظ والمعنى، فهو كتاب تعليمي محض، وكتابي "القضاء والقدر"و "المعاوضات"أو "المعاطات" وكلاهما مفقود[26].

وإن لم يؤلف كتب كثيرة فقد ألّف قلوبا كثيرة بالعلم فأحب التعليم وأعطاه وقته كله طيلة خمسة وعشرون سنة لم يأخذ راتبا طيلة جلوسه على كرسي التدريس وإنما كان يصرف من حر ماله. إنه العالم الذي تخرج على يديه كبار العلماء نذكر منهم[27]:

1. أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون (ت:808هـ)
2. أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي المشهور بالشاطبي (ت:790هـ).
3. أبو إسحاق إبراهيم بن محمد المصمودي (ت:805هـ).
4. أبناؤه عبد الله بن محمد وعبد الرحمن المعروف بأبي يحي.
5. أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد الرندي.
6. أبو يحي محمد بن أبي البركات ابن السكاك (ت:818هـ).
7. أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن زموك، وغيرهم الكثير.

اعتنى أبو عبد الله الشريف بالتعليم والإقراء فأحبه الناس الخاص والعام، فهو العالم الذي انتفع بعلمه ونفع الناس به، وقد عد منهج أبو عبد الله في التعليم نبراسا اقتدى به

المعلمون والمدرسون من بعده بل أصبح أسلوبا بيداغوجيا بمصطلح اليوم في تربية الرجال معتمدا في ذلك على الخطوات التالية:

1. **محبته للطلبة والاهتمام بهم**[28]:

لقد جعل هذا المعلم القدوة قدوته النبي الكريم صلى الله عليه وسلم فتأسّى به في معاملته للناس عامة وللطلبة خاصة، فكما كان محمدا صلوات الله عليه بحب صحابته وخاصته، أحب أبو عبد الله الشريف طلبته وجعلهم أعزّ الناس عنده، بحيث يسألهم إن كانت بهم حاجة، ينصرهم إن كانوا مظلومين، يكرمهم ويحسن ضيافتهم، يقضي حوائجهم ومن هذه الخصال نذكر للشيخ موقفا يؤكد مدى علوِّ نفس هذا المعلم واهتمامه بطلبته

يذكر أحمد بابا التنبكتي في كتابه "نيل الابتهاج" موقفا جليلا للشيخ أبي عبد الله الشريف وهو عند السلطان أبي عنان، بحيث سأله عن ابن الحاجب الأصلي فأجابه أن الطالب الفلاني يفهمها أكثر مني وكان هذا الطالب فقيرا ذا حاجة، فبعث السلطان في طلبه ولم يجده في فاس فأرسل إلى عامل سجلماسة يطلب كسوة هذا الطالب والمجيء به على جناح السرعة، وفعلا لما وصل وطلب منه المسألة أجابه فسأله من أين استفدتها فقال الطالب من سيدي أبي عبد الله الشريف.

2. **أخذ ميول الطلبة بعين الاعتبار**[29]:

وهو الأسلوب الثاني الذي اعتمده الشيخ أبو عبد الله بحيث يترك الشيخ لطلبته حرية اختيار ما تيسر لهم من العلوم ويحفزهم على ذلك فقد كان يردد عليهم قوله:"...من رزق بابا فليلازمه..."، فكان يعمل على انتقاء أحسن السبل في إيفاد المعلومة للطالب حسب فهمه وبالتالي يسير الدرس في تناغم بين الطالب والمطلوب فينتفع الطالب ويثاب المعلم.

3. **أسلوبه في تكليف طلابه مهمة البحث**[30]:

اعتمد الشيخ أبو عبد الله الشريف على منهج تكليف الطالب بالبحث ودفعهم إلى منصة المناظرة وطرح السؤال وترك المجال للمناقشة ثم يتدخل بعدها للتصحيح والتقويم فهو منهج يقوي القدرات ويظهر مكامن الطاقة في الطالب فيظهر ويتميز ويتفرد. لقد تقرب الشيخ من طلابه فجعلهم خاصته بحيث يسمي كل واحد باسمه يشجعهم وفيحفزهم على الإقبال للعلم.

4. **صبر وحلم الشيخ أبو عبد الله الشريف:**

هما صفتان اصطبغت بهما شخصية العالم السمح العدل أبو عبد الله الشريف فاتصف بهما في كل أحواله خاصة في طلب العلم وتعليمه ؛فهو الذي ينام ثلث الليل وينظر ثلثه ويقرأ ثمانية أحزاب في صلاته نهارا ومثله ليلا ؛ كان يصبر على القراءة، بحيث يذكر أحد مقربيه أنه وجد بين يديه سبعين كتابا مبسوطة، ويذكر ابنه يوما أنه لم ير أباه ستة أشهر، بحيث يخرج للعلم فجرا وهم نيام ويعود ليلا وهم نيام، وبأنه كان يصبر على الجوع ولا يصبر على التوقف عن القراءة[31].

فقد جمع الرجل الحلم والعلم، اللين والرفق، الصبر والعقل فترجمت في مهنة التعليم ليصبح العمل بالعلم قيمة بحد ذاتها ويصبح هذا العالم فقيها في مهنته، فقد قال العالم محمد بن عبد القادر التنيلاني:"العلم حياة الإسلام وعماد الدين والإيمان، العلم خليل المؤمن والعقل دليله، والعمل قيمته والحلم وزيره والصبر أميره والرفق والده واللين أخوه، العلم دين وصلاة " [32].

5. **الاستفادة من معاملة شيوخه:**

لقد انتهج أبو عبد الله الشريف أسلوب معلميه، فقد كان يباهي بأحسن طلابه إذا توفرت عنده صفات التميز والتفرد والمفاضلة ليخلق بين طلبته حب المنافسة ويذكرهم بآية الله:"وفي ذلك فليتنافس المتنافسون" الآية 26 من سورة المطففين.

هذا وقد نستدل بما قيل فيه من مشايخه[33] في مناقبه على سبيل قول شيخه الآبلي:"هو أوفر من قرأ عليَّ عقلاً وأكثرهم تحصيلاً، قرأ عليَّ الكثير شرقا وغربا فما رأيت أنجب من أربعة، أبو عبد الله الشريف أنجحهم عقلاً وأكثرهم تحصيلاً...". وقال أيضا إذا أشكلت على الطلبة مسألة في حلقته: "...انتظروا أبا عبد الله..."، قال عنه شيخه ابن الإمام أبو زيد[34]:

أعلمه الرماية كل يومٍ فلمـا اشتد ساعده رماني.

الخاتمة:

- لم يكن الشيخ أبو عبد الله الشريف يرائي الملوك ولا ذوي المناصب ولا يخاف في الله لومة لائم. فذات يوم كان يجلس في الدرس واحد من كبار وزراء الدولة فرآه يميل على الطلبة فزجره وعنفه أمام الملأ ولم يرد عليه ذلك الوزير(35).

- لم يكن يبتغي من التعليم سوى وجه الله تعالى فقد تقرب منه الملوك ولم يتقرب منهم، وإن تقرب منهم عظُم عنده أهل الحق، ينصر المظلوم ولا ينتصر لنفسه.

- اعتمد في درسه على بلاغة البيان ونزاهة الذمة وحمل لواء التحقيق إذا تكلم عن مسألة أوضحها نهاره كله بين إقراء ومطالعة وتلاوة.

- يقرأ من التفسير نحو ربع حزب كل يوم مع البحث وإذا أشكلت على الطلبة مسألة أمرهم بالتقييد ثم يفصل بينهم.

- كان جميل الخلقِ والخُلق فرزق مهابة الناس، في حديثه حلاوةً يؤثربه على الطلبته، كما يحملهم به إلى الصدق وبثِّ الحقائق.

- اعتمد أسلوب الإصغاء للطالب فيحمل كلامهم على أحسن وجه ويبرزه في أحسن صورة.

إنه بالفعل كما قال عنه الشيخ أبو يحي المطغري:" حضرت مجلس كثير من كبار العلماء فما رأيت مثل أبي عبد الله وولديه" (36).

الهوامش:

1. يرجع نسب هذا البيت الشريف لمؤسسه أبو عبد الله الشريف،ينظر:أبو عبد الله محمد، ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة: ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م،ص164؛ أحمد بابا،التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق:عبد الله الهرامه، ج1، ج2،ط1،منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989، ص430، أحمد بابا، التنبكتي، كفاية المحتاج بمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق:محمد مطيع،ج1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب،2000،ص ص252،210، عبد الرحمن بن خلدون،رحلة ابن خلدون، دراسة: محمد بن تاويت

الطنجي،ط1،دار الكتب العلمية، بيروت،2004،ص69؛ عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر،ط1،دار الأبحاث، الجزائر، 2013، ص 292، نصر الدين بن داود،بيوتات العلماء بتلمسان من القرن 7ه- 10هـ/13م-16م،أطروحة دكتوراه، جامعة تلمسان، سنة 2009-2010م، ص ص 113،115

2. عبد الرحمن بن خلدون، رحلة ابن خلدون، المصدر السابق،ص69.

3. قرية العلوية: موجودة بأحواز تلمسان، وقد ذكرها اليعقوبي قائلا:".. ثم إلى المدينة التي تسمى العلويين كانت في أيدي العلويين من ولد محمد بن سليمان..."،ينظر:أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي،البلدان،وضع حواشيه:محمد أمين ضناوي،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت، 1422هـ/ 2002م، ص 196، ينظر أيضا: ابن مريم، المصدر السابق،ص164، أحمد بابا، التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 433، ويحدد الباحث بن رمضان شاوش أنه يقصد بها قرية عين الحوت في تلمسان التي مازالت قائمة إلى اليوم. ينظر: نصر الدين بن داود، المرجع السابق، ص ص116-117.

4. العالمان ابني الإمام وهما الإمام أبو موسى عيسى والإمام أبو زيد عبد الرحمان وهو أصغر من عبد الرحمن أصولهم من برشك، كان أبوهما إماما فاشتهر البيت بهذا الاسم،عمل مع أخيه في الرحلة شرقا وغربا، أما أبو موسى فقد كان مقربا من السلاطين المرينيين، عرف بالإمامة والاجتهاد، توفي بالطاعون سنة 749هـأما الإمام أبو زيد عبد الرحمن، ولد في العقد الثاني من النصف الثاني للقرن السابع هجري، رحل إلى تونس بعد محنة قتل أبيه سنة 684هـ وجلس إلى علمائها ومنها إلى فاس إلى جامعة القرويين لينتفع من علمائها ثم عاد إلى الجزائر يدرس فيها ثم مليانة سنة 705 هـ وولي القضاء ثم إلى تلمسان عند السلطان أبو حمو موسى الثاني فبنا له المدرسة سنة 710هـ فانتصب للتدريس فيها، توفي سنة 743هـ ينظر: ابن خلدون، الرحلة، المصدر السابق، ص48. التنبكتي، الكفاية،المصدر السابق، ص178، ابن مريم،البستان، ص 123، نويهض، عادل، معجم الأعلام، المرجع السابق،ص ص34،35.

5. الشيخ الآبلي،(681-757ه)هو محمد بن إبراهيم بن أحمد الآبلي نسبه لمدينة آبلة في لأندلس، وانتقل أبوه وعمه إلى تلمسان فاستخدمهم السلطان يغمراسن في جنده، ولد بتلمسان وعكف على تحصيل العلوم فكان أشهر علماء المغرب الأوسط، تعلم عنه الشريف التلمساني وابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب، رحل إلى المشرق للحج ولقي كثير من العلماء، ثم انتقل إلى فاس وبقي فيها حتى مات 757ه، ينظر خير الدين، الزركلي،الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء عند العرب والمستعربين والمستشرقين،ط3،بيروت،1970،ص، ينظر أيضا:ابن القاضي، أحمد المكناسي، درة الحجال في غرة أسماء الرجال، تح، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان،2002،ص365، عادل،نويهض، المرجع السابق، ص17 أحمد بابا، التنبكتي، الكفاية، المصدر السابق، ص 54.

6. الشيخ ابن عبد السلام، هو أبو عبد الله بن عبد السلام، أخذ عن ابن مهدي عيسى الغبريني، أخذ عنه أبو عبد الله الشريف، كان من كبار علماء عصره في تونس، ينظر: أحمد بابا، التنبكتي، النيل، المصدر السابق، ص 231 ينظر: ابن مريم، المصدر السابق، ص 165.

7. السطي: هو أبو عبد الله بن سليمان بن علي السطي نسبه لقبيلة سطة من أورية بنواحي فاس، أحفظ الناس لمذهب مالك بعرف بالفقيه الفرضي، حظي بالإمامة والحطية عند السلطان أبي الحسن المريني، توفي 749ه، ينظر: ابن خلدون، رحلته، ص 48

8. ابن مريم، البستان، مصدر سابق،ص 165، ينظر:أحمد بابا التنبكتي، نيل الإبتهاج،مصدر سابق، ص435.

9. ينظر: أحمد بابا، التنبكتي، النيل، ص 430،ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص 171، ابن القاضي، مصدر سابق، ص270، نصر الدين بن داود، المرجع السابق،ص122، عادل نويهض، مرجع سابق،ص112

10. أحمد بابا، التنبكتي، نيل الابتهاج، مصدر سابق،ص252، عادل نويهض، مرجع سابق،ص116.

11. سورة الأحزاب، الآية 21.

12. ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص ص 171،164.

13. سورة الأحزاب، الآية 41.

14. ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص168، احمد بابا، التنبكتي، النيل، مصدر سابق،ص438.

15. ابن مريم، المصدر السابق، ص 166.

16. المصدر نفسه، ص175.

17. المصدر نفسه، ص 175.

18. أحمد بابا، التنبكتي، النيل، المصدر السابق،ص439.

19. ابن مريم، المصدر السابق، ص176.

20. أحمد بابا، التنبكتي، النيل، مصدر سابق،ص ص 445،430.

21. المصدر نفسه،ص252.

22. نقلا عن ما ورد عن محمد عبد القادر، التنلاني، الدرة الفاخرة في ذكر ما بتوات من العلماء والأشراف، مخطوط بخزانة كوسام، أدرار، الورقة 1.

23. ابن مريم،البستان،المصدر السابق،ص172.

24. المصدر نفسه، ص 172.

25. بابا خويا الحاج المهدي، الإمام أبو عبد الله الشريف التلمساني وجهوده الأصولية والفقهية، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد بن عبد الله، فاس، 1413هـ-1414هـ/1992م-1993م،ص ص 67-68.

26. بابا خويا، المرجع نفسه، ص 68.

27. المرجع نفسه،ص 69.

28. المرجع نفسه، ص ص 71،70.

29. ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص ص 164،172، أحمد بابا، التنبكتي، النيل، المصدر السابق،ص ص، 430،445، نصر الدين بن داود، المرجع السابق،ص ص 114،124؛ بابا خويا، المرجع السابق، ص ص 65،70.

30. بابا خويا، المرجع نفسه، ص ص 69،70.

31. المرجع نفسه، ص ص 70،71.

32. عبد القادر، التينلاني،مخطوط في خزانة كوسام، أدرار، الورقة 1.

33. تلك الشهادات لشيوخ أبي عبد الله الشريف تذكرها كل الكتب التي ترجمت له على سبيل المثال لا الحصر: أحمد بابا، التنبكتي، النيل، المصدر السابق،ص 440؛ ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص ص 164،172.

34. ابن مريم، البستان،نفسه، ص171.

35. المصدر نفسه، ص 170.

36. المصدر نفسه، ص 172.

العلاقات بين الجزائر والمغرب الأقصى من دخول العثمانيين إلى سقوط الدولة الزيانية

(1554-1513)

د.هوارية بكاي
جامعة أبي بكر بلقايد /تلمسان

في الوقت الذي كانت فيه بلاد المغرب منقسمة على نفسها، كان المغرب الأقصى تحت حكم بني مرين ثم الوطاسيين من بعدهم، والمغرب الأوسط تحت حكم بني زيان، وكان بنو حفص يسيطرون على المغرب الأدنى[1]. كان المسيحيون في شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس) يزدادون وحدة وتماسكا حتى اكتملت الوحدة الاسبانية بالزواج الشهير بين ملكي قشتالة وأراغونه (فرديناند الثاني وإيزابيلا) والذي كان من أول نتائجه سقوط الأندلس سنة 1492، كما غدت اسبانيا على درجة كبيرة من القوة على هذا العهد ثم على عهد شرلكان ثم على عهد ابنه فليب الثاني[2]. ولم يكتف الاسبان بطرد المسلمين من أراضيهم، بل راحوا يغزون سواحل بلاد المغرب[3] خاصة القسم الاوسط والأقصى منها وهو القسم موضوع الدراسة.

أولا: المغرب الأوسط (الجزائر).

كان المغرب الأوسط تحت حكم الزيانيين (633- 958هـ/ 1231- 1551م) [4]الذين أصاب دولتهم الضعف مطلع القرن العشر الهجري/ السادس عشر الميلادي خاصة بعد أن تمكن الاسبان من احتلال المرسى الكبير سنة 911هـ/1505م ثم وهران سنة 914هـ/

1509م، الأمر الذي دفع المدن الساحلية ومنها دلس والجزائر وشرشال ومستغانم وتنس على تقديم ولائها للاسبان[5]خشية أن يكون مصيرها مثل مصير مدينة وهران، وهي نفس السياسة التي انتهجتها القبائل القريبة من المناطق الداخلية، وهذا ما فرض حصارا اقتصاديا على الدولة الزيانية التي تنازع سلاطينها الحكم، وأصبح كل طرف يستعين بقوة خارجية، فاستعان بعضهم بالاسبان وبعضهم الآخر بالعثمانيين[6]، الأمر الذي أفقد الرعية ثقتهم في السلاطين الزيانيين ووسع الهوة بينهم، وزادت الهوة بينهم بعد أن وقع السلطان أبو حمو الثالث الزياني معاهدة صلح مع الاسبان سنة 918هـ/1512م[7]، وهو ما دفع بهم –الرعية- إلى الاستنجاد بالعثمانيين[8].

وقد ألحق احتلال اسبانيا للمناطق الساحلية أضرارا بالمناطق الداخلية التي كانت تعتمد في اقتصادها على المناطق الساحلية، وهو ما أدى إلى ظهور زعامات دينية دعت إلى مقاومة الاحتلال الاسباني واستنجدت بالقوات العثمانية التي كانت تجوب الحوض الغربي للمتوسط، والذين استقروا بجيجل سنة 920هـ/1514م، ثم بمدينة الجزائر سنة 922هـ/ 1516م، ثم توغلوا إلى باقي المناطق حتى تمكنوا من اخضاع المغرب الأوسط كله وأطلقوا عليه اسم الجزائر[9].

ثانيا: بداية أمر العثمانيين بالمغرب الأوسط وجهودهم به .

بعدما استكملت اسبانيا وحدتها السياسية خلال القرن التاسع الهجري التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي وباسترداد آخر إمارة إسلامية بالأندلس –إمارة غرناطة- سنة 977هـ/1492م وأصبحت قوة لا يستهان بها في الحوض الغربي للمتوسط[10]، راحت تنقل الحرب نحو بلاد المغرب، وقد ساعدها على تحقيق هدفها هذا حالة الضعف والتفرقة، والصراع الداخلي الذي كانت تعاني منه دويلات المنطقة (المرينيون بالمغرب الأقصى، والزيانيون بالمغرب الأوسط والحفصيون بالمغرب الأدنى) [11]، فاحتلت العديد من المدن الساحلية لهذه الدوليات ومن بينها مدن المغرب الأوسط حيث احتلوا المرسى الكبير سنة 911هـ/1505م[12]، ووهران سنة 914هـ/1909م[13]و بجاية سنة 915هـ/ 1510م[14].

دفع احتلال الاسبان لهذه المدن إلى خضوع باقي المدن وخاصة تلك الواقعة بين وهران وبجاية، ومنها مدينتا مستغانم والجزائر إلى الاسبان وإعلان الولاء لهم، في ظل

هذه الأخطار المحدقة بالدولة الزيانية، أرسل سلطانها أبو عبد الله محمد الزياني سنة 915هـ/ 1512م وفدا إلى ملك اسبانيا مبديا له كامل الولاء والخضوع[15]، لكن رغم ذلك واصل الاسبان احتلالهم لسواحل المغرب الأوسط فاحتلوا هنين سنة 938هـ/1531م[16].

في هذه الأثناء كان الإخوة بربروس[17]يجوبون الحوض الغربي للبحر المتوسط بسفنهم ملحقين الخسائر الفادحة بالسفن والشواطئ الأوروبية انطلاقا من الشواطئ الحفصية بإذن من السلطان الحفصي أبي عبد الله محمد[18].

انتشرت أخبار بطولات الاخوة بربروس وذاع صيتهم بعدما ألحقوه من خسائر فادحة بالسفن والشواطئ المسيحية، ومساعداتهم للمسلمين الفارين من الاضطهاد المسيحي بالأندلس، ما جعل أنظار أهل المغرب الأوسط تتجه إليهم، فوجه أبو العباس أحمد بن القاضي الزواوي[19] رسالة إليهم يستنجدهم فيها من الغزو الاسباني المسيحي، فما كان من هؤلاء إلا أن لبوا النداء وأخذ أبو العباس بن القاضي يحث الناس على اتباعهم والسمع والطاعة لهم وخاصة لقائدهم عروج الذي أصبح هو الباي فيهم[20]. ومن هنا بدأ التدخل العثماني في المغرب الأوسط والذي كان على المراحل التالية:

- عهد عروج (918- 924هـ/ 1512- 1518م) [21].
- عهد خير الدين (924- 942هـ/ 1518- 1535م) [22].
- عهد حسن آغا (940- 950هـ/1533- 1543م) [23].
- عهد حسن باشا بن خير الدين خلال ولايته الأولى (951- 958هـ/1544- 1551م) [24].

ثالثا: المغرب الأقصى.

1. مرحلة الحكم الوطاسي المباشر(1472- 1554 م).

بمقتل عبد الحق بن أبي سعيد المريني عام 869 ه/ 1465 م آلت أمور فاس إلى الشريف أبي محمد عبد الله بن محمد الإدريسي الجوطي الذي ظل يحكم البلاد ويعاونه ابنه كوزير له، إلا أن بني وطاس تمكنوا من استغلال الظروف وقاموا بخلع الشريف أبي عبد الله عن الإمارة والإمامة في مدينة فاس عام 875 ه/ 1471 م بعد حكم دام ست سنوات على يد أبي الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسي، لكن فترة حكم ابن منصور الوطاسي هذا لم تدم إلا عاما واحدا إذ انقض على حكمه محمد الشيخ بن أبي

زكرياء الوطاسي وزير عبد الحق المريني معلنا نفسه سلطانا على المغرب منذ عام 876 ه/ 1471م- والذي كان قد استولى على أصيلا من قبل متخذا إياها قاعدة له- بعدما نجا من نكبة عبد الحق المريني لآل وطاس سنة 863 ه.

وفي الوقت الذي توجه فيه محمد الشيخ نحو فاس لمحاصرتها استولى البرتغاليون على أصيلا[25] حينئذ رفع محمد الشيخ الحصار فاس وعاد مسرعا إلى أصيلا يريد استعادتها، فحاصرها حصارا شديدا غير أنها امتنعت عنه فاضطر إلى عقد هدنة مع البرتغال[26] خصوصا وأنه لم يستطع دخول أصيلا ولا السيطرة على فاس التي كان قد كلف ابن عمه أبا الحجاج يوسف بن منصور الوطاسي بمواصلة حصارها. وقد سمحت هذه الهدنة لمحمد الشيخ بتثبيت حكمه داخل البلاد بعدما استولى على فاس سنة 877 ه/ 1472 م وفرار الشريف أبي عبد الله إلى تونس[27]،حينها تمت بيعته ليتفرغ إلى تهدئة الأوضاع في المناطق المجاورة لعاصمته، وقتال القبائل المقيمة بأحواز فاس وغيرها من المدن إلى أن دخلت جميعا في طاعته[28].

ورغم الهدنة الموقعة وشروطها إلا أن ملك البرتغال اتجه بقواته نحو مدينة طنجة التي كانت قد استنجدت بالنصريين إلا أنهم كانوا منشغلين بمشاكلهم الداخلية فلم يقدموا أية نجدة للمدينة وكان ذلك سببا في جلاء أعيانها وأثريائها إلى فاس، مما سهل على الجيش البرتغالي مهمة احتلالها في 29 أوت 1471 م بعد خمسة أيام من احتلال أصيلا[29].

وفي عهد محمد الشيخ تمزقت الوحدة السياسية للمغرب، إذ شجع القضاء على دولة بني مرين كثيرا من شيوخ القبائل على إعلان استقلالهم وفتحت الأبواب على مصراعيها لذوي الطموح السياسي فلم يعد يوجد ما يردعهم.

فقد أصبح المغرب الأقصى يعيش حالة من الفوضى، فبنو راشد في شفشاون وآل المنظري في تطوان لا زالوا في حالة حرب مع البرتغاليين ضاربين بذلك تلك الهدنة المبرمة عرض الحائط، أما سكان المناطق المجاورة لأصيلا وطنجة فكانوا يتاجرون مع البرتغال، لا بل أعلنوا خضوعهم وقبلوا أداء الأعشار للكنيسة تلبية لقرار الملك جواو الثاني الذي راح يتابع سياسته بالمغرب بشكل مباشر وعلني بموجب قرارات مفاوضات طورييسياس 899 ه/ 1494م[30] السالفة الذكر، مما اضطر أميري شفشاون وتطوان إلى شن حملات ضد فحص أصيلا لمعاقبة سكانها لتعاملهم مع البرتغال فتم على إثر ذلك قتل بعض الفرسان المسيحيين.

في ظل هذه الظروف ظهر الأشراف السعديين[31]. إذ وبعد مبايعة السوسيين للشريف محمد بن عبد الرحمن السعدي أميرا عليهم جمع صفوفهم وسار بهم إلى حرب البرتغاليين في حصن فونتي[32]بالقرب من أكادير فكانت له انتصارات أولية رائعة هناك، عكس ما يذكره طيراس الذي يستهين بالنتائج التي أحرزها السلطان السعدي ويعدها قليلة الأهمية[33].

ولعل انتصار أكادير هو الذي أهاب بسكان حاحة والشياظمة إلى الاستنجاد بالقائم ضد البرتغال الذين يحتلون عدة مواقع شاطئية هناك كأكوز وآسفي، وقبل أن يتصدى القائم لهذه المهمة رشح نجله أبا العباس أحمد الأعرج لولاية العهد وعقد له البيعة سنة 918 ه/ 1513 م[34] بتيدسي ثم استجاب القائم لنداء حاحة والشياظمة وترك ابنه محمد المهدي بالسوس يقوم بأمرها بينما رافقه ابنه أبو العباس[35].

وفي سنة 923 ه/ 1517 م[36] توفي القائم بأفوغال بالقرب من شيشاوة تاركا الأمر لولده أحمد الأعرج ولأخيه محمد الشيخ، فدفن بضريح الإمام محمد بن سليمان الجزولي ثم نقل رفاته إلى مراكش سنة 930 ه/ 1523 م[37].وظل المغرب الأوسط تحت حكم الوطاسيين والسعديين إلى تمكن محمد الشيخ من القضاء على خصومه أبي حسون الوطاسي، وأحمد الأعرج، ومولاي عمر أمير دبدو وغيرهم من المناوئين له فاستقرت الأوضاع الداخلية نسبيا ودان له المغرب بأكمله بعد ما قضى نهائيا على الدولة الوطاسية[38]، إذ لم يستطع أحد من الأمراء الوطاسين الذين استقروا في الجزائر عند حكامها الأتراك أن يهدده أو يحيي هذه الدولة من جديد.

3- العلاقات السياسية بين المغربين الأوسط والأقصى خلال القرن من ظهور العثمانيين إلى سقوط الدولة الزيانية.

ليس من السهل الخوض في موضوع العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال هذه الفترة (القرن العشر الهجري / السادس عشر الميلادي) لما ميز هذه المرحلة من تشابك وتعقيد، وغموض في كثير من الأحيان، ولعل ذلك يرجع إلى تعدد القوى السياسية التي كانت قائمة في البلدين، حيث كان المغرب الأقصى تحت سيطرة أربع قوى سياسة هي: الوطاسيون، السعديون، الإسبان، والبرتغاليون .إضافة إلى العديد من الإمارات المستقلة كإمارة دبدو بالشرق، وإمارات بادس، وشفشاون، وتطوان في الشمال.[39] ولم يكن

الوضع السياسي في الجزائر يختلف عن الوضع السائد في المغرب الأقصى، حيث كانت هي الأخرى تحت سيطرة أربع قوى سياسية هي: الزيانيون، العثمانيون الأتراك، الحفصيون، والإسبان. وإمارات مستقلة كإمارات كوكو، وبني عباس، وتنس بالشمال، وإمارتي بني جلاب، وعلاهم بالجنوب، وغيرها [40].

و أمام هذه التشكيلات السياسية، اختلاف أهدافها وتباين مصالحها يجد الباحث في موضوع العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال هذه الفترة – القرن العشر الهجري / السادس عشر الميلادي– صعوبة كبيرة في تحديد طبيعة هذه العلاقات التي لم تكن ثابتة، وتشوبها العديد من الدسائس والمؤامرات والتحالفات، ولا تخضع - في أغلب الأحيان – إلا للمصلحة الخاصة لكل قوة سياسية، إذ من أجلها يتفق الأعداء ويختلف الأشقاء.

لذلك كان لزاما علينا – لمعرفة حقيقة العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب، وطبيعتها – دراسة العلاقات بين مختلف القوى السياسية في البلدين خاصة منها تلك التي كان لها نفوذ قوي وحضور كبير، ومن ثم كان لابد من الوقوف على طبيعة العلاقات السياسية بين:

- الزيانيين والوطاسيين .
- الزيانيين والسعديين .
- حكام الجزائر العثمانيين والوطاسيين .
- حكام الجزائر العثمانيين والسعديين .

مع إبراز مواقف الإسبان والبرتغاليين، وكذلك الحفصيين وزعماء الإمارات والمناطق المستقلة في كلا البلدين، والإشارة إلى تأثيرهم في هذه العلاقات وتأثرهم بها .

2. العلاقات السياسية بين الزيانيين والوطاسيين .

سار الوطاسيون على نهج أسلافهم وبني عمومتهم المرينيين الذين سعوا جاهدين في ضم تلمسان إلى مملكتهم والقضاء على نفوذ الزيانيين فيها . غير أن الظروف لم تكن في صالح السلطان الوطاسي محمد البرتغالي (910-932هـ/1504-1526م) [41]، وابنه أبي العباس أحمد (932ـ-956هـ/ 1526-1549م) [42]،و التي لم تسمح لهما بتوجيه أنظارهما إلى تلمسان أو حتى التدخل في شؤونها كما فعل أسلافهم من المرينيين، حيث كان المغرب

الأقصى يعيش حالة من الاضطرابات والانقسامات،اضافة إلى الغزو البرتغالي والإسباني واحتلالهما للعديد من المدن الإستراتيجية الساحلية [43]. لذلك كان هم الوطاسيين الكبير هو مواجهة هذه الأخطار، خاصة المد السعدي المتصاعد من الجنوب، كما كان لزاما عليهم توجيه كل جهودهم واهتماماتهم لمواجهة الخطر الأجنبي، وتحرير المدن التي احتلها الغزاة الإسبان والبرتغاليين .[44]

في ظل هذه الظروف صرف الوطاسيون نظرهم نهائيا عن التدخل في مملكة تلمسان، واكتفوا بإيواء الأمراء الزيانيين الفارين إليهم خوفا من بطش الأسرة الحاكمة، أو الطالبين للعون والمدد ضد العثمانيين الأتراك الراغبين في الإستيلاء على تلمسان، دون تقديم أدنى مساعدة لهم، تخوفا من أي اضطراب قد يطهر من الجهة الشرقية أو خطر يأتي منها، بل سعوا إلى اقامة علاقات تتميز بحسن الجوار مع سلاطين تلمسان، أو الوافدون الجدد من العثمانيين الأتراك، ومن ذلك رفض السلطان الوطاسي محمد البرتغالي مساعدة السلطان الزياني أبي حمو الثالث التي استجار به طالبا مساعدته على استرجاع عرشه الذي استولى عليه عروج بربروس[45]، وكان سبب الرفض هو انشغال السلطان الوطاسي بحربه ضد البرتغاليين وعملائهم في المغرب [46]، ومحاولته اخضاع جميع الوحدات السياسية التي انفصلت عن دولته، وبسط نفوذه على كامل التراب المغربي .اضافة إلى تخوفه من التورط في الجبهة الشرقية إن هو تدخل ضد العثمانيين الأتراك، والتي قد تنسف كل الجهود التي بذلها من أجل استرجاع سلطته على المغرب الأقصى .

ويذكر في هذا الصدد هايدو أن السلطان الوطاسي رفض التدخل في تلمسان ضد عروج لأن هذا الأخير كان قد أرسل إليه عقب دخوله إلى تلمسان سفراء يعرض عليه من حلالهم التحالف، ومساعدته على محاربة أعدائه بالمغرب [47]. أمام رفض محمد البرتغالي مد يد العون للسلطان أبي حمو الثالث لجأ هذا الأخير إلى الإسبان الذين لم يتأخروا في تلبية طلبه،[48] لأنهم وجدوا في ذلك الفرصة المناسبة للقضاء على عروج وقواته لأنه كان يشكل خطرا يهدد وجودهم بوهران والمرسى الكبير، وكذلك لقطع الطريق أمام أي اتفاق أو تحالف قد يحصل بينه وبين السلطان الوطاسي محمد البرتغالي. وتمكن السلطان أبو حمو الثالث من استرجاع ملكه بفضل المساعدات الإسبانية، كما تمكن الإسبان من القضاء على عروج بربروس خلال محاولته الفرار من الحصار الذي ضربوه على قواته بمدينة تلمسان[49] .

رغم أن السلطان أبا حمو تمكن من استرجاع عرشه إلا ان الأمور لم تستقر له بتلمسان نحيث سرعان ما نشب خلاف بينه وبين أخويه عبد الله ومسعود – بعدما كان عروج قد أطلق سراحهما من السجن – اللذان لجآ إلى السلطان الوطاسي محمد البرتغالي[50]. فأرسل إليه السلطان أبو حمو الثالث يطلب استرجاعهما خشية أن يجدا لديه الدعم والمدد، أو يتحالف معهما ضده، لكن السلطان الوطاسي رفض طلبه بحجة الخوف عليهما من بطشه، ويذكر هايدو أن أبا حمو الثالث أرسل إلى محمد البرتغالي مرة ثانية بأيمان مؤكدة أنه ما أراد لأخويه إلا خيرا، وأنه اشتاق للقائهما .[51] عندها ترك السلطان الوطاسي للأخوين عبد الله ومسعود حرية الاختيار بين البقاء لديه أو العودة إلى تلمسان، فاختارا أمرا ثالثا حيث التجأ عبد الله إلى الإسبان الذي تولى عرش تلمسان بعد أخيه أبي حمو الثالث سنة 925هـ/1520م، وظل يحكمها تحت اشراف الإسبان حتى سنة 934هـ/1528م . بينما التجأ مسعود إلى الأتراك بمدينة الجزائر، أين أرسل معه خيرا لدين بربروس حملة إلى تلمسان تمكن من خلالها من انتزاع الملك من أخيه عبد الله .[52]

و بعد تولى أبي العباس أحمد الوطاسي عرش فاس سنة 932هـ/1526م، سار على نهج والده في علاقته مع الزيانيين، حيث استمر في استقبال اللاجئين إليه وإيوائهم دون التدخل في شؤونهم أو مد يد العون إليهم سواءا ضد بعضهم البعض، أو خصومهم من الأتراك أو الإسبان .

و كان من جملة من التجأ إليه الأمير أبو زيان محمد بن عبد الله بعد فشله في انتزاع الملك من أبيه بعد أن ثار ضد سنة 937هـ /1531م، فرفض السلطان أبو العباس أحمد تقديم المدد له، ومساعدته لتنفيذ مراده، مما اضطره – محمد بن عبد الله – إلى اللجوء إلى حكام الجزائر من العثمانيين الأتراك الذين أعانوه على انتزاع الملك من والده والتربع على عرش تلمسان في فبراير من سنة 941هـ/1534م . [53]

كما أن السلطان أبو العباس لم يتدخل في النزاع القائم بين السلطان أبي زيان محمد الثاني – السالف الذكر – واخويه أبي عبد الله محمد وأبي زيان أحمد، واكتفى مرة أخرى بإيواء السلطان أبي زيان محمد الثاني بعد أن أطاح به أخوه الأمير أبو زيان أحمد، خاصة وأن الخطر السعدي بقيادة محمد الشيخ أوشك أن يطرق أبواب العاصمة فاس. ويذكر محمد الكراسي رواية لم ترد عند غيره مفادها أن السلطان احمد الوطاسي قد أمد

السلطان المخلوع أبو زيان محمد بالرجال والسلاح لاسترجاع عرشه من أخيه وقال له: "داري دارك وأنا لك بمنزلة الوالد وابني بمنزلة أخيك ". [54] لكن يبدو أن ذلك مجرد وعود لم تجد طريقها للتجسيد، خاصة وأن الأحداث التاريخية لم تثبت أي دعم مادي قدمه السلطان أحمد الوطاسي للسلطان الزياني المخلوع أبو زيان محمد بن عبد الله .[55]

ورغم أن الوطاسيين لم يقدموا أي دعم للأمراء الزيانيين الملتجئين إليهم إلا أن المغرب الأقصى ظل الملجأ الآمن الذي يلجأون إليه كلما داهمهم الخطر .

إذا ومن خلال تتبعنا للعلاقات الوطاسية الزيانية خلال النصف الأول من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي نجد أنها تميزت بالتزام الوطاسيين للحياد وعدم التدخل المباشر في شؤون مملكة تلمسان على الرغم من وجود مناوئين للحكم الزياني في بلاطها، والساعين إلى الحصول على دعمها ضد هذا الحكم، أو ضد خصومهم من الأتراك أو الإسبان [56] .

لذلك يمكن القول أن العلاقات بين الطرفين – الزيانيين والوطاسيين – قد تميزت بحسن الجوار، وانعدام التعاون والتنسيق بينهما لمواجهة الأخطار الداخلية والخارجية التي كانت تتهدد كلا منهما [57]، وقد كان لذلك انعكاسات سلبية على الطرفين، حيث اضطر الزيانيون أمام رفض الوطاسيين لمساعدتهم إلى الاستعانة بالإسبان أحيانا وبالعثمانيين الأتراك أحيانا أخرى لرد خطر أحد هذين الطرفين[58]. فكانت النتيجة أن فقد كل من الزيانيين والوطاسيين على حد سواء ملكهم، فتلمسان أصبحت تابعة لحكام الجزائر الجدد وهم العثمانيون الأتراك، والوطاسيون حل محلهم الأشراف السعديين في حكم المغرب الأقصى سنة 659هـ/1549م، رغم تقربهم هم الآخرون أحيانا من الإسبان، وأحيانا من البرتغاليين، واحيانا أخرى من الأتراك العثمانيين . لتعرف الدولتان خصوما جددا وتدخلان في مواجهات جديدة .

3. العلاقات السياسية بين الزيانيين والسعديين:

إذا أمعنا النظر في الظروف التي كانت تمر بها كل من الجزائر والمغرب خلال الفترة التي واكبت امتداد نفوذ السعديين إلى شمال المغرب الأقصى واعتلائهم عرش هذا البلد في العقد الخامس من القرن العشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وما قابله من حالة الضعف والانحطاط التي آلت إليها الدولة الزيانية، يتضح لنا جليا أنها ظروف لا تسمح بوجود علاقات قوية أو فعالة بين البلدين، لا لشيء إلا لأن الزيانيين لم يسعوا أبدا إلى التقرب من السعديين أول ظهورهم، أو إلى إقامة علاقات معهم، وذلك حتى لا يغضبوا

جيرانهم الوطاسيين من جهة، ولانشغال السعديين في بداية أمرهم بتحرير سواحل المغرب المحتلة، واحكام سيطرتهم عليه، ومن ثم التطلع إلى اخضاع مملكة تلمسان .[59] ثم إن الزيانيين ورغم حاجتهم الماسة إلى الدعم والسند – الذي لم يجدوه عند الوطاسيين – ضد الإسبان أو ضد العثمانيين الأتراك، فإنهم لم يلجأوا إلى طلب ذلك من السعديين رغم قوتهم التي أظهروها واتساع نفوذهم الذي مكنهم من السيطرة على المغرب الأقصى، وقضائهم على الوطاسيين، وذلك خشية تزايد أطماعهم، امتداد نفوذهم إلى مملكتهم مثلما كان الأمر مع المرينيين، خاصة وأن السعديين اجتمعت فيهم العديد من الصفات التي تجعلهم يحظون بالقبول في تلمسان أكثر من العثمانيين الأتراك أو الإسبان نفهم من الأشراف الذين برزوا كمجاهدين في سبيل الله يسعون إلى تحرير أرضهم من المحتل المسيحي، ولعلها صفات منحتهم السلطة والتفوق المعنويين، إضافة إلى نيلهم تأييد الطرق الصوفية وعلى رأسها الطريقة الشاذلية [60] التي تتفرع عنها طرق عديدة في المغرب والجزائر على السواء، كما كان لها أتباع كثر في تلمسان، [61] مما جعل الزيانيون يتوجسون منهم خيفة، بل ويتخوفون منهم أكثر من تخوفهم من العثمانيين الأتراك، أو الإسبان، خاصة وأن شعبية سلاطين بني زيان ما فتئت تتناقص لدى الرعية بتلمسان [62]. ومن هنا أدرك هؤلاء السلاطين أنه يستحيل اخراج السعديين من تلمسان إن حدث وأتيحت لهم فرصة الاستيلاء عليها .

وعلى الرغم من الظروف المواتية للسعديين من أجل التدخل في تلمسان قبل العقد الخامس من القرن السادس عشر الميلادي إلا أنهم لم يقدموا على ذلك لأن هدفهم الأول كان توحيد المغرب الأقصى تحت رايتهم . [63]

و يمكن القول أن العلاقات السياسية بين الزيانيين والسعديين لم تعرف أي تطور، ومرد ذلك لانشغال السعديين في بداية أمرهم بتحرير المدن المحتلة، والقضاء على الحكم الوطاسي بالمغرب.[64] لذلك لم يقدموا شيئا للزيانيين يمكنهم من الحد توسع نفوذ الأتراك والإسبان معا، بل تحولوا هم أنفسهم أحد الطامعين في توسيع نفوذهم على حساب تلمسان والغرب الجزائري بعدما تمكنوا من القضاء على الوطاسيين وأصبحوا قوة في المنطقة .لكنهم اصطدموا بقوة العثمانيين الأتراك في الجزائر ودخلوا معهم في صراعات عسكرية عديدة، خاصة وأن العثمانيين كانوا يأملون في بلوغ المغرب الأقصى الذي ظل المنطقة الوحيدة من بلاد المغرب الإسلامي الذي لم يلحق بالخلافة العثمانية .

وبتعدد أطراف الصراع وتباين اهدافها ظلت تلمسان تتجاذبه التيارات فتارة الأتراك وتارة السعديون وتارة أخرى التحرشات الإسبانية المستمرة عليها، يضاف إليهم الطرق الصوفية الداعمة للسعديين خاصة الطريقتين الشاذلية والجزولية، وهذا ما أدى في الأخير إلى انهيار الدولة الزيانية وزوال رسمها سنة 951هـ/ 1554م .

4. العلاقات السياسية بين ايالة الجزائر والوطاسيين :

لم تكن العلاقات بين المغرب الأقصى والعثمانيين وليدة القرن العشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، بل هي مرتبطة بالأساس بالانتصارات والانجازات التي حققها العثمانيون منذ أواسط القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، والتي أهمها فتح القسطنطينية سنة 857هـ/1453م من طرف السلطان محمد الفاتح،حيث أرسل بهذه المناسبة السلطان عبد الحق المريني– كغيره من ملوك الدول الإسلامية - رسالة تهنئة إلى السلطان محمد الفاتح تعبيرا منه عن ابتهاجه بهذا النصر العظيم [65]،إضافة إلى ما حققه السلطان محمد اثاني من فتوحات في شرق أوربا، وبلوغ بايزيد الثاني البندقية شرقي المتوسط، وكذلك سيطرة سليم الأول على شرق المتوسط وضمه سوريا ومصر والحجاز، ثم تطلعه إلى ضم الشمال الإفريقي [66] .

ورغم أن العثمانيين لم يكونوا غافلين عما حققه حكام المنطقة في مواجهة الغزو الإيبري، غير أن استصراخ أهل الأندلس بالسلطان العثماني بعد سقوط غرناطة سنة 1492م[67] شجع العثمانيين على ضم المنطقة، فكانت البداية بسواحل الجزائر التي دخلها أوائل الأتراك تحت قيادة الإخوة بربروس (عروج وخير الدين وإسحاق) فدخلوا مدينة جيجل سنة 1514م، ثم مدينة الجزائر سنة 1517م، ثم تمكنوا من دخول تلمسان للمرة الأولى سنة 923هـ/1517م، بعدما تمكن عروج من عزل السلطان أبي حمو الثالث الزياني[68].

أما فيما يخص المغرب الأقصى فيورد هايدو أن عروج أرسل رسله إلى السلطان الوطاسي محمد البرتغالي يعرض عليه التحالف ضد عدوهما المشترك من النصارى، مبديا له تقديم كل الدعم والمساندة ضد خصومه السعديين بمراكش، وضد كل المناوئين له بالمغرب الأقصى.[69]

ويبدو من خلال إقدام عروج على هذه الخطوة أنه أراد تأمين الحدود الغربية للجزائر، وقطع الطريق على أي دعم قد يقدمه السلطان الوطاسي للسلطان الزياني المعزول أبو حمو

الثالث الذي لجأ إليه طالبا دعمه، وذلك حتى يتفرغ لمواجهة الإسبان الذي باتوا يهددون وجوده بتلمسان.[70]

وجد السلطان الوطاسي محمد البرتغالي في هذا العرض فرصته لتقوية جانبه، خاصة وأنه كان يبحث عن التحالف مع طرف قوي يعينه على طرد الإسبان والبرتغاليين من سواحل بلاده، وعلى وضع حد للنفوذ السعدي الذي بدأ يتوسع حتى أوشك على الوصول إلى مدينة فاس عاصمة الوطاسيين .[71]

إن العلاقات السياسية بين حكام الجزائر العثمانيين والوطاسيين كانت علاقات ود وتعاون لكنها لم ترتقي إلى مستوى التعاون الفعلي والجاد، والدفاع المشترك لرد هجمات الأعداء والمناوئين في حدود البلدين، الأمر الذي سهل على السعديين الاستيلاء على بسط سيطرتهم على المغرب الأقصى، والقضاء على الدولة الوطاسية، وسهل على آل زيان استرجاع سيطرتهم على تلمسان كلما أخرجهم العثمانيون منها، وسهل على الإسبان كذلك احكام سيطرتهم على العديد من المناطق الساحلية بالجزائر.

5. العلاقات السياسية بين الأتراك العثمانيين حكام الجزائر والسعديين .

بعد بظهور قوة جديدة في المنطقة والمتمثلة في الدولة السعدية التي أصبح لها نفوذ واسع ليس على المغرب الأقصى فحسب بل حتى في الجزائر، وذلك بفضل الدعم الذي كانوا يحظون به من طرف الطرق الصوفية خاصة الطريقتين الشاذلية والجزولية واللتين كان لهما أتباع كثر في المغرب والجزائر، أمام هذا الوضع بات لزاما على حكام الجزائر الأتراك تبني سياسة اللين والمهادنة تجاههم، ومحاولة اقامة علاقات حسنة معهم. للحفاظ على السلم في المنطقة، وتجنب الدخول في مواجهات مع الحكام السعديين، خاصة وأنها على مشارف مواجهات جديدة .[72] ولتحقيق هذه الغاية لجأت هذه الإدارة إلى رجال الدين من متصوفة وعلماء، وشيوخ زوايا لما لهذه الفئة من تأثير ونفوذ في المجتمع المغاربي في عمومه، ولأنها وضعت نفسها في خدمة الأتراك العثمانيين .[73]

ومن ذلك اختيار صالح رايس الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي الخروبي[74]للقيام بمهمة السفارة عنه لدى محمد الشيخ السعدي .و قد تم اختيار الخروبي لعلاقاته الطيبة مع علماء المغرب وخاصة علماء فاس، وكذلك لمعرفته الجيدة بأحوال المغرب، حيث كان قد وفد إلى مدينة فاس منذ ايام السلطان أحمد الوطاسي .[75]

وصل الخروبي إلى مراكش سنة 559هـ/1552م حاملا معه رسالتين[76] من السلطان العثماني إلى محمد الشيخ الذي خصه باستقبال مميز يليق بمقامه[77]،و تشير الرسالة الأولى إلى موقف السلطان العثماني من الاصطدام السعدي العثماني حول مدينة تلمسان، وظروف وأسباب عزل حسن باشا بن خير الدين، كما أكد فيها حرص الدولة العثمانية ورغبتها في توحيد كلمة المسلمين ضد الكفار، ومما جاء فيها: "... هو اطفاء ثائرة الكفرة اللئام، وذلك المرام يكون باتفاق أمراء الإسلام واتحاد أمناء شرع سيد الأنام" . [78] .

ويبدو أن سفارة محمد بن علي الخروبي قد فشلت في تحقيق أهدافها بدليل تجدد المواجهات بين الطرفين- والتي كانت فيها المبادرة لحكام الجزائر كما سنرى لاحقا-، وإذا كانت كذلك بالنسبة للعثمانيين الأتراك فيمكن اعتبارها انتصارا سياسيا لمحمد الشيخ الذي وإن خسر ميدانيا فإنه كسب اعتراف الأتراك بوجود دولته كأمر واقع .

أثار رفض محمد الشيخ للمقترح العثماني بتحديد الحدود حفيظة صالح رايس حاكم الجزائر، وأخذ يتحين الفرصة للانتقام منه، وبعد مرور أقل من ثلاثة أشهر على هذه الحادثة قام مجموعة من قطاع الطرق المغاربة باقتحام اقليم تلمسان.[79] فوجدها صالح رايس الفرصة المناسبة لمهاجمة السعديين، وحرك حملة في أواخر سبتمبر 1553م تتكون من ستة آلاف بندقي، وألف صبايحي، وأربعة آلاف فارس من أهالي الجزائر، ومن زواوة خصوصا[80]. واتجه غربا حتى دخل تلمسان أين قام بعزل السلطان الحسن الزياني ونفيه إلى مدينة الجزائر، وألحق تلمسان بالحكم التركي بصفة نهائية، واضعا بذلك حدا للحكم الزياني على المغرب الأوسط الذي دام أكثر من ثلاثة قرون.[81]

ولما علم محمد الشيخ الذي كان بمراكش لمحاربة ابن أخيه زيدان بن أحمد الأعرج بحملة صالح رايس على فاس خرج إليها مسرعا، ونظم بها جيشه ثم خرج لمواجهه الأتراك على رأس قوة تتشكل من ثلاثين ألف فارس، وعشرة آلاف راجل[82] تحصن بهم بمدينة تازة استعدادا للمعركة، التي انهزم فيها، وانسحب إلى مراكش فاسحا المجال أمام الأتراك المدعومين بأبي حسون[83] وعمر بن يحيى، فدخلوا فاس البالي في 4يناير 1554م، ثم فاس الجديد يوم 6جانفي[84] .

وكان الأتراك قبل التوجه إلى فاس تفاوضوا مع أبي حسون الوطاسي حول شروط التبعية والتعويضات التي يؤديها لهم، ودخلوا فاس دون الوصول إلى اتفاق، فرفض أبو

حسون حينها الرضوخ لإملاءات الأتراك، الذين قاموا بسجنه وتعيين أحد الأشراف الأدارسة حاكما على فاس لعلمهم أن أهلها لن يقبلوهم حكاما عليهم .[85]

وبذلك يكون الأتراك قد انتهجوا في فاس نفس الطريقة التي انتهجوها في تلمسان، بأن عينوا حكاما موالين لهم من بني زيان، يحكمون باسمهم حتى تمكنوا من القضاء على الدولة الزيانية، لكن الأمور في فاس لم تسر كما سارت في تلمسان، وذلك بأن ثار أتباع أبي حسون وأجبروا صالح رايس على إطلاق سراحه.

وبمجرد تحرره من قبضة الأتراك سارع أبو حسون إلى التخلص منهم بعدما سلمهم الأموال التي وعدهم بها، وأضاف إليها مقدارا آخر جمعه من تجار فاس، اضافة إلى بعض الهدايا. وبذلك فشلت أول محاولة تركية على فاس [86]

أما أبو حسون فحصن مدينة فاس وأعاد تنظيم جيشه، وجمع من حوله القبائل استعدادا لهجوم مرتقب من الشريف السعدي،[87] كما تحالف مع محمد الأعرج مقابل اقتسام ممتلكات محمد الشيخ بعد القضاء عليه .و في سبتمبر 1554م حدث ما توقعه أبو حسون، إذ وبعد أن ألقى القبض على أخيه أحمد الأعرج وأبنائه ونقلهم إلى مراكش، جمعته معركة ضد الشريف السعدي بالقرب من منطقة تادلا انتصر فيها هذا الأخير، وتمكن من القضاء على أبي حسون الذي فر اثنان من أبنائه برفقة الشريف الإدريسي إلى مدينة الجزائر [88]. وبمقتل أبي حسون انتهى رسم الدولة الوطاسية، وأصبحت فاس تابعة نهائيا للدولة السعدية منذ هذه السنة - 1554م- [89]،والتي انتقم محمد الشيخ من أهلها شر انتقام، وجرد القبائل العربية التي تحالفت ضده مع بني وطاس والأتراك من خيلها، وفرض عليها الخراج، وجعلها من القبائل الغارمة بعدما غرب رؤساءها وأعيانها إلى مراكش . [90] كما صب جام غضبه على أتباع الطريقة القادرية بفاس لمساندتهم لأعدائه، ولم ينجوا من سخطه حتى علمائها وفقهائها، والذين تخلص من الكثير منهم .[91]

وفي نفس الفترة والظروف كانت نهاية الدولة الزيانية التي قام الأتراك بعزل آخر سلاطينها، السلطان الحسن الزياني، وانتهى به المطاف لاجئا لدى الإسبان في وهران سنة 1554م، أين توفي بمرض الطاعون بعد ثلاث سنوات .[92]

بعد أن وطد الشريف السعدي ملكه بالمغرب الأقصى أصبح يفكر في الوسائل التي يحافظ به على هذا الملك، فهو لن يرتاح له بال والأتراك يجاورونه بحجر بادس،

وبتلمسان التي عززوا فيها تواجدهم، والذي أثار مخاوفه أكثر هو إيواء الأتراك لبقايا الوطاسيين الفرين من موقعة تادلا كأحمد بن أبي حسون، وأبنا مولاي زيان[93].اضافة إلى تقريبهم للبعض الآخر كأبي بكر بن أحمد الوطاسي الذي اتخذه صالح رايس صهرا له، وصار لا يرد له طلبا [94].

في ظل هذه الظروف لم يجد محمد الشيخ أمامه إلا التقرب من الإبيريين لمواجهة الأتراك العدو المشترك بينهم، فأرسل إلى مدريد ولشبونة يطلب المساعدة العسكرية لهذا الغرض[95]، ووافق الإسبان والبرتغاليين على تلبية طلبه بشرط منع تردد الأتراك على جميع موانئه، وتحمل نفقات الحملات العسكرية من بدايتها إلى نهايتها، وأن تكون مدينة الجزائر من نصيب الإسبان إن تم الاستيلاء عليها.[96]

وكرد فعل على التقارب السعدي الإبيري قام الأتراك حكام الجزائر بمحاصرة مدينة وهران على اعتبار أن حاكمها كان أداة اتصال بين فاس ومدريد، لكن الحصار فشل بسبب وصول نجدات سريعة من إسبانيا، المر الذي دفع بالأتراك إلى إرسال وفد إلى فاس اقترح على الشريف السعدي الذي استقبله بفاس الهدنة والسلم، ومساعدة السلطان العثماني في محاربة المسيحيين، والاعتراف بالسيادة العثمانية، وضرب السكة باسم السلطان العثماني .[97]

أغضبت هذه الشروط محمد الشيخ ورد عليه بعد طول انتظار بأن يبلغ سلامه إلى سلطانه أمير القوارب، وحاء في الترجمان المعرب أن محمد الشيخ قال لرسول السلطان العثماني: " قل لسلطان الحواتة - أي صيادي السمك – أن سلطان المغرب لابد أن ينازلك على محمل مصر، ويكون قتاله معك عليه انشاء الله ويأتيك إلى مصر والسلام ." [98]

بعد أن بدد هذا الرد من محمد الشيخ آمال الأتراك في إقامة تحالف معه، جهز صالح رايس حملة عسكرية للهجوم على وهران قبل أن يصلها غريمه السعدي وحلفاؤه، وكان السلطان العثماني قد أمده بأربعين سفينة وستمائة جندي إنكشاري، غير أن الطاعون لم يمهله القيام بهذه الحملة بعد أن قضى عليه بالقرب من وهران سنة 963هـ/1556م،[99] ليواصل خليفته حسن قورصو هذه الحملة التي توقفت - وهي على وشك اسقاط المدينة – بطلب من السلطان العثماني الذي طلب من الأسطول التوجه فورا إلى مضيق البوسفور لمواجهة التهديدات المسيحية هناك .[100]

أغضب هذا القرار المفاجئ الإنكشارية وأثار سخطهم لأنه حرمهم من غنائم كثير كانوا قريبين من الوصول إليها، ودخلت الجزائر في حالة من الاضطراب والفوضى كثرت خلالها الاغتيالات خاصة بعد مقتل حسن قورصو .[101]

في ظل هذه الأوضاع غير المستقرة عين السلطان العثماني في جوان 1557م حسن باشا بن خير الدين من جديد حاكما على الجزائر، وطلب منه إعادة الاستقرار والهدوء إلى البلاد[102]. وتزامن وصول حسن باشا إلى الجزائر مع حملة عسكرية أرسلها الشريف السعدي على تلمسان، والذي استغل فشل حملة الأتراك على وهران، والاضطرابات التي كانت تعيشها الجزائر لشن هذه الحملة، والتي شارك القائد المنصور بن أبي غانم وقبيلة بني راشد، لكن هذه الحملة باءت بالفشل بسبب صمود صفا بك وجنوده الخمسمائة المتحصنين بقلعة المشور، ووصول القوات الضخمة التي قادها حسن باشا لنجدة المدينة سنة 1557م .[103]

بعد هذه الحملة السعدية على تلمسان تأكد الأتراك أنه لا مناص للتخلص من تهديدات محمد الشيخ إلا بمقتله، وهو الأمر الذي تم فعلا بعد أن دس حسن باشا أحد رجاله ويدعى صالح الكاهية، ومائتان من جنوده بالبلاط السعدي نو الذين استغلوا فرصة خروج محمد الشيخ لإخماد ثورة بجبال الأطلس وقاموا بتصفيته هناك في يوم 29 ذي الحجة 964هـ/23 أكتوبر 1557م، وحمل رأسه إلى تلمسان، ومنها إلى مدينة الجزائر، ومنها إلى اسطنبول .[104]

وبمقتل محمد الشيخ ستدخل العلاقات بين الجزائر والمغرب مرحلة أخرى، فقد تخلى خلفاؤه عن المواجهة المباشرة مع حكام الجزائر العثمانيين، وسيعتمدون في هذه المرحلة على التحالفات والمناورات كأسلوب جديد في التعامل معهم .

الهوامش:

1. C.A Julien, histoire de l'afrique du nord(Tunisie- Algerie- Maroc) de la conquète arabe a 1830, T2, 2ème édition, revue et mise a jour Rogude tourneau,payot, paris, 1956, p 250 - 257.

و يرى أحمد توفيق المدني أن الحفصيين انقسموا إلى دولتين، إحداهما بتونس والأخرى ببجاية، أما السواحل فقد استقل كل ميناء بحكومته الخاصة، أما المغرب الأقصى فقد ظهرت به شبه دويلات بكل من مراكش والمغرب الأقصى بعد انفلات الحكم من يد الوطاسيين، كذلك الأمر بالنسبة للزيانيين حتى قامت الفوضى السياسية، ينظر: كتاب حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492- 1792)، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص ص 65- 68.

2. كان منتصف القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي بداية ظهور القوة الاسبانية حيث تمكن الملكان فرديناند وإيزابيلا من استرجاع الأندلس بالقضاء على أهم معاقل المسلمين بغرناطة، وفي نفس السنة تمكن كريستوف كلومب من اكتشاف العالم الجديد، وبذلك أصبحت اسبانيا تشكل مع البرتغال أكبر قوة في العالم، وازدادت قوة اسبانيا بعد أن توج الملك شرلكان ملكا على اسبانيا سنة 923هـ/ 1517م، واستمرت القوة الاسبانية تسيطر على العالم حتى وفاة الملك فليب الثاني (934- 1007هـ/ 1527- 1598م)، ينظر: أحمد جامع، الرأسمالية الناشئة، دار المعارف، القاهرة، 1968، ص29.

3. F.Braudel, la méditerranée et le monde méditerranien a l'époque de philippe2, T2, 3ème édition, librairie Armanb Colin, paris, 1976, p20.

4. يذكر مارمول كاربخال أنه خلال هذه الفترة تداول على حكم الدولة الزيانية خمسة وثلاثون أميرا، أولهم يغمراسن بن زيان وآخرهم الحسن بن عبد الله، شهدت خلالها هذه الدولة مراحل من الضعف والانحصار بسبب الأطماع الحفصية شرقا والأطماع المرينية غربا، ينظر: كتاب افريقيا، ج2، تر. محمد حجي،و أحمد توفيق المدني وآخرون، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1988- 1989، ص ص 303- 331.

5. بعد احتلال وهران والتنكيل بسكانها سارعت باقي المدن إلى تقديم الولاء للاسبان خوفا من مصير مدينة وهران، فسارعت مدن دلس ومستغانم وشرشال إلى دفع الضرائب للاسبان بدلا من حاكم تلمسان، كما تحالفت تنس معهم ضد آل بربروس، ووضع سليم التومي حاكم مدينة الجزائر نفسه ومدينته تحت تصرف الاسبان سنة 916هـ/1510م حيث أقام الكونت نافارو بنيون الجزائر سنة 917ه/ 1511م، ينظر: وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتعليق عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والاشهار، الجزائر، 1980، ص27.

6. صباح بعارسية، حركة التصوف في الجزائر خلال القرن 10هـ/16م، مذكرة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ/ جامعة الجزائر، 2005- 2006، ص13.

7. مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزء 2، تقديم وتصحيح: محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 463.

8. ممثلة في الأخوين عروج وخير الدين الذين كانا يجوبان بأسطولهما الحوض الغربي للمتوسط والذين تمكنا من تحقيق عدة انتصارات على القوات الصليبية وهو ما أثار إعجاب المسلمين بالمنطقة، ينظر، محمد علي الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، الطبعة 1، دار التوزيع والنشر الاسلامية، القاهرة، 2001، ص 208 .

9. عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية، ترجمة: محمد علي عامر، الطبعة 1، دار النهضة العربية، بيروت، 1989، ص 80 وما بعدها.

10. أصبحت اسبانيا تمثل قوة بعد الزواج الشهيد بين ملكي أرغونه وقشتاله إيزابيلا وفرديناند، وازدادت قوتها بعد تولي الملك شارل الخامس (شارلكان) العرش (906- 965هـ/1500- 1558م)، وعرفت أوج قوتها على عهد ابنه الملك فيليب الثاني (934- 1007هـ/ 1527- 1598م) ينظر: أحمد جامع، المرجع السابق، ص29 ؛ Dictionnaire le petit Larousse, imprimerie Herissey Evreus, France Mai 1980, p p 1305- 1325.

11. كانت دويلات المغرب الاسلامي تعيش حالة من الصراع فيما بينها، وداخل كل واحدة منها، فالمرينيون كانوا في صراع مستمر مع الوطاسيين والسعديين، والزيانيون كانوا في صراع مستمر حول العرش، ونفس الشيء ينطبق على الحفصيين، ينظر: هوارية بكاي، العلاقات الزيانية المرينية سياسيا وثقافيا،مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2008/2007، ص39 ؛عمار بن خروف، المرجع السابق،الجزء 1، ص 15- 16.

12. مارمول كربخال، المصدر السابق، الجزء 2، ص361.

13. حسن الوزان، المصدر السابق، الجزء 2، ص 342 ؛مارمول كربخال، المصدر السابق، الجزء 2، ص364.

14. مارمول كربخال، المصدر السابق، ج2، ص ص 415، 416 ؛حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص360.

15. كان ذلك بعد أن احتل الاسبان معظم سواحل المغرب الأوسط كوهران والمرسى الكبير وتنس، وخضوع المدن الأخرى للاسبان وقبول شروطهم المذلة، ينظر، عمار بن خروف، المرجع السابق،الجزء 1، ص17 ؛ أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 109.

16. الوثائق المصورة من أرشيف سيما نكلس العام من قبل بريموداي Elie de la primodaie والمنشورة تحت عنوان: Documents uni dites sur l'histoire de l'occupation espagnol en Afrique de (1506- 1774), Alger 1875, p p 57- 60.

17. هم الإخوة عروج وخير الدين وإسحاق وإلياس أبناء بربروس من جزيرة بيتلين الواقعة قرب السواحل الغربية لآسيا الصغرى، كان والدهم بربروس جنديا انكشاريا في الجيش العثماني، ينظر: صالح عباد، المرجع السابق، ص43.

18. كان الإخوة بربروس تحت قيادة أخيهم الأكبر خير الدين لصالح أحد الأمراء المصريين، وفي سنة 1504م حصلوا على حق الرسو في الموانئ الحفصية والتمون منها، كما اتخذوها كقاعدة انطلاق لحملاتهم البحرية ضد القوات المسيحية في الحوض الغربي للمتوسط ومساعدة المسلمين الفارين من الاضطهاد بالأندلس، وقد تمكن الإخوة بربروس تحت قيادة عروج بفضل الغنائم التي تحصلوا عليها من تشكيل أسطول قوي بلغ سنة 1509 ثماني قطع، ينظر: جون.ب.وولف، الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 28 ؛

Fray Diègo de haedo, histoire des rois d'Alger, traduit et annotée par H.D.de Gramout, revue Africaine, n°24 (1880) , pp. 42-45.

؛صالح عباد، المرجع السابق، ص43، وأيضا عمار بن خروف، المرجع السابق، ص20.

19. دوحة الناشر، ص 126.

20. محمد الصغير الإخواني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، أنجي 1888، ص 17.

21. عن هذه المرحلة ينظر: مؤلف مجهول، غزوات عروج وخير الدين، نشر نور الدين عبد القادر، الجزائر 1934، ص26.؛Haedo, opcit, p p 10- 12 ؛وصف افريقيا، ج2، ص360؛ عمار بن خروف، المرجع السابق،الجزء 1، ص 20، 21 ؛ صالح عباد، المرجع السابق، ص46؛ Grammont, quel est le lieu de la mort d'Aroudj Brbarousse, revue Africaine, n°22 (1878), p391.

22. عن هذه المرحلة ينظر: مؤلف مجهول، غزوات عروج وخير الدين، ص 35، 36 ؛ عمار بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص23؛ صالح عباد، المرجع السابق، ص 49؛ Haedo,op.cit ,p p 35- 37.

23. عن هذه المرحلة ينظر:

Primaudaie, op.cit, pp 47- 50؛ Ruff (p), la domination espagnol à Oran sous le gouvernement du conte d'alcaudète (1534- 1558), paris 1900, p35 et page suivante؛ Haedo, op.cit, p p 63, 64 ; Grammout (H.de), Histoire de roi d'Alger sous la domination Turque 1515- 1830, 1vol, paris 1887, p58؛ Sandoval (H.de), les inscriptions d'Oran et de mars-elkabir, revue Africaine, n°15, Alger 1871, p280؛; Devoulse (A), Alger étude archéologique et topographique sur cette ville, revue Africaine n°20, Alger 1876, p292.

24. عن هذه المرحلة ينظر: السلاوي الناصري، المصدر السابق، ج4، ص163؛ Haedo, op.cit, p74.؛ مارمول كربخال، المصدر السابق، ج2، ص ص 348- 351 ؛ Ruff, opcit, p116؛ عمار بن خروف، المرجع السابق، ص34

25. انتهز ملك البرتغال ألفونسو الخامس فرصة محمد الشيخ لحصار فاس فهاجم مدينة أصيلا بأسطول ضخم مكون من 477 سفينة بها ثلاثون ألف مقاتل وذلك في أوت 1471م، وبعد مقاومة عنيفة تمكن من احتلال المدينة وأسر عدد كبير من أهلها من بينهم زوجات وابن محمد الشيخ الذين اعتصموا بحصن المدينة. ينظر: عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق، ج 6، ص 23 ؛أوغست كور، المرجع السابق، ص 46، 47.

26. اضطر محمد الشيخ إلى توقيع هذه الهدنة التي تنص على أن تمتد عشرين سنة وأن يحتل البرتغاليون مدينة العرائش إلى جانب أصيلا، وأن يطلق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته. ينظر:عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق، ج 6، ص 23. ويذكر السلاوي أن محمد الشيخ استرجع زوجته وابنتيه ولم يفلح في تحرير ابنه محمد الذي احتفظ به رهينة بالبرتغال. ينظر السلاوي، المصدر السابق، ج 2، ص 158. ويضيف الحسن الوزان أخت محمد الشيخ إلى لائحة الأسيرات اللواتي حررهن ملك البرتغال. وصف إفريقيا، ج 2، ص 239.

27. السلاوي، المصدر السابق، ج 2، ص 158، 159 ؛إبراهيم حركات، المرجع السابق، مج 2، ص 196 ؛عبد الفتاح الغنيمي، المرجع السابق، ج 6، ص 23.

28. عبد الفتاح الغنيمي، المرجع السابق، ج 6، ص 23.

29. الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 243.

30. عبد الهادي التازي، المرجع السابق، مج 7، ص 234 ؛ أوغست كور، المرجع السابق، ص 53.

31. حسب رواية المقري نقلا عن الناصري فالسعديون من قبيلة بني سعد بن بكر بن هوازن قوم حليمة السعدية حاضنة ومرضعة الرسول صلى الله عليه وسلم، أي من عند قريش وهو قول تراجع عنه المقري نفسه، وصرح بشرفهم في كتابه" نفح الطيب"[1]. أما ما يجمع عليه معظم المؤرخين الموثوق بهم وخاصة مؤرخهم القشتالي صاحب كتاب" مناهل الصفا في تاريخ الأئمة السعديين الشرفا" على أن نسبهم شريف ويرجعون إلى الشجرة النبوية الشريفة منحدرين من محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعا. ويذكر السلاوي:« أنهم بنو عمومة السادة العلويين أشراف سجلماسة،يجتمعون معهم في جد واحد وهو محمد بن القاسم المذكور في النسب». السلاوي، الاستقصا، ج 5، ص 4، 5.

32. استولى الدون مانويل ملك البرتغال على البريجة ثم على آسفي(وهي ميناء مدينة مراكش) سنة 910 ه/ 1504 م وبعد ذلك استولى على آزمور ثم حصن الجديدة سنة 914 ه/ 1508 م وسموه فونتي على ساحل السوس، وأقاموا هناك متجرا أقبل عليه الكثيرون من العوام مما أثار مخاوف السوسيين ودفعهم إلى الالتفاف حول شيوخهم من الصوفية. ينظر في ذلك: حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، الجزء 3، ص 106-107؛ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، مج 2، ص 254.

33. Terrasse(H) : histoire du Maroc, t 2, Paris, 1950, p 161.

34. يذكر أوغست كور بأنه بعد الانتصار الذي أحرزه القائم ظهر الانقسام بين أنصاره ودب الحسد في نفوس البعض منهم، ففضل الرجوع إلى بلده بدرعة التي ظل بها حوالي سنتين، وبعد ما زال ما أغضبه عاد إلى تيدسي سنة 918 ه/ 1512 م حيث طلب من أهلها مبايعة ابنه أحمد الأعرج بالإمارة فاستجابوا لطلبه. ينظر في ذلك: أوغست كور، المرجع السابق، ص 76 ؛ الأفراني، نزهة الحادي، ص 16.

35. تذكر بعض الروايات بأن القائم خشي أن يتخذ الوطاسيون موقفا معاديا تجاهه، فبعث بابنيه إلى السلطان محمد البرتغالي الوطاسي قبل أن يشتهر أمره بسوس، حيث ساهما في الحرب ضد البرتغال بأصيلا والعرائش، واستأذناه في تجنيد المتطوعين لقتال البرتغال بالجنوب، وراسلا القبائل في هذا الشأن، وكان أبو العباس أحمد قد حصل من السلطان على كرسي علم بالقرويين، أما الأصغر فقد صار مؤدبا لأبنائه. ينظر في ذلك: أوغست كور، المرجع السابق، ص 76 ؛السلاوي، المصدر السابق، ج 5، ص 8 ؛ المراكشي، الإعلام، ج 4، ص 134، 135.

36. إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، مج 2، ص 275 ؛ كتاب السياسة والمجتمع في العصر السعدي، ص 47.

37. الأفراني، نزهة الحادي، ص 36.

38. يقول الفشتالي في هذا الصدد:" حتى إذا أتيحت له(يقصد محمد الشيخ) الكرة على أبي حسون فقتله واستأصل جموع بني مرين... وفتح فاس فتحا ثانيا واستولى على كرسيها". ينظر: مناهل الصفا، ص 109.

39. أصبح المغرب الأقصى مطلع القرن 10 هـ / 16 م مجزءا إلى وحدات سياسية صغيرة، كان أغلبها تحت سيطرة زعامات دينية أو قبلية، أو مجالس محلية مستقلة عن الوطاسيين تماما، أو تابعة لهم اسميا فقط منها بالشمال والجنوب الشرقي: إمارة بني راشد بشفشاون، وآل المنظري بتطوان، وآل عبد الحميد بالقصر الكبير، وآل رحو بدبدو، وأما بالوسط والوسط الغربي فنجد إمارة ابن حدو وأخيه أبي فارس بالجبل الأخضر، وإمارة ابن عامر بتنسيتة، وإمارة آل فرحون بآسفي، وإمارات مدن تافزة، والجمعة، وآزمور . أما بالجنوب والغرب فظهرت إمارات آشنتوف بمراكش، ومولاي ادريس الهنتاني بالأطلس الكبير، وإمارات مدن تارودانت، وتدسي، وتفتنت، ونفوذ الشيخ يحيى في ثيوط، ونفوذ المرابط ابن المبارك في آقة، وعرب أولاد زرقان في تافيلالت، وهي كلها إمارات مستقلة عن نفوذ الوطاسيين في فاس . مارمول كربخال، المصدر السابق، ج2، في مواقع متعددة ؛ عمار بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 46،47.

40. تقاسم النفوذ على الجزائر كل من الدولتين الزيانية بالجزء الغربي، والحفصية بالجزء الشرقي، وقد نجم عن ضعفهما وتردي أوضاعهما اضطراب الجزائر وتجزئتها إلى عدة وحدات سياسية صغير ومتنافرة أغلبه في المدن الساحلية كوهران وتنس وشرشال وبجاية ومدينة الجزائر وغيرها .و التي كانت إما تحت حكم أمير زياني منشق كأبي يحيى بن محمد الزياني في تنس، أو أمير حفصي منشق

كعبد الرحمن الحفصي في بجاية أو تحت حكم مجلس من اختيار سكان المدينة كما في وهران، أو شيخ قبيلة كسالم التومي شيخ قبيلة الثعالبة بمدينة الجزائر، أما المناطق الجبلية فكانت تحت حكم إمارات مستقلة كإمارتي بني عباس وكوكو في جبال القبائل جنوب بجاية .أما الجنوب فاستقلت به آسر حاكمة كأسرة بني جلاب =بتوقرت وأسرة علاهم بورقلة، واستقلت بعض القبائل بالمناطق السهلية كقبيلة بني عامر بالغرب، والذواودة بالشرق. عن ذلك ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص ؛ مارمول كربخال، المصدر السابق، ج2، في مواقع متعددة.

41. أوغست كور، المرجع السابق، ص ص 72-95 ؛ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج2، ص 199 .

42. أوغست كور، المرجع السابق، ص ص 96-113 ؛ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج2، ص 201 .

43. لما استكمل الإسبان وحدتهم سنة 1469م، دخلوا في منافسة قوية مع البرتغاليين، فاحتلوا منطقة عند وادي نون على المحيط الأطلسي وبنوا عليها حصن سانتا كروزSanta Cruz) (وحصن ماربيكينا سنة 1478م، ثم عزموا على التوسع في باقي المناطق، فدخلوا في صراع مع البرتغاليين لم ينتهي إلا بعد توقيع العديد من اتفاقيات الصلح والتفاهم والتي من أهمها: اتفاقية طليطلة سنة 1480م، واتفاقية طورديسلاس سنة 1494م، واتفاقية سينترا سنة 1509م والتي حددت مجال توسع كل طرف، فكان مجال الإسبان من حجر بادس إلى ما يليها شرقا، أما ما يلي الحجر غربا فكان مجالا للبرتغاليين، لذالك كان تركز الاحتلال الإسباني على سواحل المتوسط، والبرتغاليين على سواحل مضيق جبل طارق والسواحل الأطلسية .عن الغزو الإسباني البرتغالي لسواحل المغرب ينظر: مارمول كربخال، المصدر السابق، ج2 ؛السلاوي، الإستقصا، ج4، في مواقع متعددة ؛عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص ص 5-12 ؛عمار بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 47،48 .

44. كانوا قد احتلوا مدن مليلية سنة 1497م، وغساسة سنة 1504م، وحجر بادس سنة 1508م، وكان البرتغاليون قد احتلوا مدن ماسا سنة 1497م، ومازكان سنة 1502م، وموكادور سنة 1506م، وآسفي سنة 1508م، وآزمور سنة 1513م، وتطلعوا سنة 1515م إلى احتلال مدينة مراكش لكن حماتهم باءت بالفشل، وهو نفس مصير حملتهم، وفي نفس السنة على موقع المعمورة المنفذ البحري الوحيد لمدينة فاس . ينظر في ذلك: مارمول كربخال، المصدر السابق، ج2 ؛ السلاوي، الإستقصا، ج4، في مواقع متعددة ؛عمار بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 47،48 ؛عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص ص 5-12 .

45. مؤلف مجهول، غزواة عروج وخير الدين، ص 32 .

46. قام السلطان الوطاسي محمد البرتغالي سنة 1517م بحملة ضد البرتغاليين وعملائهم من عرب عبدة بإقليم دكالة. ينظر: عمار بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 94، هامش 17 .

47. Haédo (F.D), histoire des Rois d'Alger ,p 30 .

48. مؤلف مجهول، غزواة عروج وخير الدين، ص 33، ويذكر هايدو أن شارلكان قد قرر مساعدة أبي حمو الثالث بعشرة آلاف مقاتل لمحاربة عروج، واسترجاع ملكه . ينظر: Haédo, op.cit ,p 31,32

49. محمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور، ص ص 228-233 ؛ Haedo, op.cit ,p 32,33

50. Haédo, op.cit ,p 32 .

51. Haédo, op.cit ,p 45 .

52. Ibid p 46 .

53. محمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور، ص 232، 233 ؛

Elie de la Primodaie ,Documents inédites su l'histoire de l'occupation Espagnole en Afrique(1506-1774) ,Alger ,1875 ,p 73 .

54. محمد الكراسي، عروسة المسائل، ص 39 ؛محمد المنوني، ملامح من تطور المغرب العربي، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، 1976، ص 839 ؛عمار بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 78 .

55. عمار بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 78 .

56. منذ مطلع القرن 10هـ/16م انشغل الوطاسيون بصراعاتهم مع المسيحيين والسعديين، وانشغل بنو زيان بصراعاتهم الداخلية من جهة، وصرعاتهم مع الإسبان والأتراك العثمانيين من جهة أخرى الأمر الذي شغلهم عن الاهتمام بعلاقاتهما، وعن الاهتمام بما كان يجري في المنطقة حولهما . ينظر: مؤلف مجهول، تاريخ الدولة السعدية، ص 1، 2 ؛الزهراء النظام، المرجع السابق، ص 191 .

57. لم يقم الزيانيون والوطاسيون بأي مبادرة لتنسيق جهودهما في مجال الجهاد ضد المسيحيين، ولم بدعم بعضهما البعض ضد العثمانيين الأتراك في محاولاتهم لضم تلمسان والسعديين في محاولاتهم للسيطرة على المغرب الأقصى، واكتفى كل طرف بمراقبة مايجري داخل حدود الطرف الآخر من أحداث دون تدخل أحدهما في شؤون الآخر . الزهراء النظام، المرجع السابق، ص 191 .

58. عمار بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 78، 79 .

59. المرجع نفسه، ص 79 .

60. أوغست كور، المرجع السابق، ص 124 ؛الزهراء النظام، المرجع السابق، ص 198، 199 ؛ عمار بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 79 .

61. كان نفوذ الطريقة الشاذلية يمتد على معظم جهات الغرب الجزائري، ويشمل على الخصوص مدينة تلمسان وضواحيها، وضواحي وهران، وهي المناطق التي تضررت كثيرا من الاحتلال الإسباني بسبب السياسة الضريبية التي فرضها على أهاليها، والتي في أغلبها كانت تتم عبر اتفاقيات موقعة مع أمراء بني زيان المتنازعين حول السلطة، كما تضررت هذه المناطق من سلوكات الإنكشارية، وسياسة الحكام الأتراك منذ وصولهم إلى المنطقة . ينظر:

Ruff Paul ,La domination Espagnole à Oran sous le gouvernement du comte d'Alcaudete =(1534 – 1558) ,Paris ,1900 ,p 128 ;Pière Boyer ,Contribution à l'étude de la =politique religieuse des Turcs dans la régence d'Alger (16 – 19 s) , Revue de l'Occident musulmane et de la Méditerrané ,n°1 ,année 1966 , Aix En Provence ,p 23.

62. حاولت بعض القبائل وكبار المتصوفة اقامة سلطة محلية مستقلة عن الأتراك بتلمسان وبعد فشلها في مسعاها لجأت إلى محمد الشيخ السعدي آملين منه اخراج الأتراك من تلمسان وتخليصهم من حاكمها الزياني الموالي لهم، وتزعمت هذه الدعوة قبائل من نواحي تلمسان كانت تتزعمها الطريقة الشاذلية . ينظر: الزهراء النظام، المرجع السابق، ص 198 ؛

63. Cour (A) ,l'Etablissement , p. 83 .

64. عمار بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 79 .

65. اهتم السعديون منذ ظهورهم بإصلاح الأوضاع في الداخل، وبالجهاد ضد المسيحيين، وبذلك لم يتطلعوا إلى الجزائر فإلى غاية سنة 1547م لم تسجل أي محاولة من جانبهم في هذا الشأن، وكذلك الأمر بالنسبة للعثمانيين الأتراك، وقد انحصرت العلاقة بينهما في التعاون والتنسيق في مجال الجهاد ضد النصارى . ينظر: Ricard (R) et autre , Sources inédite de l'histoire du Maroc ,P 366, 357, 335, 128 ؛ابن حادة عبد الرحيم، المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، نوفمبر 1998، ص 64 .

66. محمد المنوني، علاقات المغرب بالمشرق في العصر المريني، مجلة دعوة الحق، العدد 6-7، المغرب، 1965، ص 99 ؛عمار بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 81 .

67. عن انجازات وفتوحات كل من محمد الفاتح وبايزيد الأول وسليم الثاني، ينظر: ليلى الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دمشق، 1981، ص 65، ص ص 73-76، وص 98 .

68. المرجع نفسه، ص 74 .

69. بعد دخول عروج إلى تلمسان استقبله أهلها بحفاوة، بينما التجأ السلطان أبو حمو الثالث إلى وهران أين احتمى بحاكمها وطلب منه المساعدة والمدد لاستعادة ملكه . وقد اجلس عروج على عرش تلمسان السلطان أبا زيان الثالث المسعود بدل عمه الذي اغتصب منه الملك . ينظر: محمد عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور، ص 299 .

70. Haédo, op.cit , pp. 30 .

71. عمار بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 82 .

72. عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 30، 31 .

73. من هذه المواجهات تحرك الصفويين بإيران من أجل استرجاع المناطق التي ضمها العثمانيون إلى امبراطوريتهم، وصراعهم مع فرسان مالطا في طرابلس بعد سيطرة العثمانيين عليها سنة 1551م، اضافة إلى المشروع العسكري العثماني الفرنسي لمهاجمة السواحل الإيبيرية .ينظر: la méditerranée, ,T2 ,p p 238-242 . Braudel

74. حول دور العلماء ورجال الزوايا في دعم الاستقرار التركي بالمغرب الأوسط ينظر:

Boyer (P) ,contribution ,p 16 et suiv

75. راجع ترجمة له في الفصل الثاني من الباب الثالث الخاص بالعلاقات الثقافية بين الإقليمين .

76. محمد المهدي الفاسي، ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع، المطبعة الحجرية، فاس، 1896،ص 65 .

77. الرسالتان مؤرختان في أواخر محرم 959هـ/يناير 1552م، وتوجدان بقصر طوب قابي، مكتبة قوغوشلر باسطنبول، مهمة دفتري (وثائق عثمانية في الأرشيف الوطني بالجزائر مصورة من أرشيف رئاسة الوزراء التركية) دفتر المهمة رقم 888، ص 9، وقد سبق نشرها عند خليل الساحلي، المرجع السابق، ص ص 127-133 .

78. ابن عسكر، دوحة الناشر، ص 126 ؛السلاوي الاستقصا، ج5، ص 27 ؛ابراهيم حركات، السياسة والمجتمع، ص 56 وص 144 .

79. خليل الساحلي، المرجع السابق، ص ص 127-133 .

80. Haedo ,op.cit ,p 274,275 . ،

لقد أورد هذا الخبر ثم شكك فيه حين قال " ...و هناك من يقول إن هذا الهجوم لم يحدث أصلا ... "، لكنه لم يورد من هؤلاء الذين نفوا الخبر .

81. De Torres ,op.cit ,p 178 ; De Grammont (H.D) ,op.cit ,p 80 .

82. أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 329 ؛ De Torres ,op.cit ,p 178.

83. مارمول كربخال، المصدر السابق، ج1، ص 483 .

84. لم يكن هدف صالح رايس مساعدة أبي حسون الوطاسي على اخضاع فاس واسترجاع عاصمة الوطاسيين بقدر ما كان الانتقام لمكانة ولهيبة السلطان العثماني من السلطان السعدي محمد الشيخ الذي عصى أوامره، ولم يستجب لمطالبه، لذلك كان صالح رايس يرى في الانتصار على السعديين في فاس تأكيدا لسلطة الأتراك، وضمانا لنفوذهم في المغرب.

De Torres ,op.cit ,p 192 ;Cour (A) ,la dynastie Marocaine ,p 217

85. (S.I.H.M) ,Esp ,T2 ,p p 128,129 .

86. محمد القبلي، مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور السعديين، مجلة كلية العلوم الإنسانية بجامعة الرباط، العدد 3-4، سنة 1978، ص 58 .

87. مؤلف مجهول، تاريخ الدولة السعدية، ص 92 ؛De Torres ,op.cit ,p 209 .

88. Le Tourneau (R) ,les début de la dynastie ,p 60

89. Cour (A) ,la dynastie Marocaine ,p 118 ; Le Tourneau (R) ,les début de la dynastie ,p 60 .

90. Cour (A) ,la dynastie Marocaine ,p 226 ; De Torres ,op.cit ,p 114 .

91. الفشتالي، المصدر السابق، ص 109 ؛Cour (A) ,la dynastie Marocaine ,p 207 .

92. ابن عسكر، دوحة الناشر، ص 55، 55، 82 ؛اليفريني، نزهة الحادي، ص 75-77 ؛ابن القاضي، جذوة الاقتباس،ص 454

93. أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 33، 34 ؛De la Veronne ,relation ,p 310 Mercier (E) ,op.cit ,T3 ,p 88 .

94. (S.I.H.M) ,Esp ,T2 ,p p 245-248 .

95. Ibid ,p 223 et 248 .

96. مؤلف مجهول، تاريخ الدولة السعدية، ص ص 26-28 .

97. (S.I.H.M) ,Esp ,T2 ,p ,181. ؛عبد الكريم كريم، ص 83

98. اليفريني، المصدر السابق، ص 83 .

99. Haedo ,op.cit ,p 281,282 .

100. Berthier (P) , op.cit ,110 ; Haedo ,op.cit ,p 283,284 .

101. Mercier (E) ,histoire de l'Afrique ,T3 ,p 82 ;Garrot (H) ,op.cit ,p 425،

ولعل هذه العمليات كانت اشارة عن بداية تحدي اليولداش لسلطة الباب العالي، ويشكل هذا منعرجا جديدا في سياسة أتراك الجزائر، وفي موقف الجيش من السلطة العثمانية، وسيتمخض عنه استقلال السلطة العسكرية في نهاية القرن 16م .

102. Haedo ,op.cit ,p 325 ; Mercier (E) ,histoire de l'Afrique ,T3 ,p 84 .

103. اليفريني، نزهة الحادي، ص 82 ؛ Mercier (E) ,histoire de l'Afrique ,T3 ,p 82 .

104. اليفريني، المصدر السابق، ص 95 ؛. Cour (A) ,l'Etablissement ,p 128

105. Berthier (P) ,op.cit ,110 .

إسهامات علماء تلمسان المنطقية
في العصر الوسيط

د. محمد عجوط
جامعة حسيبة بن بوعلي / الشلف

مقدمة

استقرأ الباحثون جوانبَ من الموروث الثقافي لمدينة تلمسان في العصر الوسيط؛ فكتبوا عن شعرائها وأدبائها وفقهاءها، وأحصوا المدارسَ التعليمية بها، واستقصوا أمرَ الكتابات الأثرية ومآذن ومساجد الزيانيين والمرينيين فيها، وخصّوا بالبحثِ كرامات الصوفية وبيوتَ العلماء الذين ازدانت بهم في أزهى عصورها. ولكن الملاحظ أنّه ولا واحد تتبّع مساهمةَ علمائها في المنطق، وحالُ تلمسان في ذلك حال جميع الحواضر العلمية التي عرفتها الجزائرُ كبجاية وقسنطينة ومازونة ووهران وغيرها.

وإذا كان مؤرّخو المنطق من الباحثين الغربيين قد تجاهلوا مساهمات غير الأوروبيين في تطوّر ذلك العلم، فلم تتم الإشارةُ من طرف البعض[1] إلاّ إلى أبوليس الماضوري من المنطقيين الجزائريين القدامى. وإذا كانت الأنظارُ، من جهة ثانية، قد اتّجهت في القرنين الماضيين، مع نشأة الجامعات في العالم العربي وجهود بعض المستشرقين والباحثين العرب، إلى الكشف عن ذخائر التراث ومنها المنطقي في المشرق العربي وبلاد فارس وغيرهما؛ فإنّ حظ التراث المنطقي في الجزائر عموما، وفي بعض الحواضر العلمية المشهورة تاريخيا مثل تلمسان في العصر الوسيط على الخصوص، لم يتعدّ مجرد الإشارة إلى البعض القليل منه، إذْ باستثناء الدكتور أبو القاسم سعد الله (1930 – 2013م) الذي خصّ المنطق في الجزائر

إبان العهد العثماني بمبحث مستقل[2]، وكذلك نيكولا ريتشر Rescher.N (1928- ..؟) الذي لم يذكر في السجّل الذي وضعه لإحصاء المساهمين في تطوير المنطق، ممّن كتب في العربية أو ترجم إليها نصّا منطقيا، سوى أربعة أسماء جزائرية: عبد الرحمن الأخضري، وثلاثة منهم تلمسانيون؛ محمد بن أحمد التلمساني، ومحمد بن مرزوق الحفيد العجيسي التلمساني، ومحمد بن يوسف التلمساني[3]، نجد أغلبَ الدراسات تحصر مساهمة المغرب العربي عموما والجزائر على الخصوص في علوم كالحساب والفلك والطب واللغة فضلا عن العلوم النقلية، دون أدنى إشارة إلى المنطق[4]، وذلك رغم أنّ الأخير آلةُ العلوم تلك وغيرها، والمدخلُ الذي لا غنية عنه إليها. ومنها ما اكتفى بالتعريف بما تمّ طبعه وحظي بالشرح والتعليق والتهميش كسلّم الأخضري ومختصر السنوسي دون غيرهما، والحقّ أنّ البعض من السواد الأعظم من المثقفين اليوم لا يعرف سوى السلّم المنورق للأول دون مختصر في علم المنطق للثاني، أمّا العامة من غير المتعلّمين فقد جرت عبارة «من تمنطق تزندق» بينهم مجرى المثل كما ذكر محمد بن أبي شنب[5]. والحاصلُ من ذلك كلّه أنّ علماء الجزائر، إلاّ النزر القليل، لم يخوضوا في المنطق دراسة وتأليفا على غرار اشتغالهم بالفقه والتصوف والحساب وغير ذلك من العلوم.

أولا: مكانة المنطق واهتمام علماء تلمسان به:

هذا، والواقع أنّه لم تخلُ فترة زمنية من الاهتمام بالمنطق في الجزائر عموما، مع كفاءة واقتدار المشتغلين به؛ فلقد أبدع أبوليوس(Apulée de Madaure) (120- 180م) مُربع التقابل المنطقي، وكان من الذين قدّموا بالفعل شيئا جديدا في المنطق[6]، ونظّم عبد الرحمن الأخضري(918- 983 هـ/1512-1575م) السلم المرنورق، الذي تبارى العلماء من الجزائر والمغرب والمشرق والهند في شرحه كالملوي والصبّان وإبراهيم الباجوري ومحمد البناني، وشرَحَه وهو ابن إحدى وعشرين سنة فقط كما يشير في خاتمته. وذكر الصبّان محمد بن علي (القرن 13 هجري) أنّ محمد بن مرزوق التلمساني الحفيد (766-842هـ) واختصر كتاب الجمل في المنطق للخونجي، بعد ان شرحه، في أرجوزة في صباه بحيث لم يتجاوز سنُّه ست سنوات[7]. كما لم تخل مجالسُ القوم العلمية من مناقشة مسائل ذات صبغة منطقية أساسا، من ذلك ما يرويه شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (986- 1041 هـ/

1578- 1631م) في أزهار الرياض من خبر الأستاذ أبي إسحاق إبراهيم بن حكم الكناني السلوي المتوفى يتلمسان سنة 737 للهجرة، والذي ننقله لأهميته ودلالته كلّه:

"ذكر أبو زيد بن الإمام يوما في مجلسه، أنّه سُئل بالمشرق عن هاتين الشرطيتين (ولو علم الله فيهم خيرا، لأسمعهم، إلى قوله: معرضون)؛ فإنهما يستلزمان بحكم الإنتاج، لو علم الله فيهم خيرا لتولوا، وهو محال. ثم أراد أنْ يرى ما عند الحاضرين فقال ابن حكم: قال الخونجي: والإهمال بإطلاق لفظ لو وأن في المتصلة، فهاتان القضيتان على هذا مهملتان، والمهملة في قوة الجزئية، ولا قياس على جزئيتين. فلما اجتمعت ببجاية بأبي علي حسين بن حسين وأخبرته بهذا وبما أجاب به الزمخشري وغيره مما يرجع إلى انتفاء تكرر الوسط، فقال لي: الجوابان في المعنى سواء، لأن القياس على الجزئيتين إنما امتنع لانتفاء أمر تكرر الوسط. فأخبرت بذلك شيخنا الآبلي فقال: إنما يقوم القياس على الوسط، ثم يشترط فيه بعد ذلك أن لا يكون من جزئيتين ولا سالبتين، إلى سائر ما يشترطُ. فقلت: ما المانع من كون هذه الشروط تفصيلا لمجمل ما يُبنى عليه من الوسط وغيره، وإلاّ فلا مانع غير ما قاله ابن حسين. قال الآبلي: وقد أجبت بجواب السلوي، ثمّ رجعت إلى ما قاله الناس لوجوب كون مهملات القرآن كلية، لأنّ الشرطية لا تنتج جزئية، فقلت: هذا فيما يُساق منها للحجة مثل (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)، أمّا في مثل هذا فلا" [(8)].

لاجرم، أن يكشف هذا المقتبس، فضلا عن اهتمام الجزائريين بالمنطق ومذاكرتهم لمسائله في مجالسهم العلمية، عن الاطلاع الواسع على ما كان في المشرق، وعن التواصل الثقافي بين المدن الجزائرية، فما كان يُناقشُ من مسائل علمية منطقية في تلمسان يُبحثُ في بجاية، كما ينمُّ عن توظيف المنطق في مسائل اللغة والتفسير، إذ هو الميزانُ الذي لا يُوثق بعلوم من لا يمتلكه كما قرر أبو حامد الغزالي، هذا الأخير الذي فصل المنطق عن الفلسفة، ونظر إليه كعلم صوري لا يتعلّق مثله مثل الرياضيات بالدين نفيا أو إثباتا، والذي يبدو أنّ علماء الجزائر حذو حذوه في الموقف من المنطق. وإذا كنّا قد أشرنا إلى الاهتمام بالمنطق سلفا؛ فإنّه يتعيّن التفصيلُ في الموقف من المنطق، وكذا مسالك هذا العلم إلى تلمسان على الخصوص.

ثانيا: الموقف من المنطق:

وبالفعل، بعدما وضع جلا ل الدين السيوطي (849 – 911 هـ) كتابه صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام وكتاب جهد القريحة في تجريد النصيحة والثاني تجريد لكتاب الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام بن تيمية (611 – 728 هـ)، وكتاب القول المشرق في تحريم المنطق، وذلك ليعمل على دعم فتوى ابن الصلاح (577 – 643 هـ) وغيره مثل يحي النووي (631 – 677 هـ) في تحريم المنطق؛ كان أبرزُ من انبرى له في العالم الإسلامي قاطبة يومئذ الإمام الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني(توفى سنة 909 هـ/ 1503م)، فراسله مناقشا له ومعاتبا إياه في أبيات على تحريمه الاشتغال بالمنطق، وممّا قاله[9]:

سـمعتُ بـأمر مـا سـمعت بمثلـه | وكـلّ حديـث حكمُـه حكـم أصـله
أيمكـن أنّ المـرء في العلـم حجّـة | وينهـى عـن الفرقـان في بعـض قولـه
هـل المنطـق المعنـي إلاّ عبـارة | عـن الحـقّ أو تحقيـقه حيـن جهلـه
معانيـه في كـلّ الكـلام وهـل تـرى | دليـلا صحيـحا لا يُـردُّ لشـكله
أريـني هـداك الله منـه قـضـيّة | عـلى غـير هـذا تنفهـا عـن محلّـه
ودع عنـك مـا أبـداه كفـور وذمّـه | رجـال وإن أثبـت صـحّة نقـتله
خـذ الحـق مـن كفـور ولا تقـم | دليـلا عـلى شـخص بمـذهب مثلـه
عرفنـاهم بـالحق لا العكـس فاستبن | بـه لا بهـم إذ هـم هـداة لأجلـه
لئن صحّ عنهم ما ذكرت فكم هـم | وكم عـالم بالشرع باح بفضلـه

وقد أجاب السيوطي، الذي كان على اتّصال بعلماء الجزائر وترجم لبعضهم في كتابه (نظم العقيان في أعيان الأعيان)، على عتاب المغيلي له في أبيات أيضا[10].

وبعدما روى عبد الرحمن الأخضري الخلاف في جواز الاشتغال بالمنطق في شرحه لأرجوزته(السلم المرونق)، فذكر أنّ النووي يحي أبو زكريا (631 - 676هـ /1233-1277م). وابن الصلاح أبو عمرو عثمان الشهرزوري(577-643هـ/1161-1245م) قد منعاه، واستحبّه أبو حامد الغزالي (450- 505 هـ/ 1058- 1111م)؛ قرّر أنّ:"المختار الصحيح جوازه لذكي القريحة صحيح الذهن سليم الطبع ممارس الكتاب والسنة لئلاّ يؤول إلى إتباع بعض الطرق الوهمية فيفسد المقدمات والأقيسة النظرية"[11]. ويستفاد من ذلك أنّ علماء الجزائر نظروا إلى المنطق نظرة صورية أفرغته من مادته ومحتواه الفلسفي، آية ذلك أنّ استقراء مُصنفاتهم يؤكّد بحثَهم للاستدلالات من حيثُ إنتاجُها للمطالب على

العموم لا بحسب مادتها التي تولدت الآفات منها، ودعوتهم إلى استبعاد المباحث الميتافيزيقية من البحث المنطقي، وهو ما يذكره صراحة أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي التلمساني الجزائري (832 - 895هـ / 1428 – 1490م)، فالمقصود من تأليفه المختصر في المنطق ينحصر" في التعريفات ومبادئها، والحجج ومبادئها "[12] كما ذكر، ويحرص على تأكيد ذلك عند شروعه في تعريف القياس، مبرّرا حذفَ ما أُدخِل في علم المنطق من تفريعات متكاثرة بأنّه لا يُحتاج إليها في غالب تصرّفات العقل، وأنّه بسبب تلك الزيادات فرّ " كثيرٌ مِنْ تعلّمِ ما يُحتاجُ إليه من فنّ المنطق وربّما صرّح بتحريمه مَنْ لا معرفة له بحقيقته "[13].

ثالثا: مسالك المنطق وروافده بتلمسان:

أمّا فيما يتعلق بمسالك المنطق إلى تلمسان فتتصدرها الرحلةُ العلمية بنوعيها، رحلة العلماء إليها، والرحلة منها طلبا للعلم؛ فمن المنطقيين الجزائريين الذين هاجروا في طلب العلم من مدينة تلمسان المقرّي التلمساني الجدّ، محمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الرحمن القرشي أبو عبد الله (...- 759 هـ/ ...- 1356م)، الذي رحل إلى تونس والمغرب وتعلم بهما، ثم قصد المشرق فأخذ عن علماء مصر ومكة والمدينة ودمشق وبيت المقدس، وعاد إلى بلده ثمّ دخل المغرب وعبر إلى الأندلس[14].

ومن هؤلاء محمد بن مرزوق التلمساني الحفيد (766هـ/ 1364 م- 842 هـ/ 1439 م)، الذي يروي تفاصيل رحلته العلمية من تلمسان إلى قسنطينة، فتونس والإسكندرية والقاهرة، ولقاءه بالكثير من علماءها[15]، وممن لقي في تونس الإمام أبي عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي (716- 803 هـ/ 1316- 1400م) صاحب المختصر في المنطق المشهور، وسافر معه إلى البقاع المقدسة.

ومنهم شيخ المغرب في العلوم العقلية أبو عبد الله محمد بن ابراهيم العبدري الشهير بـ "الآبلي" (المتوفى سنة 757 هـ- 1356م)، رحل إلى تونس فقرأ بها على تلاميذ ابن زيتون، وهذا الأخير هو أبو القاسم بن أبي بكر اليمني (621 هـ/ 1224م – 691 هـ/ 1292م) رحل إلى المشرق مرتين، ودرس وحصل له علمٌ بالمنطق والحكمة عن علماء بارزين، منهم الطبيب أو الحكيم شمس الدين عبد الحميد بن عيسى الخسروشاهي (580- 652 هـ/

1184- 1254م) تلميذ المنطقي فخر الدين الرازي (544- 605 هـ)، والذي اختصر كتاب الشفاء لابن سينا[16]، كما قرأ في رحلته إلى المغرب الأقصى على أبي العباس بن البنّاء المراكشي (645- 724 هـ) العلوم العقلية من منطق وحساب، وأخذ بالمشرق المنطق والأصلين، فلمّا رجع « جاء إلى تلمسان بعلم كثير من المعقول والمنقول »[17]، مثلما ذكر ابن خلدون (732- 808 هـ/ 1332- 1406م). ويبدو أنّ الآبلي لم يطلع على كتب المنطقيين المسلمين فحسب، بل يخبرنا ابن خلدون أنّ الشريف التلمساني الآتي ذكره قرأ على العبدري، فضلا عن كتاب الإشارات والتنبيهات وكتاب الشفاء لابن سينا (370- 428 هـ/ 980- 1037م)، تلاخيص كتب أرسطو (384- 322 ق م) لابن رشد (520- 595 هـ/ 1126- 1198م) أيضا[18].

وكذلك علي بن محمد بن علي القرشي البسطي الشهير بالقلصادي (835هـ/1422م-891هـ/1487م) صاحب كتاب شرح إيساغوجي الذي نزل تلمسان فأخذ من علمائها، ثمّ زار وهران، وبعد رحلة علمية أتاحت له أن ينهل من مناهل المراكز الثقافية الشهيرة في عصره مثل تونس وطرابلس الغرب والإسكندرية والقاهرة والبقاع المقدسة، رجع مرة أخرى إلى وهران وتلمسان[19].

ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن النجار(توفى سنة 846هـ)، ولد ونشأ بتلمسان وأخذ عن علمائها مثل الآبلي السالف الذكر، ثمّ ارتحل إلى المغرب فأخذ بفاس ومراكش عن علمائها، وبرع في العلوم العقلية، وعاد إلى تلمسان فدرّس بها. يقول تلميذه القلصادي عنه أنّه كانت له مشاركة في العلوم النقلية والعقلية، وقرأ عليه ممّا قرأ بعض المستصفى للغزالي والجمل للخونجي من كتب المنطق[20].

وبالمثل رحل علماء عارفون بالمنطق إلى تلمسان؛ منهم المشدالي أبو موسى عمران بن موسى بن يوسف (670-745هـ/ 1271-1344م)، ولد ببجاية ونشأ بها، انتقل إلى الجزائر (العاصمة حاليا)، وكان كثير الاطلاع في المنطق والجدل والفقه. أرسل إليه صاحب تلمسان أبو تاشفين الأول فدخل تلمسان، ثم رحل أثناء وجوده بالمدينة المذكورة إلى مراكش ورجع مرة أخرى إلى تلمسان. حافظٌ للحديث، نحوي، منطقي، أصولي من كبار فقهاء المالكية، قال عنه المقري الجدّ: حافظ تلمسان ومدرّسها ومفتيها، كان كثير الاتساع في الفقه والجدل، مديد الباع فيما سواهما، ورغم أنّه لم يؤلف في المنطق، إلا أنّه درّسه ضمن

ما كان يدرّس بتلمسان كالحديث والفقه والأصلين والنحو. وكان من طلبته المقري التلمساني والمنطقي المشهور بشارح جمل الخونجي الشريف التلمساني[21].

ومن العارفين بالمنطق الذين دخلوا تلمسان القاضي أحمد بن حسن بن علي بن حسن بن علي بن ميمون أبو العباس، الشهير بابن قنفذ وبابن الخطيب القسنطيني (740- 809 هـ/ 1340- 1406 م). من أجلّ علماء الجزائر، بدأ دراسته على والده (694-750هـ) الذي تعلّم بقسنطينة وبجاية ورحل إلى المشرق مرّتين، وعلى مجموعة من شيوخ قسنطينة يومئذ. وانتقل ابن قنفذ سنة 759هـ إلى مدينة فاس بالمغرب حيث درس على مجموعة شيوخ أمثال أبي محمد عبد الله الوانغيلي الفاسي المتوفى سنة 779هـ، قرأ عليه مختصر بن الحاجب، والجمل في المنطق . وعند رجوعه إلى قسنطينة مر بتلمسان وبقي فيها مدّة من الزمن[22]، ولابن قنفذ كتابان في المنطق هما: إيضاح المعاني في بيان المباني، وتلخيص العمل في شرح الجمل.

وممن دخل تلمسان المنطقي سعيد بن إبراهيم أبو عثمان الشهير باسم قدورة (993-1066هـ/ 1583-1656م) [23]. عالم بالمنطق وأحد أئمة المنقول والمعقول، تونسي الأصل، جزائري المولد والقرار، رحل في سن مبكرة، بعد تلقي بعض العلوم في مدينة الجزائر، إلى زاوية مجاجة شمال الأصنام، الشلف حاليا، حيث تلقى عن الشيخ محمد بن علي آبهلول (945- 1002هـ) العارف بالمنطق وولديه اللذين كانا شديدي الاعتناء بالعلم وفنونه كالمنطق والتفسير والحديث. وبعد رجوعه إلى العاصمة رحل مرة أخرى إلى تلمسان، ولسعيد قدورة شرح على السلم في المنطق.

رابعا: علماء تلمسان وإسهاماتهم المنطقية:

عرف علماءُ تلمسان إذن المنطقَ ودرسوه؛ عرفوا أرسطو ذاته من خلال تلاخيص ابن رشد لكتبه كما أومأنا، واطلعوا على مؤلفات الشيخ الرئيس ابن سينا فيه مثل الإشارات والتنبيهات وكتاب الشفاء والنجاة، وكذا كتاب معيار العلم في فن المنطق لأبي حامد الغزالي، وقرؤوا كتب المتأخرين مثل إيساغوجي لأثير الدين الأبهري السمرقندي (متوفى حوالي 663هـ / 1264م)، والجمل في المنطق[24] لأفضل الدين الخونجي (590- 646 هـ/ 1194- 1248م)، ومختصر في المنطق لابن عرفة الورغمي التونسي، بل وقرؤوا كتب المعلّم

الثاني أبي نصر الفارابي (259- 339هـ/ 872- 952م) المنطقية كما ستؤكده قراءة مضمون كتب الشريف التلمساني لاحقا.

ودرس علماء تلمسان المنطق من حيث هو علمُ الاستدلالات الصورية، ومن جهة كونه مفرغا من أيّ محتوى فلسفي، واعتبروه تبعا لأبي حامد الغزالي أداة ضرورية للفقيه، إذ مادام هذا الأخير مجتهدا؛ فلا بد من معرفته لقواعد الاستدلال التي يبحثها المنطق، أي قواعد الانتقال الصحيح من حكم إلى آخر وصولا إلى نتيجة. وعليه فالثبت الموالي لمنطقيي تلمسان إنّما يتضمن هؤلاء الذين صنّفوا شروحا أو كتبا أصيلة، ولا يعني البتّة أنّ سواهم غير عارفين بالمنطق للاعتبار السالف الذكر، ولأنّ المنطق كان من جملة المواد التعليمية من جانب آخر.

1. المقرّي التلمساني الجدّ (توفي سنة 759هـ/ 1359م) :

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الرحمن القرشي . ولد ونشأ بتلمسان حيث أخذ عن شيخ العلوم العقلية أبي عبد الله الآبلي، والمشدالي أبو موسى عمران بن موسى بن يوسف، ولقد أشرنا سلفا أنه تعلّم بتونس والمغرب، ورحل إلى المشرق فأخذ عن علماء مصر ومكة والمدينة ودمشق وبيت المقدس، وعاد إلى بلده ثمّ دخل المغرب وعبر إلى الأندلس، ولمّا عاد إلى الجزائر انقطع للإقراء. ولي القضاء بفاس حيث توفي، ونقلت رفاته بعد عام إلى تلمسان.

وللمقرّي أبو عبد الله العديد من المؤلفات في مجالات الأدب واللغة والتصوف، أما في المنطق فله: شرح جمل الخونجي لم يكمله. ولا شكّ أنّه درّس المنطق بتلمسان لمّا انقطع للتعليم وخدمة العلم، وكان من طلبته الشاعر والفيلسوف والفقيه لسان الدين بن الخطيب (713- 776 هـ/ 1313- 1274م)، وابن خلدون. والمقري التلمساني فضلا عن مشاركته مشاركة فاضلة في الأصلين والجدل والمنطق، تكلّم في طريق الصوفية وألّف في التصوّف كشروحه لبعض أشعار ابن الفارض، الأمر الذي يقتضي إعادة النظر في طبيعة العلاقة بين التصوف والمنطق عند علماء الجزائر على الخصوص[(25)].

2. الشريف التلمساني العلْوي (710-771هـ/ 1310-1370م).

هو محمد بن أحمد بن علي الشريف الإدريسي أبو عبد الله الشريف التلمساني العلْوي محدّث بارع في علوم الحديث، إمام في أصول الدين، فقيه بلغ درجة الاجتهاد وانتهت

إليه إمامة المالكية بالمغرب في عهده، مع دراية بمذاهب فقهية أخرى، ذو دراية بعلوم اللغة، إمام في التفسير ختم تفسير القرآن كلّه درسا، وهو إلى ذلك كلّه إمام في العلوم العقلية كلّها؛ منطقا وحسابا وتنجيما وهندسة وموسيقى وتشريحا، مثلما ذكر صاحب المعيار المعرب، ولذلك استحقّ وصف فارس المعقول والمنقول، والشيخ الذي لا يعزب عن علمه فن عقلي إلاّ وأحاط به على حدّ تعبير تلميذه عبد الرحمن بن خلدون في كتابه التعريف بابن خلدون، والعالم المبرز على علماء المعقول والمنقول مثلما وصفه المقري التلمساني في أزهار الرياض. ورغم أنّ الكثير قد شرح جمل الخونجي، إلاّ أنّه، حسب علمنا، الوحيد الذي اشتهر في كتب التراجم بـ "شارح جمل الخونجي".

نشأ الشريف التلمساني بتلمسان، وأخذ العلم عن مشيختها، وفي مقدّمة هؤلاء، في سياق بحثنا، شيخ العلوم العقلية أبو عبد الله محمد بن إبراهيم العبدري الشهير بالآبلي، وشيخ التعاليم أبو عبد الله محمد بن يحي علي النجار التلمساني، اللذين أخذ عنهما المنطق والحساب والهندسة، وتضلّع من معارفهما، وكذا أبو موسى عمران بن موسى المشدالي البجائي الذي أخذ عنه علوم الفقه والأصول والجدل. ثمّ ارتحل إلى تونس سنة 740هـ/ 1339م، فلقي ابن عرفة وحضر مجالس العلم هناك.

وفي تونس اختاره السلطان أبو عنان المريني (729-759هـ/ 1329-1358م) لمجلسه العلمي، ورحل به إلى فاس بالمغرب الأقصى. وإثر استيلاء السلطان الزياني أبي حمو بن يوسف (723-791هـ/ 1323-1389م) على تلمسان سنة 760هـ؛ دعاه وزوّجه ابنته، وبنى له مدرسة أقام يدرّس فيها حتّى وافاه الأجل.وكان من طلبته المنطقيين عبد الرحمن بن خلدون، وابن قنفذ القسنطيني.

لشدّة عناية الشريف التلمساني بالإقراء والدرس؛ لم يسعه الزمن للإكثار من وضع الكتب والتصانيف، ورغم ذلك له في المنطق:

أ- شرح على جمل الخونجي.

يعتبر هذا الشرح واحد من الشروحات الهامة لكتاب الخونجي، ويقول الشريف التلمساني في مقدمة شرحه للجمل، بعد البسملة والحمدلة والصلاة والسلام على رسول الله، وبيان حقيقة العلم:" ولما لم تكن الإصابة للفكر من ذاته لتطوره بها (= العلوم)، وبالخطأ في حالاته، مسّت الحاجة إلى قانون يعصم الجنان في معقولاته كما يعصم النحو

اللسان في مقولاته. ولما كان مختصر الإمام الأوحد الأعظم الفذ أفضل الدين الخونجي رضي الله عنه قد بلغ في الغاية إلى حيث لا يعدل به، ولا تنثني العقول الصحيحة عن قويم مذهبه، فهو وإن صغر حجمه؛ فقد كثر علمه؛ أجبت إلى تعبير ألفاظه وبيانها، وتمثيل دواعيه وبرهانها، مَن دعاني إلى ذلك...، فشرحت هذا المختصر شرحا يستوعب بيان معانيه، وإيضاح مشكلاته، وتحقيق مبانيه، غير موجز فيه إيجازا مخلا ولا مطنبا إطنابا مملا، والله سبحانه هو المستعان وعليه التكلان".

وإذا كانت الدراسة المستفيضة لشرح الجمل للشريف التلمساني تخرجنا عن حدود بحثنا؛ فإنّه يُلاحظ في هذا المقام أنّ جمل الخونجي في المنطق مختصر موجز جدا (يقع في 16 ورقة في مخطوط المكتبة الأزهرية تحت رقم: 5706 مثلا)، وهو فضلا عن ذلك «جمل تنضبط بها قواعد المنطق وأحكامه وضعتها لجمع من أكابر العلماء وأعيان الفضلاء» كما صرّح مؤلفها أفضل الدين الخونجي (590- 646هـ/ 1194-1248م)، وعليه فشرح التلمساني بالمواصفات التي ذكرها تنمّ عن دراية تامة بالمنطق ومسالكه، ومعرفة عميقة بالعقليات.

وتتوفر نسختان خطيتان لهذا الشرح: أولاهما: نسخة جيدة بالمكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم: 1388، تقع في 118 ورقة. وأما الثانية فتقع في 95 ورقة، وهي موجودة ضمن مجموع رقم: 45 بالزاوية الحمزاوية بالمملكة المغربية.

ب- كتاب مثارات الغلط في الأدلة.

يتالف هذا الكتاب (مثارات الغلط في الادلة) من مقدمة، وبابان؛ تناول الباب الأول الغلط في اللفظ المفرد، وفي اللفظ المركب، والغلط في اللفظ في تردده بين الإفراد والتركيب. وبعد تحليل كل قسم وسوق أمثلة في العقليات وأخرى في الفقهيات له، خلص الشريف التلمساني إلى التأكيد أن مثارات الغلط في اللفظ لا تزيد عن ستّة: اشتراك الجوهر، واشتراك الصيغة، واشتراك اللواحق، واشتراك التأليف، وتركيب المفصل، وتفصيل المركب. وفي الباب الثاني، عرض الشريف التلمساني للغلط المعنوي، وبيّن مثاراته في التأليف الجزئي الذي يتعلق بالقضية، وفي التأليف القياسي، وبعد التحليل انتهى إلى التأكيد أنّ مثارات الغلط المعنوية ثمانية، خمسة منها تتعلق بالقضية، وهي: جمع المسائل في مسألة، وأخذ ما بالعرض مكان ما بالذات، والإطلاق في موضع التقييد، وإيهام العكس، وسوء اعتبار

الحمل. وثلاثة تتعلق بالقياس، في القياس المستقيم: وضع ما ليس بعلة علة وهو بدوره قسمان؛ حيث لا يكون التأليف منتجا، ومتى كان منتجا ينتج غير المطلوب، والثاني المصادرة على المطلوب. وفي الخلف حكم ما سبق ويزيد بمثار إهمال المتقابلات أو إهمال شروط التناقض. وختم بالتوضيح أن في تحقيقها ما يسهل الوقوف على مثارات الغلط في الأدلة العقلية والنقلية عند الاستقراء.

إنّ مواضع الغلط تلك، ممثلة تمثيلا يقرب الفهم، معروضة في كتاب الشريف التلمساني عرضا مفصلا لمن أراد الرجوع إليها، والذي يهمنا هنا ملاحظة ما يلي:

- مجال كتاب مثارات الغلط في الأدلة المنطق التطبيقي، أمّا شرح على جمل الخونجي فيبحث في القضايا من حيث الصورة، وفي الأقيسة من جهة إنتاجها للمطالب على العموم لا بحسب مادتها، وهذا هو المنطق الصوري أو المنطق الخالص، ويبدو جليا أن أبا عبد الله الشريف التلمساني يميز بين الأمرين، آية ذلك أنّه لم يوجه السائل عن حصر مثارات الغلط في الأدلة إلى شرحه على جمل الخونجي الذي لا أثر فيه للكلام عن الأقيسة السفسطائية، وهو نظر في القياس من جهة مادته، وإنّما أجاب على رغبته بتأليف كتاب مثارات الغلط ليسهل الوقوف عليها.

- يكشف ذلك عن تصور للمنطق كعلم صوري تنطبق قوانينه على كل صور التفكير، استمرارا لرؤية أبي حامد الغزالي الذي فصل بين الفلسفة والمنطق، من هنا مثلما أورد الشريف التلمساني أمثلة في العقليات كقوله في مثارات الغلط المعنوية حيث يكون القياس المستقيم منتجا ينتج غير المطلوب: «ومثاله في العقليات: قول بارمينيدس كل ما سوى الوجود فهو لا موجود، وما هو موجود فليس بشيء، فالموجود واحد. فإنّ هذا إنّما ينتج: إنّما سوى الموجود فليس بشيء، لأنّ الموجود واحد»، يسوق أمثلة في الفقهيات كذلك.

- هذا، ويشير الشريف التلمساني في آخر كتابه المذكور إلى أن أرسطو لمّا ذكر المغالطات المعنوية عدّها سبعا، وأنّ أبا نصر الفارابي زاد عليها موضع النقلة والإبدال، وهو ما لم يوافق عليه ابن سينا في الشفاء الذي يرى عدم الحاجة إلى مثل تلك الزيادة. وأيّا كان الأمر فإنّ غرضنا من ذكر هذا تأكيد ما سلف بيانه من معرفة المنطقيين المسلمين للأورغانون، على الأقل في صورة تلخيص وشرح ابن رشد، فضلا عن استفادة التلمساني في بحثه ذلك من كتاب معيار العلم في فن المنطق للغزالي (في حصر مثارات الغلط، وبيان

خيال السفسطائية في النظر الثالث من كتاب القياس)، وكذا من كتاب الأمكنة المغلطة للفارابي، وأيضا النهج العاشر في القياسات المغالطية من كتاب الإشارات والتنبيهات، ومن جزء السفسطة من كتاب الشفاء لابن سينا الذي قسم المغالطات إلى صورية ومادية، وهو الذي فعله الشريف التلمساني في المقدمة الموجزة لكتابه.

وهذا الكتاب تمّ طبعه لأول مرة بمطبعة التيسير بالدار البيضاء في المملكة المغربية، سنة 1999م، وتولّى تحقيق نسخه الخطية الأستاذ مصطفى الوضيفي. ثمّ أعاد الأستاذ محمد علي فركوس نشره سنة 1998م مع كتاب آخر للتلمساني هو مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، اعتمادا على نسختين خطيتين موجودتين بخزانة ابن يوسف بمراكش (ثاني مجموع رقم 168، وثاني مجموع رقم 481)، وكذا النسخة المطبوعة المذكورة، مع تصحيح هذه الأخيرة والتمهيد بدراسة مستفيضة.

ج- أسئلة وإشكالات في المنطق.

هذا ليس عنوان كتاب للشريف التلمساني، ولعلّ لأحمد بن يحي الونشريسي (834-914 هـ/ 1430- 1509م) الذي ذكر أنّ يحي بن موسى المهدوي (توفى سنة 773 هـ) وجه إلى محمد بن أحمد الشريف التلمساني أسئلة وإشكالات، فأوضح مشكلها، وحلّ مقفلها، هو الذي أوحى إلى محقق كتاب المعيار المعرب بوضع فتوى من فتاوى التلمساني تحت عنوان: "أسئلة وإشكالات في المنطق والفلسفة والكلام". ويتعلق الأمر إذن بجواب عن إشكال ورد إلى الشريف التلمساني مفاده قولهم: القضية الموجبة تستدعي وجود الموضوع محققا في الخارجية، ومُقدرا في الحقيقية، والسالبة لا تستدعيه. ولقد أجاب من غير ركون إلى حجة جدلية، أو بناء على مقدمة امتناعية كما أعلن في مستهل الجواب، مبيّنا أنّ كلامه في الموضوع على أصل الشيخ، أي ابن سينا، لا على أصل الفارابي. وأدّى التحليل إلى الحديث عن القضية الذهنية، وكذا القول بأن السالبة الجزئية تنعكس بعكس النقيض كنفسها، وغيرها مما يُطلبُ في محله لمن أراد التفصيل[26].

3. ابو عثمان العقباني (720-811هـ/ 1320-1408م).

أبو عثمان سعيد بن محمد بن محمد التجيبي التلمساني من أكابر فقهاء المالكية، عالم بالتفسير والفقه والأصول والفرائض والجبر والمنطق. ولد بتلمسان وأخذ عن علمائها أمثال أبي عبد الله الآبلي، ولي قضاء بجاية وتلمسان ووهران ومراكش. جمع بين

المنقول والمعقول، وأخذ عنه الكثير منهم ابن مرزوق الحفيد. قال صاحب نيل الابتهاج: وكان يقال له رئيس العقلاء. له شرح قصيدة ابن الياسمين في الجبر والمقابلة.

اما عن اسهاماته في علم المنطقة، له: شرح جمل الخونجي. يوجد مخطوط منه بعنوان: شرح الجمل المنطقية لأفضل الدين الخونجي، أوله: دلالة اللفظ على المعنى، كتب سنة 840 بخط مغربي في 164 ورقة. تحت رقم: 725 بمكتبة بروسة بتركيا[27].

4. ابن مرزوق الحفيد (766-842هـ/ 1364-1438م) [28]:

هو محمد بن أحمد بن أبي بكر العجيسي التلمساني ولد في مدينة تلمسان سنة 766ه وتوفى فيها، عالم موسوعي؛ فقيه حجة في المذهب المالكي، أصولي، عروضي، محدّث، مفسّر، صوفي، مقرئ، لغوي، عالم منطقي، آية في تحقيق العلوم والاطلاع المفرط على النقول والقيام الأكمل على الفنون بأسرها معقولها ومنقولها. تلقى تعليمه أول الأمر بتلمسان على علماء أمثال سعيد التجيبي العقباني، ثمّ رحل إلى فاس. بعد رجوعه إلى تلمسان سافر إلى تونس أين لقي ابن عرفة صاحب المختصر وحج معه سنة 790 هـ مرورا بالقاهرة. وفي طريقه إلى الحج ثانية عام 818هـ أقام بقسنطينة أكثر من نصف سنة يدرس ويتعلّم، وزار تونس مرة أخرى.

أخذ العلم عن سعيد العقباني، وابن قنفذ القسنطيني بفاس، وابن عرفة بتونس، وعبد الرحمن بن خلدون بمصر. وأخذ عنه بتلمسان التي درس بها إلى جانب العلوم الشرعية وعلوم اللغة المنطق والجدل والهندسة، من المنطقيين إبراهيم بن فايد الزواوي القسنطيني (796- 857 هـ/ 1394-1453م)، وأحمد الندرومي بقسنطينة حيث درّس الأصلين والمنطق. وأبو الحسن القلصادي وأبو الفضل المشدالي البجائي (821- 865 هـ/ 1417- 1461م) صاحب شرح على جمل الخونجي[29].

اما عن اسهاماته في علم المنطق، بفضل رحلاته العلمية إلى المشرق ولقائه للكثير من العلماء، يعتبر ابن مرزوق الحفيد من أهم مسالك العلوم عموما، والمنطق على وجه الخصوص إلى الجزائر، فبالإضافة إلى بجاية وقسنطينة رحل إلى تونس وفاس ومصر والحجاز، ولقي علماء ذوي دراية ورجع بعلم وفير. كما أنّه درّس علم المنطق في تلمسان وقسنطينة وفاس، ووسعه الوقت ليؤلف فيه، إذ فضلا عن مصنفاته في مجالات: الفقه والعروض وعلوم اللغة وغيرها من العلوم، كان لابن مرزوق الحفيد في المنطق اعمنال مميزة تعكس قدرته في استيعاب هذا العلم، والمؤلفات هي[30]:

أ. نهاية الأمل في شرح جمل الخونجي[31].

ب. أرجوزة نظم جمل الخونجي: وهي ارجوز اختصر فيها كتاب(نهاية الأمل في شرح جمل الخونجي).

ت. المعراج في استمطار فوائد الأستاذ ابن سراج. ومضمون هذا الأخير ليس منطقيا صرفا، بل هو إجابات عن مسائل نحوية ومنطقية.

5. ابن العباس التلمساني (توفي سنة 871هـ/ 1467م):

هو محمد بن العباس بن محمد بن عيسى العبادي فقيه، نحوي من أكابر علماء تلمسان في وقته، أخذ عن أئمة ذوي دراية بعلوم النقل والعقل ومنها المنطق، أمثال: ابن مرزوق الحفيد وقاسم العقباني. وأخذ عنه منطقيون مثل السنوسي والرياضي والمنطقي القلصادي الذي يقول عن أستاذه بأنّه متفنن في العلوم، وكذا أحمد بن يحي الونشريسي الذي نقل بعض فتاواه في المعيار المعرب. اما عن إسهامه في علم المنطق: شرح كتاب جمل الخونجي[32].

6. الندرومي (كان حيا بعد 830هـ/ 1427م):

هو أحمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله شهاب الدين عالم بالمنطق وفقيه مالكي من ندرومة بتلمسان، درس على شيوخ أبرزهم ابن مرزوق الحفيد، ارتحل إلى القاهرة وتصدّر هناك للإقراء. ومن إسهاماته المنطقيةله اختصار شرح شيخه ابن مرزوق الحفيد على جمل الخونجي اختصارا حسنا، وسمّاه: كفاية العمل[33].

7. القلصادي(815-891هـ/ 1422-1487).

هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي القرشي البسطي المالكي، رياضي، منطقي، فرضي، فقيه، ولد في بسطة بالأندلس، وتوفي في باجة بتونس، وكان لتلمسان بالجزائر الحظ الأوفر في إقامته التي بلغت ثمان سنوات، إضافة إلى سبعة أشهر من مجموع رحلته العلمية الشهيرة، كما أنّه دخل وهران قبل قدومه أول مرة إلى تلمسان، ومن هذه الأخيرة ارتحل مرة أخرى إلى وهران في طريقه إلى تونس، فلقي بها جمعا من العلماء. وعاد من تونس إلى وهران للمرة الثالثة في طريقه إلى ألمرية مرورا بتلمسان كما روى هو ذاته في رحلته بالتفصيل.

دخل القلصادي مدينة تلمسان سنة 840هـ وهي تعيش أزهى أيام حياتها الثقافية، فأخذ عن علماء ذوي شهرة علمية، منهم: يوسف الزيدوري (توفي سنة 845هـ/ 1441م) الذي كان له مشاركة وقدم في علوم الرياضيات، وقرأ عليه المقدمات في الجبر والمقابلة والجمل للخونجي في المنطق. كما قرأ على العلاّمة أبي العباس أحمد المغراوي التلمساني الشهير بـ "ابن زاغو" (782- 845 هـ) الحساب والفرائض والهندسة فضلا عن علوم الدين، وعلى أبي عبد الله محمد بن النجار جمل الخونجي كذلك. ومن الذين أخذ عليهم ابن مرزوق الحفيد وأبو عبد الله الشريف التلمساني وقاسم العقباني ومحمد بن العباس بن محمد بن عيسى العبادي التلمساني، وكلّ هؤلاء أصحاب دراية ومؤلفات في المنطق كما سلف ذكره.

وعن اسهاماته في علم المنطق: فان جميع الذين ترجموا لحياته ذكروا أنّ له كتاب في المنطق شرح إيساغوجي، لكن المؤسف حقا أنّ هذا الشرح في حكم المعدوم، خصوصا إذا علمنا أنّ صاحبه مبدع في مجال الرياضيات ومخترع الرموز الجبرية. وذلك لأنّه بعد أن كان أبو عبد الله موسى الخوارزمي (توفي سنة 232هـ/ 847م) يتكلّم الجبر، أبدع القلصادي لأول مرة الرموز الجبرية؛ فوضع الحرف (ش) للدلالة على المجهول، والحرف (م) ليدلّ على المربّع، واستخدم الحرف (ج) للتعبير عن الجذر، عوض ألفاظ اللغة الطبيعية شيء ومال وجذر عند سلفه. ولمّا ألّف في مجال الفقه قدّم شرحا نوعيا، مستعملا معرفته الرياضية في "شرح فرائض خليل"، حيث التعبير عن المسائل الفقهية بالجداول والأرقام، خلافا لكتب الفقه المعهودة، وبناء على ذلك يمكن افتراض وجود جوانب أصيلة في شرحه لإيساغوجي في المنطق[(34)].

وكان القلصادي يعقد أثناء وجوده بتلمسان حلقات للدرس، من هنا يُفترض أنّه درّس المنطق بالإضافة إلى علوم أخرى، وكان من أبرز من أخذ عنه تلميذه المنطقي الكبير الإمام محمد بن يوسف السنوسي.

8. ابوعبد الله السنوسي التلمساني(832 - 895هـ / 1428 – 1490م) [(35)]:

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر السنوسي التلمساني عالم تلمسان في عصره وصالحها، التلمساني مولدا ودارا ووفاة. فقيه، محدّث، فرضي، صوفي، من أبرز علماء التوحيد اشتهر خصوصا بمصنفاته في أصول الدين مثل: العقيدة الكبرى، والعقيدة الوسطى، والعقيدة الصغرى، وصغرى الصغرى، والمقدمات، مع شروحه عليها. وصفه

صاحب درة الحجال بـ "الإمام المعقولي، الذي تغني شهرته عن التعريف". تلقى دروسه في تلمسان التي لم يغادرها سوى مرتين؛ الأولى إلى الجزائر العاصمة، والثانية إلى وهران. واخذ العلم عن شيوخ مدينته، وأبرزهم في سياق بحثنا محمد بن العباس بن محمد بن عيسى العبادي صاحب شرح الجمل في المنطق للخونجي، والقلصادي شارح كتاب إيساغوجي في المنطق.

وعن مساهمته في علم المنطق، فان للإمام ابو عبد الله السنوسي التلمساني مؤلفات المنطقية نوعان:

النوع الأول مؤلفات أصيلة: وهو عبارة عن مختصر في علم المنطق(المختصر العجيب)، قال في مقدمته: "فهذه كلمات مختصرة تتضمن معرفة ما يضطر إليه من علم المنطق لتصحيح ما يكتسب به التصورات والتصديقات، وترك ما يشوش الفكر مع قلّة جدواه ". وصف الذين ترجموا له الكتاب المذكور بالمختصر العجيب الذي فيه زوائد على الخونجي، وشرحه هو ذاته، كما شرحه شيخ الأزهر إبراهيم بن محمد بن أحمد الشافعي الباجوري (1784- 1859م)، والشرحان طبعا معا سنة 1321 هجرية بمطبعة التقدم العلمية بمصر. كما شرحه أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي (1040- 1102هـ) من علماء المغرب في كتاب سماه: "نفائس الدرر في حواشي المختصر". تم طبعه سنة 2003 م بـ "دار المدار الإسلامي، بيروت، تحقيق جمعة الفيتوري.

النوع الثاني:قدم لنا العالم الجليل ابو عبد الله السنوسي التلمساني شروح على غاية من الأهمية والفائدة في علم المنطقة حتى انها نالت اهتمام ومتابعة معاصريه وما تلاه نظرا لما تضمنته من فؤاد في هذا الميدان، وهي:

- شرح إيساغوجي في المنطق، ألّف كتاب إيساغوجي هذا أثير الدين الأبهري السمرقندي[35] .

- شرح مختصر ابن عرفه في المنطق، بيّن فيه السنوسي كلام أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي، وحلّ الصعب منه، ولقد نقل صاحب كتاب نيل الابتهاج وصاحب كتاب البستان عن تلميذه محمد بن عمر بن إبراهيم الملالي التلمساني (كان حياً سنة 897هـ) قوله :"وقال (= السنوسي) لي : إن كلامه صعب سيما هذا المختصر تعبت كثيرا في حلّه لصعوبته إلى الغاية، لا أستعين عليها إلا بالخلوة".

- شرح جمل الخونجي في المنطق.

- شرح مختصر في علم المنطق، يصفه المترجمون بالشرح العجيب جدا، وسلف القول بأنّه طبع سنة 1321 هجرية[37].

9 - ابو عبد الله المغيلي (توفي سنة 909 هـ/ 1503م) [38]:

هو ابو عبد الله محمد بن عبد الكريم التلمساني فقيه، مفسر، متكلم وعالم منطق، ولد بتلمسان حيث أخذ العلم عن شيوخها، وبسبب الخلاف مع ملوك بني زيان؛ انتقل إلى مدينة تمنطيط بتوات جنوب الجزائر واشتغل بالتدريس. رحل المغيلي إلى فاس وغرب إفريقيا، فزار شمال السينيغال ونيجيريا وذاعت شهرته، ثم رجع إلى توات وبها توفي ودفن.

وغلبت معارك المغيلي مع يهود توات، الذين سيطروا على السياسة والاقتصاد فحاربهم، على الجوانب العلمية له في معرفة السواد الأعظم من الناس به، فهو عالم موسوعي؛ فقيه ومفسر ومحدّث ومتكلم ومنطقي ممتاز، قال عنه جلال الدين السيوطي في القصيدة التي ردّ بها على تلك المذكورة آنفا:

عجبت لنظم ما سمعت بمثله	أتـاني عن حبر أقر بنبلـــه
سلام على هذا الإمـام فكم له	لدي ثناء واعتراف بفضلــه

وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت للمغيلي مساهمه في علم المنطق: ومؤلفاته كانت على نوعين الاصلية والشروح، وهي:

النوع الاول: وهي المؤلفات الأصيلة، وهي:

أ. منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب[39]، وهو أرجوزة في المنطق يقول في مستهلها:

وبعدُ لمّا كان علم المنطـق	رعيُّـه للذهن من غيّ يق
نظمتُ نظما شاملا قواعد	راج من الله الكريم المددا

ب. لب اللباب في ردّ الفكر إلى الصواب، توجد عدّة نسخ في زوايا الجزائر لهذه الرسالة تتراوح بين 16 و18 ورقة، ولقد تمّ نشرها لأول مرة سنة 2006م بتحقيق أبي بكر بلقاسم ضيف الجزائري عن دار ابن حزم في مدينة بيروت.

اما النوع الثاني : فهي الشروح، ومنها نذكر:

أ. شرح جمل الخونجي في المنطق.

ب. مقدمة في الشرح المذكور.

ت. ثلاثة شروح على منظومته منح الوهاب.

وغير هؤلاء العلماء كثيرون من العارفين بالمنطق الذين إماّ لم يؤلفوا أو أنّ مؤلفاتهم لم تبلغنا حتّى عناوينها، وفي الحالة الأولى إمّا لأنهم امتنعوا عن التأليف مثل الآبلي شيخ المغرب في العلوم العقلية، وذلك راجع إلى اقتناعه بنظرته المتمثلة في أنّ فساد العلم سببه كثرة التآليف، وكان يقول: « إنّما أفسد العلم كثرة التواليف" [40] وإمّا لانشغالهم بالدرس، فهذا ابن خلدون يصف الشريف التلمساني بأنه فارس المعقول والمنقول، والإمام في العلوم العقلية كلها من منطق وحساب وهندسة وفرائض [41] ورغم ذلك لا نعرف لهذا الإمام الفذ كما سلف إلاّ مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، وفي المنطق شرح على جمل الخونجي، ذلك لأنه «لشدّة عناية الأستاذ ...بالإقراء والدرس لم يسعه الزمن للإكثار من وضع الكتب والتصنيف والتأليف» [42] وفيما يتعلق بالاحتمال الثاني نعلم أن الكثير ممن لم تشر إليهم كتب التراجم تركوا مخطوطات لا تزال حبيسة صناديق مَن يرفض إفادة الباحثين بها، ورهينة أدراج مؤسسات لم تعمل بعدُ على نشرها حتى يتسنّى الحكم على قيمتها العلمية ومعرفة مدى مساهمة علماء الجزائر عموما، ومنطقيي تلمسان على الخصوص في علم المنطق شرحا وتطويرا.

إلى هنا يتأكد تهافت الدعوى القائلة بأنّ أنّ علماء الجزائر لم يخوضوا في المنطق دراسة وتأليفا، وخلافا لنيكولا ريتشر الذي لم يذكر في السجّل الذي وضعه لإحصاء المساهمين في تطوير المنطق، ممّن كتب في العربية، سوى أربعة أسماء جزائرية، ثلاثة منهم تلمسانيون كما أشرنا سابقا؛ فإنّ ما سلف يثبت أنّ المشتغلين بالمنطق دراسة وتصنيفا يفوق ذلك في تلمسان لوحدها، إذْ فضلا عن هؤلاء الثلاثة الذين أشار إليهم ريتشر إشارة مقتضبة، أحصينا ستة آخرين: المقرّي التلمساني الجدّ، أبو عثمان سعيد العقباني، وابن العباس التلمساني، شهاب الدين الندرومي، أبو الحسن القلصادي، والمغيلي، دون العارفين بمسالك المنطق وأصحاب الدراية فيه ممّن لم يضع كتابا أو يترك شرحا مكتوبا[42].

وإذا كان المقام لا يتسع لدراسة تلك المصنفات بهدف بيان قيمتها ودورها في تطوير المنطق؛ فإنّه تجدر الإشارة هاهنا إلى أنّ هؤلاء العلماء تجاوز نشاطهم مدينة تلمسان، فلئن كان شارح جمل الخونجي في المنطق الشريف التلمساني مثلا قد تلقى العلم في تونس وفاس؛ فإنّه درّس بهذه الأخيرة كذلك، وتلك حال فارس المعقول الشيخ الآبلي. وفي مدينة فاس مثلا تلقّى المنطقي أبو الحسن علي بن عبد الواحد بن محمد بن أبي بكر الأنصاري السلجماسي (...- 1057هـ / ...- 1647م) العلم عن مجموعة من العلماء، منهم أحمد بن محمد المقري التلمساني (متوفى سنة 1041هـ/ 1631م)، والسلجماسي هذا ولد بتافيلات في الجنوب الشرقي للمملكة المغربية، ونشأ في سلجماسة المدينة التاريخية جنوب الأطلس الكبير، وله مؤلفات جمة الكثير منها على شكل منظومات، منها في المنطق: منظومة في الجدل، ومنظومة في المنطق.

الخاتمة:

خلاصة القول أنّ منطقيي مدرسة تلمسان تركوا ثلاثة كتب أصيلة في المنطق، هي: كتاب مثارات الغلط في الأدلة (الشريف التلمساني)، ومختصر في علم المنطق (السنوسي)، ولب اللباب في ردّ الفكر إلى الصواب (المغيلي)، فضلا عن منظومة منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب(المغيلي)، علما أنّ الكتاب الأول في المنطق التطبيقي، والكتب الثلاثة كلّها مطبوعة.

ونظموا جمل الخونجي في أرجوزة نظم جمل الخونجي(ابن مرزوق الحفيد)، كما أنجزوا ثمانية شروح للجمل تلك ومقدمة في ذلك، وشرحا واحدا لـ إيساغوجي الأبهري، وآخر لـ(مختصر ابن عرفه في المنطق)، وثالثا لـ (مختصر في علم المنطق) للسنوسي، وثلاثة شروح لمنظومة منح الوهاب، ممّا بلغنا وهو كاف لتفنيد الادعاء بأنّ الجزائريين عموما، وعلماء تلمسان على الخصوص لا باع لهم في المنطق.

وباستثناء مضمون كتاب (لب اللباب في ردّ الفكر إلى الصواب)، يؤكد تحليل مضامين المؤلفات الأخرى أنّ علماء تلمسان يذهبون مذهب ابن سينا في تحليل القضية الحملية، وكذلك تقسيمه للقياس، وغيرها من المسائل التي تقتضي بحثا آخر.

الهوامش:

1. انظر على سبيل المثال:

Robert Blanché, La logique et son histoire d’Aristote à Russell, Librairie Armand Colin, Paris, 1970, Chap. V.

2. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى،1998، الجزء الثاني، ص: 149.

3. ريتشر نيكولا، تطور المنطق العربي، ترجمة محمد مهران، دار المعارف، مصر، ط1، 1985، ص: 484- 485 / ص: 502- 503/ ص: 519 - 521.

4. انظر على سبيل المثال: مساهمة المغرب العربي في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، عبد الحميد حاجيات، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة بالجزائر، السنة الرابعة عشر، عدد 81، يونيو 1984، ص: 35.

5. Ben Cheneb M, *Proverbes Arabes de l’Algérie et du Maghreb*, Ernest Leroux, Editeur, Paris, 1906, Tome second, P 283.

6. بلانشي روبير، المنطق وتاريخه من أرسطو إلى راسل، ترجمة محمود يعقوبي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الكويت، الجزائر، 2004، ص: 127.

7. الصبان محمد بن علي، حاشية على شرح السلم للملوي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، مصر، 1938، ص: 164. .

8. المقري التلمساني أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق أحمد أعراب وعبد السلام الهراس، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، المغرب، الإمارات العربية المتحدة، 1980، الجزء الخامس، ص: 44.

9. الحفناوي أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906، ص: 169.

10. المرجع نفسه، ص: 170.

11. الأخضري عبد الرحمن، شرح السلم المرونق في علم المنطق، تحقيق أبي بكر بلقاسم ضيف، الطبعة الأولى، 2006، دار ابن حزم، بيروت، ص: 50.

12. السنوسي أبو عبد الله، شرح مختصر في المنطق، على هامش حاشية إبراهيم البيجوري على مختصر السنوسي، مطبعة التقدم العلمية، القاهر، ط 1، 1321 هـ، ص: 21.

13. المصدر نفسه، ص: 19.

14. ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908، ص: 155.

15. المصدر نفسه، ص: 141- 142.

16. المعموري الطاهر بن محمد، في مقدمته لكتاب: الشماغ أبو عبد الله، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، الدار العربية للكتاب، 1984، ص: 7. وانظر: التلمساني أحمد بن محمد المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج 3، ص: 26.؛ مخلوف محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، القاهرة، 1349 هـ، ج 1، ص: 193.

17. ابن خلدون عبد الرحمن، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني، 1979، ص: 22.

18. المصدر نفسه، ص: 65.

19. القلصادي، رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفان، الجامعة التونسية، تونس، 1978.

20. المصدر نفسه، ص: 102

21. المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج 5، ص: 30؛ المقري التلمساني أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، ج5، ص: 218 و223- 224.؛ يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مطبعة بيير فونطانا، الجزائر، 1903م، ص: 71، ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص: 156-161؛مخلوف محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج 1، ص: 220؛ حجي محمد، موسوعة أعلام المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1996، ج 2، ص: 640؛ التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط1، 1989م، ص: 350-352؛ الحفناوي أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص: 73-76.

22. نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط2، 1980،ص: 268-269.

23. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 355- 370.

24. شكل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي تاريخا مفصليا في نمو كتابات الفلاسفة العرب المسلمين، اذ شهد هذا القرن حيوية كمية في هذا الميدان. وكان للخونجي مساهمة فيه، وهذه المساهمة في علم المنطق لايمكن تجاهلها او الانقاص من قيمتها، لاسيما وانه من افضل طلبة العالم فخر الدين الرازي، وله من المؤلفات الى جانب كتاب الجمل كتاب(كشف الاسرار) وهو كتاب كبير الحجم اختصره فيما بعد. حتى ان ابن كثير الدمشقي وصفه الحكيم المنطقي البارع. للتفاصيل ينظر: نعيمة طيب بوجمعة، ابن مرزوق الحفيد التلمساني واثاره (766-842هـ/ 1364-1438م)، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم الانسانية والعلوم الاسلامية/ قسم الحضارة الاسلامية، جامعة وهران، 2017، ص: 311-313.

25. انظر عن المقري الجد: ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، د ت، ج 2، ص: 191؛ ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء

والعلماء بتلمسان، ص: 154-164 ؛ المقري التلمساني أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج5، ص: 203-604، ج6، ص: 193، وج7، ص: 147، 339؛ المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج 4، ص: 204، ج 5، ص: 12 ؛ ابن قنفذ القسنطيني، شرف الطالب في أسنى المطالب، تحقيق عبد العزيز دخان، مكتبة الرشد، المملكة السعودية، ط1، 2003، ص: 93 ؛ ابن القاضي أبو العباس، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد أبو النور، دار التراث، القاهرة، ط1، 1971، ج 2، ص: 42. ؛ يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ص: 58 ؛ ابن خلدون عبد الرحمن، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص: 61-62

26. عن الشريف التلمساني ينظر: الشريف التلمساني،مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول وكتاب مثارات الغلط في الأدلة، دراسة وتحقيق محمد علي فركوس، مؤسسة الريان، بيروت، ط1، 1998؛ الونشريسي أحمد بن يحي، المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب، وزارة الأوقاف للمملكة المغربية، 1981، ج 12، ص: 163؛ ابن خلدون عبد الرحمن، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص: 64 - 66.؛ يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ص: 57؛ابن قنفذ القسنطيني، كتاب الوفيات، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1983، ص: 368؛ المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج 3، ص: 19؛ التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص: 526؛ ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان: 164-184؛ الحفناوي أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف،ج1، ص: 106-123؛ المراغي عبد الله مصطفى، الفتح المبين في طبقات الأصوليين، وزارة الأوقاف المصرية، 1847م، ج2، ص: 182-183؛ ابن القاضي أبو العباس، درة الحجال في أسماء الرجال، ج2، ص: 269.؛ الحجوي محمد بن الحسن،الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، مطبعة إدارة المعارف، الرباط، 1340هـ ج4، ص: 80.؛ الزركلي خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2006، ج5، ص: 327؛ صالح بن محمد الفُلاّني، قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر، تحقيق عامر حسن صبري، دار الشروق، مكة، ص: 232. ؛ كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1993، ج3، ص: 184.؛ نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، ص: 187؛ الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، دار الأمة، الجزائر، الطبعة الثامنة، 2008، ج2، ص: 285- 288.؛ حجي محمد، موسوعة أعلام المغرب، ج 2، ص: 680.

27. ينظر فيما يخص سعيد العقباني: ابن القاضي أبو العباس، درة الحجال في أسماء الرجال، ج3، ص: 299، مخلوف محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، ص: 250؛ المالكي ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق محمد أبو النور، دار التراث للطباعة والنشر، القاهرة، 1972، ج1، ص: 394؛ الداوودي الحافظ شمس الدين، طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983، ج 1، ص: 189؛ الحجوي محمد بن الحسن،الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ج4، ص: 93؛ ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص: 106.؛ التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص : 189- 190.

28. فيما يتعلق بابن مرزوق الحفيد ينظر: ابن حجر العسقلاني، المجمع المؤسس للمعجم المفهرس، تحقيق يوسف المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1992، ج2، ص: 636-638. ؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، 1993، ج3، ص: 360.؛ ابن خلدون عبد الرحمن، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص: 51- 57.؛ السخاوي شمس الدين، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، د ط، د ت، ج7، ص: 50- 51.؛ السيوطي جلال الدين، بغية الوعاة في طبقة اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، ط1، 1979م، ج1،ص: 47؛ المقري التلمساني أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 5، ص: 340 و540؛ البغدادي إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين والمصنفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة بالأوفست، 1951م، ج 2، ص: 191، 192؛ التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص: 450-455؛ الشفشاوني محمد بن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، دار المغرب، الرباط، 1977م، ص: 30، 118، 122؛ المالكي ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، ص: 290-291؛ السخاوي شمس الدين، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، طبع ونشر أسعد طرانروني الحسيني، لبنان، 1979م،ج 3، ص: 503- 506.

29. للتفاصيل اكثر عن حياة ابن مرزوق وتكوينه واثاره يمكن العودة الى اطروحة الدكتوراه التي قدمتها الباحثة نعيمة طيب بوجمعة، ينظر: نعيمة طيب بوجمعة، ابن مرزوق الحفيد التلمساني واثاره (766-842هـ/ 1364-1438م)، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم الانسانية والعلوم الاسلامية/ قسم الحضارة الاسلامية، جامعة وهران، 2017.

30. قدمت الباحثة نعيمة طيب بوجمعة، دراسة وافيه عن كتابات ابن مرزوق الحفيد في مجال علم المنطق، للتفاصيل ينظر: نعيمة طيب بوجمعة المرجع السابق، ص: 313-325

31. هذا المخطوط موجود في قسم المخطوطات/المكتبة الوطنية في الرباط برقم: 460د.

32. عن ابن العباس التلمساني، ينظر: مخلوف محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، ص: 264؛ التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص: 547.؛ السخاوي شمس الدين، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج7، ص: 278.؛ ابن القاضي أبو العباس، درة الحجال في أسماء الرجال، ج2، ص: 295. ؛ المقري التلمساني أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج5، ص: 419 و433؛ الونشريسي أحمد بن يحي، المعيار المعرب والجامع المغرب، ج1، ص:404/ ج2، ص:17و388/ ج4، ص: 363/ .ج5، ص: 106و109؛ البغدادي إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين والمصنفين، ج2، ص: 205. ؛ ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص: 223؛ القلصادي، أبو الحسن، رحلة القلصادي، ص: 109.

33. حول حياة شهاب الدين الندرومي واعماله المنطقية، ينظر: التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص: 120؛ ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص: 44 ؛ الحفناوي

أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص: 32؛ كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين، ج1، ص: 95؛ نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، ص: 329.

34. عن أبي الحسن القلصادي، يطالع: القلصادي، أبو الحسن، رحلة القلصادي؛ القلصادي أبو الحسن علي، كشف الأستار عن علم حروف الغبار، مخطوط رقم: 5951 ف 1718 أ، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية؛ القلصادي، شرح فرائض خليل "مخطوط"، رقم: 4 ر 216، مكتبة جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية. ؛ ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص: 141- 143؛ الزركلي خير الدين، الأعلام، ج 5، ص: 10؛ السخاوي شمس الدين، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج6، ص: 14-15؛ ابن القاضي أبو العباس، درة الحجال في أسماء الرجال،ج 3، ص: 251-252؛ التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص: 339-341.؛ المقري التلمساني أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج2، ص: 692 /ج 5، ص: 426، 428 /ج 6، ص: 446؛ مخلوف محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية،ج 1، ص: 261؛ الحجوي محمد بن الحسن،الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ج1، ص: 96؛ محفوظ محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1994، ج 4، ص: 108؛ الدفاع علي عبد الله، العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1983م، ص: 271.

35. حول السنوسي ومساهماته في علم المنطق، ينظر: ماحي قندوز، ترجمة الإمام أبي عبد الله السنوسي التلمساني وتحقيق بعض رسائله، دار كردادة للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة، 2011م؛ السنوسي أبو عبد الله، مختصر في المنطق، ضمن: ماحي قندوز، ترجمة الإمام أبي عبد الله السنوسي التلمساني وتحقيق بعض رسائله؛ السنوسي أبو عبد الله، شرح مختصر في المنطق، على هامش حاشية إبراهيم البيجوري على مختصر السنوسي، مطبعة التقدم العلمية، مصر، ط 1، 1321 هـ؛ السنوسي محمد بن يوسف، شرح مختصر في علم المنطق، مخطوط رقم: 6059- ق1208 / 2، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية؛ اليوسي أبو الحسن بن مسعود، نفائس الدرر في حواشي المختصر، مخطوط رقم: 2: 237، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.؛ ابن القاضي أبو العباس، درة الحجال في أسماء الرجال، ج2، ص: 141- 142؛ الحفناوي أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص: 207 – 219؛ ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص: 234 ⟵ 246؛ نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر،ص: 180- 181؛ كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين، ج 3، ص: 781 – 786؛ البغدادي إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين والمصنفين، ج 2، ص: 400؛ الزركلي خير الدين، الأعلام، ج 7، ص: 154؛ مخلوف محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية،ج 1، ص: 266.

36. هذا المخطوط موجود في قسم المخطوطات/المكتبة الوطنية الجزائرية في الجزائر العاصمة برقم: 1382-1307.

37. توجد منه نسخة خطية بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم: 20 أ، وبجامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية رقم: 4771 ف 972/ 5

38. حول المغيلي ينظر: المغيلي عبد الكريم، لبّ اللباب في ردّ الفكر إلى الصواب، تحقيق أبو بكر بلقاسم ضيف الجزائري، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2006م؛ المغيلي عبد الكريم، منح الوهاب في ردّ الفكر إلى الصواب، مخطوط بدون رقم التصنيف، الخزانة البكرية بتمنطيط، توات (أدرار)، الجزائر؛ الحفناوي أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص: 196 ← 200؛ ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص: 253؛ نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر،ص: 308؛ كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين، ج3، ص: 424.؛ الزركلي خير الدين، الأعلام، ج6، ص: 216.؛ مخلوف محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية،ج 1، ص: 274.

39. وتوجد منه نسخة خطية بدون رقم التصنيف في الخزانة البكرية بتمنطيط، توات (أدرار)، الجزائر.

40. الحفناوي أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص: 91 [1] .

41. ابن خلدون عبد الرحمن، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص: 65.

42. الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، الجزء الثاني، ص: 285.

43. ريتشر نيكولا، المرجع السابق، ص: 521.

زاب المغرب الأوسط

أ. بوسيف برحو
جامعة ابن خلدون/ تيارت

مدخل:

منطقة الزاب ليست كما استقر في الأذهان على أنها تعني فقط زاب المغرب الأوسط والذي منه بسكرة والمسيلة وغيرها، وإنما يدخل ضمن هذه التسمية مناطق عديدة، ذلك أن مصطلح الزاب ببساطة له عدة معاني ومنها النهر والمدينة أو القرية أو الحاضرة حتى أن مدينة النعمانية في العراق تسمى مدينة الزاب،و في العراق زوابي كثيرة وهي الأنهر، وزاب المغرب الأوسط يمتد في المناطق الداخلية بدولة الجزائر الحالية مما يلي الجزء الشمالي أو الساحلي ويمتد من حدود تلمسان غربا إلى حدود تونس وليبيا شرقا، ويطلق عليه الزاب الأسفل وهو يتبع الزاب الأعلى الذي يعرف ببلاد الجريد الداخلة حدوده في أجزاء من صحراء تونس وليبيا .

وكما أسلفت فإن هذه المنطقة شاسعة جدا وعامرة بالسكان، وكان بها أسواق كثيرة، نظرا لأن أرضها كانت تنتج العديد من المنتوجات الزراعية والفلاحية التي كانت لا تسوق في بلاد الزاب فقط، بل تجاوزه إلى مناطق أخرى مختلفة وعلى رأسها بلاد السودان ومصر. ومن الناحية السياسية فبرغم أن بلاد الزاب كانت مسرحا للكثير من الأحداث والصراعات، إلا أنه ظل دائما تابعا للمتغلب من المناطق المجاورة له من بني الأغلب إلى العبيديين إلى بني زيري والحماديين إلى غيرهم، ولم تقم بإحدى قواعده مثل بسكرة وطبنة أو أربة أي دولة مستقلة كانت. وفيما يخص العلم وطلبه وبرغم أن الزاب لم يعرف كحاضرة علمية معتبرة، إلا أن كثيرا من أبنائه استطاعوا أن يصنعوا لأنفسهم أسماء كبيرة في هذا المجال وذلك عن طريق الرحلة الى الحواضر العلمية في المشرق والمغرب والتتلمذ على يد شيوخها.

أولا: أصل التسمية:

الزَّابُ:

زاب الشيء إذا جرى، ويقال زاب يزوب إذا انسلّ هربا، والذي يعتمد عليه أنّ زاب هو ملك من قدماء ملوك الفرس، وهو زاب بن توركان بن منوشهر ابن إيرج بن أفريدون، حفر عدّة أنهر بالعراق فسمّيت باسمه، وربما قيل لكل واحد زابي، والتثنية زابيان وإذا جمعت قيل لها الزوابي، وهي الزاب الأعلى بين الموصل وإربل ومخرجه من بلاد مشتكهر، وهو حد ما بين أذربيجان وبابغيش،... وأمّا الزاب الأسفل فمخرجه من جبال السّلق وأذربيجان ثمّ يمرّ إلى ما بين دقوقا وإربل، وبينه وبين الزاب الأعلى مسيرة يومين أو ثلاثة ثمّ يمتدّ حتى يفيض في دجلة، والزاب أيضا كورة صغيرة يقال لها ريغ، وهي كلمة بربريّة معناها السبخة، فمن كان منها يقال له الريغي والزاب أيضا: كورة عظيمة ونهر جرّار بأرض المغرب على البرّ الأعظم عليه بلاد واسعة وقرى متواطئة بين تلمسان وسجلماسة والنهر متسلط عليها[1]. ومن مدن الزاب الكبير وقراه: بسكرة، وتوزر، قصطيلية، طولقة، قفصة، نِفزاوة، نفطة وبادس[2].

ويعرفه ابن خلدون بقوله: الزاب وطن كبير، قاعدته بسكرة وحدّه من لدن قصر الدوسن بالمغرب إلى بادس في المشرق يفصل بينه وبين البسيط الّذي يسمّونه الحضنة جبل درن المتّصل من أقصى المغرب إلى قبلة برقة، ويتصل من شرقيه بجبل أوراس المطل على بسكرة، ويشتمل الزاب على قرى متعدّدة متجاورة جمعا جمعا، يعرف كلّ واحد منها بالزاب. وأوّلها زاب الدوسن، ثم زاب طولقة ثم زاب مليلة وزاب بسكرة وزاب تهودا وزاب بادس، وبسكرة أمّ هذه القرى كلها[3].

وزاب المغرب الوسط عند ابن عذاري هي ما يطلق عليه أحيانا الزاب الأسفل وحدها من الجريد أو بلاد الزاب الأعلى إلى مدينة تيهرت والزاب الأسفل يتبع أعمال الزاب الأعلى[4]. وحسب ما ذكر نستخلص أن مصطلح الزاب قد يأتي بمعنى النهر وقد يأتي بمعنى الكورة أو القرية والمدينة .

ثانيا: بعض مدن وكُوَر الزّاب:

1. بسكرة:

هي أم بلَاد الزّاب، وقاعدة أمصار الجريد، و(تعرف ببسكرة النّخيل)، وهي مدينة كبيرة كثيرة النّخل والزّيتون وأصناف الثّمار وهي مدينة مسورة عليها خندق، وبها جامع ومساجد وحّمامات، وحواليها بساتين كثيرة، وفيها غابة كبيرة مقدار ستة أميال، فيها أجناس الثّمار[5].

ومن تمرها جنس يعرف بالكسبا وهو الصيحاني يضرب به المثل لفضله على غيره، وجنس آخر يعرف بالياوي، أبيض أملس وكان عبيد الله الشيعي صاحب القيروان يأمر عماله بالمنع من بيعه، ويبعث ما هناك منه إليه لطيبه وحسنه، وبسكرة دار فقه وعلم كثير وفيها العلماء وأهلها على مذهب أهل المدينة، ولها من الأبواب باب المقبرة، وباب الحمام وباب ثالث يسكنه المولدون، وحولها من قبائل البربر سدراتة ومغراوة، وداخل بسكرة آبار عذبة، وبها جبل ملح يقطع منه كالصخر الجليل ومنه كان عبيد الله الشيعي وبنوه يستعملونه في أطعمتهم[6].

2. طبنة:

أعظم بلاد الزاب، بينها وبين المسيلة مرحلتان، وهي حسنة كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير، وعليها سور تراب وبها أخلاط من الناس، وبها صنائع وتجارات، ولأهلها تصرف في ضروب من التجارات والتمر وسائر الفواكه بها كثير، وهي مدينة كبيرة ولها حصن قديم عليه سور من حجر جليل ضخم متقن البناء من عمل الأول، ولها أرباض واسعة، وهي مما افتتح موسى بن نصير حين دخل بلاد إفريقية فبلغ سبيها عشرين ألف رأس وتشق طبنة جداول الماء العذب، ولها بساتين كثيرة فيها النخل والثمار ولها نهر يشق غابتها، وقد بني له صهريج كبير يقع فيه وتسقى منه جميع بساتينها وأرضها، ولم يكن من القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها، وإليها ينسب أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني، كانت له رحلتان إلى المشرق، وأخذ العلم عن جماعة من أهل مكة ومصر والقيروان[7].

3. المسيلة :

من بلاد الزاب بالمغرب بقرب قلعة أبي طويل، وهي مدينة جليلة على نهر يسمى نهر سهر في بساط من الأرض، ومنبع نهر سهر من مدينة الغدير، وأسس المسيلة أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله الشيعي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة (313 ه)، وكان المتولي لبنائها علي بن حمدون بن سماك الجذامي المعروف بابن الأندلسي، فلما أتمها أمره الشيعي عليها، فلم يزل بها أميراً حتى مات في فتنة أبي يزيد وبقي ابنه جعفر أميراً فيها وولي بلاد الزاب كلها، والمسيلة كثيرة النخل والبساتين تشقها جداول المياه العذبة، وكانت مدينة عظيمة على نظر كبير، وحواليها قبائل كثيرة من البربر من عجيسة وهوارة وبني برزال، وبها أسواق وحمامات، ويجود عندهم القطن وهي كثيرة اللحم رخيصة السعر، وبها عقارب مهلكة لا يخلص من لدغتها[8].

وقيل إن المسيلة المستحدثة أحدثها علي بن الأندلسي في ولاية إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم، وهي عامرة في بسيط من الأرض ولها مزارع ممتدة، ولأهلها سوائم وخيل وأغنام وأبقار وجنات وعيون وفواكه وبقول ولحم ومزارع قطن وقمح وشعير، وبها قوم من البربر والتجار، وبها ماء كثير منبسط على وجه الأرض عذب، وفيه سمك وفيه طرق حمر لم ير في الدنيا سمك على صفته، وأهل المسيلة يفتخرون به، قدره من الشبر فما دونه، وربما اصطيد منه الشيء الكثير واحتمل إلى قلعة بني حماد، وبينهما اثنا عشر ميلاً[9].

4. نقاوس :

نقاوس مدينة صغيرة كثيرة الشجر والبساتين وأكثر فواكهها الجوز ومنها يتجهز به إلى ما جاورها من الأقطار، وفيها سوق قائمة ومعايش كثيرة، ومن نقاوس إلى المسيلة أربع مراحل، وقيل ثلاث، ومن مدينة نقاوس إلى حصن بسكرة مرحلتان وهو حصن منيع في كدية تراب عال وبه سوق وعمارة وبه أيضا من التمر كل غريبة وطريفة[10]. وبنقاوس قوم من الجند وحواليها البربر من مكنانة بطن من زناتة وحولهم قوم يقال لهم أورية[11].

5. أَرَبَةُ:

بالتحريك والباء الموحدة: اسم مدينة بالمغرب من أعمال الزاب، وهي حسب ياقوت الحموي أكبر مدينة بالزاب، يقال إن حولها ثلاثمائة وستين قرية[12].

6. تَوْزَرُ:

مدينة في أقصى إفريقية من نواحي الزاب الكبير من أعمال الجريد، معمورة، بينها وبين نفطة عشرة فراسخ، وأرضها سبخة وهي مدينة عليها سور مبني بالحجر والطّوب، ولها جامع محكم البناء وأسواق كثيرة، وحولها أرباض واسعة، وهي مدينة حصينة لها أربعة أبواب، كثيرة النخل والبساتين، ولها سواد عظيم، وهي أكثر بلاد إفريقية تمرا ويخرج منها في أكثر الأيام ألف بعير موقورة تمرا، وشربها من ثلاثة أنهار. لا يعلم في بلاد مثل أترنجها جلالا وحلاوة وعظما، وجباية قسطيلية مائتا ألف دينار، وأهلها يستطيبون لحوم الكلاب ويربّونها ويسمّنونها في بساتينهم ويطعمونها التمر ويأكلونها[13].

7. قفصة:

وهي بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد بينها وبين القيروان ثلاثة أيام مختطة في أرض سبخة لا تنبت إلا الأشنان والشيح، يشتمل سورها على ينبوعين للماء أحدهما يسمى الطرميذ والآخر الماء الكبير وخارجها عينان أخريان إحداهما تسمى المطوية والأخرى بيّش، وعلى هذه العين عدة بساتين ذوات نخل وزيتون وتين وعنب وتفاح، وهي أكثر بلاد إفريقية فستقا ومنها يحمل إلى جميع نواحي إفريقية والأندلس وسجلماسة، وبها تمر مثل بيض الحمام[14].

8. أشير:

بلدة أو حصن بينها وبين المسيلة مرحلة، من بلاد الزاب بناها زيري بن مناد الصنهاجي وتعرف بأشير زيري، وكانت مدينة قديمة فيها آثار عجيبة وإنما بنى زيري سورها وحصنها وعمرها فليس في تلك الأقطار أحصن منها، وهي بين جبال شامخة محيطة بها وداخل المدينة عينان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك لهما قعر من بناء الأول، وبالقرب من المدينة بنيان عظيم عجيب يعرف بمحراب سليمان ولم ير بنيان أعظم منه ولا أحكم، فيه من الرخام والأعمدة والنقوش ما يقصر عنه الوصف، وهي جليلة حصينة[15].

9. تهودة :

من بلاد الزاب بالقرب من بسكرة، وهي مدينة أولية بنيانها بالحجر الجليل وعليها سور عظيم، ولها ربض ويدور بجميعها خندق، ولها نهر كبير ينصب إليها من جبل أوراس،

فإذا كان بينهم وبين أحد حرب وخافوا النزول عليهم أجروا ماء ذلك النهر في الخندق المحيط ببلدهم فامتنعوا به وشربوا منه، وهي كثيرة البساتين والنخيل والزرع وجميع الثمار[16]. 16 وحسب صاحب كتاب الاستبصار فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن سكنى تهوده وقال سوف يقتل بها رجال من أمتي على الجهاد فى سبيل الله ثوابهم كثواب أهل بدر وأهل أحد، والله ما بّدلوا حتى ماتوا [17].

وعن هذا يخبرنا ابن خلدون أن يزيد بن معاوية لما استقل بالخلافة، أعاد عقبة بن نافع على إفريقية سنة اثنتين وستين فدخلها، وقد نشأت الردّة في البرابرة فزحف إليهم، وفرّ منه الروم والفرنجة فقاتلهم، وفتح حصونهم مثل لميس وباغاية، وفتح أذنه قاعدة الزاب بعد أن قاتله ملوكها من البربر فهزمهم، ثم رحل إلى طنجة فأطاعه بلبان ملك غمارة، وصاحب طنجة وهاداه وأتحفه، ودله على بلاد البربر وراءه بالمغرب، من بلاد المصامدة وبلاد السوس، وكانوا على دين المجوسية، فسار عقبة وفتح وغنم وسبى وأثخن فيهم وانتهى إلى السوس، ووقف على البحر المحيط وقفل راجعا، وأذن لجيوشه في اللحاق بالقيروان، وكان كسيلة ملك أروبة والبرانس من البربر قد اضطغن عليه لإن عقبة كان يحاصره في كل يوم ويأمره بسلخ الغنم إذا ذبحت، وأرسل البربر فاعترضوا له في تهودا، وقتلوه في ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين، واستشهدوا كلهم[18].

10. قسنطينة:

مدينة القسنطينة عامرة وبها أسواق وتجار وأهلها مياسير ذوو أموال وأحوال واسعة ومعاملات للعرب وتشارك في الحرث والادخار والحنطة تقيم بها في مطامرها مائة سنة لا تفسد، والعسل بها كثير، وكذلك السمن يتجهز به منها إلى سائر البلاد ومدينة القسنطينة على قطعة جبل منقطع مربع فيه بعض الاستدارة لا يتوصل إليه من مكان إلا من جهة باب في غربيها ليس بكثير السعة وهناك مقابر أهلها حيث يدفنون موتاهم، ويحيط بها الوادي من جميع جهاتها كالعقد مستديرا بها وليس للمدينة من داخلها سور يعلو أكثر من نصف قامة إلا من جهة باب ميلة وللمدينة بابان باب ميلة في الغرب وباب القنطرة في الشرق وهذه القنطرة من أعجب البناءات[19].

11. سطيف:

حصن كبير القطر كثير الخلق كالمدينة وهو كثير المياه والشجرة المثمرة بضروب من الفواكه ومنها يحمل الجوز لكثرته بها إلى سائر الأقطار وهو بالغ الطيب حسن ويباع بها رخيصا وبين سطيف وقسنطينة أربع مراحل[20].

ثالثا: سكان بلاد الزاب:

يبدو أن بلاد الزاب كانت خليطا من القبائل، ومن الأجناس البربرية، والعربية، وبقايا الروم، وبعض العجم والأفارقة وقبائل من الجند. وعن القبائل البربرية التي استوطنت هذه المنطقة وما جاورها نجد قبيلة زناتة، ومضاربهم ببلاد الزاب بالمسيلة، وبسكرة، وجبل أوراس ونقاوس، وطبنة، وباغاية وسطيف وعلى الطريق التي تؤدي من أشير إلى تنس[21]. وقد توزعت بطونها كالتالي [22]:

أ- هوارة بجبل أوراس وناحية المسيلة .
ب- مكناسة بجبل أوراس وتهوذة ونقاوس.
ت- أوربة بناحيتي نقاوس وبونة الحديثة.
ث- صدراتة بالمسيلة وبسكرة.
ج- مزاتة بالمسيلة وباغاية.
ح- بنو زنداج بالمسيلة.
خ- وبنو برزال بالمسيلة وسطيف.
د- و طبنة ولواتة بجبال بجاية قبل بنائها.

1. كتامة:

قال عنهم ابن خلدون هذا القبيل من قبائل البربر بالمغرب، وأشدهم بأسا وقوة وأطولهم باعا في الملك عند نسابة البربر من ولد كتام بن برنس،كانوا موطنين بأرياف قسنطينة إلى تخوم بجاية غربا إلى جبل أوراس من ناحية القبلة وكانت بتلك المواطن بلاد مذكورة أكبرها لهم، وبين ديارهم ومجالات ثقلهم مثل إيكجان وسطيف وباغاية وبفاس وتلزمه وتيكست وميلة وقسنطينة والسيكرة والقل وجيجل من حدود جبل أوراس إلى سيف البحر ما بين بجاية، وبونة وكانت بطونهم كثيرة[23] .

2. **صنهاجة:**

وصنهاجة شعب كبير جدا ذكر أن قبائلهم وبطونهم تنتهي إلى سبعين وهم موجودون بكل مكان في المغرب لا يكاد يخلو منهم جبل ولا بسيط وقد تواجدوا من أرض المغرب الأوسط بالناحية الواقعة بين بجاية والمسيلة ومليانة ولمدية والبحر[24].

ومن صنهاجة قبيلة تلكاتة، وهي من حكمت إفريقية والمغرب الأوسط نيابة عن العبيديين وهم من أهل المدر، وقد تزعمت تلكاته القبائل الصنهاجية بافريقية والمغرب الأوسط، وكانوا في مواجهة زناته التي رفعت لواء الحرب في وجه العبيديين، وخلفائهم على بلاد المغرب من صنهاجة، ومن هذه القبيلة كانت دولة بني حماد[25].

أما عن العرب فلقد ظل التواجد العربي في بلاد المغرب الإسلامي عامة تواجدا غير مستقر اقتصر على الأجناد التي كانت تقدم إلى هاته المنطقة بغرض الجهاد وفتح البلاد، ولعل أول تواجد مستقر للعرب كان بعد تمصير الأمصار بدء بالقيروان على يد عقبة بن نافع ثم تونس وغيرها، ولقد كانت القبائل اليمنية من أوائل القبائل العربية استقرارا في افريقية ثم تبعتها القبائل القيسية[26].هذا بالإضافة إلى بعض القرشيين[27]. وفيما يخص المغرب الأوسط فقد استقرت به بعض القبائل المضرية بنواحي سطيف، وميلة كما عرف في منطقة الزاب أخلاط يمنية ومضرية[28].

ويعتبر دخول بني هلال في القرن الخامس للهجرة، إلى بلاد المغرب الإسلامي عامة وبلاد المغرب الأوسط خاصة بداية للتواجد الحقيقي للجنس العربي في هاته المنطقة نظرا للتأثيرات الهامة التي حملها معه هذا التواجد الذي يطلق عليه تسمية الزحف تارة والغزو تارة أخرى، وقد ساهمت القبائل الهلالية في تغيير الخارطة السياسية والديمغرافية وحتى الخارطة الثقافية لبلاد المغرب. ومن بطون بني هلال : بنو فروة، وبنو بعجة، الذين بين مصر وإفريقية، وبنو حرب الذين بالحجاز ورياح بنواحي قسنطينة والمسيلة والزاب[29].

3. **الأثبج:**

وكانوا أوفر القبائل الهلالية عددا وأكثرهم بطونا[30]. وقد استقروا بجبال أوراس الشرقية بعد أن تمكنوا من إخضاع صنهاجة[31]وبطون الأثبج كثيرة ومنها : دريد وكرفة وقرة وعياض والعاصم ومقدم ولطيف[32] ولكل بطن من هاته البطون بطون تفرعت عنه

فمن كرفة بنو محمد، والمراونة، وبنو كثير والحدلجات وهاته الأخيرة كانت مواطنها بجبل أوراس مما يلي زاب تهودا، أما دريد فتفرعت عنها بطون هي أولاد سرور وأولاد عطية وأولاد عبد الله، وكانت مواطن دريد ما بين بونة وقسنطينة، أما عياض فقد استقروا بجبل قلعة بني حماد بعد أن تمكنوا من هزيمة قبائله، ومن بطونهم الزبر وأولاد صخر وأولاد حمة والمهاية والخراج والمرتفع وغيرها، واستقر بنو الضحاك ببلاد الزاب واتخذوا به المدن بعدما تركوا الظعن، أما لطيف فمنهم اليتامى أولاد كسلان بن خليفة بن لطيف وذوو مطرف، وذوو أبي خليل وذوو جلال بن معافى، واللقامنة وأولاد لقمان، وأولاد جرير بن علوان، وغيرهم ولقد استقروا ببلاد الزاب. والعمور ليسوا من الأثبج وإنما يلحقون بهم، وقد تواجد العمور مابين جبل أوراس شرقا إلى جبل راشد وبسفح جبل أوراس المطل على بسكرة[33].

4. رياح:

ويرجع نسبهم إلى رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر وهو أخو الأثبج، وكانت بطون رياح دائبة الحركة والتنقل من الجريد إلى القيروان إلى الزاب إلى المسيلة إلى ورقلة ولهم أقطاع بالحضنة ونواحي قسنطينة[34].

5. زغبة:

قبيلة عربية بطن من رياح من بني هلال، وهم زغبة بن ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن يزيد بن حفص بن قيس بن عيلان بن مضر بن معد بن عدنان من العدنانية، وهم إخوة رياح. أما بالنسبة لمواطنهم عند دخولهم إفريقية فكانت بنواحي طرابلس وقابس ثم اقتسموا بلاد المغرب الأوسط ثم ارتحلوا إلى التيطري، واستقروا ما بين المسيلة وقبلة تلمسان، ثم انتقلوا بعدها إلى مواطن أخرى. وبطونها خمسة وهم: حصين ويزيد وعروة وعامر ومالك أبناء زغبة[35].

رابعا: ذكر بعض منتوجات بلاد الزاب:

مما ذكر آنفا نستطيع إحصاء بعض المنتوجات الزراعية لهذه المنطقة، ومنها الزيتون، والتمور ببسكرة، ومن أشهر تمورها جنس يعرف بالكسبا وهو الصيحاني يضرب به المثل لفضله على غيره، وجنس آخر يعرف بالياوي أبيض أملس، طيب حسن.

- القطن والحنطة والشعير والتمور بطبنة بالإضافة إلى مختلف الزروع والفواكه الأخرى.

- الفواكه والبقول والقطن وقمح وشعير، بالمسيلة. كما عرفت هذه المدينة تربية الخيل والأغنام والأبقار بكثرة فكان اللحم بها رخيصا .

- الجوز بنقاوس والذي منها يحمل إلى قلعة حماد وبجاية وإلى أكثر تلك البلاد، وكثير من الثمار والزروع .

- التمور بتوزر وهي أكثر بلاد إفريقية تمرا، ويخرج منها في أكثر الأيام ألف بعير موقورة تمرا، لا يعلم في بلاد مثل أترنجها جلالا، وحلاوة وعظما.

- الزيتون والتين والعنب والتفاح بقفصة، والتي وهي أكثر بلاد إفريقية فستقا ومنها يحمل إلى جميع نواحي إفريقية والأندلس وسجلماسة، وبها تمر مثل بيض الحمام.

- الحنطة، العسل، والسمن في قسنطينة .

كما عرفت المنطقة تواجد الملح بكثرة، وكان يتواجد بها جبال منه، وكانت تجارة الملح في العصر الوسيط تلقى رواجا كبيرا وكانت القوافل تمضي به إلى مختلف الأصقاع، خاصة في تجارتهم مع السودان الغربي، أين كان يستبدل بالذهب، وهو كما يعرف بالإضافة إلى دوره الذي لا يستغنى عنه في الطبيخ كان يستعمل لحفظ بعض الأطعمة ومنها اللحم والسمك.

خامسا: بعض من أعلام الزاب وذكر بعض أمرائه :

مثلها مثل باقي مناطق المغرب الاسلامي عرفت منطقة الزاب العديد من الأعلام الذين تركوا اثرا في مختلف مجالات الحياة، ومنهم نذكر:

1. محمد بن الحسين التميمي الحماني الطبني الزابي:

وطبنة: بلد من أرض الزاب في عدوة الأندلس، شاعر مكثر وأديب مفتن، ومن بيت أدب وشعر، وجلالة ورياسة، كان في أيام الحكم المستنصر، وله أولاد نجباء مشهورون في الأدب والفضل[36].

2. أبو القاسم الهذلي المغربي البسكري:

نسبة إلى بسكرة من اقليم الزاب الصغير- الضرير المقرئ النحوي: كان عالما بالقراءات والعربية، قرأ على المشايخ بأصبهان وطوف البلاد في طلب القراءات، وقدم بغداد فقرأ بها

على القاضي أبي العلاء محمد بن علي بن يعقوب الواسطي وغيره، وورد نيسابور فحضر دروس أبي القاسم القشيري في النحو، وسمع باصبهان من الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، وبنيسابور من أبي بكر أحمد بن منصور بن خلف، وقرره نظام الملك في مدرسته بنيسابور مقرئا سنة ثمان وخمسين وأربعمائة فاستمر بها إلى أن توفي، ومن تصانيفه الكامل في القراءات وغيره، وكانت ولادته سنة ثلاث وأربعمائة ومات سنة خمس وستين وأربعمائة عن ثلاث وستين سنة[37].

3. البسكري

هو أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة بن محمد بن عقيل بن سوادة بن مكناس من أهل بسكرة بلد في المغرب، ورد بغداد وقرأ على أبي العلاء الواسطي وسافر كثيرا وعاد إلى بغداد وحدث عن أبي نعيم الأصبهاني وعن غيره من النيسابوريين، وعمل اختيارا في القراءات، وكان يدرس النحو ويفهم الكلام والفقه

4. عبد الْكَرِيم بن إِبْرَاهِيم النَّهْشَلِي:

توفّي بالقيروان أَو المهدية سنة خمس وَأَربع ماية ومنشؤه بالمحمدية من أَرض الزاب كان شَاعِرا مقدما عَارفا باللغة خبيرا بأيام الْعَرب وَأَشعَارها بَصيراً بوقائعها وآثارها وَكانت فيه غفلة شَديدة عمّا سوى ذَلك قَالَ لَهُ بعض إخوانه النَّاس يَزعمونَ أَنَّك أبله فَقال هم البله هل أَنا أبله فِي صناعتي قَالَ لَا قَالَ فَمَا على الصَّائغ أَن لَا يكون نساجا وَلم يهج أحدا قط[38].

5. النّهوذي:

بفتح أَوله، وضم الهَاء، وسكون الوَاو، ثمّ ذال مُعْجمَة مَكسورة، نسبة إِلى نهوذ، وهي بلدة من بِلَاد الْمغرب، من أَرض الزاب نسب إِلَيْهَا أَبُو المُهَاجر دِينَار بن عبد الله النهوذي الزابي، مولى جميلَة بنت عقبَة الْأنصَارِيّ، روى عَنهُ الْحَارِث بن يزِيد الْحَضرميّ، قتل ببلده مَعَ مَولَاه سنة ثَلَاث وسِتِّين[39].

6. أحمد بن خلف المسيلي

جعفر يعرف بالخياط، من أهل العدوة ودخل الأندلس فاستوطنها، قال ابن الفرضي كان فقيهاً عالماً بالمسائل حافظاً لها حسن التكلم في الفقه على مذهب مالك، وكان ورعاً

زاهداً فاضلاً، دخل الأندلس، وسكن الثغر أعواماً كثيرة. وكان منسوباً إلى البأس والنجدة، وتوفي رحمه الله بقرطبة في جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، رحمه الله[40].

7. **أبو حسين بن سلمون المسيلي:**

دخل إلى الأندلس، فقطن قرطبة، بعهد الجماعة. فلم يرمها، وشهر بها علمه وفضله، وولي الشورى. فكان أحد جلة مفتيها الى أن مات، وكان عفيفاً متواضعاً حافظاً للمسائل، واقفاً على الأصول، فيما قاله ابن حيان. قال: وتوفي رحمه الله سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة. رحمه الله[41].

8. **القسنطيني:**

عليّ بْن القاسم بن محمد، أبو الحسن التّميميّ، المغربيّ، القُسَنْطينيّ الأَشْعريّ المتكلّم (المتوفى: 519 هـ) سَمِعَ بدمشق " الْبُخَارِيّ " مِن الفقيه نصر المقدسيّ، وأخذ الكلام عَنْ أَبِي عَبْد الله محمد بْن عتيق القَيْروانيّ، ورحل إلى العراق، وله تصنيف سمّاه " تنزيه الإلهية وكشف فضائح المشبهة الحشوية "، خرج فيه من قشوره. وقَالَ ابن عساكر: وكَانَ يُذكر عَنْهُ أنه يعمل كيمياء الفِضَّة، تُوُفّي بدمشق[42].

9. **المَريني (542 - 614 هـ/ 1147 - 1217 م):**

عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة بن محمد المريني، أبو محمد مؤسس الدولة المرينية في المغرب الأقصى، وبنو مرين من بربر المغرب، من قبيلة زناتة، كانت إقامتهم في بلاد القبلة، من زاب إفريقية إلى سجلماسة، يتنقلون في تلك الصحاري لا يدخلون تحت حكم سلطان ولا يؤدون ضريبة، شغلهم الصيد والإغارة على أطراف البلاد. وكانت الرياسة فيهم لأسلاف صاحب الترجمة وممن عرف منهم (المخضب بن عسكر بن محمد) قتل في بعض الحروب التي كانت بين عبد المؤمن الكومي والمرابطين سنة 540هـ وانتقلت الرياسة إلى ابن عمه (أبي بكر بن حمامة) ومن هذا إلى ابنه أبي خالد (محيو) وقتل في صحراء الزاب سنة 592 هـ وقام بعده بأمر القبيلة ابنه (عبد الحق) المترجم له، ومولده في الزاب، فانتقل بهم إلى المغرب الأقصى سنة 610 منتجعا غزارة المياه وخصب الأرض، فكان لهم حصن (تازوطا) وما حوله من ديار الريف. وقاتلهم الموحدون أصحاب مراكش وفاس، فظفر المرينيون سنة 613ه وزحف بهم الأمير عبد الحق إلى رباط (تازا)

فقتل عاملها وهزم من كان معه من الموحدين وأنصارهم. وخرج على عبد الحق بعض رجاله من بني (عسكر) فقصدوا قبائل (بني رياح) أقوى قبائل العرب في تلك الصحاري، وعادوا بجموع كثيرة يقاتلون عبد الحق. فصبر لهم، وبايعه رجاله على أن يموتوا دونه، فكانت المعركة قرب وادي (سبوا) على أميال من (تافرطاست) وظفر بنو مرين ولكنهم أصيبوا بمقتل أميرهم (عبد الحق) فدفنوه بظاهر قرية (تافرطاست) قرب مكناسة. وكان هذا أول ظهورهم بمظهر القوة والاجتماع(43).

سادسا: ذكر بعض أمراء منطقة الزاب :

1. ابن حَمْدُون (000 - 334 هـ/ 000 - 945م)

علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامي، ويقال له ابن الأندلسي: أول من ولي إمرة " الزاب " بإفريقية في عهد الفاطميين. وكان على اتصال بهم وهم في المشرق، قبل ظهور دعوتهم. فلما تملكوا في المغرب، ولوه على الزاب، فأقام فيها إلى أن كانت فتنة أبي يزيد (مخلد بن كيداد) في أيام القائم بأمر الله (الفاطمي) فأمره القائم بأن يجند قبائل البربر ويوافيه إلى " المهدية " فنهض بعسكر ضخم، وقارب باجة (بإفريقية) فهاجمه أيوب بن أبي يزيد، فاقتتلا، فسقط ابن حمدون من بعض الشواهق فمات(44).

2. أبو علي جعفر بن علي بن أحمد بن حمدان الأندلسي:

صاحب المسيلة وأمير الزاب من سي فيه من المدائح الفائقة ما يجاوز حسنها حد الوصف،وكان أبوه علي قد بنى المسيلة، وأعمال إفريقية، كان سمحاً كثير العطاء مؤثراً لأهل العلم، ولأبي القاسم محمد بن هانئ الأندلكان بينه وبين زيري بن مناد جد المعز بن باديس إحن ومشاجرات أفضت إلى القتال، فتواقعا وجرت بينهما معركة عظيمة، فقتل زيري فيها ثم قام ولده بلكين مقام أبيه واستظهر على جعفر المذكور، فعلم أنه ليس له به طاقة، فترك بلاده ومملكته وفر إلى الأندلس، فقتل بها في سنة أربع وستين وثلاثمائة رحمه الله تعالى(45).

3. إبراهيم بْن الأغلب بْن سالم التَّميميُّ القيروانيُّ الشهيد، (الوفاة: 191 - 200 ه)

كَانَ مِن وجوه جنْد مصر، فوثب بعد موت أبيه هُوَ واثنا عشر رجلا بمصر، فأخذوا مِن بيت المال مقدار أرزاقهم، لم يزيدوا عَلَى ذَلِكَ، وهربوا فلحقوا بالزّاب مِن نواحي قيروان.

فاعتقد إبراهيم بْن الأغلب عَلَى مِن كَانَ فِي تِلْكَ الناحية من الجند وغيرهم الرياسة، وأقبل يهدي إلى هَرْثَمَة بْن أَعْيَن أمير القيروان يومئذٍ ويلاطفه، ويعلمه أنني عَلَى الطاعة، وأنّني ما دعاني إلا الحاجة ومطل الديون لي، فاستعمله هَرْثَمَة عَلَى ناحية الزّاب، فكفاه أمرَها وضبطها، وكان فقيهًا، دينًا، خطيبًا، شاعرًا، ذا رأي، وحزم، وبأس ونجدة وسيادة، وحُسن سيرة، قَلّ أنْ ولي أفريقيةَ أحدٌ مثله في العدل والسياسة، وقد طلب العلم، وأخذ عَنْ اللَّيْثُ بْن سعْد وغيره وكان اللَّيْثُ يكرمه، وأعطاه جارية حسناء هي أمّ ابنه زيادة الله، وبني مدينة سمّاها العباسية، وكان يتولّى الصلاة بنفسه في جامع القَيروان، وكان عالماً عاملا بعِلْمه، عَثَر يومًا في حصيرة المسجد، فدخل وقال لرؤساء الدّولة: استنكهوني، ففعلوا فقال: إنّي خشيت أن يقع لأحدكم أنّي سَكْران، ولقد تُوُفّي ابن الأغلب على إمرة المغرب لثمان بقين مِن شوّال سنة ستٌّ وتسعين ومائة، وله ستٌّ وخمسون سنة، وولي بعده ابنه عَبْد الله(46).

الخاتمة:

من خلال ما تقدم ذكره يمكن القول أن الحديث عن الصحراء الجزائرية عبر العصور يعتمد أساسا بلاد الزاب أرضية للبحث والتفتيش، ذلك أن ما خلصت إليه أن بلاد الزاب تشمل حيزا عظيما من بلاد الصحراء الجزائرية وتكاد تكون هي كل الصحراء برغم صعوبة الجزم بذلك خاصة حين يثور الحديث عن أقاصي الصحراء المجاورة لمالي والنيجر وموريطانيا مثلا .

وفيما يخص الفترة الوسيطة ونظرا لانعدام الاستقرار السياسي، والصراعات التوسعية المتواصلة وعدم وجود آلية لترسيم الحدود بشكل دائم فإن الباحث في هذه الفترة يجد أن المناطق تتغير تبعيتها من فترة لأخرى وليس بالغريب أن تجد مثلا منطقة كانت تتبع للمغرب الأدنى أو المغرب الأقصى، هي اليوم جزء لا يتجزأ من الجزائر بحدودها الحالية، والعكس صحيح، على أنه يمكن القول بأن حدود المغرب الأوسط لم تتغير كثيرا لا من الشرق ولا من الغرب بالرغم من التبعية السياسية لهذا القطر في فترات عدة لدول المغرب الأدنى أو المغرب الأقصى.

والملاحظ على الكتابات العربية التي تحدثت عن الصحراء الجزائرية في الفترة الوسيطة أنها تقع في كثير من الاختلافات ومثال ذلك وفي صدد الحديث عن بلاد الزاب مثلا هناك من يجعل قاعدته الأساسية بسكرة وهناك من يجعلها طبنة وهناك من يجعلها أربة، كما اختلفوا في تحديد المنطقة جغرافيا فهناك من يمتد بها من غرب المغرب الأدنى وطرابلس إلى حدود المغرب الأقصى وهناك من يقول أنها تنتهي غربا عند مضارب تيهرت ولا تجاوزها.

كما أن هناك من يدخل ضمن بلاد الزاب مدن عديدة، ويتوسع في ذلك وهناك من يضيق المجال إلى غيرها من الملاحظات التي سيلاحظها أي باحث حول هذه المنطقة.

وحتى في الحديث والتعريف بالمدن عند الرحالة والجغرافيين نجد مثلا من يقول عن بسكرة بليدة صغيرة وآخر يجعلها مدينة عظيمة وهناك من يرى في سطيف مدينة وهناك من لا يراه إلا حصنا عامرا بالسكان.

ومهما يكن فإن بلاد الزاب في العموم كانت ولا زالت جزء لا يتجزأ من الصحراء الجزائرية الكبرى، كما أن كثيرا من القبائل التي كانت تقطن المنطقة في العصر الوسيط لازالت متواجدة إلى حد الساعة في مناطقها.

الهوامش :

1. الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ط2، 1995، ص ص 123- 124
2. الأصبهاني (صدر الدين إبراهيم سلفه)، معجم السفر،تح: عبد الله عمر البارودي،مكة المكرمة، المكتبة التجارية، دون تاريخ نشر، ص 360
3. ابن خلدون (عبد الرحمان)، تاريخ ابن خلدون، تح: خليل شحاده، بيروت، دار الفكر، ط2، 1988، الجزء 1، ص 585
4. المراكشي (ابن عذاري)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س.كولان، إ. ليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، الطبعة 3، 1983 الجزء 1،ص5
5. الزبيدي (مرتضى)، تاج العروس من جواهر القاموس،تحقيق: مجموعة من المحققين،دار الهداية، الجزء 10، ص 181

6. الحميري (أبو عبد الله)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، الطبعة 2، 1980، ص 114
7. المصدر نفسه، ص 387 .
8. المصدر نفسه، ص 558
9. المصدر نفسه، ص 558
10. الإدريسي (الشريف)، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، بيروت، عالم الكتب، 1409 ه، الجزء 1، ص 264
11. اليعقوبي (أحمد بن إسحاق)، البلدان، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة 1، 1422ه، ص 191
12. الحموي، المصدر السابق، الجزء 1، ص 140
13. المصدر نفسه، الجزء 2، ص52
14. المصدر نفسه، الجزء 4، ص 383
15. الحميري، المصدر السابق، ص 60
16. المصدر نفسه، ص 143
17. 7[1] مجهول (ت القرن 6 ه)، الاستبصار، بغداد، دار الشؤون الثقافية،1986، ص 174
18. ابن خلدون، المصدر السابق، الجزء 4، ص 238
19. الإدريسي، المصدر السابق، الجزء 1، ص 265
20. المصدر نفسه، الجزء 1، ص 269
21. رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1977م، ص 159.
22. ابن عذاري، المصدر السابق، ص ص 159، 160.
23. ابن خلدون، المصدر السابق، الجزء 6، ص 195
24. عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، الرباط، المطبعة الملكية، 1968، ص 329
25. بوزياني الدراجي، القبائل الأمازيغية أدوارها مواطنها أعيانها، الجزائر، دار الكتاب العربي، 2007، الجزء 2، ص ص 55- 56
26. مصطفى أبو ضيف أحمد عمر، القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية،1982، ص40.
27. رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص 160 .
28. أبو ضيف، المرجع السابق، ص48
29. ابن حزم(أبو محمد علي بن سعيد)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق :ليفي بروفنسال، مصر، دار المعارف، دون تاريخ نشر، ص 262

30. ابن خلدون،المصدر السابق، الجزء 6، ص 30

31. أبو ضيف،المرجع السابق، ص 207

32. مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح: محمد الميلي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، دون تاريخ نشر، ص 194

33. أبو ضيف، المرجع السابق، ص ص 208، 212

34. المرجع نفسه، ص 212

35. ابن خلدون، المصدر السابق، ج:6، ص ص 54 و75 . للتفاصيل عن قبيلة زغبة ونسبها وبطونها ومواطنها ينظر: طيب بوجمعة نعيمة، كتاب نسب زغبة ومنتهى أصلهم لأبي الحسن علي بن محمد بن الخطيب القرشي التلمساني – جوانب من تاريخ القبائل الهلالية-، تلمسان، النشر الجامعي الجديد، الطبعة 1، 2019، ص ص: 55-65.

36. الحميدي(أبوعبد الله بن أبي نصر)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والنشر، 1966م، ص 50 .

37. الحموي(ياقوت)، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، بيروت دار الغرب الإسلامي، 1993م، ج: 6، ص 2849

38. الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث،2000م، ج: 19، ص 51

39. ابن ناصر الدين (محمد بن عبد الله القيسي الدمشقي)، توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة الطبعة1، 1993، الجزء 9، ص 129

40. عياض (القاضي)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق: ابن تاويت الطنجي وآخرون، المغرب، المحمدية، مطبعة فضالة، الطبعة 1، الجزء 7، ص110

41. المصدر نفسه، الجزء 7، ص271

42. الذهبي(شمس الدين)، تاريخ الإسلام ومشاهير الوفيات والأعيان، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003، ص303

43. الزركلي(خير الدين)، الأعلام، دار العلم للملايين، ط 15، 2002، ج: 3، ص 282

44. المرجع نفسه، ج: 4، ص 39.

45. ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، دون تاريخ نشر، ص 360.

46. الذهبي،المصدر السابق،ج: 4، ص 1063.

المحور الثاني

التاريخ الحديث للجزائر
(الحقبة العثمانية)

استنجاد أهل الجزائر بالإخوة بربروس وأثره السياسي

د. عمر سي عبد القادر
جامعة ابي بكر بلقايد/ تلمسان

مقدمة:

لقد عاشت الجزائر عبر مراحلها التاريخية تطورات وأحداث حاسمة جعلت من تاريخها صفحة واسعة ما زلت تحتاج للكثير من البحث، سواء تعلق الامر بمرحلة ما بعد الفتح الإسلامي حيث برزت كيانات سياسية مستقلة نافس بعضها الخلافة الإسلامية في المشرق، الا أن هذه القوى التي برزت في هذه المرحلة سرعان ما تراجعت لتفسح المجال أمام الصراع والتنافس الحاد مما مكن الممالك المسحية في اسبانيا من إنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس وحاولت من جهة أخرى السيطرة على سواحل المغرب الإسلامي .

وفي هذا الوقت بدأت مرحلة هامة من تاريخ الجزائر تمثلت في ارتباط الجزائر بالحكم العثماني، وقد عرف هذا الارتباط غموضا حول العلاقة بين الجزائر والدولة العثمانية، هل هي ولاية عثمانية أم دولة مستقلة .

وقد ساعدت عوامل كثيرة وهيئت لهذا الارتباط نظرا لما شهدته المرحلة من أحداث حاسمة في حوض البحر المتوسط جعلت منه منطقة صراع مستمر بين الممالك المسيحية والمسلمون، ولهذا ارتأيت البحث في هذه الحقبة الهامة من تاريخ الجزائر خاصة ما تعاق بارتباط الجزائر بالدولة العثمانية والعوامل والظروف التي ساعدت على ذلك .

1. الجزائر قبل العهد العثماني .

تمكنت دولة الموحدين والتي عرفت بالدولة المؤمنية نسبة الى عبد المؤمن بن علي الكومي من توحيد بلاد المغرب بأقسامه المختلفة من برقة شرقا الى المحيط الأطلسي والاندلس غربا، ويرجع الفضل في تأسيس هذه الدولة الى المهدي بن تومرت المتوفى سنة 524هـ 1130م، وقد شن حربا على المرابطين وتمكن من إسقاط عاصمتهم مراكش، [1] وبعد وفاته تمت مبايعة عبد المؤمن بن علي الكومي والمعروف بعلمه وحسن سياسته ورجاحة عقله، وقد عمل هذا الأخير على توحيد بلاد المغرب من خلال محاربة المرابطين والقضاء الفتن الداخلية، وبعد أن استقرت الأوضاع بالمغرب وجه نظره نحو الأندلس وتمكن من فرض سيطرته على الاندلس سنة 556هـ ثم توجه شرقا فدخل بجاية والمهدية ثم تونس وهكذا خضعت له بلاد المغرب والاندلس[1].

لقد حكم هذه الدولة ثلاث عشرة خليفة أبرزهم عبد المؤمن بن علي وإبنه يوسف، الا أن الفتن الداخلية والثورات ساهمت في ضعف وتراجع قوة الدولة الموحدية ومنها ثورة بني غانية وثورات الاعراب المتكررة، وثورة بني مردنيش بالأندلس . ومن جهة أخرى فإن الهزائم المتتالية أمام النصارى في الأندلس عجلت بسقوط الموحدين ومنها هزيمة حصن العقاب سنة 609هـ 1212م والتي كانت بداية أفول شمس الإسلام في الاندلس[3].

ونظرا لهذه العوامل ظهرت بوادر الانفصال في أقاليم الدولة فظهرت دويلات مستقلة في بلاد المغرب الإسلامي ومنها دولة بني مرين في المغرب الأقصى ودولة بني زيان في المغرب الأوسط والدولة الحفصية في المغرب الأدنى وبالأندلس ظهرت دولة بني نصر والتي حافظت على الوجود الإسلامي في الركن الجنوبي لبعض الوقت.

لقد حكمت الدولة الزيانية المناطق الغربية من الجزائر، وكانت عاصمتها تلمسان ويرجع نسب الزيانين إلى قبيلة زناتة البترية، دخلوا في طاعة الموحدين وخدمتهم، ولما ضعفت الدولة الموحدية استغل بنو عبد الواد هذه الظروف وسعوا للسيطرة على تلمسان والمناطق المجاورة لها، ويعتبر يغمرسن بن زيان المؤسس الحقيقي لهذه الدولة 633هـ 1235م [4]. وقد تمكن هذا القائد بفضل ذكائه وشجاعته وكرمه وسيرته الحسنة من بناء دولة قوية على قواعد متينة فاتخذ الوزراء والحجاب والقضاة ومن جهة أخرى فقد كان محبا للعلم ومجالس للعلماء والفقهاء .

وقد مرت الدولة الزيانية بعدة مراحل ميزها التدخل المريني المتكرر من جهة والتدخل الحفصي من جهة أخرى، وبالتالي تعددت الازمات والصراع المستمر مع دول الجوار، إضافة الى الصراع الداخلي بين أبناء الأسرة الحاكمة، حتى وصل الامر ببعضهم الى الاستنجاد بالأعداء على حساب مصالح الدولة، مما شجع الممالك المسيحية في شبه الجزيرة الإبرية على غزو سواحل بلاد المغرب واحتلال بعض المدن.

اما المناطق الوسطى والشرقية من الجزائر فقد كانت خاضعة للدولة الحفصية التي يعود نسبهم الى أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي نسبة الى قبيلة هنتاتة وهي أكبر قبائل مصمودة، وكانت لهذه الأسرة مكانة لدى الموحدين لدورهم في الجهاد والقضاء ثورة بني غانية، ومكافأة لهم على دعمهم للموحدين تم تعيين بعض أفراد هذه الاسرة على ولايات أندلسية ثم على إفريقية، ومنهم أبا زكريا يحيى بن الشيخ الحفصي، الذي استغل ضعف الدولة الموحدية وخلع طاعتهم ثم اعلن استقلاله وإتخذ من تونس عاصمة له، [5]وبعدها قام باحتلال قسنطينة وبجاية ثم مدينة الجزائر، وبعدها وسع من حدود دولته باتجاهي الغرب والشرق .

لقد مرت الدولة الحفصية عبر تاريخها الممتد من 603هـ1206م الى 981هـ 1573م بعدة مراحل: العصر الذهبي وقد مثله كل من أبي زكريا والمنتصر بالله ومن مظاهر هذا العصر بيعة بلاد المغرب الإسلامي للدولة الحفصية، أما عصر الضعف فقد بدأ مع بداية عهد أبي يحيى الواثق حيث بدأت الفتن والصراعات الداخلية إضافة الى الحملات الصلبية على تونس[6].

و من بداية سنة 893هـ 1488م تجدد الصراع بين الامراء ووصل الامر الى الاستنجاد بالدول الغربية مما أدى الى بداية التدخل الأجنبي في شؤون الدولة، ومن جهة أحرى فقد اشتدت الهجمات الأوربية خاصة منها الاسبانية والبرتغالية على سواحل المغرب الإسلامي. وفي ذات الوقت أيضا اشتدت حروب الاسترداد حيث سقطت معظم المدن الاندلسية في النصارى، وعلى الرغم من هذا التكالب النصراني الا أن المناطق الجنوبية شهدت قيام دولة عربية بقيادة محمد بن يوسف بن نصر والتي عرفت تاريخا بدولة بنو الأحمر، التي اتخذت من غرناطة عاصمة لها[7].

لقد تمكن بنو الأحمر من الحفاظ على الوجود الإسلامي في الأندلس طيلة قرنين ونصف من الزمن، رغم المشاكل الكثيرة التي ميزت هذه المرحلة ومن أهمها التدخل المسيحي الصليبي وحروب الاسترداد المستمرة خاصة عندما تحالفت الممالك النصرانية أرغون وقشتالة ضد المسلمين، في وقت تنافست الدول الإسلامية فيما بينها وأصبحت عاجزة عن تقديم الدعم المادي أو العسكري للأندلس باستثناء بعض حكام بني مرين الذين شاركوا في جهاد النصارى في الأندلس .[8]

هذه الظروف جعلت الدولة النصرية تواجه النصارى بإمكانيات ضعيفة فتقلصت مساحتها تدريجيا حتى لم يبق منها الا غرناطة مما دفع بالسلطان النصري الى أبي عبد الله الى التفاوض مع فرديناالد وتسليم المدينة بعد التوقيع على معاهدة التسليم، وفي سنة 898هـ 1492م دخل الملك فرديناالد والملكة إزبيلا المدينة ورفع فوق برج الحمراء صليبا فضيا، وبدأ فصل جديد من المعاناة ونكث العهود التي أعطيت في معاهدة التسليم، فظهرت محاكم التفتيش التي كان هدفها تنصير المسلمين بإشراف الكنيسة [9]. وهذه المأساة دفعت جموع المسلمين الى الهجرة نحو الدول الإسلامية في المغرب والمشرق، وقد استقبلت المدن الساحلية الجزائرية العديد من هؤلاء المهاجرين .

2. الاحتلال الإسباني للمدن الجزائرية .

لم يكتفي النصارى بطرد المسلمين من الأندلس بل عملوا على ملاحقتهم واحتلال سواحل المغرب العربي، في وقت كانت قد عرفت دول المغرب العربي تفككا وضعفا كبيرا مما سهل على الإسبان والبرتغاليين احتلال عدد من المدن الساحلية .

لقد اهتمت اسبانيا بمدن المغرب الأوسط وكانت البداية من المرسى الكبير الذي يعتبر ميناء هام يمكن أن ترسو فيه السفن بسهولة في مأمن من العواصف والأعاصير[10]، لقد غادر الأسطول الإسباني مالة يوم 29 أوت 1505م بقيادة دون رايمون دي قرطبة رفقة خمسة ألاف رجل وتوقف بالمرية بسبب الرياح فلم يصل الى المرسى الكبير الا يوم 11 سبتمبر من نفس السنة، وقد كان هذا التأخر في صالحه حيث تفرق معظم المقاتلين من الأهالي بعد أن طال انتظارهم وهكذا لم يجد الاسبان الا القليل من المقاتلين سرعان ما استسلموا بعد ثلاثة أيام من الحصار [11]. وبعد هذه الهزيمة أخلى الإسبان المرسى الكبير

من سكانه الذين أعطاهم الإسبان مهلة ثلاثة أيام لمغادرته ولم يسمحوا لهم الا بأخذ ما خف من الأمتعة، كما فرضوا عليهم تحرير عبيدهم من المسيحيين قبل المغادرة .[12]

لقد سعى الإسبان منذ احتلالهم للمرسى الكبير إقامة علاقات مع الأهالي حتى يحصلوا على المؤونة، وقد وجدوا من يتعامل معهم من بعض أمراء القبائل وعلى رأسهم الأمير الزياني يحيى الذي سيطر على مدينة تنس 1506م بمساعدة الإسبان، وكان هدفه الجلوس على العرش الزيانيبتلمسان .[13]

وبعد احتلال المرسى الكبير حاول الإسبان السيطرة على ضواحي مسرغين غرب وهران الا أن هذه المحاولة انتهت بهزيمة الجيش الإسباني، وأصر الإسبان على أن تمح هذه الهزيمة من خلال احتلال مدينة وهران، وقد كان للكردينال خمينيس دور كبير في التحريض على هذا الاحتلال، بل أصر على أن يقود هو الحملة العسكرية على وهران .

انطلقت الحملة في شهر ماي 1509م ووصلت الى المرسى الكبير يوم 17 ماي ومنها سار هذا الجيش نحو وهران، وتمكن من احتلال المرتفعات المحيطة بها، ونظرا لضعف المقاومة والتفاوت الكبير بين الجيشين دخل الإسبان المدينة بمساعدة بعض الخونة منهم اليهودي سطورة الإشبيلي الذي فتح لهم باب المدينة وخلال هذا العمل العسكري قتل الإسبان أربعة ألاف رجل وأسروا حولي ثمانية ألاف أخرين، وحرروا عدد كبير من الأسرى، وبعد أن دخل الإسبان المدينة عملوا على تحويل المساجد الى كنائس .[14]

وبعد احتلال المدينة إهتم الإسبان بباقي المدن الأخرى ذات الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية ومنها بجاية التي توجه إليها بيدرونافارو بأسطوله في بداية يناير 1510م وتمكن من احتلالها وفي نفس السنة احتل الإسبان مدينة عنابة، وفي سنة 1511 دخل الإسبان مدينة مستغانم وأرغموا شيوخها على ابرام معاهدة نصت على السماح للإسبان ببناء الحصون والقلاع، وأن يدفعوا ضريبة سنوية[15] .

وبعد أن سيطر الإسبان على المدن الساحلية وبعد أن علم سكان مدينة الجزائر بذلك سارعوا الى ارسال وفد عنهم الى بجاية لمفاوضة بيدرونافارو وتسليم المدينة والاعتراف بالسيادة الاسبانية، واشترط عليهم الإسبان ضريبة سنوية وتحرير العبيد المسحين، كما ارغما قائد المدينة سليم التومي على الذهاب الى اسبانيا لتقديم التهاني للعاهل الإسباني مع مجموعة من الهدايا والعبيد المحررين

ومن جهة أخرى سيطر الاسبان على إحدى الجزر وقاموا ببناء قلعة أطلق عليها اسم البينيون وتعني حصن الصخرة، ومهمة هذا الحصن مراقبة التحركات التي تجري في البحر، هذه الوضعية أدت الى تضرر تجارة سكان المدينة خاصة بعد فرض ضريبة سنوية على الواردات من السلع لتغطية تكاليف الحملات الحربية .[16]هذه الظروف جعلت سكان الجزائر يطلبون المساعدة من عروج كي يخلصهم من الحامية الإسبانية التي تتحكم في المدينة .

3- الإخوة بربروس.

من الصعب تحديد أصل أسرة بربروس ولكن ما أتفق عليه المؤرخون أنها لأسرة فقيرة من جزيرة متيلين أو مدليلي الواقعة بالقرب من السواحل الغربية لآسيا الصغرى، أبوهم يعقوب كان جنديا في الجيش العثماني، تزوج من مسيحية فأنجبت له أربعة أبناء أكبرهم إسحاق ثم عروج وخير الدين ثم إلياس، عمل الأخوة الأربعة بالتجارة .[17]

خرج عروج الى البحر وعمره عشر سنوات وعندما شب امتلك مركب للجهاد واحدى خرجاته وقع أسيرا لدى فرسان القديس يوحنا وقضى سنتين أسرا يعمل مجدافا، وتمكن من الفرار بعد أن ألقى بنفسه في البحر على مقربة من السواحل المصرية، ثم عاد الى نشاطه الجهادي ضد فرسان القديس يوحنا الذين كانوا قد استرقوه من قبل، وتمكن من السيطرة على سفينتين لدولة البابا، وسفينة اسبانية، فأكسبته هذه العملية شهرة كبيرة في الحوض الغربي للمتوسط، ومن جهة أخرى فقد قدم الكثير للمهاجرين الأندلسيين حيث عمل على نقل الفارين من السواحل الاسبانية الى سواحل المغرب الإسلامي، وقد اختار جزيرة جربة قاعدة لنشاطه،حيث أنظم له أخوه خير الدين [18]. وامتلك الأخوين من هذا العمل أسطولا من ثمانية سفن إضافة الى السفن التي انضمت اليهما، وربطهم مع سلطان تونس علاقة تعاون لمجابهة العدو مع منح سلطان تونس خمس الغنائم .

وفي سنة 1512م استنجد بهما سكان بجاية لتحريرها من الاسبان الذين احتلوها قبل سنتين، وقد خاض الأخوين عدة معارك الا أن المحاولات الأولى باءت بالفشل وتعود أسباب الفشل الى سوء الأحوال الجوية وقلة المؤونة والعتاد، خاصة وأن السلطان الحفصي رفض تقديم الدعم، وأثناء هذه المحاولة أصيب عروج بذراعه، التي جرى بترها بعد العودة الى تونس نتيجة عجز الأطباء عن معالجتها [19] .

ولكن عروج ورغم هذا الفشل الا أنه أصر على اعادة الكرة مره اخرى لتحرير مدينة بجاية من الاحتلال الاسباني، فاتفق مع ابن القاضي على حصارها سنة 1514م، حيث شرع في قصفها من البحر بينما حاصرها ابن القاضي من البر، لكن المدينة استعصت عليه،حتى بعد فرض الحصار عليها الذي دام ثلاثة أشهر، اذ نفذت منه الذخيرة، فضلا عن تاخر المساعدات التي طلبها من السلطان الحفصي، بينما في الطرف المقابل وصلت من إسبانيا خمس سفن لنجدة القوات المحاصرة. ونتيجة ذلك، انسحب عروج بعد أن أحرق السفن حتى لا تبقى غنيمة للأعداء[20].

بعد هذه المحاولات الفاشلة لطرد الاسبان من مدينة بجاية، اسرع سكان مدينة جيجل لطلب المساعدة من الاخوة برباروس، وقد كانت جيجل تحت سيطرة الجنويين منذ عام 1260م، فلبى خير الدين وعروج هذا النداء وقادا هجوما برا وبحرا وتعاون معهم أحمد بن القاضي وخلال أربعة أيام سقطت المدينة في يد الاخوة بربروس، وكانت الغنائم التي تحصلوا عليها كبيرة حيث بلغ عدد الأسرى 600 أسير، وقد أرسل عروج هؤلاء الى السلطان العثماني [21]. وهكذا تمكنا الاخوين بربروس من استعادة المدينة واتخاذها قاعدة لهم لما تتمتع به من موقع ممتاز حيث تحيط بها السلاسل الجبلية .

الاخوة بربروس في مدينة الجزائر.

منذ أن دخل الاسبان الى المدينة الجزائر وفرضوا ضريبة على أهالي المدينة، ومنذ أن قام الاسبان ببناء ذلك الحصن في الجزيرة الواقعة في مدخل الميناء، ومن خلال تكرار الاعدادات ضد سكان المدينة خاصة وان حاكم المدينة سليم تومي كان متمسك بتطبيق المعاهدة الموقعة مع الاسبان، وعندما توفي ملك الاسبان فاردينالد عمت الفرحة في المدينة على أساس نهاية العمل بالمعاهدة التي فرضها ملك الاسبان، وان الفرصة مواتية للتخلص من سيطرة الاسبانية.

لقد اكتسب الاخوة بربروس سمعة طيبة لدى سكان الجزائر بعد تحريرهم مدينة جيجل، لذلك سارع أهالي مدينة الجزائر الى طلب المساعدة من عروج ليخلصهم من التهديد السباني المستمر. وفي ذات الوقت، ادرك عروج أهمية مدينة الجزائر ذات الموقع الاستراتيجي والتي تمكنه من اكتساب المزيد من الانتصارات، لذلك وافق على طلب سكان مدينة الجزائر.

اعد عروج جيشا اختلفت الروايات في عدده وعدد السفن وان كانت معظمها تتفق على 800 جندي و5000 متطوع وحوالي 21 سفينة، وصل عروج الى مدينة الجزائر واستقبل بحفاوة بالغة، وقد فضل في البداية التوجه الى شرشال التي كان يحكمها التركي قارة حسن والذي كان يشتغل بالقرصنة مع المهاجرين الأندلسيين، وعندما سمع قارة حسن بقدوم عروج استسلم وضم جيشه الى جيش عروج ويذكر مبارك الميلي ان عروج قطع رأسه (22)..

ونظر لان قوات عروج لم تسطيع تحطيم حصن الصخرة الذي تحصن به الإسبان بسبب ضعف مدفعيته مما أدى الى خيبة أمل السكان في عروج وجيشه فبدأت بوادر التمرد ضد الأتراك وخاصة من سالم التومي، ولهذا سارع عروج الى القضاء على هذا الأخير، أما ابنه يحيى فقد فر الى إسبانيا لطلب المساعدة لاسترجاع ملك أبيه .

وبعد أن دخل عروج الى مدينة الجزائر واستقرت الأوضاع تدرجيا أمر بسك العملة وتحصين القصبة التي نصب عليها مدفعية صغيرة ووضع عليها حامية تركية، ثم أمر أهالي جيجل بالعودة الى ديارهم بعد مشاركتهم في السيطرة على المدينة وانتهاء المهمة التي جاءوا من أجلها (23). وهكذا بفضل حسن سياسة عروج وخبرته العسكرية تمكن من فرض سيطرته والتحكم في مدينة الجزائر وبدأ يحضر لطرد الاسبان منها نهائيا فبدأت مرحلة جديدة من تاريخ المدينة .

<u>الهجوم الإسباني على الجزائر .</u>

حاول الاسبان استرجاع مدينة الجزائر وطرد الأتراك منها نهائيا بمساعدة بعض ضعاف النفوس من المسلمين، وفي شهر سبتمبر سنة 1516م قرر الكردينال حمنيس إرسال قوة بحرية الى ميناء الجزائر وأسند قيادة الأسطول الى ديغو ديفيرا، وكانت هذه الحملة تتكون من 35 سفينة تحمل ما يقارب ثمانية ألاف رجل .(24).

وقد نزلت هذه القوات بباب الواد حيث ترك عروج لهم الفرصة للنزول الى البر، وحاول الاسبان احتلال مرتفعات القصبة إلا أن هذه المحاولة فشلت بسبب مقاومة المتطوعين المجاهدين، هذا الفشل دفع بالقائد الاسباني الى الانسحاب والرجوع الى السفن، وهنا فتح عروج أبواب المدينة وهاجم الاسبان وتمكن من تحطيم معظم السفن وقتل الكثير من الجنود وأسر حوالي 800 رجل، ومن العوامل التي ساعدت على هذا الانتصار

هو عدم وصول المساعدات التي كان ينتظرها الاسبان من سلطان تنس أبو عبد الله، وبعد ها عاد القائد الاسباني الى بلاده يحمل أذيال الهزيمة .[25]

وفي هذا الوقت كان خير الدين بمدينة جيجل، وعندما وصلته أخبار الانتصار حتى حل بأسطوله بميناء الجزائر، وقام الأخوين بتحصين المدينة استعدادا لمرحلة ثانية من المواجهة مع الاسبان .

وبعد انتهاء مهمة رد العدوان عن مدينة الجزائر فكر عروج في معاقبة حاكم تنس الذي تعاون مع الاسبان، فجهز سنة 1517م حملة من 1500 رجل من الأتراك وعدد كبير من المهاجرين الأندلسيين وبعض المتطوعين، وفي الوقت نفسه كان عروج قد استولى على مليانة والمدية وبلاد زواوة، وتمكن عروج في هذه الحملة من هزيمة حاكم تنس يحيى الزياني مع بعض الجنود الاسبان، وانتهت الحملة بمقتل حاكم تنس وفرار الاسبان وغادر عروج تنس بعد أن ترك بها حامية تسهر على حمايتها وتنظيم الأمن بها .[26]

غزو تلمسان واستشهاد عروج .

كانت الدولة الزيانية في هذه الفترة قد وصلت الى أقصى درجة من الضعف والانحلال، حيث ظهرت الاضطرابات والصراع والتنافس بين أفراد الأسرة الحاكمة، ومما زاد في صعوبة الأوضاع هو التدخل الاسباني من خلال احتلال سواحل وموانئ المغرب الأوسط مباشرة بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، لقد تنافس على عرش الزيانيين أبو زيان الثالث وأبو حمو الثالث، وقد تمكن أبو حمو الذي كان تحت وصاية الاسبان من التغلب على ابن أخيه وسجنه، هذه الفوضى هي التي دفعت وفد من تلمسان الى طلب المساعدة من عروج ليخلصهم من أبي حمو المتعاون عم الاسبان [27].

استجاب الأخوين بربروس لنداء أهل تلمسان خاصة وأنه طلب باسمالإسلام لتحرير مدن وسواحل الجزائر من الاحتلال الصليبي، فقرر عروج الانتقال برا الى تلمسان حيث سلك طريق الهضاب حتى يكون بعيدا عن أي خطر يمثله الوجود الاسباني على السواحل وخاصة في وهران، وترك وراءه لحفظ خط رجعته حامية تركية بقيادة أخيه إسحاق بقلعة بني راشد تتكون من 600 جندي، وانضم في الطرق عدد من الناقمين على أبي حمو الثالث.

و لما بلغ نبأ سير عروج الى تلمسان خرج أبو حمو للقائه على رأس جيش من 6000 فارس و3000 من المشاة، ودارت معركة ضارية بين الطرفين انهزم فيها أبو حمو رغم الجيش الكبير الذي كانت تنقصه التخطيط العسكري ورغبة في الانتصار، وبعدها سار عروج الى تلمسان وحظي بحفاوة الاستقبال من طرف سكانها، ثم قام عروج بإخراج السلطان أبي زيان من السجن وأعاده الى عرشه .[28]

أما أبو حمو فقد فر الى فاس ومنها انتقل الى وهران لطلب الحماية من حاكمها الاسباني، أما الاتراك فعندما دخلوا تلمسان أساء بعظهم معاملة أهل تلمسان فساءت الأوضاع وتجددت الفتن والاضطرابات، وعندما اشتكى أبو زيان ذلك الى عروج رفض هذا الأخير وقام بشنقه وفرض الضرائب على بعض القبائل فتغيرت نظرة أهل تلمسان الى الأتراك [29].

وفي هذه الاثناء، عمل الحاكم الاسباني في وهران على إعادة أبي حمو الى عرش الدولة الزيانية في تلمسان فأمده بعشرة ألاف جندي، فخرج أبو حمو من وهران متجها الى تلمسان وأول عمل قام به هو مهاجمة قلعة بني راشد التي دافع عنها إسحاق لكنه استشهد مع عدد من جنوده وكان ذلك سنة 1518م، وبعد هذا الانتصار توجه أبو حمو الى تلمسان المدعوم من قبل الحاكم الاسباني في وهران[30]. وحاصر مدينة تلمسان وعلى الرغم من تفاوت القوتين الا ان عروج قاوم الحصار ستة اشهر، وعندها تمكن الاسبان من إيجاد ثغرة في سور المدينة انسحب على اثرها عروج الى قلعة المشور منتظرا الدعم من سلطان فاس الا ان هذه المساعدة لم تصل لظروف عديدة اختلف فيها المؤرخون بين: من يقول رفض سلطان فاس تقديم الدعم، وبين من يرى ان الدعم تعطل في الطريق ولم يصل في الوقت المناسب، بينما يرى أخرون ان سلطان فاس عمل على تجنب الخطرين من خلال تظاهره بتقديم الدعم لعروج ولكنه تباطأ في ارساله حتى يرى لمن تميل الكفة ثم يتصرف على ضوء هذا الوضع الجديد[31].

وعلى الرغم من هذا الوضع الصعب فإن عروج أصر على المقاومة وعندما تأكد من عدم القدرة على مواجهة القوة المحاصرة، قرر الانسحاب متجها نحو الغرب، الا أن فرقة من فرسان الاسبان تعقبته ودارت معركة عنيفة بين الطرفين قاوم فيها عروج الى غاية استشهاده هو ومن معه عن عمر ناهز الخمسين سنة، وحملوا رأسه الى وهران ومنها الى اسبانيا كما أخذوا ثيابه وسلموها الى كنيسة القديس جيروم [32].

وهكذا انتهى دور هذا القائد المجاهد الذي كرس حياته لمحاربة النصارى والعملاء المتعاونين معهم والدفاع عن رقعة الإسلامو بفضل جهاده تمكن من وضع أسس قيام دولة قوية تمكنت من السيطرة على حوض البحر المتوسط وحطمت كبرياء الدول الأوربية المتنافسة على منطقة الغرب الإسلامي .

مبايعة خير الدين بربروس.

بعد مقتل عروج عرفت الجزائر تحولات سياسية كثيرة منها إعادة السلطان أبا حمو الى عرش بني زيان في تلمسان على ان يتحالف مع الاسبان الوجود التركي ويدفع ضريبة سنوية. ومن جهة أخرى فقد بايع أهل مدينة الجزائر خير الدين خليفة لشقيقه عروج مع اقرارهم بضم الإمارة الى الخلافة العثمانية، حيث ذهب وفدا من الجزائر برئاسة الحاج حسن من أصحاب خير الدين لمقابلة السلطان العثماني سليم الأول وطلبوا منه تقديم الدعم وحماية الجزائر من قبل الدولة العثمانية، فوافق السلطان على ذلك وأرسل معهم قفطان التولية الرسمية لخير الدين، مع فرمانا يقضي بتقديم الخطبة وسك العملة باسم السلطان العثماني . وفي الوقت نفسه أرسل السلطان قوة من سلاح المدفعية وألف جندي من الانكشارية مع السماح للمتطوعين بالإنظام الى الجيش الانكشاري .

لقد أدرك خير الدين الأخطار التي كانت تهدد إمارته م منها الخطر الاسباني المستمر ثم سلسلة الانتفاضات التي ظهرت في جهات مختلفة، في زواوة بقيادة أحمد بن القاضي، وفي شرشال وكذلك الخطر الذي يمكن أن يأتي من الغرب والمتمثل في أبي حمو الزياني، ولذلك سارع الى تجديد التحصينات وارسل الحميات الى المناطق التي انضمت إلى سلطته ومنها مستغانم وتنس وشرشال ومليانة وغيرها .

ومن جهة أخرى فقد عمل على تقريب علماء الجزائر والمرابطين والمشاييخ من مجلسه لاستشارتهم في اتخاذ القرارات وفي إثارة الحمية الدينية ضد المعارضين له على أنهم متحالفين مع أعداء الإسلام، وهذا من أجل كسب الجبهة الداخلية والاستعداد لمواجهة الاسبان. وبهذه الطريقة كسب خير الدين مكانة خاصة في نفوس سكان الجزائر رغم استمرار المعارضة في بعض المناطق .

المواجهة مع الأسبان.

لقد وجد الاسبان في استشهاد عروج فرصة مواتية للقضاء على التركي في الجزائر، ولذلك وبمجرد وصول أنباء عن هزيمة عروج واستشهاده حتى سارع شاركان الى تجهيز حملة عسكرية من أربعين سفينة تخمل أكثر من خمسة ألاف جندي، وجعل قيادتها لحاكم صقلية هو كودي منكاد وبمساعدة قائد المدفعية غونزلفومارينوديربيرا، وهو الذي تولى قيادة الهجوم على مدينة الجزائر في 17 أوت 1519م، وقد كان هذا الهجوم بمساعدة حاكم تلمسان الذي كان قد اتفق مع والي وهرا ن الاسباني على المشاركة في هذه الحملة، لقد انزل القائد الاسباني قواته غرب وادي الحراش ثم تحركت بعض الفرق نحو المرتفعات المشرفة على المدينة وراح يبني قلعة حصينة فوق كدية الصابون سميت بقلعة الإمبراطور . وفي هذه الأثناء وقع خلاف بين القائدين الاسبانيين، حيث اقترح منكاد بداية الهجوم بينما كان يرى ربيرا ضرورة انتظار المساعدة من تلمسان [33].

وبعد ستة أيام بدأ الاسبان بالهجوم، وكان خير الدين قد أرسل وحدة لمهاجمة السفن التي كان يحرسها عدد قليل من الجنود فأسرع القائد الاسباني الى نقل قوات كبيرة من القلعة لإنقاذ السفن فانقسم الجيش الاسباني الى قسمين وفي هذا الوقت هاجم خير الدين المواقع الاسبانية فجأة فكانت المباغتة كبيرة حيث فر الأعداء الى مراكبهم تاركين العتاد والأسلحة، ومما زاد في ارتفاع خسائر العدو هبوب عاصفة بحرية أعاقت عمليات ركوب السفن، فكانت الخسائر أكثر من ثلاثين مركبا ومقتل أربعة ألاف جندي وأسر أكثر من ثلاثة ألاف أسير[34].

وبعد هذا الانتصار أحس خير الدين بالخطر الذي يمكن أن يأتي من الشرق حيث تحالف أحمد بن القاضي مع السلطان الحفصي وخان الأمانة خاصة وأن خير الدين كان قد منح له نصف البلاد معتقدا أن ذلك يساعد على استقرار الأمور واستتباب الأمن، وكان من نتائج تحالف ابن القاضي مع الحفصيين هو تجهيز حملة مشتركة اتجهت نحو مدينة الجزائر هدفها طرد الاتراك، ولما علم خير الدين بقدوم هذه الحملة سارع الى الخروج لملقاة جيش التحالف قبل الوصول الى

الجزائر، ودارت معركة حاسمة بين الطرفين انتهت بهزيمة خير الدين وانسحابه من مدينة الجزائر الى جيجل بنما دخل ابن القاضي الى المدينة التي سيطر عليها سنة 1520م وحكمها حوالي ست سنوات[35].

و من أعمال خير الدين في جيجل تأسيس قاعدة تكون له مركزا رئيسيا لسفنه بدلا من جربة كما أنشأ دار لصناعة السفن، وأنشأ فرقة عسكرية من المتطوعين، ومن جهة أخرى تحالف مع أمير بني عباس الذي أمده بقوات برية وبحرية، وبها أخذ يتوسع في الشرق الجزائري حيث سيطر على القل ثم عنابة، وبعدها اتجه نحو الغرب خاصة وأن ابن القاضي تغيرت نظرة الأهالي اليه بسبب تصرفاته ولذلك طلب سكان مدينة الجزائر بعودة خير الدين، هذا الوضع جعل بعض قوات الن القاضي تنظم الى خير الدين عندما هاجم جرجرة، فانهزم ابن القاضي وقتل يد ما بقي من قواته، ودخل خير الدين الجزائر سنة 1525م رغم محاولة الحسين بن القاضي شقيق أحمد بن القاضي إثارة الأهالي ضد الاتراك لكنه في الأخير استسلم وقبل بدفع الضريبة .

و بعد هذا الانتصار عمل خير الدين على القضاء على المتمردين في تنس وشرشال والقبائل وفرض سيطرته على الساحل الممتد من جيجل الى وهران، وقي سنة 1528م تمردت قسنطينة وقتل القائد الذي عينه خير الدين عليها مما دفع بهذا الأخير الى توجيه حملة الى قسنطينة تمكن من خلالها من القضاء على التمرد .

<u>طرد الأسبان من قلعة الصخرة .</u>

إن وجود الاسبان في قلعة الصخرة البينيونيمثل خطرا مستمرا على مدينة الجزائر يهدد السفن والأمن داخل ميناء الجزائر إضافة الى أن هذا الوجود الأجنبي يعتبر إهانة في نظر أهالي مدينة الجزائر، ولهذا فإن طرد الاسبان من هذه القلعة يعتبر ضرورة حتمية يجب تنفيذها في أقرب وقت ممكنا، لذلك قام خير الدين بقصف القلعة بالمدفعية مدة عشرين يوما، وهذا ما دفع بالقائد الاسباني مارتن دي فرغاس الى طلب المدد من إسبانيا لكنه لم يصل في الوقت المناسب، ونظرا لشدة القصف فقد عم الخوف والذعر في الحامية التي كانت تحرس القلعة، فاستغل خير الدين هذا الوضع وهاجم القلعة وتمكن من تحقيق انتصارا كبيرا حيث قتلوا الأتراك عدد كبير من الجنود وأسروا الباقي [(36)].

وبعد هذا الانتصار قرر خير الدين هدم الحصن واستعمل الأنقاض لإقامة رصيف يربط جزيرة الصخرة باليابس مستعملا عدد كبير من الأسرى المسحيين ومن جهة أخرى فقد وضع بطارية مدفعية وعدد من الحراس لحماية الرصيف، وقد كان لهذا الرصيف دور في حماية المياه من الرياح والتالي أصبح الميناء من أكبر موانئ القرصنة في بلاد المغرب، ومن خلاله تمكنت الجزائر من فرض سيطرتها على البحر الأبيض المتوسط [(37)].

ورغم سقوط قلعة الصخرة الا أن ملوك إسبانيا ما زال تفكيرهم منصب حول وضع الخطط للسيطرة على مدينة الجزائر من جديد وفي هذا الاطار جاءت حملة القائد أدري دوريا التي شارك فيها الاسبان والإيطاليين والألمان وبمساعدة البابا، انطلق أندري دوريا من جنوة على رأس عشرين باخرة حربية في جويلية 1531م وقد اختار مدينة شرشال للنزول بها ليلا، وفجأ القوات الموجودة في المدينة وتمكن بعد حملات النهب والتدمير من إطلاق سراح الأسرى المسحيين الذي بلغ عددهم ما يقارب السبعمائة أسير، الا أن سكان المدينة من الأتراك والأندلسيين استعادوا قوتهم وانهالوا على جنود أندري دوريا وقطعوا عليهم طريق الرجعة، وعندما أحس هذا الأخير بالهزيمة فر وترك وراءه ما يفوق ستمائة من جنوده أسرهم أهالي المدينة[38].

و بعد هذا الانتصار ونظرا لما كانت تعانيه تونس من اضطرابات وظلم حاكمها هذا الأخير قام بقتل كل اخوته باستثناء اثنين الذين فرا من تونس لطلب النجدة من الاسبان، كما تضرر السكان أيضا من هذا الحكم المملوء بالقهر والاستبداد فطلبوا المساعدة من السلطان العثماني لإسقاط هذا الحاكم الفاسد، لقد تولى خير الدين هذه المهمة فترك نائبه حسن آغا على مدينة الجزائر وتوجه الى تونس بعد أن مده السلطان العثماني بأربعين باخرة وثمانية ألاف جندي، فسار خير الدين بهذا الجيش عن طريق البحر وتمكن من السيطرة على بعض المدن منها بنزرت وحلق الواد ثم تقدم الى تونس التي دخلها دون مقاومة ولقي ترحابا من سكانها التواقين الى التخلص من الحاكم الحفصي الفاسد، هذا الأخير هرب الى أقاربه من العرب، وفي الوقت نفسه طلب المساعدة من الاسبان، فسارع شارلكان الذي كان يدرك أهمية موقع تونس وخطورته وما يترب عن سيطرة الأتراك عليها من تهديد لطرق المواصلات البحرية بين إسبانيا وإيطاليا .

هذا الوضع دفع شارلكان الى تجهيز حملة عسكرية وأبحر من اسبانيا في شهر ماي سنة 1535م ونزل بحلق الوادي في شهر جوان من نفس السنة، وقد لقيت الحملة الدعم من عرب القيروان الذين وقفوا الى جانب السلطان حسن فزاد عدد الجنود المشاركين في هذه الحملة[39]، وبعد أن تأكد خير الدين أن ميزان القوة لصالح الاسبان وأنه لا يستطيع الصمود خرج الى عنابة ومنها أبحر عائدا الى مدينة الجزائر، وقبل دخول الجزائر توجه الى جزر البليار وهاجم مدينة ماهون وميورقةو غنم وأسر مئات من المسحيين ودخل بهم مدينة الجزائر وبذلك ثأر لهزيمته في تونس .

أما سلطان تونس حسن الحفصي فوقع معاهدة مع شارلكان كانت بنودها أشد قسوة وإهانة لحاكم تونس ومما نصت عليه:

1. إطلاق سراح جميع الأسرى المسحيين الموجودين في تونس
2. السماح للمسيحيين بإقامة شعائرهم الدينية بكل حرية .

تسليم جميع المدن التي وقعت سابقا بيد خير الدين الى إمبراطور اسبانيا. دفع ضريبة من 12 ألف دوقة سنويا . اذا تخلف حاكم تونس عن أي شرط سيدفع 50 ألف دوقة وفي المرة الثانية 500ألف دوقة وفي المرة الثالثة تؤخذ منه البلاد(40) .

و في أواخر أكتوبر سنة 1535م استجاب خير الدين لأوامر السلطان العثماني وتوجه الى القسطنطينية حيث عين قائدا عاما للبحرية التركية مع احتفاظه برئاسة الدولة الجزائرية بلقب باي لرباي ومنحه لقب قبودان باشا وتعني أميرال البحر لسائر الأسطول العثماني، وترك خير الدين وراءه حسن أغا قائدا لإيالة الجزائر خلفا له وهو الذي واجه حملة شارلكان على مدينة الجزائر سنة 1541م.(41)

لقد بذل خير الدين جهدا كبيرا في تحقيق الأمن والاستقرار بشمال افريقيا من خلال تحرير سواحل المنطقة من السيطرة الاسبانية، وحافظ على سلامة البحر الأبيض المتوسط، الا أن خير الدين لم يكمل عمله الذي بدأه حيث نقله السلطان العثماني الى استانبول وبذلك لم يعد مرتبطا بالشمال الافريقي، بل أصبحت حياته مرتبطة بالتاريخ العثماني ككل.

وفي جمادي الأولى 935هـ 1546م مرض خير الدين باشا لفترة قصيرة ثم فقد الحياة سنة 1547م في سن الثمانين قضى منها ثلاثين سنة جامعا بين إمارة الجزائر وقائدا للأسطول العثماني،فكان المؤسس الحقيقي لإمارة الجزائر وكان حلمه أن يؤلف من المغرب العربي كله دولة الجهاد في سبيل الله . وقبل وفاته أوصى خير الدين أن يدفن في استانبول وقد خصص له تربة خاصة به، ترك خير الدين ابنا اسمه حسن (42) . واعترافا بدور ومكانة خير الدين واحتراما لرغبة الجزائريين قرر السلطان سليم تعين ابن خير الدين حسن خليفة لوالده ومنحه لقب باي لرباي .

الهوامش:

1. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر الرباط 1972م ص 179 .
2. ابن سماك العاملي، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح عبد القادر بوباية ط1 دار الكتب العلمية بيروت 2010م ص 209.
3. ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب قسم الموحدين، تح محمد إبراهيم الكتاني وأخرون، دار الغرب الإسلامي بيروت 1985م ص 103.
4. عبد الرحمن بن خلدون، ديوان العبر ج 7 دار الفكر للطباعة والنشر بيروت 2000م ص 100.
5. إبن أبي دينار، المؤنس في أخبار افريقية وتونس، تح محمد شمام، المكتبة العتيقة تونس 1967مص 131.
6. ابن الشماع، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح الطاهر بن محمد الغموري، الدار العربية للكتاب 1984م ص 75 .
7. لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، الجزء الثاني، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الغانجي القاهرة 1973م ص95.
8. أبو العباس الناصري، الاستقصا لدول المغرب الأقصى، ج4 دار الكتاب الدار البيضاء 1954 ص 135.
9. أبو العباس المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج 1 تح مصطفى السقا إبراهيم الابياري، مطبعة لجنة التاليف والترجمة القاهرة 1939م ص 70.
10. الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج2 تر محمدحجي ومحمد الأخضر دار المغرب الإسلامي بيروت 1983م ص 31..
11. أحمد توفيق المدني، حرب ثلاث مائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، الجزائر 1985م ص 96.
12. صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، دار الألمعية للنشر الجزائر 2013م ص 44.
13. صالح عباد نفسه، ص 45.
14. أحمد توفيق المدني، المرجع السابق ص 110- يحيى بو عزيز،مدينة وهران عبر التاريخ، دار البصائر 2009م ص 42.
15. يحيى بوعزيز، المرجع السابق ص 42 –صالح عباد، المرجع السابق ص54.
16. وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ص 28.
17. عزيز سامح السر، الأتراك العثمانيون في شمال افريقيا، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية بيروت ط1 1989م ص 27.

18. عثمان سعدي، الجزائر في التاريخ، دار الأمة الجزائر 1013م،ص 370؛ يحيى بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2 ديوان المطبوعات الجامعية، ص 254.
19. يلماز أوزتانا،مذكرات خير الدين، ترجمة محمد دراج شركة الأصالة للنشر الجزائر 2010م ص 54.
20. مبارك بن محمد الميلي،تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج 3 مكتبة النهضة الجزائرية ص 37.
21. بسام العسلي،خير الدين بربروس والجهاد البحري، دار النفائس ط1 1980م،ص 89.
22. مبارك الميلي المرجع السابق، ص44.
23. صالح عباد، المرجع السابق ص 74..
24. مبارك الميلي، المرجع السابق ص 45..
25. كورين شوفاليه، ثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، 1510-1541 م ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 2007م ص 34.
26. عثمان سعدي، المرجع السابق، ص 373.
27. يحيى بوعزيز، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، دار البصائر 2009م ص 54.
28. شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص 84،-عزيز سامح، المرجع السابق ص 60.
29. مبارك الميلي، المرجع السابق ص 47.
30. أحمد توفيق المدني، حرب ثلاثة مائة سنة بين الجزائر واسبانيا، الجزائر 1985م،ص 190.
31. مبارك الميلي، المرجع السابق ص 48.
32. مذكرات خير الدين المصدر السابق ص 86-عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 61.
33. عزيز سامح، المرجع السابق ص 77.
34. مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 54.
35. شوفاليه، المرجع السابق ص 45..
36. عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3 ديوان المطبوعات الجامعية ط7 الجزائر 1995م ص 50 .
37. شوقي عطا الله، المرجع السابق، ص 87..
38. أحمد توفيق المدني، المرجع السابق ص 221.
39. صالح عباد، المرجع السابق ص 98..
40. مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 59..
41. إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العيكان الرياض ط1 1996م ص 67..
42. بسام العسلي، المرجع السابق ص 106- عزيز سامح، المرجع السابق، ص 122.

التدخل العثماني في الشرق الجزائري 1512- 1555م
مجرياته ونتائجه

دة. خديجة دوبالي

جامعة ابن خلدون / تيارت

تقديم:

ظلت الجزائر على مر العصور عرضة لأطماع القوى الخارجية، التي طمعت في استنزاف ثرواتها واستغلال موقعها الاستراتيجي، متخذة لأجل تحقيق هذه الغاية العديد من الدوافع بهذف اقناع منافسيها بضرورة ما تفعل هذا من جهة، ولاسكات سكان البلد المحتل من جهة أخرى. ومن بين تلك القوى كانت اسبانيا. وبعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس سنة 1492م، وضعت اسبانيا مشروعا توسعيا ليس على حساب الساحل الجزائري فقط، وإنما على حساب السواحل المغاربية عموما[1]، متخذة من الدافع الانتقامي محركا أساسيا لهذا المشروع[2]، هذا أمام الرأي العام الخارجي، أما في حقيقة الأمر فقد كانت هناك أسباب أخرى وراءه. وكانت البداية في سنة1505م[3] تاريخ احتلال المرسى الكبير[7]، مرورا باحتلال وهران سنة1509م[4]، ومن ثم بجاية عام 1510م[5]، ثم تتالى سقوط المدن الواحدة تلو الأخرى سواء كان طواعية أم كرها[6]، وإلى غاية سنة طرد الاسبان نهائياً من مدينتي وهران والمرسى الكبير سنة 1792م[7].

عقب هذه الأحداث، ولأن الجزائر في تلك المرحلة الحرجة من تاريخها كانت تفتقر لوحدتها السياسية والاجتماعية، وانعدام القوة العسكرية، اضطرت للبحث عن منقذ لها يدفع عنها هذا الخطر الخارجي؛ فلم تجد أمامها سوى الدولة العثمانية التي كانت تمثل

آنذاك قوة عسكرية وسياسية كبيرة في منطقة البحر الابيض المتوسط وشرق اوربا، خاصة وأنها حملت على عاتقها مهمة الدفاع عن الآراضي الإسلامية من تحرشات القوى الاوربية[8].

على هذا الأساس استنجد الجزائريون بالاخوة بربروس[9]المتواجدين في جزيرة جربة[10] سنة 1504م، هؤلاء مثلوا الدولة العثمانية على مستوى حوض البحر الأبيض المتوسط؛ فبعد أن وصلت أخبار جهادهم البحري وانتصاراتهم إلى مسامع سكان الجزائر، لم يترددوا في طلب العون منهم، لكن سرعان ما تحول هذا الدعم العسكري إلى الحاق الجزائر بالدولة العثمانية سنة 1520م وتعيين خير الدين[11] بايلرباي عليها ليدير شؤونها.

وبعد أن أصبحت الجزائر ايالة عثمانية تم تزويدها بعتاد حربي وبحري[12]، ووحدات من الجيش الانكشاري[13]؛ كما عمد حكام الجزائر بداية من خير الدين إلى رسم معالم وأسس الدولة القوية، فأقيمت المؤسسات السياسية والعسكرية والاقتصادية لتنظيم شؤون البلاد وتسير مصالح الرعية، ووضعت التقسيمات الجغرافية لتمكينها من السيطرة على زمام الأمور خاصة وأن الجزائر عرفت باتساع مساحتها الجغرافية. تمثلت هذه التقسيمات في دار السلطان[14] ومركزها مدينة الجزائر وثلاث بياليك (هي: تيطري، الغرب والشرق) من بينها بايلك الشرق[15]، الذي كان محور تنافس وصراع بين ثلاث قوى: الحفصيين، الاسبان والعثمانيين. من هذا المنطلق يمكننا بناء الاشكالية التالية: ما شكل هذا الصراع؟ وماهي آلياته وتجلياته؟. وسنحاول من خلال الصفحات القادمة الاجابة على هذه الاشكالية.

أولا: الاطار الجغرافي للبايلك:

يشمل الشرق الجزائري على رقعة جغرافية واسعة، امتدت من البحر شمالا إلى ماوراء بسكرة ووادسوف وتقرت وورقلة في حوض وادي ريغ[16] جنوبا، ومن الحدود التونسية شرقا إلى إقليم ونوغة[17] وبرج حمزة[18] أعماق جرجرة غربا[19]؛ وبهذا يعتبر هذا الإقليم من أهم أقاليم الجزائر جغرافيا، وذلك لتنوع مناخه بسبب اختلاف مناطقه، ويقسمه الجغرافيون إلى ثلاث أقسام كانت كالآتي:

1. المنطقةالساحلية:

وهي عبارة عن تجمع جبلي على شكل سلسلتين توازيان الساحل، كما يتخلل هذا التجمع بعض السهول؛ وما يمكن معرفته من هذا الطابع الجبلي للسواحله يأن منطقة

القل مرتفعاتها مندمجة فيما بينها وتنتهي عند حافة وادي الصفصاف وخليج عنابة وبموازاة مع هذين الخطين من التضاريس تمتد سلسلة أخرى ملتوية من جبال البيبان إلى جبال سوق أهراس[20]. وهناك هضاب ساحلية صغيرة بين البحر والجبال وذل ك من بجاية إلى سكيكدة، وفي اتجاه الشرق تتسع التقعرات أين تندرج بحيرة فزازة. وعلى العموم فالمنطقة تتكون من الجبال وبعض السهول، فإلى أقصى الغرب هناك منخفضاً وسع أين تتراكم الرواسب القارية، حيث ينبع وادي الساحل ومن الناحية الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية يمكن الوصول إلى بجاية وهي تشكل مخرجا هاما من الساحل إلى مرتفعات السهول الوسطى إذ يعتبر وادي الصومام بمثابة حد طبيعي يفصل بين إقليم قسنطينة، وإقليم مدينة الجزائر[21].

2. المنطقةالوسطى

أما المنطقة الوسطى فكانت ضيقة إلى الغرب، إلا أنها تتوسع كلما كان الإتجاه نحو الشرق؛ ضمت في معظمها السهول المرتفعة،كما أن هذه المرتفعات السهلية تتوفر على بحيرات هامة مثل:" القرعة "التي تدل على التقارب مع المنطقة شبه الصحراوية؛ ويضاف إلى ذلك الهضاب العليا لقسنطينية التي تتميز بقسمين أساسيين هما: منطقة الحضنة[22] والهضاب العليا[23].

3. المنطقةشبه الصحراوية:

تحدها سلسلة جبلية متقطعة من جبل شوكشوت غربا إلى جبل تبسة شرقا وتشمل هذه المنطقة على أربعة تجمعات وهي جبال الحضنة والأوراس[24] وجبال النمامشة وتبسة وبسكرة ووادي ريغ، فبالنسبة لجبال الحضنة فإنها تتضمن ثلاث اتجاهات،الأول شرق غرب، أما الثاني جنوب غرب، في حين نجذ الاتجاه الثالث يتجه شمال شرق. وهذه السلاسل الجبلية المتجهة من الغرب إلى الشرق مرتبطة بجبل" منصورة "وجبل "شوكشوت"[25]. أماالأوراس فإن سلاسلها الجبلية المختلفة تعزل بصورة واضحة السهول المرتفعة للمنطقة الصحراوية،وبالنسبة لوسط المنطقة فقد اشتملت على مجاري أودية ضيقة، أما في الشمال فنجد جبل"الشيليا "الذي تبلغ أعلى قممه 2328م. وبالنسبة لبسكرة، ووادي ريغ فهي عبارة عن واحات شاسعة تعرف باسم منطقةالزيبان[26].

ثانيا: التركيبة البشرية للمنطقة:

قبل أن يخضع العثمانيون المنطقة لسلطانهم كان الاقليم الشرقي من الجزائر مقسم إلى أربع مناطق متباينة، هذا التقسيم توارثته المنطقة أجيالا بعد أجيال، وسار عليه كل البايات[41] الذين حكموه. وكان على الشكل التالي:

- المنطقة الشمالية: امتدت من عنابة إلى بجاية. كان معظم سكانها من قبائل زواغة وفرجيوة[27].
- المنطقة الجنوبية: تشكلت من منطقة بسكرة. ضمت احدى عشرة قبيلة بدوية؛ أهمها: الزمول[28]، الحراكتة، أولاد سلطان[29] وأولاد سحنون[30].
- المنطقة الشرقية: امتدت من قسنطينة إلى الحدود التونسية. وكانت تضم: عمار الشراقة، أولاد زناتي، أولاد يحي بوطالب[31]، الحنانشة والنمامشة[32].
- المنطقة الغربية: كانت تتسع إلى البيبان[33]؛ وتمركزت فيها كل من القبائل التالية: أولاد عبد النور، عمارة الغرابة[34] ومجانة[35].

ثالثا: بدايات التدخل العثماني في الشرق الجزائري دوافعه ومجرياته (1512- 1514م):

دفعت الظروف الصعبة التي مرت بها الجزائر بسبب تفاقم الخطر الإسباني واحتلال المدن الساحلية الجزائرية وفرض الضرائب التعسفية على سكانه، الى ذهاب الجزائريين إلى الاستنجاد بالاخوين بربروس لتحريرهم وتخليصهم من التهديد الاسباني، وذلك لما حققوه من انتصارات مدوية كانت مسرحا لها المياه الاقليمية للبحر الأبيض المتوسط، فقد قام بحملات عسكرية على شواطئ إسبانيا قصد مساعدة مسلمي الأندلس أو ما اصطلح عليه في الدراسات التاريخية بالموريسكيين .

1. سقوط بجاية1510م:

احتلت مدينة بجاية مكانة مرموقة ليس على مستوى المغرب الأوسط(الجزائر) فقط وإنما في المغرب الاسلامي عموما، فقد اعتبرت من بين أهم مراكز الاشعاع العلمي والحضاري، وذلك بفضل مدارسها المتخصصة في علوم الطب والفلسفة وعلم الكلام والفقه

والحديث وغيرها من العلوم ؛ كما احتلت موقعا استرتيجيا أكسبها رقيا اقتصاديا. وظلت كذلك طيلة الحقبة الوسيطة، ولكن مع سقوط الحماديين الذين اتخذوا منها عاصمة لحكمهم تعرضت المدينة لتحرشات عسكرية من الحفصيين، هؤلاء تمكنوا من السيطرة عليها والحاقها اداريا بالدولة الحفصية[36] في المغرب الأدنى[37]، مستفيذين من الضعف السياسي والعسكري الذي آلت إليه الدولة الزيانية[38]. ونتيجة هذه المستجدات دخلت بجاية عهدا جديدا من تاريخها، عهد كله فتن وصراعات انتهى بزج حاكم بجاية عبد الله في السجن بعد أن أفقده عبد الرحمن الحفصي بصره؛ أمام هذا التمزق السياسي قررالملك الاسباني شن حملة عسكرية لاحتلال المدينة، خاصة وأنه وصلت تقارير أكدت على ثراء سكانها والبالغ عددهم حوالي ثمانية آلاف أسرة[39].

غادر الأسطول الاسباني المرسى الكبير في 30 نوفمبر من سنة 1510م متجها نحو جزر البليار، قدرت الروايات التاريخية تعدداه بعشرين قطعة بحرية تحمل عشرة آلاف جندي مدعمين بالمدفعية والعتاد العسكري المتنوع يقودهم بيدرو نافارو؛ وبمجرد وصوله إلى جزر البليار انضم لقوات الحملة قوة عسكرية اضافية قادمة من اسبانيا[40]. أقلع الأسطول من الجزر البليار في أول جانفي 1511، ووصل إلى بجاية في اليوم الخامس من الشهر نفسه، عندها أسرع القائمون على شؤون المدينة بتجنيد المتطوعين والقادرين على حمل السلاح[41]. والتي بلغ تعدادها حوالي 4000 مقاتل.

حاولت القوات المدافعة عن المدينة منع نزول القوات الاسبانية إلى البر إلا أن الخطة التي اتبعها القائد الاسباني بدرو نافارو مكنته من الانزال. وبعد ذلك، قسم قواته إلى فريقين للزحف نحو المدينة؛ كلف الفريق الأول باحتلال المرتفعات المحيطة بالمدينة، في حين أسند مهمة اقتحام المدينة إلى الفريق الثاني[42]؛ ودرات بين الطرفين معارك غير متكافئة بينهما انتهت بسقوط المدينة في أيدي الاسبان، التي ارتكبت مجزرة شنيعة بحق سكانها [43]. ومن النتائج التي افرزتها سقوط مدينة بجاية سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ودينيا، نذكر:

- أراد الاسبان من خلال ارتكابهم للمجزرة الشنيعة في حق سكان المدينة ارسال رسالة إلى بقية المدن الساحلية بضرورة الاستسلام حتى لا يتعرضون للمصير نفسه.
- ترتب عن سقوط بجاية اعلان حاكم تونس خضوعه للاسبان.

- أعلن الملك الزياني ولاءه وطاعته للاسبان، وتعهد بدفع ضريبة سنوية للعرش الاسباني كرمز لهذا الولاء.
- مغادرة سكانها، ولم يبق فيها إلا بعض العملاء للاسبان يتزعمهم أبو عبد الله الملك المخلوع سابقا[44].
- أعلن الملك الاسباني حمايته للتجارة الاسبانية مع بجاية وفرض ضريبة على الأقمشة الصوفية المستوردة من بجاية.
- أصدر الملك الاسباني مرسوما يالزم الحامية الاسبانية في بجاية بالاعتماد على قدراتها الذاتية في توفير احتياجاتها. وهو ما جعل مسالة استغلال موارد المدينة بشكل تعسفي وغير عادل.
- دمرت كل المعالم الحضارية والثقافية التي كانت تزخر بها بجاية والتي كانت رمزا لمجدها.
- حولت مساجدها إلى كنائس.

بعد احتلال المدينة استسلمت كل المدن الساحلية الشرقية، مثل: القالة والقل؛ ودخلت المنطقة كلها تحت سيطرة الاسبان.

بعدما ايقن سكان بجاية أن الاسبان تمكنوا من المنطقة ومن مناطق كثيرة، وأصبحت قوتهم تزداد يوما بعد يوم في ظل غياب أية قوة ترد هذا الخطر الصليبي؛ أخذوا يبحثون عن مخرج لهذه المشكلة، فوجدوا في قوة الاخوين بربروس المنقذ الوحيد من بطش وظلم الاسبان، لذلك الاتصال بهم بغية التدخل عسكريا من استعادة مدينة بجاية. وسافر وفد يمثل سكان بجاية ضم أعيانها وعلماءها إلى حلق الوادي للقاء عروج حاملا رسالة باسم سكان بجاية[45] أهم ما ورد فيها:" إن كان ثمة من مغيث فليكن منكم أيها المجاهدون الأبطال لقد صرنا لا نستطيع أداء الصلاة أو تعليم أطفالنا القرآن الكريم لما نلقاه من ظلم الاسبان فها نحن نضع أمرنا بين أيديكم جعلكم الله سببا لخلاصنا بتسليمه إيانا إليكم فتفضلوا بتشريف بلدنا وعجلوا بتخليصنا من هؤلاء الكفار"[46]. ويمكننا أن نستشف من خلال هذه الرسالة انها ساهمت في تعجيل التدخل العسكري من قبل عروج، بعد أضفت الشرعية على مثل هذا التدخل وكان ذلك في عام 1512م.

لم يتردد الاخوة بربروس في الموافقة على اهل بجاية، إذ قرروا في السنة نفسها مواجهة الاسبان، لهذا الغرض أقلع عروج بعمارة بحرية من حلق الوادي، واشتبكت قواته مع القوات الاسبانية إلا أنه لم يحقق الانتصار المرجو، ذلك أن عروج أصيب إصابة خطيرة في يده أجبرته على الانسحاب عائداً إلى حلق الوادي، وهناك تم بترها حفاظا على حياته[47]؛ وبالرغم من أن عروج فقد ذراعه إلا أنه لم يفقد عزيمته وتصميمه على تحرير بجاية من الاحتلال الاسباني.

2. مدينة عنابة[48] ما بين الاسبان والعثمانيين 1510--1522م):

تعتبر مدينة عنابة من بين أهم المدن الساحلية، نظرا لموقعها الاستراتيجي وغناها بثروات طبيعية ضخمة، لذلك فقد كانت المدينة عرضة لأطماع قوى خارجية على مدى تاريخها، ومن بين هذه القوى نذكر اسبانيا.

أ. الاحتلال الاسباني لمدينة عنابة (1511م):

بعد سقوط مدينة بجاية مباشرة عام 1511م قرر الاسبان ارسال حملة عسكرية الى عنابة قصد السيطرة عليها؛ لذلك جهز الملك الاسباني شارلكان[49] جيشا قوامه ألفي جندي تحملهم 30 سفينة يقودهم أندريا دوريا. وصلت الحملة الأسبانية قبالة المدينة وعند نزولها تفاجأت بخلوها من كل سكانها، الذين غادروها بعد وصول الحملة وما وصل مسامعهم من أخبار المجزرة التي اعقبت سقوط مدينة بجاية، فتخوفوا من أن يلحقهم المصير نفسه؛ أمام هذا الوضع المريح بالنسبة للإسبان غادرها القائد الاسباني أندري دوريا، تاركا خلفه حامية عسكرية تضمن السيطرة الاسبانية على المدينة[50]، وكلف القائد دون ألبار"Don Albar" لادارة شؤون المدينة. وتعرضت المدينة لعمليات نهب وتخريب لمدة قاربت إثني عشرة يوما من قبل الجنود الاسبان[51].

ب. تحرير مدينة عنابة (1522م):

عانت المدينة طيلة فترة الاحتلال من سيطرة الاسبان عليها، لذلك قرر خير الدين تحريرها خاصة وأن الظروف التي كان يمر بها كان يحتاج فيها إلى أن يفرض وجوده على مستوى الشرق الجزائري[52]. وقد ربط خير الدين مجموعة من الاتصالات مع كبار أعيان ووجهاء المدينة ليقنعهم بضرورة رفع لواء الجهاد لاسترجاع أرضهم المسلوبة، فكان له

ذلك، إذ تطوعت الجموع وأخذت تشن الغارات على الحامية الاسبانية التي لم تستطع الصمود طويلا، فكانت النتيجة أن انسحبت من المدينة خاصة بعد مقتل قائدها[53]؛ عندها قصدها خير الدين وهنأ أهلها بهذا النصر العظيم، وبالمقابل أعلن سكانها بيعتهم للعثمانيين الممثلين في شخص خير الدين.

3. الاستقرار بجيجل (1514م):

تعتبر جيجل من أهم المدن الساحلية الشرقية، لما كانت تتمتع به من موقع استراتيجي، ولما كانت تملكه من ثروات طبيعية، لهذا ظلت مطمعا لمختلف القوى الخارجية التي حاولت الاستفادة من ثرواتها واستغلال موقعها.من بين هذه القوى نذكر الجنويين الذين فرضوا أنفسهم بالقوة منذ سنة 1264م، فأقاموا مركزا تجاريا احتكروا من خلاله كل خيرات المنطقة[54]،مسببين الفقر والحاجة للسكان الأصليين؛ أمام هذه المعطيات تشجع سكان جيجل خاصة بعدما علموا بالتدخل العثماني في بجاية ومحاولة الاخوة بربروس تحرير المدينة من الاحتلال الاسباني. وعلى هذا الأساس تحرك وفد قاصدا عروج وعند التقاء الطرفين تدراسا القضية وقرر في نهاية المطاف عروج تلبية نداء الجيجلين لتخليصهم نهائيا من استغلال الجنويين لهم. على اثر ذلك جهز عروج حملة عسكرية قادها إلى جيجل وبعد مناوشات لم تكن بالصعبة تمكن عروج من تحرير المدينة[55].

استبشر سكان المدينة بهذا النصر خيرا ولم يجدوا بالمقابل ما يقدموه كرمز للعرفان على هذا الجميل سوى تسليم عروج منطقة يختارها هو ليبني عليها قاعدته العسكرية دون مقابل، لهذا قرر عروج ودون أي تردد نقل قاعدته العسكرية المتواجدة في حلق الوادي إلى المغرب الاوسط (الجزائر)وتحديدا في مدينة جيجل[56].

من خلال ما تم عرضه من معطيات تاريخية يمكننا استخلاص مجموعة من النقاط المهمة التي في نظرنا هي استقرائية وتحليلية أكثر مما تعتمد على مادة تاريخية حية:

- قبول عروج نقل قاعدته العسكرية من حلق الوادي بتونس نحو جيجل بالشرق الجزائري له دلالة قاطعة على الرغبة الكبيرة التي كان يخفيها عروج ومن ورائه السطات العثمانية من جعل الجزائر ولاية عثمانية.

- استقرارهم بتونس كان مؤقتا، إذ كانت هناك ترتيبات أخرى في جدول أعمال عروج تنتظر الفرصة المناسبة لتنفيذها.

- لعل القائل بقبول عروج لطلب الجيجليين سببه تخلصه من تلك الضريبة التي كان يدفعها للعرش الحفصي، كما كان سيخلصه أيضا من الضغوطات التي كانت تفرض عليه، لكن في حقيقة الأمر أن الموضوع كانت له أبعاد أخرى، فاستقرار عروج بهذه الطريقة في إحدى المدن الجزائرية أضفت على هذا التواجد الصبغة الشرعية.
- الموقع الاسترتيجي الذي كانت تتمتع به المدينة سيلعب دورا كبيرا في محاولة تحرير بجاية للمرة الثانية.
- فتح التواجد العسكري للقوات العثمانيةفي جيجل الفرصة أمام مدن أخرى أكثر أهمية لتطلب العون والمدد.

رابعا: اخضاع الشرق الجزائري للسلطة العثمانية :

مثلما ذكرت من قبل ان الجزائر غدت ايالة عثمانية، بعد التحاقها بالدولة العثمانية سنة 1520م وتعين خير الدين بربروس بايلرباي عليها. ولكن هذا الالتحاق لم يكن نهاية المنغصات للحكم العثماني في الجزائر، اما بخصوص تبعية منطقة شرق الجزائر للحكم العثماني، فقد تضاربت الروايات التاريخية حول تاريخ التحاق المنطقة رسميا بالسلطة العثمانية في مدينة الجزائر، واعتراف سكانها بهم. اذ هناك رواية تشير ان هذا الالتحاق تم بعد سيطرة خير الدين على ميناء القل، وهو ميناء تابع لقسنطنية سنة 1519م(57). أما الرواية الثانية فارجعت ذلك إلى حملة قارة حسين على مدينة قسنطينة، الذي أخذ اعترافا من سكانها بتبعيتهم لخير الدين بعد ان تمكن من دخولها عنوة ما بين عام 1519-1522م. وفي رواية ثالثة حيث يتفق كل من أبي دينار وأحمد النبيري على أن هذا الالتحاق يعود إلى عهد أبي الحسن الحفصي عام 1525م بالاعتماد على وثيقة للقاضي الحنفي، والتي تحمل امضاء رمضان باي(58). وفي رواية رابعة يرجح الدكتور ناصر الدين سعيدوني ان التحاق قسنطينة رسميا للسلطة العثمانية في مدينة الجزائر يرجع الى عهد صالح رايس(59) اعتماداً على عقد شرعي حرر في عام 1528م(60).

ونظرا لهذا الاختلاف في الروايات التاريخية كان لازما علينا اخضاعها لتحليل والتمحيص، من اجل الاستقرار على التاريخ الصحيح والدقيق. ففي الرواية الأولى التي ان تاريخ التحاق المنطقة بالسلطة العثمانية كان فغي سنة 1519م على يد خير الدين؛ وهي

رواية تجانب الصواب بشكل كبير، ذلك أن الاحداث التي شهدتها هذه السنة تؤكد عكس ذلك، اذ خلالها انشغل خير الدين بمواجهة الحملة الاسبانية على مدينة الجزائر هذا من جهة. ومن جهة أخرى، ان في ذلك العام لم تكن بعد الجزائر تابعة للدولة العثمانية، اذ خلالها بعث سكان مدينة الجزائر برسالة إلى السلطان العثماني سليمان الأول يطالبونه بالموافقة على التحاق الجزائر بالحكم العثماني. ومن هنا، فاننا نستبعد هذه الرواية.

أما الرواية الثالثة التي حددت تاريخ اخضاع المنطقة للسلطة العثمانية الى عام 1525م، اعتماداً على وثيقة حررها القاضي الحنفي، التي تحمل امضاء رمضان باي، فهي رواية مستبعدة أيضا، ذلك أن كل المصادر والمراجع التي تناولت تاريخ الجزائر في الفترة العثمانية أكدت على أن تعيين رمضان بايا على بايلك الشرق كان خلال سنة 1567م[61].

وفيما يخص الرواية الرابعة التي اشار فيها الدكتور ناصر الدين سعيدوني الى تاريخ اخضاع الشرق الجزائري للسلطة العثمانية بعام 1528م، رجوعا إلى عقد شرعي حرر في السنة نفسها وربطه باسم أحد أبرز رياس البحر وهو صالح رايس. وهو تاريخ مستبعد ايضا، على اعتبار أن الدكتور نصر الدين سعيدوني ربط تاريخ الالتحاق بتعيين صالح رايس بايلرباي على الجزائر؛ وبالرجوع إلى المصادر التاريخية فإننا نجد شبه اجماع تام على أن سنة تعيينه تم عام 1552م[62]. وقد يكون سبب هذا الخلط من جانبه يعود لسنة اشتغال صالح رايس في الأسطول البحري الجزائري، والتي أقرت كل الأبحاث التاريخية المطلع عليها أنها كانت خلال سنة 1529م[63].

ونتيجة نفي واستبعاد الروايات السابقة لم يبق لنا إلا الرواية الثانية التي ارجعت تاريخ التحاق منطقة شرق الجزائر بالحكم العثماني إلى حملة قارة حسين على مدينة قسنطينة. وهي الرواية الاقرب إلى الحقيقة لأنها ارتبطت بالتطورات التي شهدتها ايالة الجزائر في تلك المرحلة، لاسيما بعد انسحاب خير الدين من مدينة الجزائر نحو مدينة جيجل نتيجة ثورة ابن القاضي، وأخذ من هناك يفرض سلطته وهيمنته على المنطقة لتثبيت حكمه، بداية بشنه حملة على مدينة القل خلال سنة1521م فتمكن من السيطرة عليها،كما شن حملة أخرى على مدينتي عنابة وقسنطينة في العام الموالي(1522)، والحملة التي توجهت نحو قسنطينة كانت بقيادة قارة حسين .

أما عن علاقة العثمانيين بسكان باليك الشرق فقد حرص السلطة العثمانية، منذ تاسيسها في الجزائر، على المحافظة على علاقاتها الحسنة مع سكان ايالة الجزائر، لاسيما في المرحلة الاولى من وجودها. ولهذا نجد ان خير الدين بربروس حرص على كسب الاهالي نتيجة صراعه مع بعض القوى المحلية الرافضة لسلطلته. ومن هذا المنطلق أوصى خير الدين قادة الحاميات العسكرية في مدن شرق الجزائر، بضرورة حسن معاملة سكان المنطقة وكسب ودهم . وهو ما عمل به القائد العسكري يوسف بقسنطينة، خاصة وأن موقع المدينة الاستراتيجي فضلا عن بعيدها عن خطوط الامداد البحري جعله في حاجة ماسة ودائمة إلى تنظيم علاقاته بكل ودية مع الاهالي لاعتماده على الأسواق المحلية لتوفير المؤن للحامية العثمانية. وفي اطار هذه السياسة، سعى قائد الحامية العثمانية الى تمتين العلاقات مع اعيان المدينة، ومنهم الشيخ الفكون[64] شيخ البلد الذي ضمن له التعاون مع احدى القبائل الهلالية الشهيرة بالشرق، وهي قبيلة أولاد يعقوب بن علي التي كانت تسيطر على رقعة جغرافية واسعة في المنطقة امتدت من عنابة شرقا إلى سطيف غربا وإلى توقرت جنوبا [65].

وفي سياق سياسة كسب القبائل المحلية، فان السلطة العثمانية كانت تعمل على تقديم التسهيلات لهم، وكثيرا ما كانت تواجه بعض المشاكل نتيجة ذلك، مثلما حدث بعض المشاكل بسبب الصراع الذي كان قائما بين الحنانشة[66]وقبيلة أولاد يعقوب[67]. اذ ارادت قبيلة الحنانشة الاستفادة من نفس الامتيازات التي حصلت عليها قبيلة أولاد يعقوب، فقامت بمحاصرة مدينة قسنطينة بهدف منع وصول المؤن إلى الحامية العثمانية، وعندما عجز القائد يوسف عن فك الحصارا ستنجد بأولاد يعقوب، فهبوا لمساعدته، فدار بين القبيلتين قتال عنيف في سهول سطيف. ولم يتوقف القتال بين الطرفين حتى تدخل كبار اعيان القبيلتين، وتم الاتفاق على أن تستقر قبيلة الحنانشة في شرق قسنطينة وقبيلة أولاد يعقوب في غرب المدينة وضواحيها. فنهض خير الدين بالأمر ووسع نفوذه فوصل إلى البيبان غربا وبسكرة جنوبا وربوات جرجرة الشرقية غربا[68].

خامسا: استكمال مشروع بسط النفوذ العثماني على الشرق الجزائري:

تمكن خير الدين خلال فترة وجيزة (1525-1535)من تحقيق انجازات ضخمة بخصوص مد السيطرة العثمانية على منطقة الشرق الجزائري، ولم تتوقف هذه الانجازات الا بعد صدور

فرمان من قبل السلطان العثماني عام 1535 بتعينه قائدا عاما على للبحرية العثمانية، وبالتالي تحتم عليه الالتحاق باسطنبول لاستلام مهامه الجديدة. وقرر خير الدين أن يترك خليفة له ليستكمل المسيرة التي بدأها عروج، وسار هو عليها، ليضمن بذلك استمرارية ولاء وخضوع الجزائر للسلطنة العثمانية؛ وبعد تدبر وتفكير قرر تعيين حسن أغا[(69)] حاكما عاما على الجزائر، وبالتالي يعتبر ثاني بايلرباي عثماني يحكم ايالة الجزائر[(70)].

1. مساعي حسن أغا لفرض سيطرته على الشرق الجزائري:

تقلد حسن أغا الحكم مباشرة بعد مغادرة خير الدين للبلاد وكان ذلك خلالسنة 1535م فسعى إلى استكمال بناء دولة جزائرية حديثة، إذ حاول استكمال مشروع توحيد الاقليم الجزائري ترابيا تحت راية الخلافة العثمانية، ومن بين مساعيه في ذلك اخضاع ما تبقى من الشرق الجزائري للسلطة العثمانية.

حاول حسن أغا تمكين العائلات الكبيرة والقبائل الحليفة من مجموعة من الامتيازات حتى يضمن ولاءهم واخلاصهم، وعلى سبيل مثال تمكين أولاد يعقوب بن علي من فرض سيطرتهم على المنطقةالممتدةبين قسنطينة والعلمة. كما حاول تحرير مدينة بجاية من الاحتلال الاسباني لكنه واجهته تحديات كثيرة حالت دون تحقيق هذا المشروع[(71)].

2. الشرق الجزائري على عهد صالح رايس:

عين السلطان العثماني صالح رايس بايلرباي على الجزائر خليفة لحسن أغا عام 1552م، بمرسوم بعث به إلى العلماء والفقهاء وسكان الجزائر وقد جاء نصه كما يلي: " هذا مرسومنا أرسلناه إلى العلماء والفضلاء والفقهاء والأئمة والخطباء وجميع العلماء والقواد والنقباء وسائر رعايانا بولاية الجزائر الغربية، زيد توفيقهم يتضمن إعلامهم أن صدقاتنا الشريفة العالية الخاقانية وعوارضنا السنية السامية السلطانية قد انعمت على مملوك حضرتنا العالية ومعتمد دولتنا القانية أمير الأمراء الكرام... صالح باشا دام إقبالا، بولاية الجزائر لفرط شهامته وشجاعته وكمال قوته وصلابته وحسن سيرته وصفاء سريرته فوضنا إليه تلك الأرض وأمرناه بإحياء السنن والفروض والرعايا الذين هم ودائع الله تعالى وحفظ الثغور وسد خارق الأمور، لتكون رعايا أهل الإسلام ثمة في أيام دولتنا العادلة في أكمل الراحة، وأجمل الاستراحة آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فليكونوا مع أمير الأمراء المشار إليه على أحسن حال وأكمل اتفاق مراد حضرتنا قيام قاموس

الشرع القويم والصراط المستقيم وإحيائه مراسم الإسلام وطريقة سيد الأنام وحفظ العباد وصون البلاد وقمع الكفرة الفجرة بكل ناد وتقبلوا ذلك وتعتمدونه والله تعالى هو الموفق بمنه ويمنه والعلامة الشريف حجة بمضمونه"[72].

باشر صالح رايس مهامه الجديدة، وركز كل جهوده على محاربة الاسبان واستكمال السيادة الوطنية والوحدة الترابية للبلاد، لما هذا الأمر من أهمية قصوى في نشر الأمن والأمان والاستقرار السياسي والاقتصادي للبلاد.

أ. تحرير بجاية نهائيا من الاحتلال الاسباني(1555م):

أصبحت قوة الجزائر الاقليمية تزداد يوما بعد يوم، فانتقلت من موقف المدافع على مكتسباتها ومقدساتها إلى موقف المهاجم، إذ أخذت على عاتقها مهمة تحرير المدن التي بقيت تحت سلطة الاسبان مستغلة في ذلك الظروف التي كانت تمر بها اسبانيا من جهة، وأوربا من جهة أخرى، لذلك سوف تكون بجاية هي المدينة التي سوف تنال هذه الفرصة، خاصة وأن السلطات العثمانية رأت في تحريرها لها مكسبا اقيلميا واقتصاديا وسياسيا.

على ضوء ذلك جهز صالح رايس حملة عسكرية في شهر جوان من سنة 1555م، بعد حشد نفوس المجاهدين للتطوع في الجيش الذي سيحمل على عاتقه مهمة تحرير المدينة، فاجتمع له أكثر من ثلاثين ألف مجاهد من الخيالة والمشاة[73].بعدما اجتمعت لصالح رايس كل الامكانيات وتوفرت له الظروف الداخلية والخارجية قاد الحملة متجها نحو بجاية، التي وصلها في شهر سبتمبر من السنة نفسها؛ ولقد مرت الحملة بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى حاول من خلالها صالح رايس برفقة قواته محاصرة قلعة الإمبراطور، ثم أخذ يضرب أسوارها بالمدفعية إلى أن تمكن من تحريرها، وتم له ذلك خلال يومي 16 و17سبتمبر. في حين اقتضت المرحلة الثانية تحرير حصن بجاية الموجود قرب الميناء والذي ضم حوالي 150 مقاتل تحت قيادة دون بيدرو؛ أمر صالح رايس المدفعية بضرب أسوار الحصن، فلما تأكد للقائد استحالة المقاومة بعد مرور أربع أيام من القصف استسلم كل من كان بالحصن، وبالتالي حرر نهائيا من يد الاسبان[74]. أما المرحلة الثالثة من الحملة فقد اقتضت تحرير القصبة، فوجهوا مدفعيتهم نحوها، وتواصل القصف لمدة خمس أيام كاملة (من 22 سبتمير إلى غاية 27 من الشهر نفسه) تمكنوا خلالها من تحطيم كل القصبة[75].

من خلال ما تم عرضه من وقائع تاريخية يمكننا الخروج بمجموعة من الاستنتاجات نذكر منها:

- باسترجاع المدينة أعيدت لها مقدساتها الدينية، فاستبدلت الكنائس بمساجد، وحطمت الصلبان.
- تلقى الاسبان ضربة موجعة خاصة وأنهم كانوا يمرون بظروف دولية عصيبة، زادت من متاعبهم وعجزهم.
- بتحرير المدينة استرجعت الجزائر مكتسبات اقتصادية هامة، لما كانت تتمتع به المدينة من موقع استراتيجي مهم وثروات طبيعية ضخمة.
- تحقق للجزائر من خلال هذه العملية استرجاع 90% من وحدتها الترابية[76].

ب. فرض السلطة على قبائل البايلك:

تمكن صالح رايس من شن حملة على الجنوب القسنطيني تمكن خلالها من فرض سيطرته على ورقلة وتقرت وكان من ضمن من ساعده في ذلك شيخ العرب[77] بوعكاز وعبد العزيز خليفة مجانة الذي طلب منه أن يخضع له المنطقة الممتدة من بسكرة إلى المسيلة فرفض صالح رايس ذلك، فأظهر تحالفه مع أولادقاضي، ولم يكتفي بذلك بل قام بمهاجمة ومحاصرة الحاميات التركية المتواجدة على مستوى كل من مناطق التالية: زمورة، البرج والمسيلة؛ ونشبت الحرب بينه وبين صالح رايس، فشنوا عليه حربا راح ضحيتها عدد كبير من كلا الطرفين[78].

الخاتمة

من خلال دراستنا لموضوع (التدخل العثماني في الشرق الجزائري 1512-1555: مجرياته ونتائجه) اتضح لنا ما يلي:

1. الاهمية الاستراتيجية التي تمتع بها المغرب الاوسط(الجزائر) في اطار المشروع العثماني الساعي الى الوصول الى منطقة غرب البحر الابيض المتوسط، وذلك من اجل الضغط على منافسيها من الدول الاوربية، ولاسيما اسبانيا.

2. تعتبر الجهود البحرية التي بذلها الاخوة بربروس فغي مواجهة التهديدات الاسبانية خطوة اولى نحو ترسيخ الوجود العثماني في المغرب الاوسط.

3. كان لحالة التشتت والضعف السياسي الذي كانت تعاني منه منطقة المغرب الاسط، والتهديدات الاسبانية له، دافعا لسكان المنطقة في الاستنجاد بمساعدة الاخوة بربروس لمواجهة التهديدات الخارجية. وهو ما مكن او سهل على المشروع العثماني سرعة التحقق.

4. لم تكن جهود الاخوة بربروس، ولاسيما خير الدين، يسيرة في استكمال توحيد منطقة المغرب الاوسط، حتى بعد الانضمام للدولة العثمانية واعلان ايالة الجزائر، اذ لعبت العصبيات المحلية وارتباطتها المصلحية والذاتية في عرقلة جهود التوحيد تلك.

5. تتجلى صورة التلكؤ في تنفيذ مشروع وحدة التراب لايالة الجزائر في منطقة شرق الجزائر،وهي موضوع دراستنا، اذ احتاج العثمانيون اكثر من ثلاثة عقود في تحقيق ذلك. وبسبب ذلك مرتبط بالتهديدات الخارجية وحالة عدم الاستقرار الداخلي نتيجة صراعات القبائل فيما بينها وكذلك مواجهتها لتمدد العثماني في منطقتهم.

6. لاهمية منطقة الشرق الجزائري في اطار استكمال تكاملية الوجود العثماني في منطقة المغرب العربي، فاننا نرى ان هذا مشروع استنزف الكثير من الامكانيات المادية والبشرية من اجل استكمال هذا المشروع.

7. قد يكون لعوامل مثل: افتقاد السلطة العثمانية في ايالة الجزائر للامكانيات والقدرات اللازمة فضلا عن ضبابية البعد الجغرافي لديها قد اخر كثيرا استمكال مشروع التمدد باسرع وقت ممكن.

8. حقق نجاح التمدد العثماني في الشرق الجزائري تأمين الوجود العثماني في منطقة المغرب العربي لفترة طويلة.

الهوامش:

1. استهدفت اسبانيا من خلال احتلالها لقواعد استراتيجية في الجزائر خصوصا والمغرب على وجه العموم حماية ظهرها من أي هجوم قد يأتيها من هذه المناطق، خاصة بعد لجوء مسلمي اسبانيا إلى السواحل المغاربيبة وتأجيج روح الانتقام والجهاد في نفوس المغاربة، خاصة وأن اسبانيا اتعضت من أحداث الماضي، فقد انقذ المغرب الأندلس من الصليبيين على عهد المرابطينالذين سعوا جاهدين على صد العدوان الصليبي عليها، وكذلك تكرر الأمر نفسه على عهد الموحدين، فقد ساهمت هذه القوى بصورة مباشرة تأخير سقوط غرناطة.

2. يجدر بنا الإشارة إلى أن البرتغال كانت السباقة لاحتلال المرسى الكبير، فقد جهزت حملة عسكرية سنة 1501م مؤلفة من ثلاثين سفينة تحمل ثلاثة آلاف جندي. أقلعت الحملة في 15 جوان غير أن سوء الأحوال الجوية أجبرت القوات على الرسو داخل الخليج لمدة ثلاثة أيام، مما مكن السكان من اكتشاف أمرها، فأعلنوا حالة الاستنفار واستنجدوا باخوانهم من المناطق المجاورة لصد العدوان البرتغالي على المنطقة، فتمكنوا من هزم القوات البرتغالية وانقاذ المدينة من ذل ومهانة الاحتلال. للتفاصيل ينظر: عبد القادر فكاير، العلاقات الجزائرية البرتغالية خلال الفترة العثمانية، مجلة كان التاريخية، العدد: 18، ديسمبر 2012، الكويت، ص ص: 20- 25.

3. المرسى الكبير: مدينة ضغيرة أسسها ملوك تلمسان على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وتقع غرب مدينة وهران. ينظر: الحسن بن محمد الوزان، وصف افريقيا، الجزء 2، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص:31.

4. أصدر الملك الاسباني فرناندو مرسوما ملكيا في شهر ديسمبر من سنة 1508م يعلن من خلاله تجهيز حملة عسكرية على مدينة وهران قصد احتلالها؛ على هذا الأساس جهز الكاردينال خمينيس حملة ضخمة تكونت من خمسة عشر ألف جندي تحملهم ثلاث وثلاثون باخرة حربية وواحد وخمسون زورقا، يقودها بيدرو نافارو. ينظر: مارمول كربخال، افريقيا، ترجمة: محمد حجي وآخرون، دار المعرفة،الرباط، 1989،ص: 271. أقلع الأسطول من ميناء قرطاجنة يوم 16 ماي من سنة 1509م، ووصل إلى المرسى الكبير يوم 19 ماي من السنة نفسها، توقف هناك ليتم وضع الترتيبات النهائية للحملة وأخذ التموينات اللازمة. ينظر: محمد مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزء 3، مكتبة النهضة الجزائرية،الجزائر، 1964، ص- 23.

5. Charles Féraud, Histoire des villes de la province de Constantine, R,C, 1871-1872, P : 254.

6. لقد أحدثت الحملات العسكرية التي شنها الاسبان على كل من المرسى الكبير ووهران ثم بجاية هلعا وخوفا كبيرين في نفوس سكان المدن الساحلية المتبقية، لهذا رأت أنه لا مفر لها من الاستسلام واعلان خضوعها قبل أن تلاق المصير نفسه الذي آلت إليه المدن المحتلة، خاصة وأنهم لا

يملكون القوة السياسية والعسكرية لصد هذا العدوان عليهم. للتفاصيل اكثر ينظر: أحمد توفيق المدني، حرب ثلامائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792، دار البصائر، الجزائر،2007، الطبعة 3.

7. لم يتقبل الاسبان خسارتهم لمدينة وهران والمرسى الكبير فسعوا جاهدين لاعادة احتلاهما فكان لهم ذلك خلال سنة 1732. وبالمقابل لم تهدأ السلطات الجزائرية إلى أن تمكنت من استرجاعهما نهائيا سنةـ1792م وتحرير المنطقة من الاسبان بعد مواجهات عسكرية عنيفة بين الطرفين.للاطلاع على تفاصيل أكثر حول مجريات الحرب بين الجيشين الجزائري والاسباني. ينظر: بسام العسلي، خير الدين بربروس والجهاد في البحر (1470-1547)، دار النفائس، بيروت، 1983، ص: 132.

8. في رأينا لم يكن للتواجد العثماني في منطقة غربي البحر الأبيض المتوسط هذف وحيد هو انقاذ مسلمي اسبانيا والتصدي للقرصنة الأوروبية، وإنما كانت هناك دوافع أخرى حاولت السلطة العثمانية التستر عليها قدر المستطاع إلى أن تتمكن من تجسيدها على أرض الواقع. فقد رأت أنه من المنطقي بعد الحاق المشرق الإسلامي بالخلافة العثمانية لا بد من اتمام هذا المشروع بالحاق دول المغرب لها، ولكن لجهلها بعقلية المجتمع المغاربي ولتخوفها من الدخول في غمار مجازفة قد لا تحمد عواقبها قررت الثريت إلى حين ظهور مستجدات قد تسمح لتدخل شرعي ودون مخاطر.

9. الاخوة بربروس: هم أبناء الفخارجي يعقوب بن يوسف الثلاثة: عروج وخير الدين وإسحاق، الذين التحقوا بالقوات العثمانية مند حوالي 1504م، واستحدثوا لأنفسهم أسطولا بحريا قويا، وشرعوا في مواجهة القراصنة الأوروبيين انطلاقا من جزيرة جربة، وحلق الوادي، وجيجل. وأثمرت جهودهم بالسيطرة الكاملة على غربي البحر الأبيض المتوسط. للاطلاع على تفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: ابن سحنون أحمد بن محمد الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق: المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، الجزائر، 1973،ص:28.

10. جزيرة جربة: هي عبارة عن جزيرة منبسطة رملية غزاها الاسبان بعدما بسطوا نفوذهم على طرابلس سنة 1510م. ينظر: الحسن بن محمد الوزان،المصدر السابق، ص ص: 93- 95. ولكن سرعان ما استبدل الاخوة بربروس هذا المقر بحلق الوادي تجنبا للغارات الاسبانية المتكررة على الجزئرة.

11. خير الدين: انقسم المؤرخون إلى فريقين في أصل هذا القائد المجاهد فذهب المؤرخون الأوروبيون إلى أن أصله من اليونان ثم اعتنق الإسلام. ينظر: كورين شوفالي- الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1540م- تر: جمال حمادنة- د ط- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1991م- ص:24. في حين ذكر الفريق الثاني أن أصله يرجع إلى الأتراك المسلمين كان والده يعقوب بن يوسف من بقايا الفاتحين. ينظر: محمد يوسف الزياني- دليل الجيران وأنيس السهران في اختيار مدينة وهران- تق وتع: المهدي بوعبد الله- د ط- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- 1979م- ص:183. ولد سنة 1474م. ينظر: أحمد بن عبد الرحمان الشقراني الراشدي- القول الأوسط في أخبار بعض من

حل بالمغرب الأوسط- تح وتق: ناصر الدين سعيدوني- ط:1- دار الغرب الإسلامي- بيروت- 1991م- ص: 32.

12. أرسل السلطان العثماني فور تعيين خير الدين باي لارباي على الجزائر دعما عسكريا تمثل في ألفي جندي انكشاري ودخيرة حربية، ومدافع وعدد من السفن الحربية. ينظر: محمد صالح بن العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلاءهم على أوطانها- مراجعة وتعليق: يحي بوعزيز، دار هومة، الجزائر، 2005، ص:77.

13. الإنكشارية:كلمة عربية حرفت عن الكلمة التركية عند ترجمتها"يني تشاري"وتكتب بالتركية "يكيجري"وهي مكونة من قسمين "يكي yeni" ويعنى "جديد" و"جريcery" بمعنى "العسكر". ينظر: أماني بنت جعفر بن صالح المغازي، دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية، دار القاهرة، القاهرة، 2007، الطبعة 1، ص ص: 21،22.

14. دار السلطان: ورد تسميتها في الوثائق العثمانية بـ " محروسة الجزائر" أو "باب الجهاد". ينظر: ملفات الوثائق العثمانية- المكتبة الوطنية بالحامة- الجزائر، رقم الملف: 3205.

15. ورد تسميته في ملفات الوثائق العثمانية بابايلك قسنطينة نسبة إلى مركز حكمه مدينة قسنطينة. ينظر: ملفات الوثائق العثمانية- المكتبة الوطنية بالحامة- الجزائر- رقم الملف: 1641.

16. وادي ريغ: أطلق عليه ابن خلدون بـني ريغة، هؤلاء كونوا أحياء متعددة ولما افترق أمر زناتة تحيز فريق منهم إلى جبل عياض. ينظر: ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من دوي السلطان الأكبر، الجزء 7، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1871، ص:47. وهذه المنطقة متواجدة حاليا في الجنوب القسنطيني، يحدها من الغرب وادي جدي.

17. ونوغة: منطقة في أول ابتداء قسنطينة. ينظر: محمد صالح بن العنتري- المصدر السابق- ص: 90.

18. برج حمزة: تمثل منطقة بويرة حاليا. تكزن من نوبة واحدة واستعمله العثمانيون لحراسة المنطقة،. ينظر:

Loius Rinn, Le royaume d'Alger sous le dernier day, Typographie Adolphe, Jourdon imprimerie, libraire, éditeur-1999, P : 87.

19. يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، الجزء 2، دار الهدي، عين مليلة، 2009، ص:512.

20. بوضرساية بوعزة، الحاج أحمد باي في الشرق الجزائري رجل دولة ومقاوم 1830-1848، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2010، ص: 22.

21. المرجع نفسه، ص: 23.

22. كذلك وردت تسميتها في ملفات الوثائق العثمانية ينظر: ملفات الوثائق العثمانية- المكتبة الوطنية بالحامة- الجزائر- رقم الملف: 1642- الرسالة رقم:30.

23. بوضرساية بوعزة،المرجع السابق، ص:24.

24. الأوراس: منطقة جبلية تتحكم بالاتصال بين الجنوب التونسي والشرق الجزائري؛ كما كانت تسيطر على حركة التنقل بين منطقتي الصحراء في الجنوب والتل في الشمال، هذا ما جعلها قلعة حصينة سهلة الدفاع صعبة الاقتحام. ينظر: ناصر الدين سعيدوني- منطلقات وآفاق مقاربات للواقع الجزائري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، الطبعة 1، ص:47.

25. بوضرساية بوعزة،المرجع السابق، ص:24.

26. المرجع نفسه،ص: 24.

27. فرجيوة: مارست عائلة بوعكاز بن عاشور سلطتها ونفوذها على منطقة فرجيوة. ينظر: صالح فركوس. المختصر في تاريخ الجزائر. دار العلوم للنشر والتوزيع. الجزائر. 1972. د ط. ص:57.

28. الزمول: تواجدت هذه القبيلة على بعد 43 كلم من جنوب قسنطينة، وكان استقرارهم في بداية الأمر في عين السمارة. ينظر:

Laila Babes, Tribus, structures sociales et pouvoir politique dans la province de Constantine sous les Turcs, Mémoire pour le D. E.A d'études politiques approfondies, Université de droit d'économies et de science D'aix Marseille, P : 112.

29. أولاد سلطان: من بين القبائل المستعربة، وسبب تسميتهم بأولاد سلطان هو أن جدهم الأول تزوج من أختين، فاطمة وسلطانة، أما الأولى فكان لها أربعة أولاد، في حين كان لسلطانة سبعة أولاد، وقع بين الاخوة قتال فمات منهم ثلاثة، عندها تفرق أولاد فاطمة وتركوا المكان، بينما بقي أولاد سلطانة في جبلهم، الذي حمل اسمهم. ينظر: محمد صالح بن العنتري،المصدر السابق، ص: 90.

30. أولاد سحنون: استقرت هذه القبيلة في بداية الأمر بالهذنة، ثم انضمت تحت لواء حلف فرحات بن سعيد سنة 1837م قصد محاربة أحمد باي وعزله. ينظر:

Charles Féraud, Op. Cit,P :308.

31. أولاد يحي بوطالب: قبيلة مرابطية، تمتعت بامتيازات كثيرة من بينها اعفائها من دفع المطالب المخزنية التي فرضها بايات قسنطينة على كل القبائل؛ ولكن مع أواخر العهد العثماني في الجزائر فرضت عليها السلطة العثمانية على مستوى البايلك دفع هذه المطالب وكانت عينية ونقدية. ينظر: Laila Babes, Op. Cit, P : 74.

32. استقرت هاتان القبيلتان في منطقة الأوراس، عرفت بتمردها وعصيانها للسلطات العثمانية. ينظر: ملفات الوثائق العثمانية- المكتبة الوطنية بالحامة- الجزائر- رقم الملف: 1642- مثالا على ذلك ينظر كل من الرسالة رقم:28_29.

33. البيبان: سميت كذلك لأنها متكونة من جبلين على درجة كبيرة من الوعورة، يمتد بينهما طريق عميق وآثار لمجرى تجمع المياه؛ سماها الرومان بـ:"بيبان الحديد". ينظر: علي رضا أفندي بن حمدان خوجة الجزائري، وصف رحلة من الجزائر إلى قسنطينة عبر الجبال (1832)، تعليق وتقديم: عميراوي حميدة، مطبوعات جامعة المنتوري، قسنطينة، 1999، ص: 50.

34. قبيلة عمار غرابة: استوطنت منطقة سطيف؛ اعتبر أفرادها من بين الرافضين للحكم العثماني. ينظر: صالح فركوس- المرجع السابق- ص:63.

35. Mouloud Gaid, Chronique des beys de Constantine- Office des publications universitaires, Alger, P : 127.

36. الدولة الحفصية: تم اختيار أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص للولاية على إفريقية، فتقلد ولايتها من سنة 1203م إلى غاية 1221م. ولما تولى ابنه أبو زكرياء الأول سنة 1229م الحكم ساد الاضطراب دولة الموحدين بالمغرب الأقصى، فاستبد أبو زكرياء بإمارة المغرب الأدنى سنة 1235م وبويع له على ذلك. ثم ضم إليه قسنطينة وبجاية. للتفاصيل ينظر : محمد بن ابراهيم اللؤلؤي الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتقديم: الحسين اليعقوبي واخرون، المكتبة العتيقة، تونس، 1998، الطبعة 1.

37. مارمول كربخال، المصدر السابق، ص: 273.

38. الدولة الزيانية: كانت تعرف في سنواتها الاولى باسم (دولة بني عبد الواد)حكمت قرابة ثلاثة قرون(639-962ه/ 1242-1555م) يرجع اصلهم إلى قبيلة بني عبد الواد، أحد بطون زناتة. وتداول على خكمها 35 اميرا، منهم من دامت فترة حكمه لايام معدودات واخرون امتد لسنوات طوال. للتفاصيل ينظر: محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق وتعليق: محمود اغا بوعياد، موفم، الجزائر، 2001.

39. الحسن بن محمد الوزان، المصدر السابق، ج:2، ص: 50.

Charles Féraud, Conquête de Bougie par les espagnols d'après un manuscrit arabe-R. A, T : 12, 1868, P : 248.

40. مارمول كربخال- المصدر السابق- ص: 273.

41. أحمد توفيق المدني- المرجع السابق- ص: 109.

42. مارمول كربخال،المصدر السابق، ص: 280.

43. Charles Féraud, Conquête de Bougie, Op. Cit, P : 254.

44. تحالف أبو عبد الله مع الاسبان وذلك أثناء احتلالهم للمدينة بعدما عالجوا عيناه وأطلقوا سراحه. ينظر: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق،ص: 107

45. Henri Grammont- Le R’azaout est-il l’œuvre de Kheir_Ed_Din (Barbarousse)- Imprimerie de X. Duteis- 1830- P : 27.

46. خير الدين بربروس، مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة: محمد دراج، الاصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، الطبعة 1، ص: 67.

47. أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص ص: 150، 151.

48. مدينة عنابة: تأسست على يد الفنيقين في منتصف القرن الحادي عشر قبل الميلاد، أطلقوا عليها اسم هيبون "Ubbon"، هذه الأخيرة تعني الخليج أو الملجأ، ثم أصبحت تعرف بـ "بونة" بعدما تم فتحها من طرف المسلمين على يد حسان، ثم تحولت من هذه التسمية إلى تسمية أخرى وهي عنابة نسبة للنبات الذي اشتهرت به المنطقة. ينظر: العريبي اسمهان، المدن الساحلية ودورها في الصراع البحري الإسلامي المسيحي (مدينة عنابة نموذجا)، مجلة العصور، العدد: 21-، السنة 2013، وهران، ص: 262.

49. شارلكان أو كارلوس الخامس من ملوك ال هابسبورغ، كان ملكا على إسبانيا وإمبراطور للإمبراطورية الرومانية المقدسة. أحد أعظم الشخصيات في التاريخ الأوربي، توّج ملكاً لإسبانيا باسم كارلوس الأول وملك إيطاليا وأرشيدوق النمسا ورأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة، حكم إمبراطورية مترامية الأطراف وموزعة على ثلاث قارات. ولد في الاراضي المنخفضة في 24 فيفري 1500، والداه هما: الملك فيليب الاول ملك قشتالة والملكة جوانا. وتزوج من الاميرة البرتغالية ايزابيلا افيس ابنت الملك مانويل الاول سنة 1526، لديه خمسة ابناء اشهرهم : فيليب الثاني ملك اسبانيا. توفي في اسبانيا 21 سبتمبر 1558. ينظر: عادل سعيد البشتاوي، الأندلسيون المواركة (دراسة في تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة)، مطابع أنترناشيونال برس،القاهرة،1983، ص: 132.

50. سعيد دحماني، من هيبون -بونة- عنابة تاريخ تأسيس القطب الحضاري، بونة للبحوث والدراسات،الجزائر، 2007، ص:106.

51. تعرضت المدينة إلى تخريب شامل، حتى جدران المنازل لم تسلم من العملية، إذ اقتلع منها الجنود الاسبان صفائح المرمر، وحملوا كل ما هو ثمين إلى اسبانيا. ينظر: سعيد دحماني، عنابة فن وثقافة، وزارة الاعلام، الجزائر، دون تاريخ نشر، ص:59.

52. واجه خير الدين صعوبات كثيرة في سبيل فرض السيطرة العثمانية ليس على مستوى الشرق الجزائري فقط وإنما على مستوى كل البلاد عموما، فالخصائص الطبيعية والبشرية والتاريخية حالت دون استكمال مشروع توحيد البلاد تحت راية الخلافة العثمانية، ولم يتحقق ذلك إلا بعد صراع طويل مع العنصر المحلي من جهة، والاسبان من جهة أخرى.

53. العريبي اسمهان،المرجع السابق، ص:264.

54. يحي بوعزيز، المرجع السابق،ص: 149.

55. أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791م، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، 1986، ص:23.

56. محمد سي يوسف، أمير أمراء الجزائر علج علي، دار الأمل، الجزائر، 2009م، ص:42.

57. M. Léon Galibert, L'Algérie ancienne et moderne, Furne et C librairie, éditeur, Parie, P : 7.

58. رمضان باي: سادت فترة حكمه لبايلك الشرق اضطرابات وفتن حركتها قبائل المنطقة معلنة رفضها للخضوع لحكمه، مما أجبر حاكم الجزائر على استدعائه إلى دار السلطان أين تم عزله. ينظر: صالح بن العنتري- المصدر السابق- ص ص: 30،31.

59. صالح رايس: تضاربت الروايات التاريخية حول موطن ولادته، فهناك من أرجعته إلى مدينة الاسكندرية، في حين ذكرت أخرى أنه تم ذلك في الأناضول، أصبح مند سنة1529م في طليعة رياس البحر، تمكن بفضل حنكته وخبرته العسكرية وشجاعته تحقيق العديد من الانجازات شهد له التاريخ بها. ينظر: مروش منور، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، (القرصنة، الأساطير، والواقع)، الجزء 2، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009، ص: 125.

60. ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية (دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000م، الطبعة 1، ص: 11. وللاطلاع على نص الوثيقة، ينظر: المرجع نفسه، ص ص: 117 - 118 .

61. وصلت إلى البلاط الاسباني أخبار انتصار جيشه على القوات العثمانية في واقعة بني راشد عام 1518 التي كانت نتيجتها استشهاد كل من عروج واسحاق، فقررت السلطات الاسبانية شن حملة عسكرية ضخمة على مدينة الجزائر يقودها هوغو دومونكاد (Hugo De Moncade) نائب ملك صقلية واشترك معه في القيادة كنائب عن الملك الاسباني كونز ألفمارينو دي ريبرا (Gonz Alvamarino De Ribéra)؛ أبحر الأسطول من جزرة صقلية أواخر شهر جويلية من سنة 1519م متجها نحو المرسى الكبير أين تمون بالجند والعتاد، بعدها توجه صوب مدينة بجاية للسبب نفسه، ومنها نحو مدينة الجزائر التي وصل إليها في 17 أوت من السنة نفسها ونزل بوادي الحراش. ينظر: أحمد توفيق المدني،المرجع السابق، ص: 206. أدرك خير الدين أن المعركة لن تكون بالسهلة، فاستعد لها حاشدا همم الشعب الجزائري من أجل التطوع لصد العدوان الاسباني على بلادهم، فكان له ذلك. بعد اقتتال بين الطرفين تمكن خير الدين وجيشه من تحقيق الانتصار. ينظر: كورين شوفالييه- المرجع السابق- ص: 40.

62. محمد دراج، تأسيس ايالة الجزائر، مجلة العصور، العدد 16، جوان- ديسمبر 2010، وهران، ص: 44.

63. محمد صالح بن العنتري، المصدر السابق، ص:26.

64. الفكون: ينسب إلى عائلة بن الفكون، اعتبرت هذه الأخيرة من بين أقدم العائلات على مستوى قسنطينة، اشتهر أفرادها بالعلم والصلاح. تعود في نسبها إلى قبيلة بني تميم ومن ثمة فهي من القبائل العربية العريقة؛ جدهم الفكون من قبل الأم من الأشراف الحسنيين، كان قد تولى في قسنطينة وظيفة المزوار. ينظر: عبد الكريم الفكون- شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية الإسلام- تق:أبو القاسم سعد الله - د ط- دار الغرب الإسلامي- بيروت- 1406هـ/1976م- ص: 38.

65. عائشة غطاس، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، المركز الوطني للدراسات والأبحاث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، دون تاريخ نشر، ص: 202.

66. قبيلة الحنانشة: كان جدهم الأول يدعى حناش، أحد أشهر فرسان الفتح الإسلامي، وهم من نسل الأحرار . ينظر:

Charles Féraud, Histoire des villes de Constantine, R C. 1871-1872, P P : 128-129.

67. تكونت هذه القبيلة من ست عشرة فرقة، وهم من الأشراف. كان شيخها يحمل ختما وقفطانا مزينا بالخيوط الذهبية. ينظر:

Charles Féraud, Les harar seignieursdes Hannencha, R .A, N : 18, 1874- PP : 364-365.

68. محمد صالح بن العنتري،المصدر السابق، ص:28؛ عائشة غطاس، المرجع السابق، ص:203.

69. حسن أغا: تضاربت الروايات حول أصله، من بينها أنه الابن الوحيد لخير الدين من أم جزائرية، نتج عن مصاهرة جمعت خير الدين بابن القاضي. ولد بمدينة الجزائر وتربى بين أهلها وتثقف على يد علمائها. ينظر: أحمد توفيق المدني، حرب ثلاثمائة سنة-، ص: 301.

70. صالح بن العنتري- المصدر السابق، ص: 29.

71. المصدر نفسه.

72. حرر هذا النص الرسالة في أوائل شهر محرم من سنة *959*هـ الموافق ليناير من عام *1552*م.

73. صالح عباد، المرجع السابق، ص ص: 78، 79,

74. صالح فركوس،المرجع السابق، ص: 79.

75. أحمد توفيق المدني، حرب ثلاثمائة سنة، ص:348.

76. ذلك أن كل من مدينة وهران والمرسى الكبير لم يتم استرجاعها بعد.

77. أول من اتخذ هذا المنصب بإذن من الباب العالي المدعو ابن حناش، اعتبر هذا الأخير من بين الشخصيات المهمة في تلك الحقبة التاريخية. ينظر:

Dureau De La Malle, Province de Canstantine (Recueil de ransiegnements), Libraire de guide, Editeur des annales des voyages, 1837, P : 357.

78. محمد صالح بن العنتري، المصدر السابق، ص: 29.

الجـزائـر العثمـانية: سياسيا وإداريـا

د.الزين محمد
جامعة الجيلالي اليابس/ سيدي بلعباس

مقدمة:

يتفق الجميع على أن التواجد العثماني في منطقة غرب البحر الابيض المتوسط كان مهما وذا فائدة لأبناء منطقة المغرب العربي. اذ لولا التدخل العثماني الذي تورط بالتدريج، ووفق مصالحهم الإستراتيجية في المنقطة، لغدت منطقة المغرب العربي من توابع الاستعمار الاسباني النشط آنذاك. وتوافقت الرغبة العثمانية مع حاجة اهل المغرب العربي لتأسس للحكم العثماني في منطقة المغرب العربي(الجزائر، تونس وطرابلس الغرب). وقد تطلب الوجود العثماني تأسيس نظم سياسية وإدارية تتوافق مع طبيعة الظروف التي تحيط بالمنطقة. ومن خلال هذا البحث أحاول تسليط الضوء على النظم السياسية والإدارية التي اتبعت في ايالة الجزائر خلال الحكم العثماني.

أولا: الأتراك العثمانيون[1] في المغرب الأوسط، وتأسيس الإيالة الجزائرية:

اختلف المؤرخون في تحديد سبب دخول الأتراك العثمانيون للجزائر، فمنهم من يقول: أن الإخوة برباروس أوفدهم السلطان سليم مباشرة إلى الجزائر؛ بناء على استنجاد الجزائريين بالدولة العثمانية، إذ يقول محمد بن يوسف الزياني في كتابه: « اعلم أن سبب مجيئهم (الأتراك العثمانيون) للجزائر- على ما في "دوحة الناشر" لأبي عبد الله محمد بن عسكر الشريف، و"الدليل" لأحمد بابا، و"غريب الأخبار" للحافظ أبي رأس، هو تغلب النصارى على السواحل،ولما رأى ذلك، العلامة ولي الله، أبو العباس الشيخ أحمد بن القاضي

الزواوي، كتب إلى السلطان سليم[2]، فبعث للجزائر الباشا خير الدين حسن بن المدلية وشقيقيه عروجا وإسحاق»[3].

وبالرغم من أن هذه الرواية لم ترد في مؤلفات المؤرخين في العصر الحديث، فإنه يبدو أن الدولة العثمانية لم تكن بمعزل عن الأحداث التي كانت تجري في منطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط، يؤكد ذلك، ما رواه حمدان بن عثمان خوجة، من أن الباب العالي حين علم بما تعرض له المسلمون الأندلسيون من اضطهاد وإبادة على أيدي الأسبان، وضع تحت تصرف خير الدين مراكب وأرسله لنجدتهم، فكان يجمعهم من شواطئ أسبانيا، ويذهب بهم إلى مدينة "جيجل" و"بجاية"، أو إلى أماكن أخرى مجاورة[4].

و منهم من يقول – وهي الرواية المتواترة- أن الجزائريين اتصلوا مباشرة بعروج، إذ أرسل إليه أمير بجاية وفدا إلى قاعدته بجزيرة جربة، يلتمس منه مساعدته لاسترجاع المدينة من أيدي الأسبان، وبالرغم من أنه استجاب لملامسته وبادر بمداهمة بجاية بأسطوله في أغسطس سنة 1512 م، إلا أنه لم يفلح في استرجاعها، ثم عاود الهجوم عليها مرة أخرى سنة 1514، ولكنه فشل في الاستيلاء عليها، فانسحب إلى ميناء "جيجل" – الذي يقع غربي مدينة بجاية- ولم يعد إلى قاعدته في جزيرة "جربة"، وما كاد يستقر في هذا الميناء الذي استقبله سكانه بفرح كبير، حتى أخذ في بسط سلطانه على البلاد[5].

وكيفما كان السبب، فإن مدينة الجزائر كانت تعاني في هذا الوقت من وطأة حصار الأسبان لها، فأرغم سكانها حاكمها الشيخ سليم التومي على الاستنجاد بعروج لتحرير المدينة من نيرهم، ويقال: أن عروجا كان ينتظر هذه الفرصة منذ زمن بعيد، ولذلك سارع بإنجاد المدينة، فجمع كافة الإمكانيات التي كانت في حوزته، فأرسل ست عشرة سفينة تحمل نصف جيشه من الأتراك مع المدفعية والأجهزة العسكرية، ثم سلك هو طريق البر مع بقية قواته من الأتراك وعددهم ثمانمائة، وفرقة من أبناء بلاد القبائل، تتألف من حوالي خمسة آلاف مقاتل، وقد استقبله حاكم المدينة وسكانها كأحد الأبطال المحررين، وكان ذلك في سنة 1516[6].

ترك عروج أخاه خير الدين حاكما على مدينة الجزائر بعد أن دعم مركزه فيها، وقرر أن يتجه غرباً لتأديب حاكم "تنس" الذي كان قد أبدى عداءً سافراً ضده، والذي كان قد وعد الأسبان بمعاونتهم في الحملة البحرية على مدينة الجزائر، وهو إن لم يف بوعده لهم،

فقد رأى عروج أن يؤدبه، ليضرب به المثل لباقي الحكام من الأهالي لأنه كان أقواهم، وكان عروج يخشى أن يوقد هذا الحاكم نار ثورة قبائل المحل عليه[7].

وقد صحب عروج معه جيشا مؤلفا من الانكشارية ومن الأندلسيين، وعدد كبير من القبائل، فاستولى أولاً على مدينتي "المدية" و"مليانة"، ثم دخل مدينة تنس دون مقاومة من الأهالي، بعد أن هزم قوات حاكمها في المعركة التي وقعت بينهما في "وادي جر"، على بعد خمسة أميال تقريباً من مدينة البليدة[8]. وبعد أن أنقذ مدينة تنس اتخذها مركزاً لهجماته على المعاقل الأسبانية؛ ومنها تلمسان التي وصله طلب أهلها لتخليصهم من سلطانهم أبو حمو الزيّاني – الذي استعان بالأسبان وتوصل إلى الحكم بمعونتهم- فهاجم بابا عروج مدينة تلمسان وهزم "أبا حمو" وقضى على من بقي من الزيّانيين، لكن الأسبان حاولوا استعادة تلمسان وإرجاع أبي حمو إلى الحكم فأرسلوا جيشا من وهران التي كانت تحت سيطرتهم.

وأمام تأخر وصول الإمدادات إلى عروج اضطر إلى الخروج من تلمسان، لكنه التقى بالقوات الأسبانية في الطريق[9]، فهاجمته وهزمته واستشهد في هذه المعركة التي وقعت قرب وادي المالح[10]في سنة 1518.

وبعد استشهاد عروج، بايع الجند بالإجماع خير الدين خلفا لأخيه، ولكن خير الدين وجد نفسه في موقف صعب للغاية، نشأ عن هزيمة أخيه عروج واستشهاده، كان خير الدين – كما يقول جوليان- يتميز بصفتين أساسيتين: إرادة لا تقهر، وحاسة سياسية لا تخطئ، ففي غمرة الكوارث التي أحاطت به، اتخذ قراره بربط مصيره بمصير الدولة العثمانية، لأنه أدرك أنه لا يستطيع أن يجابه هذا العدد الكبير من الخصوم، إلا بمساندة الباب العالي، حيث يحصل منه على الهيبة والمال والقوة العسكرية التي تمكنه من تحقيق أهدافه الواسعة[11]. وهكذا تمّ إلحاق الجزائر بالممتلكات العثمانية؛ بطريقة تكاد تكون سحرية، وكان لتبني الدولة الفتية بزعامة خير الدين،الجهاد وحماية ديار الإسلام من الغزو الصليبي الداهم أثر واضح على وضع الحوض الغربي للمتوسط[12].

ثانيا: حملة شارلكان على مدينة الجزائر:

و في سنة 1541 قام الملك شارلكان (1500- 1558) ملك أسبانيا بتجهيز حملة مكونة من 40 سفينة حربية بقيادة مونكادا للقضاء نهائياً على الوجود العثماني بالجزائر،

وبالفعل نزلت القوات الأسبانية بسيدي فرج غرب مدينة الجزائر والتحمت مع القوات الجزائرية بقيادة خير الدين، فانهزم الأسبان هزيمة شنعاء كما قضت زوبعة قامت في هذه الأثناء على سفنهم، فانسحب الأسبان يجرون أذيال الخيبة، واكتسب خير الدين نصراً معنوياً جعله ينصرف إلى تثبيت حكمه في الداخل فنصب أحمد بن القاضي والياً على الناحية الشرقية وجعل مركزه جبل كوكو بمنطقة القبائل ونصب محمد بن علي والياً على الناحية الغربية، كما جاءه ولاء حاكم تلمسان بعد وصول خبر هزيمة الأسبان[13].

هذا الاستقرار لم يعمّر لخير الدين طويلاً، فسرعان ما استمال حكام تونس – الذين كانت تساورهم الأطماع في توسيع دولتهم وضم قسنطينة وروابي بلاد القبائل- ابن القاضي وأهل فاس ابن علي ودعوتهما للثورة على حكم الأتراك، فثارا على خير الدين، بل استطاع ابن القاضي أن يحتل الجزائر ويطرد خير الدين إلى جزيرة جربة لمدة سبع سنين استطاع بعدها خير الدين بمساعدة سكان مدينة الجزائر أن يعود إليها سنة 1527، وتمكن هذه المرة من إخضاع كامل البلاد بين تلمسان وقسنطينة وطرد الأسبان سنة 1529 من قلعة برج الفنار (صخرة البنيون) [14] التي كانت تهدد مدينة الجزائر، ثم ربط هذه القلعة الموجودة على جزيرة قريبة بالبر فشكل هذا اللسان الصخري الممتد ميناءً يحمي السفن الجزائرية الراسية من خطر العواصف، لكن خير الدين سرعان ما استدعى في سنة 1533 من قبل الخليفة لتولي منصب قبطان باشا أي قيادة الأسطول البحري التركي فسافر خير الدين وترك وراءه حسن آغا (1533- 1544) واستطاع خير الدين بمساعدة حسان آغا أن يحتل تونس سنة 1534، ويسقط الدولة الحفصية بها، لكن الأسبان هاجموا تونس ونجحوا في استردادها سنة 1535، ثم احتلوا عنابة وهدّدوا حتى قسنطينة مما دفع خير الدين إلى مهاجمة السواحل الأسبانية وأسر بعض سكانها[15].

عزم شارلكان على التخلص من هذا الخطر نهائياً وجهّز حملة قوامها 510 سفينة تحمل 25000 جندي وهاجد الجزائر في 23 أكتوبر 1541[16]، لكن حملته فشلت وقتل فيها 12000 من الأسبان كما حطمت زوبعة بحرية أزيد من 250 سفينة من أسطوله، مما جعل الأوربيين يعتقدون أن مدينة الجزائر تحظى بعناية إلهية خاصة[18].

مدّ حسن آغا إثر هذا النصر سلطته إلى بسكرة ودخلت منطقة الزيبان تحت سلطته، كما هزمت جيوشه في سنة 1543 قوات " مولاي عبد الله الزياني" المدعوم بقوات أسبانية

كبيرة مدّه بها الملك " شارلكان" ضد أخيه " مولاي أحمد" الذي حكم تحت حماية حسن آغا، لكن الأسبان أعادوا الكرّة في سنة 1544م فاحتلوا تلمسان ونصّبوا مولاي عبد الله ملكاً من جديد. إلا أن سكانها طردوه إلى "وجدة" حيث قـُتل وأعادوا مولاي أحمد، وفي هذه السنة توفي حسن آغا فبعث السلطان بالفرمان مع حسن باشا بن خير الدين ولقّب بـ : البايلرباي[18].

ثالثا: النظام السياسي العثماني في ايالة الجزائر:

- **عهد البايلربايات (921- 995 هـ / 1518- 1587 م):**

البايلربايات هم قادة الأميرالية نذكر منهم: باباعروج(1513-1534)،خير الدين (1518- 1534)، الخادم حسن آغا(1534- 1544)، وصالح رايس باشا(1552-1556)،وحسن قورصو (1556-1556م)،وعلج علي هو آخر البايلربايات. ويمثل هذا العصر أزهى العصور بالنسبة للحكم التركي العثماني في الجزائر، حيث ازدهرت البلاد في هذه المرحلة من الناحية الاقتصادية والعمرانية وذلك بفضل التعاون بين رياس البحر[19] والأهالي، وقد ساهم في تنمية البلاد وازدهارها مهاجرو الأندلس الذين وظفوا خبراتهم ومهاراتهم في ترقية المهن والبناء وتقوية الاقتصاد[20].

كما استطاع البايلربايات أن يحققوا الوحدة الإقليمية والسياسية للدولة الجزائرية التي امتد نفوذها وسيطرتها إلى كل جهات الشرق والغرب والجنوب،كما استطاعوا أن يقضوا على كل الإمارات، والسلطات المحلية بتلمسان والإمارات الحفصية في قلعة بني عباس وقسنطينة وعنابة وإمارة كوكو في بلاد القبائل. ويعتبر صالح رايس[21] (1552-1556) بطل تحقيق هذه الوحدة لأنه هو الذي اجتهد في مد نفوذ الأتراك في الواحات بالجنوب (وادي سوف وورقلة) وقضى على الدولة الزيانية بتلمسان[22]، وفرض طاعة السلطة المركزية بالجزائر على كافة المناطق ووصلت التخوم (الحدود) الجزائرية في عهده- بصفة تقريبية – إلى ماهي عليه اليوم.

وعلى مستوى العلاقات السياسية الدولية فقد استطاعت الجزائر بفضل امتلاكها لأسطول بحري قوي أن تفرض إرادتها على كل الدول الأوربية وترغمها على دفع إتاوات مقابل ضمان الأمن والسلم لمراكبها في حوض البحر الأبيض المتوسط.

وقد تميزت هذه الفترة من تاريخ الجزائر باستقرار الحياة السياسية وتحالف الجميع ضد العدو الإسباني حيث تم تحرير برج الفنار عام 1529 من سيطرة الأسبان وتحرير بجاية عام 1555، وإنهاء الوجود الإسباني في تونس عام 1574، وإلحاقها بالسلطة العثمانية ولكن مع تبعية للجزائر فيما يخص دفع الإتاوات واختيار من يحكمها من الدايات.

وعليه فإن الظروف الدولية والأوضاع المحلية التي كانت تعيشها الجزائر خلال فترة البايلربايات من ازدهار ورخاء اقتصادي وكثرة الغنائم مكّن البايلربايات من تدعيم حكمهم وتدخلوا في شؤون الأقطار المجاورة، وهذا النفوذ المتزايد للبيلربايات هو الذي دفع بالدولة العثمانية إلى تعويضهم بالباشوات[(23)].

وعلى العموم فان بعض المؤرخين يرون بأن هذا العصر يُعد من ألمع العصور التركية العثمانية في الجزائر " فإليه يرجع إنشاء أول القصور الجميلة التي عرفتها مدينة الجزائر، وكذلك الحمامات والمساجد...، كما عمّ الرخاء المنطقة. فقد كان الصيد البحري وحده كافياً لتزويد سكان الساحل بما يحتاجون إليه فكيف إذا أضيف إلى ذلك التجارة الخارجية التي كان معظمها بأيدي مهاجري الأندلس من المسلمين واليهود"[(24)] .

ومن أهم إنجازات عهد البايلربايات إلحاق مدينة تلمسان بالجزائر العثمانية بعد مساجلات يطول تفصيلها مع بقايا الزيانيين المتحالفين مع الأسبان. وبعدها ترسيم الحدود الغربية مع سلطات المغرب سنة 961 هـ / 1553م، وبقيت هذه الحدود واضحة المعالم منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا ولم يطرأ عليها غير تحويلات طفيفة[(25)]. ومن الناحية التنظيمية، فإلى هذا العهد يرجع تقسيم الجزائر إلى أربع مقاطعات[(26)]سميت بايلكات وعلى رأس كل مقاطعة منها حاكم يسمى باياً.

و إذا كان أول البايلربايات هو خير الدين برباروس وإليه يرجع الفضل في أغلب التنظيمات الإدارية والسياسية التي حكمت الوجود العثماني في الجزائر، فإن صالح رايس الذي حكم بعد حسن آغا هو أول بايلرباي يحمل السلطة العثمانية إلى داخل البلاد بعدما اهتم سابقوه بفرضها على المناطق الحضرية في التل الجزائري؛ فإليه يرجع الفضل في إخضاع أجزاء واسعة من الجزائر إلى السلطة العثمانية، فقد كان أوّل أعماله هو القضاء على الثائرين من بني جلاب، وبني ورجلان في الجنوب الشرقي من البلاد،و من إنجازاته وصوله بالجيوش التركية إلى فاس مساندة للوطاسيين على السعديين[(27)] ويرجع سبب هذه

المساعدة ربما لاعتقاد العثمانيين في الجزائر أن القوة الصاعدة في مملكة فاس قد تشكّل خطراً أكبر من الذي تمثله قوة الوطاسيين المتهالكة.

أما ناحية الوضع الدولي[28] للأيالة فإنه لم يخرج عن النهج العام لسياسة الأتراك اتجاه الولايات التابعة لهم والذي يتصف بعدم التدخل في خصوصياتها والاكتفاء بالتبعية الظاهرة خاصة في البلاد البعيدة عن السلطة المركزية مثل الجزائر وهو ما جعل هذه السلطة تفكر في تغيير نظام الحكم فيها بما يكفل بقاءها خاضعة للأتراك ويمنع البايلربايات من التحرر بها.

ومهما يكن من أمر، فقد كانت فترة حكم البايلربايات هي أعظم فترات الحكم العثماني بالجزائر وأصقلها بالمنجزات، إذ تم خلالها إجلاء الأسبان،وتمهيد البلاد وتجسيد وحدتها الإقليمية[29]، وتزويدها بإدارة أخذت تنمو مع الأيام حتى استقرت في صورتها النهائية تقريبا في عصر الدايات، كما تبوأت الجزائر في هذه الفترة مكانة دولية كبيرة، ومهابة من الدول المسيحية الكبرى، لا بفعل القرصنة، وإنما بفضل أسطولها الذي تألق في البحر المتوسط.

- عهد الباشوات (995- 1069 هـ / 1587- 1659م):

بعد انتهاء ولاية حسن فنزيانو سنة 1587م، رأت السلطنة العثمانية أن تلغي سلطة البايلربايات، وأن تستبدلهم بنظام الباشوية، وأن تجعل نفوذ الباشوات قاصرا على القطر الجزائري وحده، ومدة حكمهم محدودة بثلاث سنوات، ولذلك أطلق على حكمهم الباشوات الثلاثينيون les pachas triennaux، لذا فقد قرر السلاطين العثمانيون تغيير نظام الحكم بثلاث سنوات؛ كما هو الحال في باقي أيالات الدولة العثمانية، وغيّروا لقبه إلى باشا،وقصروا حكمه على ايالة الجزائر دون تونس وطرابلس؛ كما كان الحال في العهد السابق[30].

و لكن – كما يقول دو جرامون- كانت الأوضاع في ولاية المشرق تختلف عنها في ولاية الجزائر، فما كان سهلاً ميسوراً في تركيا الأوروبية وآسيا الصغرى، يُعد في الجزائر من المستحيلات، فالباشوات هناك يحكمون رعية خاضعة، وليس لديهم من الجند سوى أعداد قليلة، ويتجنّبون الثورة على السلطان، أو الخروج عن طاعته، وكذلك يفعل جنودهم، وكانت الأوامر التي تصدر من القسطنطينية مقدسة لدى الجميع، أما الانكشارية في الجزائر، فلم يكن وضعهم على النحو السابق، إذ كانوا يحسون بأنهم أقوى

من أن ينالهم العقاب[31]، ولذا كانوا يتصدون بجرأة للتهديدات التي كانت توجه إليهم، وكانت النتيجة أنهم منذ الأيام الأولى لإرساء نظام الباشوات، جعلوا من أنفسهم الحكام الحقيقيين، ولم يتركوا للباشوات سوى ظل الحكم، ولما كان الباشوات يشترون مناصبهم من الباب العالي بأغلى الهدايا، فإنهم لم يكونوا يفكرون إلا في جمع المال، ولم يكن الحكم يشغل بالهم كثيراً، فتركوا شؤونه للانكشارية، أما هم فكانت أقصى أمانيهم أن يعودوا عند نهاية مدتهم القانونية بالمال والذهب[32]،وهكذا أخذت الانكشارية تنتزع منهم سلطاتهم شيئاً فشيئاً، أما الصلاحيات التي تركت لهم فمعظمها لا يعدو المظهر، مثل الإقامة في السرايا وتعيين حرس لهم، وإحاطتهم بمجموعة من الشواش، وتصدرهم الاحتفالات العامة،والتصديق على قرارات الديوان دون أن يحضروا اجتماعاته، أو يناقشوا قراراته، على أنهم احتفظوا بحق النظر في الشؤون القضائية الخاصة بالبلدية "سكان الحاضرة"،و بالتصرف في القيادات (المناطق التي يحكمها قياد) وبمهام أخرى، وقد استخدموا هذه الصلاحيات لملئ خزائنهم الخاصة بالمال[33].

وقد حاول السلطان العثماني أن يضع حدا لاستبداد الانكشارية بالحكم، ولكن بدون جدوى، ولم يكن يستخدم القوة لإخضاعهم، لأنه كان يخشى أن يؤدي عقاب المسؤولين عن التمرد وعدم الانصياع لأوامر الباب العالي، إلى حدوث ثورة عارمة، وقد حاول واحد فقط من الباشوات، وهو خضر باشا، أن يقاوم استبداد الانكشارية، حيث سلّح الكراغلة سنة 1596، ليضرب بهم الانكشارية، ولكن النتيجة كانت إغراق الشوارع في بحر من الدماء لعدة شهور[35].

ولم يعد الباشوات في النصف الأوّل من القرن السابع عشر يتمتعون بأي قدر من الاحترام أو النفوذ، وذلك لتكالبهم على المال، واستسلامهم المهين للانكشارية، لا لشيء إلا لتحقيق آمالهم في الإثراء السريع، وقد أثار سلوكهم هذا عداء الناس لهم، فأصبح الكل ضدهم، أي الانكشارية ورجال الطائفة والأهالي،و مما عجل بالإطاحة بسلطتهم، أن الانكشارية ارتفع عددهم في هذا الوقت إلى اثنين وعشرين ألف جندي، فلم يعد يرضيهم أم يتركوا للباشوات حتى سبح الحكم، فقد أخذوا عليهم أنهم نهبوا مالية الخزانة والضرائب[36]؛ ثم كانت محاولة إبراهيم باشا أخذ العشر من الأموال التي كان الباب العالي يرسلها في كل عام إلى رجال الطائفة نظير مشاركتهم من حين لآخر في عمليات الأسطول العثماني، فكانت هذه المحاولة الضربة القاضية على نفوذه ونفوذ الباشوات من

بعده، فقد ثار عليه رجال الطائفة واختطفوه وأودعوه السجن[37]، وبعد أيام من الفوضى هدأت الأمور فاجتمع الانكشارية في ديوان كبير سنة 1659، وأعلنوا سقوط نظام الباشوات كسلطة تنفيذية، على أن يحتفظ لهم باللقب وببعض مظاهر التشريف والحقوق الملكية[38].و لكن حظروا عليهم التدخل بأي شكل من الأشكال في إدارة شؤون الولاية التي أصبحت من اختصاص الديوان الذي يرأسه آغا الانكشارية، وبما أن جنود الانكشارية حسب دوره في الأقدمية، إلا أن هذا التصور الشاذ لنظام الحكم، لم يكن في الإمكان تحقيقه، ولذلك لم تطل فترته[39].

وإذا كان الباشوات قد انتزعت منهم كافة السلطات، ولم يعودوا سوى رمزا لتبعية النيابة للباب العالي، فإن فترتهم قد استمرت إلى سنة 1711[40]، ولكن لم يعد لهم أي أثر يذكر في السياسة الداخلية أو الخارجية، على أنهم كانوا يستقبلون بحفاوة عند وصولهم للجزائر، ويودعون بحفاوة عند انتهاء مدتهم ومغادرتهم البلاد، وقد أصبح وضعهم بعد تجريدهم من السلطة يشبه إلى حد كبير وضع الخلفاء العباسيين في عصر المماليك.

ونودُّ أن نشير هنا إلى أن مرض الطاعون قد عاد إلى الظهور في الجزائر سنة 1654م، وكانت هذه المرة بصفة مرعبة أكثر من سابقتها، حيث وصفها بعضهم بكونه الطاعون الكبير الذي أطلق عليه تسمية "كونيا"، واستمر ثلاث سنوات وحصد ثلث سكان الجزائر. انتقل هذا الطاعون عبر رياس البحر إلى الأسطول العثماني الذي فقد بسبب العدوى عددا كبيرا من رجاله، الأمر الذي جعله لا يخرج من الميناء[41].

- **نهاية عهد الباشوات:**

خلال هذه الفترة اندلعت بالجزائر ثورة حقيقية، وكان بإمكاننا أن نرى خلال ذلك ضعف هيبة السلطان العثماني في الجزائر. فلم يكن الباشوات الذين كان يرسلهم السلطان من تركيا يبحثون عن فرض سلطتهم بين الرعية، لأنهم كانوا على يقين من عدم جدوى محاولات فرض السلطة هذه، ولذا فإن كثيرا منهم لم يكن همه – كما ذكرنا سابقا- سوى جمع الثروة والرجوع في أقرب وقت إلى القسطنطينية ليكمل بقية حياته في قصوره على شواطئ بحر مرمرة.

وبهذا السلوك الذي اتّبعه الباشوات في الجزائر فقدوا كل تأثير وكل احترام من الرعية. وكان هؤلاء الباشوات ضائعين باستمرار بين مطالب طائفة رياس البحر واليولداش (الجيش

البري)، أو مع الرعاع من الرعية. وكان هؤلاء الباشوات يحاولون جهدهم عدم إغضاب أي من الأطراف، لأنهم كانوا يخافون على حياتهم وعلى كنوزهم التي كانوا يعملون على مضاعفتها بأسرع وقت. ولم يكونوا يصرفون منها شيئا سوى إذ اقتضت الضرورة استرضاء من تخشى سطوته.

وكانت كل الفئات ساخطة على الباشوات: فالأتراك الأصليون لم يكونوا راضين على قلة الاحترام الذي يبديه الباشوات للسلطان العثماني، أما رياس البحر فكانوا ساخطين لأجل حرمانهم من ثمن الغنائم التي كانوا يحصلون عليها من الأعداء. أما البَلدية [الحَضر] فكانوا بدورهم يشتكون من نقص التجارة وتناقص عدد الأجانب الذين غادروا الجزائر بسبب جشع وسوء نية الباشوات. أما الإنكشارية فكانوا يتذكرون في أسف فيما بينهم الزمن الذي كانوا فيه سادة البلاد الفعليين، وكانوا يطالبون بصوت مرتفع بالعودة إلى التقاليد القديمة.

لقد كانت الأزمة في ذروتها ولعل القشة التي قصمت ظهر البعير- كما يقال- تتمثل في إقدام إبراهيم باشا، الذي تلقى أمر تعويضه بباشا آخر، وكان عليه أن يباشر بسرعة إرسال ألفي بياستر من الأموال إلى القسطنطينية، وكان من الممكن أن تمر الأمور بطريقة عادية لو أن جشع هذا الباشا إبراهيم لم يحمله على الاقتطاع من المال الذي أرسله السلطان إلى رياس البحر ليحفزهم على الالتحاق بالأسطول العثماني[42]. وكان هذا التصرف من إبراهيم باشا سببا في اندلاع شغب كبير بالجزائر[43] وصل إلى حد اختطاف الباشا وتهديده بالقتل وانتهى الأمر بوضعه في السجن

والخلاصة أن عهد الباشوات يعد عهد الموظفين الذين كانت استانبول ترسلهم ليحكموا البلاد دون أن يكون لهم سند محلي بين القوى التي كانت تسيطر على دواليب الحكم في الجزائر، كما يُعد عهد تسليط جند الانكشارية على الباشوات وعلى الأهالي وظهرت آثار هذا التسلط في مظاهر ثلاث هي:

- ثورات الكراغلة؛
- ثورات القبائل؛
- الصراع بين الأوجاق وطائفة الريّاس.

و سيكون لهذه المظاهر تبعات في العهود اللاحقة كما سنرى فيما يلي.

- **عهد الآغوات (1659-1671):**

بعد أيام من الفوضى والاضطراب، اجتمع الانكشارية في ديوان كبير وأعلنوا نهاية الباشوات كسلطة تنفيذية، مع احتفاظهم باللقب، وكذا بعض التشريفات، وبعض الحقوق، ولكنهم منعوا من التدخل فيما يخص شؤون الحكومة التي صارت من صلاحيات الديوان، الذي يرأسه آغا الإنكشارية أو اليولداش[44].

وبما أنه ليس من حق الآغا البقاء في الحكم أكثر من شهرين، فإن ثورة 1659 بذلك قد حوّلت نظام الحكم من الباشوية، إلى نوع من الجمهورية العسكرية، يكون لكل واحد من اليولداش الحق في أن يصبح رئيساً بعد سنوات من الأقدمية. ورغم أن هذا المفهوم الغريب لنظام الحكم لم يكن بطبيعة الحال قابلاً للتنفيذ في الواقع، غير أنه في بدايات انبثاقه كان عبارة عن انتقام من الانكشارية ضد طائفة رياس البحر التي تعاظمت سلطاتها في عهد الباشوات.

غير أن الثورة التي انتهت باعتلاء الآغوات لسدة الحكم لم تستطع أن تأتي بنظام مستقر ودائم، ولذلك لم يدم الدستور الجديد سوى اثنتي عشرة سنة سقط خلالها الاغوات الأربعة الذي وصلوا إلى سدة الحكم بسيوف الإنكشارية. وهنا تدخلت طائفة الرياس، وبفضل السلطات التي تمنحها لها ثرواتها الكثيرة وشعبيتها والقوة التي تتوفر عليها استطاعت أن تنهي الفوضى في العاصمة وانتهت بمنح سلطة الرئاسة لواحد من أعضائها الذي صار يطلق عليه لقب الداي والذي أسندت إليه السلطات التنفيدية،[45].
وباختصار فإن هذه الفترة القصيرة من نظام حكم الأغوات في الجزائر تميزت بما يلي:

- اضمحلال نفوذ السلطان العثماني وغياب السيادة العثمانية على الجزائر؛

- استفحال الصراعات المحلية سواء بين ضباط الجيش البري أو ضباط الجيش البحري وتذمر الأهالي من الفساد السياسي وانتشار الفوضى في البلاد؛

- نجاح اليولداش في قلب نظام الحكم والانفصال عن العثمانيين والحد من سلطة الرياس.

وهكذا يمكن القول أن نظام الأغوات الذي دام أثني عشر عاما كان يحمل في طياته بذور فنائه، فلم يسطع هذا النظام أن يثبت سلطته أو يفرض نفوذه في خضم تلك

التناقضات التي سيطرت على نظامهم لأن نظامهم إنما جاء نتيجة رغبة الطبقة العسكرية الحاكمة في فرض رقابة مستمرة على السلطة التنفيذية وحرصها على تلبية رغبات رؤسائها وعجزها عن الذوبان في إطار الذولة، وبذلك لم يحسنوا تسيير البلاد. وفي هذا الصدد يقول جون وولف: " لقد كان الرياس مهددين تهديدا خطيرا بهذه الفوضى، فقد كانوا أغنى الناس في الجماعات المتنفذة، وكانوا يملكون الفيلات في ضواحي الجزائر والمنازل بالمدية، وكانوا يملكون الرقيق بالإضافة إلى الثروة من البضائع والدراهم، كما كانوا متعودين على القيادة، وبذلك كانت الفوضى والاضطرابات تهدد ثروتهم، كما كانت تهدد الأساطيل الأجنبية"[(46)].

- عهـد الـدايـات (1671-1830):

يعتبر عهد الدايات آخر عهد للوجود العثماني بالجزائر، كما يعتبر أطول العهود على الإطلاق؛ إذ دام أزيد من قرن ونصف، وهو يُمثل نصف مدة هذا الوجود، وانتهى بالاستعمار الفرنسي.

وقد بدأ عصر الدايات، حين حلت طائفة الريّاس في الوقت المناسب لتضع حدا للفوضى التي أعقبت مقتل آخر الأغوات، فاستولت على السلطة العليا عام 1671، وأسندتها لحد أعضائها من الريّاس الحاج محمد التريكي الذي اتخذ لقب "داي"، فهو بذلك أول الدايات، وعهدت إليه بالسلطة التنفيذية، وقد استندت في استيلائها على السلطة وعلى شعبيتها وثرواتها، ثم على القوات التي كانت تملكها[(47)].

وقد كان الدايات الأربعة الأولون من الريّاس القدامى، ومن بعدهم أصبح الانكشارية هم الذين يتولون منصب الداي، ذلك لأنهم كانوا قد استردوا جزءاً من نفوذهم، وانتهى التنافس بينهم وبين رجال الطائفة، ولا سيما بعد أن أخذت هذه الأخيرة تفقد قوتها، غير أن الانكشارية لم يعودوا كما كانوا قديماً جيشاً متحداً، فقد انخفض عددهم بنسبة الثلثين على الأقل، وصار التجنيد صعباً، ولم يعودوا يحرصون على الاحتفاظ بالامتيازات السياسية التي اكتسبوها، وإنما أصبحوا يهتمون بزيادة الرواتب والبقاشيش في المناسبات السعيدة، كارتقاء عاهل العرش –مثلاً- أو ميلاد ابن له، إلى غير ذلك، ولكن هذا الجشع المتزايد للانكشارية فتح الباب على مصراعيه للمؤامرات وللثروات الدامية، ولم يعد الدايات قادرين على حماية أنفسهم منهم، بينما كان ممثل السلطان في عهد البايلربايات والباشوات يتمتع من الانكشارية باحترام ديني، لأنه كان يعد الممثل لذات السلطات

المقدسة، فبمجرد أن يعينه في منصبه تصبح حياته مصونة، ولذا فمن بين أكثر من ثلاثين باشا ممن تداولوا على حكم ولاية الجزائر خلال الفترة مابين (1515 – 1659)، لم يقتل سوى واحد منهم، وكان ذلك في قضية انتقام شخصي، بينما قتل جميع الأغوات بدون استثناء، كما قتل أكثر من نصف الدايات[(48)].

و قد كانت مدد حكم الدايات قصيرة، باستثناء مدة حكم الداي محمد عثمان باشا الذي ظل في الحكم ربع قرن تقريبا (1766- 1791)، ولعل تداولهم السريع على الحكم هو الذي يفسر لنا كثرة عددهم فقد بلغ عددهم ثلاثين داياً[(49)] في مدة حكمهم الذي دام أكثر من قرن ونصف، مع العلم أن الدايات كانوا ينتخبون – نظرياً- ليحكموا مدى الحياة، ولكنهم – عملياً- كانوا هدفا لثروات الانكشارية التي كانت تنتهي في الغالب باغتيالهم.

وقد أخذت حكومة الولاية في التدهور منذ مطلع القرن الثامن عشر، وظل هذا التدهور يزداد يوماً بعد يوم، وبات واضحا أن قوة الولاية سوف تنهار يوم أن تتوقف فيه المنافسات بين الدول الأوروبية، فإن العناصر الحربية التي كانت تؤمن للولاية مواردها المالية، ونعني بها الجيش والبحرية، كانت أعدادها في هبوط دائم[(50)].

كما أخذت الحكومة في هذا القرن، تتعرض لأزمات حادة، كانت نتيجة لسياستها الإدارية والمالية، ولقد خففت من حدة هذه الأزمات ومن الانهيار السريع للحكومة وجود شخصيات ثلاثة في الحكم، كانوا على جانب كبير من الحنكة السياسية والبراعة في إدارة البلاد، وكتب لحكمهم أن يستمر قرابة ربع قرن، ونعني بهذه الشخصيات: الداي محمد عثمان باشا، والباي صالح باي قسنطينة، ومحمد الكبير باي الغرب الجزائري، فقد كان الأخيران معاصرين للداي محمد عثمان باشا، فعززا مركزه – كل منهما في بايلكه-، فاستطاعت الولاية بفضلهم أن تتغلب على أزماتها، إلا أنهم ما كادوا يتوارون من صفحة تاريخ الولاية – وكان زمن وفاتهم متقاربا- حتى كشف الغطاء وبرزت الأزمات، واندلعت الثورات من كل جانب، ويقول "العنتري" في ذلك: « ومن هذا الوقت (1209 هـ / 1794م) صار الترك يأخذون الجور،و نبذوا الحقوق المشروطة، وبدأ منهم الفجور، وبالجملة، إنه من حين مات الباشا الذي اسمه داي محمد، ومات صالح باي، تبدلت أحكام الترك، وانقلبت حقائقهم، وصار صغيرهم لا يوقر كبيرهم، وبدأ النقص في ملكهم»[(51)].

وما أورده العنتري يلخص أوضاع الولاية في آخر القرن الثامن عشر، فبعد وفاة الداي محمد عثمان باشا سنة 1790 م، اهتز نظام الحكم، ولم يعد يخضع لضابط، إذ أخذ الانكشارية يستبدون بالدايات، والدايات يستبدون – بدورهم- بالرعية، فمنذ عام 1798 إلى عام 1818 تعاقبت على الحكم ست دايات، كان يوليهم الانكشارية دون رضاهم، لأنهم كانوا يعرفون مصيرهم مُقدماً، فقد انتهت حياتهم بالتمرد عليهم واغتيالهم بدون استثناء، فقد اغتال الانكشارية: الداي مصطفى (1808- 1809)، والداي حاج علي (1809-1815م)، والداي محمد (1815م)،الذي اغتيل في العام نفسه،و أخيراً الداي عمر (1815-1817م).أما البايات، فقد أصبحوا دائما عرضة للعزل والاغتيال، فضلا عن مصادرة أموالهم، فمنذ تولي الداي حسين؛ الذي خلف الداي محمد عثمان باشا عام 1790م،استهل حكمه بتغيير البايات ومصادرة أموالهم، بل واغتالوا بعضهم: مثل باي قسنطينة صالح باي، وغيره من البايات،و قد أحدث هذا التغيير سخطا في صفوف الرعية، وتزعزعاً في أركان الحكومة[52]. هذا بالإضافة إلى انتشار الأوبئة التي أصابت البلاد، ففي مدينة الجزائر، على سبيل المثال ؛ قد هلك مايناهز عن ثلاثة عشرة ألف نسمة مابين 21 من جوان 1871م، والسادس من سبتمبر1818م ؛ أي الفترة التي بلغ فيها المرض درجة خطيرة[53].

وفي عهد أواخر الدايات، وخاصة بعد وفاة الداي محمد عثمان باشا سنة 1790م، أصيبت خزينة الولاية بعجز مالي كبير، بسبب انكماش موارد القرصنة من ناحية، وبسبب الحروب النابليونية وحرمان الجزائر من أسواقها التقليدية لتصريف منتجاتها من ناحية ثانية،و بسبب تجميد ديون الجزائر على فرنسا من ناحية ثالثة، فخشي الدايات من ثورات الانكشارية وتدبير المؤامرات إذا ما تأخر صرف مرتباتهم، فعمدوا إلى تعويض النقص المالي بالضغط على البايات لمدهم بالمال بأي طريقة مما اضطر البايات إلى الضغط بدورهم على الرعية وابتزاز أموالها بشتى الأساليب لإرضاء الدايات،والاحتفاظ بمناصبهم وبحياتهم، فأدت هذه السياسة إلى انتشار الثورات ضد الأتراك في طول البلاد وعرضها[54]، كذلك عمد الدايات إلى مصادرة أموال البايا وقتلهم، ليوفروا المال اللازم للخزينة، ولكن هذه السياسة – سياسة الضغط على البايات والمصادرة- لم تنجح في منع ثورات الانكشارية ومؤامراتهم، وبالتالي لم يستطيعوا السيطرة عليهم وإجبارهم على الامتثال إلى النظام، بالرغم من أن الدايات امنوا لهم رواتبهم، وذلك أن الانكشارية قد استطابوا السلب والنهب، ولأنهم كانوا يستفيدون من البقاشيش التي يحصلون عليها عند تولية كل داي جديد، فعلى سبيل

المثال، حينما ثاروا على الداي مصطفى (1798- 1800م) أغدق عليهم الذهب أملاً في إنقاذ حياته، ثم سمح لهم بذهب المدينة، ولكن ذلك لم ينقذه من أيديهم فقتلوه، وانتهبوا بعض أحياء المدينة، وارتكبت فيها أبشع الجرائم[55]، كما أن الداي احمد (1800- 1808) ضاعف لهم رواتبهم[56]، ومع ذلك اغتالوه وحاولوا اقتسام أموال خزينة الولاية ونهب المدينة، ولكن باءت محاولتهم بالفشل[57].

غير أن الداي علي خوجة ما كاد يتقلد منصبه (1815- 1817)، حتى أسرع بوضع حد لطغيان الانكشارية والتخلص من نير هذا الجيش الذي لا يخضع لنظام، إذ انتقل من قصر الجنينة – في أسفل المدينة- إلى القصبة – في أعلاها- ليكون في مأمن من ثوراتهم، وأحاط نفسه بحرس من أبناء البلاد مكونا من ألفي جندي، وطلب من الكراغلة أن يتسلحوا ويلتفوا حوله، ثم أطاح بالانكشارية، فقتل وسجن منهم العناصر التي كانت تثير الشغب والاضطرابات، وكان رد الفعل من جانبهم، محاولة أخيرة لإسقاطه، ولكنه نجح في سحقها بمعاونة ستة آلاف من الكراغلة، وألفين من أبناء بلاد القبائل[58].

وقد قام الداي حسين (1817- 1830م) الذي خلف الداي علي خوجة، بتخفيف الضرائب[59] وتهدئة الخواطر، وقلت في عهده مصادرة البايات وقتلهم[60]، غير أن هذه الحركة التي قام بها الدايان الأخيران جاءت متأخرة، فالنظام الحاكم كان قد تصدع، ولم يعد ينفع معه علاج، وأوربا لم تعد منقسمة كما كانت في القرون الثلاثة الماضية، وفرنسا أخذت تتحفز للانقضاض على الجزائر، وثبتت قدمها فيها، وهو ما حدث بالفعل عام 1830. ولم يكن الدايات كلّهم على درجة واحدة من الكفاءة والنزاهة، بل يمكن تصنيفهم إلى قسمين:

الصنف الأوّل: وهم مجموعة من الدايات النزهاء الزهاد الذين انصرفوا إلى الأعمال الخيرية، والذين صرفوا من أموالهم الخاصة على بناء الدولة مثل الداي محمد بن عثمان (1766 - 1791)، الذي بنى المساجد، والقلاع، والحصون؛ لحماية الجزائر من هجمات الأعداء، وترك أمواله الخاصة إلى الخزينة، وعرفت البلاد على عهده رفاهية منقطعة النظير[61].

الصنف الثاني: عُرف هذا الصنف بعدم المقدرة على تسيير شؤون الدولة وقد وصل معظم دايات هذا الصنف إلى هذا المنصب تبعا لثورة الانكشارية على الداي السابق، إما بسبب صراع بين أقطاب السلطة، أو للمطالبة بزيادة الأجور، وغالبا ما يكون هؤلاء الدايات المحمولين إلى هرم السلطة لا يتمتعون بأي نوع من المؤهلات، أو كانوا يمارسون

مهنا تعتبر وضيعة فيما سبق، فمنهم من كان فحاماً، أو كنّاساً،أو غسالاً للأموات كما هو حال علي الغسال1808 [62].

ولقد تميزت فترات حكم هؤلاء الدايات بكثرة التبذير والإسراف وإنفاق أموال الخزينة على الملذات الشخصية مما جعل أغلبهم ينتهي نهاية مؤسفة إذ وبعد غضب الجند عليهم تنتهب أموالهم، ويتعرضون هم وعائلاتهم للانتقام ونادراً ما ينجحون من الخنق أو الشنق[63]، أما دايات الصنف الأوّل مات أغلبهم على فراشهم كما هو حال محمد بن عثمان، فهؤلاء يحظون بجنازة مشهودة وتحتفظ عائلاتهم بكل ما تركوه من المال[64].

وعلى الرغم من الفوضى السياسية في عهد الدايات، وعلى الرغم أيضاً من ضعف الخزينة المالي للأسباب التي ذكرناها، وخاصة ابتداء من القرن الثامن عشر، فإن الدايات قاموا بعدة منجزات هامة، يمكن إجمالها فيما يلي:

- فقد اهتموا بإنشاء مصانع لبناء السفن، وجلب المدافع، وإقامة الاستحكامات، وبناء الثكنات، وتطوير تصميم السفن حتى تكون قادرة على المناورة في البحر، ذلك لأن السفن التجارية المسيحية أصبحت تسير تحت الحراسة المسلحة، ولازدياد نشاط فرسان مالطة المسيحيون ضد السفن الجزائرية، واشتداد الحملات البحرية على الجزائر، لهذا كان لا بد من إنشاء أسطول حربي قوي لمجابهة كل ذلك، حتى تحتفظ الولاية بمكانتها المرموقة في البحر المتوسط[65].

- كذلك قاموا ببناء المساجد، وتزويد مدينة الجزائر بالمياه بواسطة شبكة من القنوات[66]، وكانت أبرز منجزاتهم على الإطلاق، افتكاك مدينة وهران من الأسبان عام 1708، ثم افتكاكها نهائياً عام 1793، بعد أن عاود الأسبان احتلالها عام 1732.

رابعا: التقسيم الاداري العثماني:

إن دراسة الأوضاع الاجتماعية في الجزائر العثمانية يتطلب في البداية التعرف على نوعية نظام الحكم المتبع، وتحديد التقسيمات الإدارية، والأجهزة المختلفة التي وضعها الحكام لتسيير شؤون المجتمع على المستويين المركزي والأقاليم، وهو مايسمح لنا في الأخير فهم العلاقات التي كانت سائدة بين السلطة والرعية من جهة، وبيم مختلف الفئات الاجتماعية من جهة أخرى. وقد عرف الجهاز الإداري للجزائر في العهد العثماني تطوراً

ملحوظاً، وذلك منذ استقرار الحكم التركي بالجزائر، وقد أحببنا أن نختزل هذا التنظيم في الأسس التالية:

- **الإدارة المـركـزية:**

وتتكون من ديوانين: ديوان كبير، ويضم تحت سلطة آغا العسكر، أكثر من ألف (1000) شخص، منهم ضابط الجيش، وممثلين عن الشؤون الدينية (كالقاضي والمفتي الحنفي)، وعن شؤون القرصنة والأهالي[68]. وظهر الديوان الصغير مع بداية القرن السابع عشر، وضم الضباط السامون وممثلين عن الشؤون الدينية، يترأسهم آغا العسكر، لم يتعدد عدد أعضائه الثلاثين (30) عام 1681، ثم ارتفع ليصل إلى مائة عضو.

- **الـداي:**

أدى فساد نظام الباشوات، نتيجة استيلاء الباشا وموظفيه على معظم عائدات الدولة، التي كانت تتضمن أجور الجند التي يرسلها الباب العالي[69]إلى حدوث أزمة 1659، حيث اجتمع بعض الانكشاريين في ديوان كبير – أو ما يشبه "المجلس العسكري الثوري الحالي"- برئاسة الآغا، وتم إلغاء كل سلطات الباشا التنفيذية، ومنحها للديوان، وأصبح الآغا حاكما للبلاد لمدة شهرين فقط. ثم بعد الجيش الانكشاري بعدئذ بمندوبين إلى القسطنطينية يشكون تجاوزات الباشوات، التي قد تؤدي بالأهالي إلى الثورة على الأتراك، من ثمة استنجادهم بالقوى المسيحية، ويقترحون انتخاب جندي انكشاري، معروف بنزاهته وخبرته، كداي يحكم البلاد، دون الرجوع إلى الباب العالي لتسيير الشؤون المالية[70]. وسمح بعد ذلك الجيش، لرياس البحر بتعيين الداي، دون تحديد شروط معينة لوصول المترشحين إلى هذا المنصب، فعينوا الدايات الخمس الأوائل من داخل صفوفهم،وكان معظمهم إما خوجا الخيل أو آغا أو خزناجياً[71].

إلا أن الباشوات، ونتيجة لتهميشهم عن الحياة السياسية في البلاد، عملوا على إثارة الجند على بعضهم البعض، فقتلوا دايات ونصّبوا آخرين مكانهم. ولما انتخب علي شاوش داياً للجزائر عام 1711، فإنه رفض السماح لشرقان إبراهيم، الذي أرسله الباب العالي، بدخول الجزائر، باعتباره مصدر قلاقل، وكلّف رسلا بعث بهم إلى القسطنطينية، لإبلاغ السلطان العثماني بعدم حاجة الحكومة في الجزائر إلى الباشوات، وتحولت الجزائر في ظل

حكم الدايات إلى حليف للدولة العثمانية[72] بعدما كانت ولاية تابعة لها، كما تحصل الداي على لقب الباشا.

وما يمكن قوله حول الدايات، هو مدى سلطتهم الإدارية، إذ يذكر حمدان خوجة؛ أن هذه السلطة تمتد إلى المسائل الخاصة بالمالية العمومية، والتنظيم الضروري الإداري، وكذلك تعيين الوزراء وغيرهم من أعضاء حاشيته[73].

وللداي نائب يحتفظ بمفتاح الخزينة ويسمى الكاهية، وإن كان هذا النائب لم يقر به غير حمدان خوجة[74]، إذ الكاهية عند غيره منصب لا علاقة له بالخزينة أو الداي وغنما بنظام المدينة[75].

وقد كان الديوان في بداية عهد الدايات هو المتصرف في الأمور المالية للدولة، وكذا الإجراءات الحكومية المتعلقة بمستقبل الإيالة، لكن مع نهاية هذا العهد أصبح الديوان مجرد حبر على ورق خاصة، بعدما تحول مقر الداي إلى القصبة، وبذلك فإن جميع صلاحيات هذا الديوان أصبحت في يد الداي، كما أصبح حق تولية واختيار الداي – الذي كان من اختصاصات هذا الديوان- في يد الفئة القوية في صفوف الانكشارية[76]. ولابد أن يتأكد هذا الاختيار من قبل السلطان، الذي تعترف له الإيالة بالسلطة الروحية، وإن كان السلطان لم يرفض الاختيار المحلي أبداً.

وسرعان ما أصبح هذا التأكيد يرفق بلقب الباشا كما سبق الذكر، ومن حينها أصبح الدايات يلقبون محلياً بالباشا بعدما كانوا يلقبون بالدولاتلي[77]، أما لقب الداي فهو لا يكاد يلفظ في الجزائر، وإنما يستعمله الأجانب، والمرجّح أنه كان في مبدأ الأمر مجرد كنية، حيث أن معناه باللغة التركية "العم" أو الخال.

و إذا كان الدايات يمارسون صلاحياتهم عقب انتخابهم مباشرة فإن تنصيبهم الرسمي لا يتم إلا بعد وصول تأكيد السلطان لهذا الاختيار أو ما يصطلح عليه عثمانياً بالفرمان مرفوقا بالقفطان والسيف الذين يحملهما مبعوث خاص يسمى " قبجي باشا" أو مبعوث الدولة، وغالباً ما يرافق القبجي عتاد بحري مثل المدافع والبارود والحبال وأخشاب البناء وفي بعض الأحيان بواخر جاهزة[78]، هذه الجهة من الباب العالي تأتي رداً على الهدية التي يرسلها الداي فور انتخابه طلباً للفرمان ويسمى الرسول الذي يحمل هذه الهدية " آغا الهدية"[79].

و في غياب التشريعات الأساسية التي تُحد من سلطاته، يعيش الداي حاكماً مطلقاً له سلطة على كل وظائف الحكومة؛ يجازي ويعاقب وهو حر في ذلك، يتصرف دون أن يأبه بأحد وكان صارما في حياته، تفاديا لثورة الجيش عليه[80]. وعلى الرغم من تحديد الديوان لسلطاته من الوجهة النظرية، إلا أنه كان يعين وزراءه الخمس في الديوان دون استشارة أحد, وفضلا عن ذلك فقد كانت للداي سلطة تحديد أجور الجند، والعمل على نشر العدل بين رعيته.

تقسم شؤون الدولة الرئيسية على عدد من الموظفين، الذين يشكلون مجلسا يتغير عدد أعضائه حسب رغبة الداي، إلا أنه وُجِدت خمس شخصيات دائمة في هذا المجلس، وهم بمثابة وزراء:

1. الخزناجي: أمين خزينة الدولة، يقوم بتسجيل كل ما يرد من عائدات على دفتر خاص، ويدفع مرتبات الانكشارية التي يحددها الداي[81]. يساعده عدة كتاب، وسائغي ومساعدَيْن يهوديين[82] في أغلب الأحيان: يقوم الأوّل بالتحقيق في النقود المشكوك فيها، بينما يقوم الثاني بوزن كل الأنواع الأخرى التي ترد إلى الخزينة العامة[83].

2. آغا العرب: شغل في البداية منصب قائد الجنود العرب (الأهالي)، الذين استخدمهم الداي للقضاء على ثروات الانكشارية، ثم أصبح حاكما لدار السلطان فيما بعد.

3. خوجا الخيل: اقتصرت مهمته في البداية على إحصاء الخيول التي كانت ترد إلى الخزينة في شكل ضرائب، إلا أنه أصبح يراقب كل الضرائب العينية، وخاصة من الغلال الزراعية التي فرضتها الحكومة على الأهالي بسبب انكماش القرصنة. وكان خوجا الخيل يقسم تلك الضرائب على الانكشاريين ويبيع الفائض منها للسكان.

4. وكيل الخرج: اشتغل كمسؤول عن البحرية ثم على صيانة أسطول الريّاس. وبعد انحصار القرصنة، أصبح مديرا للشؤون الخارجية[84].

5. بيت المالجي: يشرف على شؤون بيت الداي، كما يعمل على حيازة الممتلكات المنقولة والثابتة التي لا وارث لها[85].

- الموظفون في الإدارة المركزية: وهم كثيرون، يتم توظيفهم حسب طبيعة المهام، إذ يشترط على الخوجا،مثلا؛ أن يكون متعلما. ويخضع التوظيف لمقاييس عرقية ودينية؛ إذ

اقتصر التوظيف في بعض المناصب على العنصر التركي والكرغلي دون غيره، كما أنه وجدت مناصب خاصة بالعرب.

وقد عرفت الوظائف تخصصا كبيرا، ففي الشؤون المالية على سبيل المثال توجد عدة وظائف منها: بيت المالجي، وخوجا الزرع المكلف بتحصيل الضرائب العينية على الأراضي المزروعة، وخوجا الجلد الذي يراقب احتكار الجلود، وخوجا الملح ويراقب احتكار الملح. وما يقال على الشؤون المالية ينطبق أيضا على شؤون الحياة الأخرى، وبصفة خاصة القضاء[86].

- الإدارة الجهوية:

يعود تاريخ ظهور البايلك كتقسيم إداري وسياسي إلى النصف الأوّل من القرن 16 م، حيث تم تقسيم البلاد إلى أربعة (04) مقاطعات تسهيلاً للحكم[87]، وقد حدث ذلك خلال حكم حسن باشا ابن خير الدين (1540- 1552)، وتنقسم الجزائر إدارياً حسب هذا التقسيم إلى أربعة أقاليم تفصيلها كالتالي:

1. دار السلطان:

هي البايلك الذي ترتكز فيه كل مؤسسات الدولة تقريبا، باعتبارها مقر الحكم، ومركز السلطة. يقع بين دلس شرقا حتى شرشال غربا، ومن البحر المتوسط حتى سفوح الجبال البليدي جنوبا[88]. يحكمه الداي بواسطة الآغا، وهو بمثابة الباي نفسه.

وكانت مدينة الجزائر وضواحيها تسمى فَحصاً، وتنقسم إلى سبع (07) دوائر يحكمها شيخ، تحيط بهذه الدوائر أربعة أوطان تمتد بثلاث مناطق أخرى تعتبر الحدود الفاصلة بين البيلكات ودار السلطان[89]. أما البايلكات الثلاثة الأخرى التي تؤلف مع دار السلطان التقسيم الإداري الكامل للجزائر، فهي بايلك الغرب، بايليك التيطري، بايليك الشرق.

2. بايلك الغرب:

إن ما يسمى بايلك الغرب هو ما يعادل بالتقريب القطاع الوهراني حالياً[90]. كانت رقعة بايلك الغرب تمتد ما بين الحدود التالية: المملكة المغربية غرباً وبايلك التيطري ودار السلطان شرقاً والبحر الأبيض المتوسط شمالاً والصحراء جنوباً[91]؛ وهناك من يعطي للمنطقة حدودا أدق حيث يحدها وادي الشلف في الشرق ووادي الملوية في الغرب والبحر الأبيض المتوسط في الشمال والصحراء في الجنوب[92].

و قد تبدلت عاصمته عدة مرات، فكانت مازونة ثم معسكر عام 1710م ثم وهران عام 1792[93]. ويُعد حسن بن خير الدين أول من وضع الأسس الأولى للإدارة العثمانية في بايلك الغرب. وقبل أن يعود من حصار وهران إلى مدينة الجزائر في عام 1563م، ترك حامية عسكرية في مستغانم، وعيّن أبا خديجة بايا[94].

و ينقسم هذا البايلك إلى ثلاث قيادات، يحكم منطقة الشلف خليفة، أما المنطقتان الأخريتان فيحكم كل واحدة منهما آغا، وقد أوجد الأتراك العثمانيون طريقة فعالة في جعل المناطق خاضعة لهم، رغم كون توغلهم داخلها ضعيفاً بالمقارنة مع وجودهم في البايلكات الأخرى[95].

و تتمثل تلك الطريقة في إحداث نظام قبلي عام 1563، تمنح بموجبه قبائل المخزن حق الانتفاع بأراضيها، وعدم دفع الضرائب، وفي مقابل ذلك وجب على السكان إرسال أبنائهم لتأدية الخدمة العسكرية[96].

وقد عرف هذا البايلك بصبغته الحربية لتوتر العلاقات التركية مع حكام المغرب الأقصى ثم لوجود التهديد الأسباني الدائم بوهران[97].

3. بايلك التيطري:

كان أول بايلك ظهر إلى الوجود، بعد دار السلطان، وهو أصغر البايلكات مساحة، وأفقرها ثروة، عاصمته مدينة المدية، يحده من الشمال سهل متيجة، ومن الشرق وطن بني سليمان، وبني جعد، وعريب، وقيادة سباو، وحمزة[98]. وينقسم إلى أربع مناطق، سبعة أوطان وتوافق سبع قبائل في التل، على رأس كل وطن (قبيلة) قائدا تركيا، أما المنطقة الثانية فتقع في التل الأوسط، وبها عدد متغير من القبائل يحكمها قادة معنيون أحياناً، ومقبولون لدى الباي أحيانا أخرى، وتقع المنطقة الثالثة حول سور الغزلان وتضم قايدة الظهرة التي يحكمها أحد أقارب الباي، وللباي سلطة نظرية على قبائل الرحل في الجنوب، الذي يكاد يخلو من المؤسسات الإدارية العثمانية[99].

4. بايلك الشرق:

يُعد هذا البايلك أوسع البايلكات مساحة، وأغناها ثروة وأكبرها كثافة سكانية، وبالتالي فهو أهمها[100]. يحده من الشمال البحر المتوسط . أما من الناحية الغربية، فتحده جبال

البيبان حتى قرى بني منصور، وسهل وادي الساحل.ويحده من الجنوب الغربي، سيدي هجرس، وسيدي عيسى، الحد الفاصل بينه وبين بايلك التيطري[101]. وسكانه أكثر تحرراً فيه من غيرهم من سكان البايلكات الأخرى، فقد عاش الأهالي في منطقة القبائل[102]، والأوراس. ويبدو أن أجزاء كبيرة من الصحراء غير خاضعة للسلطة العثمانية. أما المناطق الواقعة جنوب البايلك بين وادي سوف، وجنوب جبال الأوراس فيحكمها شيخ العرب، وهو من العائلات الكبيرة مثل عائلة ابن قانة[103].

على عموماً، يحكم كل بايلك باياً، يعينه الداي لمدة ثلاث سنوات تتجدد عندما يكون الداي راضٍ عنه خلال التقائهما في حفل الدنوش، ويقتل أو يعزل إذا اغتاظ الداي منه لأسباب ما. وللباي سلطات غير محدودة بقانون[104]، يساعده موظفون يؤدون مهاما شبيهة بتلك التي يقوم بها موظفو ومساعدو الداي، كما أن لهؤلاء ألقابا مماثلة[105].

وجدير بالذكر أن كل بايلك ينقسم إلى عدة أوطان، أو قيادات، يحكمها قائد يعيّنه الباي أو الداي، من الأتراك والكراغلة لمراقبة زعماء الأهالي السياسيين، وخاصة شيوخهم، وله دور كبير في تحديد إجمالي الضرائب وتحصيلها[106]، والعمل على تطبيق بعض القوانين. كما أن للقائد دور شرطي الأسواق، يساعده في ذلك موظفون في شتى الاختصاصات وخاصة الشيوخ الذين يعينوهم لجمع الضرائب من السكان، والحفاظ على المن واستدعاء الشبان البالغين لتأدية الخدمة العسكرية، والقيام ببعض المهام القضائية لدى السكان[107].

يحكم القبائل والتجمعات القبلية والفرق، شيوخ، وتنقسم هذه المجموعات إلى دواوير يحكمها الشيخ بواسطة موظفيه أو بواسطة مجلس يدعى "الجماعة"[108]. أما المدن، فتخضع لسلطة الحكام، الذين لا يختلفون عن القادة سواء في الواجبات والمهام الموكلة إليهم أو في نوعية الموظفين المساعدين لهم، أي أن الحكام هم قادة المناطق الحضرية، ولهم مساعديهم في الشؤون الإدارية والاقتصادية والشرطة[109].

و من خلال كل ما سبق ذكره بشأن الإدارة العثمانية، يمكننا أن نخرج ببعض النتائج الرئيسية، لإعطاء صورة واضحة عن العناصر التي تستمد منها دولة العثمانيين في الجزائر نظام حكمها، وعن مقومات هذه الدولة أيضاً.

لقد جاء العثمانيون إلى الجزائر، لصد تحرشات الأسبان على مدن الساحل الجزائري،و لكونهم بحارة مهرة، وعسكريين ممتازين، فإن الحياة في ظل حكمهم اصطبغت بالصبغة العسكرية حتى نهاية الحكم العثماني في البلاد.

اعتمد العثمانيون على المركزية الإدارية في الحكم، واقتصر وجود مؤسساتها على المدن، والمناطق المحيطة بها فقط، فظلت 6/5 جزائر 1830م تكاد تكون مستقلة تماما، ولما حاول الأتراك العثمانيون خلق إدارة قوية تسمح لهم، على الأقل، بالاستمرار في الحكم وجمع الضرائب، فإنهم قسّموا البلاد إلى بايلكات متباينة إداريا، واقتصاديا، وديموغرافيا.

واعتمدوا على العائلات الكبيرة وخاصة تلك التي لزعمائها ثروة مالية أو تأثير ديني على السكان، وهكذا غابت القوانين، وحتى العامة منها أُفتقدت في معظم الأحيان. فكان التوظيف يتم في كل المناصب تقريبا عن طريق الشراء والتعيين[110]، أو الاستيلاء عنوة وغيرها من الوسائل.

ويقوم التوظيف أيضا على مقاييس عنصرية وإثنية ومصلحية، فقد خُص الأتراك والكراغلة على مناصب عليا، والعرب (الأهالي) بمناصب أقل أهمية منها. وعمل الداي على أن يبقى بايلك التيطري صغيراً أو ضعيفاً، كي لا ينافس دار السلطان، ومن ثمة يشكل خطرا على الحكومة المركزية، وهكذا استمد الأتراك العثمانيون نظام حكمهم من عناصر ثلاثة تمد الإدارة بكل ما تحتاج إليه من موظفين ومساعدين لهم، وهي طائفة الريّاس (الجيش البحري) والجنود الانكشاريين، وقبائل المخزن، كما يعتمد العثمانيون على بعض شيوخ الزوايا والطرقيين، ونشر الفتن بين القبائل لإضعافها.

وعلى الرغم من ذلك، فإن الجزائر تميّزت باستقلالها على مستوى السياسة الخارجية والعسكرية والاقتصادية، وفق ما تمليه عليها الظروف السياسية الدولية، متمشية بذلك مع مصالحها الاقتصادية والعسكرية، دون التأثر بسياسة الباب العالي. ويتجلى الوضع الخاص باستقلال الجزائر عن الدولة العثمانية في تحريكها السياسي والعسكري في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وسيطرتها عليه لدرجة أن معظم الدول الأوروبية طلبت ودها، وعقدت معها المعاهدات السياسية، والاتفاقات التجارية[111].

رابعا: الأعـراش ونمـط الحيـاة في الأريـاف الجزائريـة:

كانت السّمة الغالبة على الواقع الاجتماعي الجزائري خلال العهد العثماني تتمثل في ازدواج نمط الحياة بين الحضري والبدوي، بحيث ينتمي النمط الأول إلى المناطق الجبلية، أما الثاني فينتشر في المناطق السهلية. ولكن الحياة الحضرية لم تكن تحمل المفهوم الحديث للمدينة، وإنما تتداخل معها بعض سمات الريف. غير أن هذا لا ينفي وجود بعض التجمعات السكانية التي تمثل المدينة، إذ يذكر "أندري نوشي" أن البنية السكانية في الجزائر هي عبارة عن قرى يتراوح عدد سكانها بين ألف وخمس وثلاثين ألف نسمة[112]. ولهذا، فإننا سوف ننطلق من اعتبار أن هناك فروقاً واضحة بين مجتمع الريف والمدينة، على الأقل من حيث التنظيم الاجتماعي والعادات والتقاليد والطباع. ومن هذه الزّاوية النظرية نتناول موضوع القبائل والأعراش في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي. فالريف كان يمثّل الواقع المهيمن في الجزائر قبل هذه المرحلة التاريخية، إذ لم تكن المدن الجزائرية تمثّل، في مطلع القرن التاسع عشر، سوى نسبة05 بالمائة إلى 10 بالمائة من مجموع السكان، حسب أكثر المؤرخين تفاؤلا[113].

فقد أدَّى دخول الإسلام -كحضارة- إلى المغرب الإسلامي، وما تلا ذلك من أحداث تاريخية، ونشأة المدن، إلى التأثير على بنى المغرب الاجتماعية والسياسية. كما أدّى إلى ظهور علاقة جديدة بين المدينة والقبيلة، وهي علاقة طبعت تاريخ المغرب منذ قرون[114]. والظَّاهر أنَّ هذه الظَّاهرة استمرت بعد ذلك محافظةً على وجودها إلى غاية بدايات القرن العشرين[115]. وهذا ما يدعونا إلى بحث القبائل في الريف الجزائري وكذا الأعراش التي تشكلها.

1- القبيـلة:

لقد سبقت الإشارة إلى كون البربر عرفوا، مثلهم مثل العرب التّنظيم القبلي، الذي يتناسب مع طبيعة بيئتهم شبه الصحراوية[116]. ولذا فإن دراسة القبائل العربية، في الجزائر تعد عنصرا هاما لموضوعنا، وذلك لارتباطه بمسألة جوهرية هي الانتماء العربي-الإسلامي للمغرب عموماً، وللجزائر موضوع بحثنا على وجه الخصوص. وأكّد الهرماسي على كون الوحدات التي ظلت تشكل بنية المجتمع الريفي في المغرب، سواء كانت ناطقة بالعربية أو البربرية، وسواء كانت خاضعة للسُّلطة أو ثائرة عليها، هي في أصلها قَبَلية،

واستمرت كذلك إلى بدايات القرن العشرين[117]. وبما أنّ المجتمع الجزائري هو جزء من الفضاء الجيو- سياسي للمغرب العربي؛ فيمكن القول أنه ظلَّ إلى بدايات القرن العشرين، منظَّما تنظيماً قبلياً حادًّا. فقد كان أكثر سكّان البلاد عبارة عن مجموعات من القبائل، وكانت وتمثل الوحدة الاجتماعية في الريف، في القبيلة. وكانت القبيلة تكبر بالتحالف،أو الغزو حتى تغطي منطقة بكاملها، وتصبح قوة سياسية وعسكرية يُحسب حسابها. فأفراد القبيلة الذكور كانوا كلهم محاربين، وكان دورهم الاجتماعي يتبع دورهم الحربي، قوة وضعفاً. وكان هؤلاء الفتيان المحاربون في القرى، بمثابة الأسوار التي تحمي المدن، كما يقول ابن خلدون[118]. واستمرَّ التَّنظيم القبلي بالجزائر، والمغرب عموما، إلى غاية ما بعد الاستعمار الفرنسي. فعندما احتلّت فرنسا الجزائر، كان المجتمع منظما تنظيما قبليّاً حادًّا. ومن هنا جاءت المقاومة العنيدة للاستعمار، وكان استمرار هذه المقاومة مرتبطاً أيضاً بهذا النوع من التنظيم[119].

ولكن ما هو مفهوم القبيلة التي نتحدَّث عنها بالنّسبة للجزائر؟ وما هي عوامل التَّماسك والتوازن التي ظلت تحافظ على بنيتها؟ وما نوعية القيم والعادات التي كانت تخزنها بداخلها؟.

عرّف " بورديو" القبيلة بكونها اتحاد فيدرالي لمجموعة من الفرق، يزعم أفرادها أَّنهم ينحدرون من جدّ واحد مشترك، ينسجون حول شخصيته الأساطير. ولكن الواقع يبدو أكثرَ تعقيداً من هذه الصورة المبسَّطة. إذ يجب أن نترك جانبا أمر القرابة الدموية، ذلك أنّ القبيلة، يقول" بورديو"، هي في حقيقتها تجمُّع سكاني متعدّد الأصول، أما شجرة النسب داخل القبيلة فهي مجرد محاولة بناء نظري بحت. وبناء على ما سبق تحليله، فإنه يبدو من المفيد لموضوعنا أن نطرح جانبا أمر القرابة الدموية في تعريف القبيلة الجزائرية. ذلك أنه في المناطق السّهبية والصّحراوية مثلا نجد العائلات التي تكوّن القبيلة ترجع إلى أصول مختلفة، ويكون الاسم الذي يطلق على القبيلة- غالباً- هو نفسه اسم فرقة من الفرق المكوّنة لها، والذي فرضته على العائلات والفرق الأخرى[120]. كما يلاحظ " مرّاد "، أنه من النادر ظهور مثل هذا النوع من القبيلة في منطقة التّل ولا تظهر إلا في حالات ظرفية، عندما تتحد بعض العائلات لتحقيق أغراض معينة، كالاحتفالات التعبدية والحروب وما ينبغي أن نؤكد عليه – مجددا - هو أن هذا النوع من التنظيم في منطقة التل، داخل المجتمع المغربي، والجزائر موضوع بحثنا ظل محافظا على طابعة القبلي، على

امتداد القرن التاسع عشر وإلى بداية القرن العشرين. وقد ظلّت جميع القرارات الهامة تتخذ داخل هذا الإطار القبلي، الذي يعمل بدوره على حماية أفراده[121].

ظلَّت القبيلة طرفاً سياسيا مع السلطة المركزية العثمانية في الجزائر ولم تكن تستكمل تشكيلها إلاَّ في مواجهة التّحدي الخارجي باعتبارها وحدةً سياسيةً وعسكريةً، تتشكَّل ظرفياً في مواجهة الخطر الذي يترصدها عند حدودها[122]. إن القبيلة بهذا المفهوم، تتشكل من عائلة موسعة، تنضمُّ إليها عائلات أخرى، من أجل الدفاع عن مصالح مشتركة. وكلَّما كانت المجموعة على جانب من القوة، كلَّما زاد عدد العائلات التي تدخل تحت لوائها، وتتعزَّز الرَّوابط داخل هذه المجموعة بفعل المصاهرة. وبالتالي، يمكننا التأكيد على كون القرابة داخل القبيلة هي اجتماعية لا دموية، وهكذا صارت القبيلة تمثّلُ أوسع شكل للتنظيم الاجتماعي في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي[123].

2- الأعـراش :

يتكون العرش من مجموع العائلات الموسّعة، ومن التّحالف السياسي لمجموعة الأعراش تتكون القبيلة. ومن هنا فإنه لا يمكن- من الناحية العلمية - إعطاء القبيلة نفس الأهمية البنيوية والاجتماعية التي تُعطى للعرش، وخاصة من ناحية ما يخزّنه هذا الأخير من تراث تاريخي ثقافي وسكاني. وهذا التّراث نفسه هو الذي كان يحدد المكانة الاجتماعية للعرش، وعلاقاته متعددة الأبعاد مع الأعراش الأخرى[124].

وهكذا فإنَّ الوحدة الاجتماعية والاقتصادية القاعدية للمجتمع الجزائري أواخر العهد العثماني كانت تتأرجح بين الدُّوار[125]. كأكبر تجمع، والفرقة كأصغر وحدة للقبيلة[126]. وما يلاحظ في هذا النوع من التنظيم الاجتماعي والاقتصادي هو انعدام مفهوم الفرد فيه. ذلك أنه لم يكن في مقدور الأفراد أن يفصلوا مصيرهم الخاص ومصير أولادهم عن المصير المشترك لمجموع العائلة[127].

3- العـائلة:

وإذا كان العرش يحافظ على التراث التاريخي والقانوني والسلالة والأسطورة، فإن الأولوية الاجتماعية والاقتصادية، كانت ترجع للعائلة. فالعائلة الموسعة- يقول مراد- هي التي تكوّن الوحدة القاعدية الاقتصادية والاجتماعية الحقيقية للقبيلة. ويرجع ذلك إلى

كون الأرض الزراعية وقطعان الماشية ووسائل العمل هي ملكة عائلية والعائلة الموسعة كانت هي الإطار الضروري والكافي لمارسة الوظيفة الإنتاجية.

والجدير بالملاحظة، هو أن دور الإدارة في المناطق المعزولة، كان مقصورا على استخلاص الضرائب، كلما سمحت الظروف بذلك. أما قضية التسيير الداخلي، فإن الأمر ترك للتنظيمات المحلية، التي كانت سائدة منذ أقدم العصور.

5- تأثـير الإسـلام ورمـوزه:

كان يحكم العائلة الموسعة نظام من القيم يشمل في ذات الوقت الدين وسائر القيم الاجتماعية الأخرى الموروثة عبر الأجيال، كالشرف، والشجاعة، والكرم، والانتساب الاجتماعي، والارتباطات والتحالفات مع القبائل الأخرى، وعلاقات الزواج والطلاق والميراث، وحماية الضعيف والثأر، والوفاء بالوعد[128]. وتدعيماً لما شرحناه سابقا، فإنه من المفيد -في نظرنا- أن نذكر، استنادا إلى باحثين في الأنثربولوجيا، أنّ القرابة في المجتمعات القبلية لا تنحصر في العلاقات العائلية كما هو الشأن في المجتمعات الحديثة، بل إنها تشمل أيضا ما يقوم في تلك المجتمعات من علاقات سياسية. فالأشخاص الذين تقوم بينهم علاقات سياسية خاصة هم أولئك الذي تربطهم- أيضا- بعضهم ببعض، علاقات أخرى أخلاقية أو دينية أو تعليمية. وهكذا فالروابط التي كانت تربط الناس بعضهم إلى بعض في هذه المجتمعات، ليست وحيدة، بل هي عبارة عن شبكة من العلاقات تندرج مجملها تحت مفهوم "القرابة"[129]. وباستعمال هذا المفهوم للعائلة، فإننا نحرص على إبراز دور الدين، كعقيدة وكتنظيم اجتماعي يحمل مضمونا سياسيا صريحا أو ضمنيا في هذا البناء الاجتماعي المسمّى القبيلة. ويؤكد الباحثون في هذا المجال أن عنصر الدين يمثل بعدا آخر في التّمرتب داخل العائلة[130]. وقد وجدنا بعض الباحثين في الفكر السياسي، مثل" ريجيس دوبري"، استعملوا مفهوم اللاّشعور السياسي، الذي يدلُّ على جملة من الدوافع السلوكية السياسية والاجتماعية، وفي مقدمتها الدين والقرابة[131] .

إنه ينبغي أن لا يغيب عن بالنا أن هذه المجموعات، المتمثلة في العائلات الموسعة، ظلت على امتداد التاريخ تنتمي إلى الحضارة الإسلامية التي شملتها، ولذلك فإنها ظلت تخضع لنظام شامل من القيم والمعايير، وكان لديها وعي كامل بانتمائها إلى إطار اجتماعي أوسع[132]هو إطار الأمّة العربية الإسلامية.

ونلاحظ أن النزاعات التي كانت تقع بين الأشخاص في المجتمع الريفي، مهما كانت طبيعتها، فإنها تحل على مستوى الجماعة، وإذا استعصى الأمر، ترفع القضية إلى مجلس القضاء، الذي كان يعقد جلساته في الأسواق الأسبوعية، المنظمة في عرش من الأعراش . وأحسن دليل على ذلك، الحكم الذي أصدره القاضي ومجلسه المنعقد في سوق الأربعاء ناث إيراثن بمنطقة القبائل في عام 1785م، الذي فصل في نزاع بين زوجين حول أحقية ملكية بقرة(133).

ولكي لا تظل مفاهيمنا السابقة عن القبائل في الجزائر خلال العهد العثماني مجرد تعميمات نظرية، فإننا نأخذ أنموذجاً تذكره المجلة الأفريقية، ورغم أن هذا الأنموذج لم يكن هو الوحيد على التراب الجزائري، إلا إنه يبرز البنية الاجتماعية للقبيلة، والقيم التي تحكمها ويلخّص ما قلناه سابقا. ويتمثّل هذا الأنموذج في قبيلة " المسيردة "، التي تقع مواطنها في منطقة السّاحل التّلي، للجزائر. وكانت هذه القبيلة تابعة لبايلك الغرب، يقول كاتب التقرير:" إن هذه القبيلة تمتاز بالامتزاج العرقي بين العرب والبربر، بحيث يصعب التمييز، داخلها، بين العنصرين. وذكر أن هذه القبيلة تأثَّرت، في العمق بدعوة الإسلام، كما أثرت فيها الطرق الصوفية والزوايا، من الجنوب المغربي والساقية الحمراء"(134).

هكذا ظلّت القبائل وما يكونها من الأعراش والعائلات الموسّعة، طيلة العهد العثماني،استجابة لواقع اجتماعي وسياسي واقتصادي. وكانت تمثل مظهراً مزدوجاً يتمثّل في استمرار مكونات المجتمع الجزائري عبر التاريخ من ناحية، وكانت تمثّل من ناحية أخرى الدفاع عن الانتماء العربي الإسلامي والتعلق بالقيم التي يمثّلها هذا الانتماء والرغبة في التحول مع المحافظة على كل ما يشكل مقوّمات المجتمع.

الهوامش:

1. الأتراك كما ورد في أغلب الكتابات المحلية التي تشير للحكام بكلمة (أتراك) في هذه الفترة وعثمانية نسبة للدولة العثمانية،كما هي نفسها للمزيد ينظر:مسعود خوند: الموسوعة التاريخية الجغرافية،ج 10،مؤسسة هانباد، بيروت،ص 18-17. كما استخدم الأوربيون مصطلح جمهورية الجزائر أو مملكة الجزائر وهي مصطلحات تستخدم بروح ذلك العصر وليس بالأبعاد التي تحددها الإيديولوجية في عصرنا. للمزيد ينظر: المنور مروش: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني : العملة- الأسعار والمداخيل، ج1، دار القصبة للنشر، الجزائر،2009، ص 9-15.

2. هو السلطان سليم الأوّل(1512-1520)؛ من السلاطين الأقوياء العثمانيين، عرف بحروبه ضد الصفويين والبرتغاليين والمماليك، كما توسع في منطقة البلقان،وفي عهده أصبحت الدولة العثمانية أكبر دولة إسلامية لذلك سيطرت على الخلافة. للمزيد ينظر: إبراهيم بك حليم: التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية (تاريخ الدولة العثمانية العلية)،ط1،مؤسسة الكتب الثقافية، مصر1988، ص80-87.

3. محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتحقيق المهدي البوعبدلي، الجزائر، (ش.و.ط.ت)، 1978، ص 63.

4. حمدان بن عثمان خوجة:المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق د. محمد العربي الزبيري، ش. و. ن. ت، ط 02، الجزائر1982، ص 107-108.

5. De Grammont: Histoire d'Alger sous la domination Turque, (1515- 1830), Paris 1887, p20.

6. يحيى بوعزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية (د. م. ج)، الجزائر 1999 م، ص ص 44- 45.

7. De Grammont: op.cit , p 24.

8. Ibid., p 24.

9. Fray. Diego de Haedo, Histoire des rois d'Alger, tra : par H, D De Grammont, (Alger '' imp A. Jourdan, 1881), pp 33- 34.

10. Laugier de Tassy, Histoire du Royaume d'Alger , Paris : éd Loysel , 1992, p 35.

11. Julien , p 256. Et Mouloud (G) : L'Algérie sous le Turks, Alger, S.n.e.d 1974, p 37.

12. عائشة غطاس : العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، معهد التاريخ، جامعة الجزائر1984/1985، ص3.

13. عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، د.م.ج، الجزائر 1985م، ص 47؛يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 46 وما بعدها. ويمكن الرجوع للتفاصيل اكثر الى: علي العبيدي، الحملة الاسبانية على الجزائر 1541 واثرها على توازن القوى في غرب المتوسط، في كتاب: الجزائر وتوازنات القوى البحرية غرب المتوسط خلال القرن السادس عشر الميلادي(دراسات تاريخية)، النشر الجامعي الجديد، تلمسان، 2018، ص167-180.

14. هاجم خير الدين صخرة البنيون يوم 6 ماي 1530 فانتصر وهدم أبراجها واستعمل صخورها وتربتها في ربط الجزيرة بالبر، ينظر:

M. Léon Galibert, L'Algérie Ancienne et Moderne, Paris : Furne et Cie éditeur, 1846, p 176.

15. أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766- 1791، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 26.

16. المرجع نفسه، ص 26.

17. وليم سبنسر: الجزائر في عهد ريّاس البحر، تعريب وتقديم د. عبد القادر زبارية، (ش.و.ن.ت)، الجزائر 1980، ص 38.

18. رغم أن عهد البايلرباي يبتدئ مع خير الدين غير أن انشغاله ومن خلفه بتأمين الحدود ورد الهجمات الأسبانية المستمرة على الجزائر وسواحل المغرب الإسلامي يجعل ما ذهب إليه عبد الرحمن الجيلالي من اعتبار هذا العهد يبتدئ مع ابن حسن بن خير الدين أقرب إلى الصحة.أنظر أيضا: صالح فركوس: المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفينيقيين إلى خروج الفرنسيين (814 ق.م- 1962م)، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر 2002، ص 80- 110.

19. الرياس: هم طائفة من الجيش البحري تأسست هذه الفئة منذ عهد خير الدين الذي كون منهم ثمانية آلاف حندي، ثم ازدهرت خلال عهد البايلربايات وتتألف من الأتراك والأندلسيين والجزائريين في أوائل الحكم التركي ثم أصبحت الكثرة العالبة منهم فيما بعد تتألف من الفئة التي اعتنقت الإسلام وهم العلوج. انظر: رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته، ط3، دار الهدى، عين مليلة-الجزائر 2000، ص.352

20. عمار، بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1997، ص.57

21. عين صالح رايس بايلربايا على الجزائر في شهر جمادى الأولى من سنة 959هـ -أفريل 1552م وكان لتوليته ارتياح عظيم في الأوساط الجزائرية وقد تم تعيينه من قبل الباب العالي وقد استطاع توسيع حدود الدولة الجزائرية وهذا بعد أن ضم تلمسان لملك الجزائر، وبذلك سقطت الدولة الزيانية.

22. سقطت الدولة الزيانية نهائيا سنة 961هـ- 1554م في عهد آخر ملوك بني زيان مولاي الحسن بعد فترة حكم دامت 318 سنة. يراجع: بوداوية مبخوت:العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، رسالة دكتوراه في التاريخ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان 2006/2005م.

23. سعيدوني. نا صر الدين، والمهدي، البوعبدلي: الجزائر في العهد العثماني، ج.3، م. و. ك، الجزائر 1984، ص15.

24. عبد الله، شريط ومبارك الميلي: مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي، م. و. ك، الجزائر 1985، ص 151.

25. عبد الرحمن الجيلالي: مرجع سابق، ص 86.

26. المرجع نفسه، ص 94.

27. المرجع نفسه، ص 87.

28. المقصود بالوضع الدولي هو وضعية الإيالة بالنسبة إلى الباب العالي، ذلك أن الجزائر في هذه المرحلة كانت تامة التبعية للسلطة العثمانية وبالتالي لم يكن لها وضعها الدولي المستقل بها.

29. Julien, op. cit, p 266 .

30. De Grammont . op. cit, p 266.

31. بلغ عدد الانكشارية في النصف الأول من القرن السابع عشر: 22 ألفا، أنظر: De Grammont : Ibid. , p185.

32. Ibid. p. 125.

33. Ibidem.

34. Ibid. p. 127.

35. Julien, op. cit, p 275.

36. De Grammont , op. cit pp. 207- 208, Julien. Op. cit, p 275.

37. لعل "دو جرامون" الذي ننقل منه، يعني حقوقهم كممثلين للسلطان العثماني.

38. De Grammont, Ibid., p 209.

39. رفض الداي العاشر، علي شاوش، استقبال مبعوث الباب العالي "الباشا" وأقنع السلطان أن يمنحه لقب باشا. أنظر: .Julien, op-cit, p 275

40. De Grammont , op-cit p.175

41. محمود علي، عامر: تاريخ المغرب العربي المعاصر، دمشق، 1997، ص 66-67.

42. De Grammont , op-cit p.177

43. Ibidem, p.179

44. Ibidem.

45. جون ب. وولف، الجزائر وأوربا، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، م وك، الجزائر 1986،ص

46. De Grammont. Op. cit, pp 220. 226.

47. Ibid., p 227.

48. أنظر كشف بأسمائهم في الجزء الثاني من كتاب:

Eugene Plantet, Correspondance des Deys d'Alger avec le cour de France, 1579-1833. P 580.

49. De Grammont, op. cit, p 220.

50. محمد الصالح العنتري: فريدة منسية في حال دخول الأترك بلاد قسنطينة، مراجعة وتقديم وتعليق د. يحي بوعزيز،د.م.ج، الجزائر1991، ص 27.

51.حمدان بن عثمان خوجة: مصدر سابق، ص 115 و122.

52.ينظر: ناصرالدين، سعيدوني: النظام المالي الجزائري في أواخر العهد العثماني، (م، و،ن)، ط2، مطبعة الفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر 1985م،، ص46-47.

53.ينظر: حنيفي، هلايلي: الثورات الشعبية في الجزائر أواخر العهد العثماني كرد فعل على سياسة التهميش، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد 20، ص 189- 190. وينظر ايضا: محمد، مكحلي: ثورات رجال الزوايا والطرقية في الجزائر خلال العهد العثماني (1707- 1827 م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس 2003/ 2004 (غير منشورة).

54. De Grammont, op. cit, p 361.

55. أنظر رسالة موجهة من الداي عمر بن محمد إلى السلطان محمود الثاني بتاريخ 16 مايو 1815 في كتاب: الدكتور: عبد الجليل، التميمي: بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، الجزائر. تونس. ليبيا 1816- 1871، ط1، تونس، 1972، ص 246.

56. De Grammont, op. cit, p 369.

57. Ibid. p 381.

58. Pierre Boyer, La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française, p 117.

59. العنتري، المصدر السابق، ص 25.

60. توفيق المدني، المرجع السابق، ص.

61. De Grammont, op. cit, pp 369- 370.

62. Dr Shaw, Voyage dans la régence d'Alger, trad de l'anglais par imac Carthy, éd, Bouslama, Tunis 1980, p 155.

63. Ibid, p 155.

64. نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إل انتهاء العصر التركي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1965، ص 110 و111. وأنظر أيضاً:

De Grammont, op. cit, pp 236, 237.

65. نور الدين، عبد القادر: المرجع السابق، ص ص 11- 112.

66. Claude, Bontems, Manuel des institutions algériennes, Tome1 (La domination Turque le régime militaire 1518- 1870), éditions Cujas, paris, 1976, p. 38,

سعيدوني ناصر الدين، والمهدي البوعبدلي: مرجع سابق، ص 16.

67. Dr Chaw, Voyage dans la régence d'Alger, traduit de l'anglais par I. Mac Carthy, chez Marlin, éditeur, Paris 1830, p 149.

68. -Jean Serres, La politique Turque en Afrique du Nord sous la Monarchie de juillet, librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris 1925, p. 8- 9 ;Voir aussi : Shaw, op. cit, p 149- 150.

69. -Charles- André Julien ; Histoire de l'Afrique du Nord (de la conquete arabe à 1830). 12 éd, Payot, Paris 1952. P 292.

70. -Serres ; op. cit, p 09.

71. حمدان خوجة: مصدر سابق، ص 125.

72. المصدر نفسه، ص 127.

73. وليام، شالر: مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر، تعريب إسماعيل العربي، (م. و. ن. ت)، الجزائر 1982، ص 77.

74. نفس المصدر، ص 44.

75. و هو تركيب بين كلمتي داي ودولة وتعني الحاكم غير المعين من قبل السلطان العثماني. أنظر: عبد الرزاق، بن حمادوش: رحلة ابن حمادوش الجزائري، تقديم وتحقيق وتعليق د/ أبو القاسم، سعد الله، ش .ج.ن.ت، الجزائر 1983، ص 225.

76. حمدان خوجة: مصدر سابق، ص 133.

77. نفس المصدر، ص 132.

78. Shaw, op. cit, p. 152.

79. Bontems, op. cit ; p 43.

80. shaw, op. cit, p 167.

81. Bontems, op. cit ; p. 45- 46.

82. Ibid,

83. Shaw, op. cit , p 168.

84. Bontems, op. cit, p 47- 48.

85. يذكر أن الهدف الأساسي من إنشاء هذه الأقاليم الإدارية هو جمع الضرائب لضمان تجهيزات وأجور الجنود الانكشاريين. ينظر:

Claude Collot : Les institutions de l'Algérie durant la période coloniale (1830-1962), éd du C.N.R.S, Paris, et de l'O.PU, Alger, 1987, p 24.

86. ناصرالدين، سعيدوني: النظام المالي الجزائري في أواخر العهد العثماني، مرجع سابق، ص 31.

87. Bontems, op. cit, p 52.

88. Tinthoin Robert ; L'Oranie sa géographie, son histoire, ses centres vitaux, Oran, Fouqué, 1952, p 35.

89. Rinn louis, « Le royaume d'Alger » in '' RA'' T 43, 1899, voir carte.

90. Aramburu Don- Joseph de, Oran et l'ouest Algérien au 18 siècle, présentation et traduction de Korso et Epalzar, Alger, B.N, 1978, p 9.

91. الزياني، ابن يوسف، المصدر السابق، ص 190.

92. المصدر نفسه، ص 192.

93. Julien, op. cit, p 94- 95.

94. Serres, op. cit, p 10.

95. ناصرالدين، سعيدوني : النظام المالي..، مرجع سابق، ص 31؛ أحمد الشريف، الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار، تحقيق أحمد توفيق، المدني، ط2، م.و.ن.ت، الجزائر 1980، ص 48.

96. أحمد الشريف الزهار :المصدر السابق، ص 47-48.

97. bontems, op. cit, p 53.

98. Abdeljelil Temimi, Le Beylik de Constantine et hadj Ahmed Bey (1830-1837), (thèse de doctorat soutenue le 11 mars 1972 à l'université d'Aix- en- Pce), société Tunisienne des arts graphiques, Tunis, 1978, p 52.

99. E,VAYSSETTES; Histoire des derniers Beys de Costantine ,R.A N°3 Alger1858.P117

100. هناك نوعان من القبائل: يقصد بالنوع الأوّل الجنس والأرض، أي السكان الذين يقطنون منطقة القبائل الحالية، ويسمى الفرد في هذه المنطقة قبائلي، أما النوع الثاني فنقصد منه الوحدة الإدارية والجغرافية البسيطة، ولا يمكن أن نعطي مواطنيها أسماء قبائل.

101. Ibidem.

102. Bontems, op. cit, p 56.

103. Ibid., p 60.

104. Ibid., p 57.

105. Bontems, op. cit, p 60.

106. Ibid., p 51.

107. Ibid., p 58.

108. حمدان بن عثمان خوجة: مصدر سابق، ص 151.

109. صلاح العقاد : المغرب العربي، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة 1962 م، ص 37- 38.

110. عدى، الهواري: الاستعمار الفرنسي في الجزائر: سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي (1830-1960)، دار الحداثة، بيروت 1983، ص.15 .

111. المرجع نفسه، ص.58

112. عدى، الهواري، ص.22

113. Hermassi (B.), Etat et société au Maghreb,p.43

114. Ibid, p.43.

115. Ibid, p.43

116. الجابري محمد، عابد: العصبية والدولة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1992، ص.23

117. عدّي، الهواري: المرجع السابق، ص117

118. Mérad (B-A), Op. Cit. , p.43

119. Ibid., p.85

120. Bourdieu (P.), Op. Cit , p.22

121. عدّي، الهواري: المرجع السابق، ص.117

122. Adala,M, Op. Cit., 111-112

123. ينبغي التفريق بين مفهوم الدوار خلال العهد العثماني، الذي كان يتشكل من قبائل وأعراش وفرق لها وجود حقيقي وتراث مشترك، بينما الدوار الذي تشكل بفعل القوانين العقارية الاستعمارية – السيناتوس كونسالت 1863، قانون وارنبي 1873- صار عبارة عن فتاة من القبائل التي طبقت عليها هذه القوانين ولاتحمل بينها أي تراث مشترك.

124. Mérad .B-A., Op. Cit., p .35

125. Ibid., pp .17-18

126. Adala.M., Op. Cit., 111-112

127. كان هناك قرابة النسب وقرابة الجوار وقرار التحالف السياسي..الخ. ينظر: الجابري محمد، عابد: العقل السياسي العربي، ص 32-33

128. Mérad .B-A. ,op .Cit., pp.17-18.

129. الجابري محمد، عابد: المرجع السابق، ص ص.32-33

130. Hermassi .B., op. Cit.,p.20

131. HANOTEAU et LETOURNEAU; La Kabaylie et coutumes kabyles;3T.IMP,Nationale . Paris 1873.t2,PP.450-451

132. Gabriel ,A, « La tribu M'Sirda », In : R. A, 1927 et Stes

مكانة الجيش الإنكشاري في الجزائر
خلال العهد العثماني

دة. حياة تابتـــي
جامعة تلمسان

مقدمة:

شهد القرن السادس عشر في الجزائر وبقية أجزاء المغرب العربي تحولات سياسية كبيرة، أدت إلى تحولات اقتصادية واجتماعية هامة . فبعدما وسعت الدولة العثمانية نفوذها إلى الدول المجاورة لها وفي المشرق، أخذت تفكر في ضم شمال إفريقيا، فاعتمدت في توسعاتها على قوة أساسية من الإنكشارية .

إن مطلع القرن السادس عشر قد شهد حالة من الفوضى واللاإستقرار في الجزائر، ويعود سبب ذلك إلى وجود ثلاثة قوى متنافسة لبسط نفوذها في المنطقة، وهي : دولة بني مرين في المغرب الأقصى، أما وسط وغرب الجزائر فكانت تحت سلطة بني زيان، ودولة بني حفص في تونس والشرق الجزائري، مما أدى لإضعافها، وبذلك استطاعت الدول الأجنبية التدخل في المنطقة وعلى رأسها إسبانيا. وحينها تمكنت الدولة العثمانية مع مطلع القرن السادس عشر من مد نفوذها في الشمال الإفريقي، وكانت الجزائر من بين الدول التي تمكنت من ضمها، بإرسالها فرق من الإنكشارية خلال فترة حكم خير الدين بربروس لإقامة الحكم العثماني بالجزائر، وذلك من 1518 إلى غاية 1830 وحماية حدودها طيلة هذه الفترة، وقد لعبت خلالها الإنكشارية أدوارا مختلفة .

اولا: إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية :

تشير بعض الدراسات والمصادر، بأن قرار إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية جاء بعد اجتماع قام به خير الدين مع أهالي الجزائر، كما تضيف أن خير الدين بعد ذلك أبلغ بمغادرة البلاد ليستأنف الغزو والجهاد ضد القراصنة في البحار حتى يبني قوته لكن عقلاء مدينة الجزائر وكبارها ألحوا عليه بأن يبقى في هذه المدينة[1]. وبعد الاجتماع استطاع خير الدين أن ينبه أهالي الجزائر وأعيانها على ضرورة إلحاق الجزائر بالخلافة العثمانية، وقد وافق أهل مدينة الجزائر على رأيه، وبادروا بهذا الاقتراح وذلك بمراسلة السلطان العثماني سليم الأول 1518م، الذي استقبل الوفد الجزائري بحفاوة كبيرة فقد عاد الوفد حاملا رسالة من السلطان إلى الجزائر معلنا قبول الانضمام، وأرسل معهم فرقة من الجنود ومدفعية، وأصدر أمرا بتعيين خير الدين كأول باي لارباي على الجزائر في عام 1518م، وبذلك صارت الجزائر إيالة عثمانية بصفة رسمية، حيث أكسبها ذلك نوعا من الحماية لها من الأخطار خاصة أطماع الإسبان[2].

أصبح على خير الدين تحمل المسؤولية ومواجهة الصعاب والتحديات، فبدأ بتشكيل حكومة منظمة، وتعيين أعضاء الديوان وتحديد مسؤولياتهم، وحينها أدرك بأن المشروع الذي يريد تجسيده في الجزائر لن يتحقق باعتماده على المتطوعين فقط، فاتجه إلى الخلافة العثمانية التي زودته بعدد من جنودها النظاميين أو ما كان يعرف بالانكشارية . فقد ظلت السلطة العثمانية في الجزائر تجند هؤلاء الإنكشاريين في أقاليم الدولة العثمانية إلى غاية سقوطها[3]. وقد أشار بعض المؤرخين لأهمية هذا الجيش بالنسبة للدولة العثمانية، ويقول في ذلك المؤرخ الانجليزي جرانت: " إن المشاة الإنكشارية كانوا أكثر أهمية وإعتمدت عليهم الدولة العثمانية في فتوحاتها الإسلامية، وبالنسبة للجزائر فقد ساهم الإنكشاريون في ضبط أمور الدولة الداخلية من خلال مجهوداتهم في محاربة العدو الخارجي الأجنبي"[4] .

ساد النظام والاستقرار في الجزائر بشكل ملحوظ في العهد العثماني، حيث تمكن خير الدين من تحرير العديد من المناطق المحتلة، إلا أنه تفرغ بعد تشكيل الحكومة إلى إنشاء جيش انكشاري منظم ليهتم بالدفاع عن البلاد داخليا إلى جانب رياس البحر الذين كانت مهمتهم الدفاع عن البلاد خارجيا.

ثانيا: بنية الجيش الإنكشاري:

1. عملية التجنيد:

كان أول عمل قام به "خير الدين" هو وضع النواة الأولى لجيش محترف من مجموعة بشرية من المشرق العربي، وقد تم إخضاع عناصره لامتحان قاس قبل قبولهم للانخراط في الجيش وعرف تحت اسم الجيش الإنكشاري[5]، يتكون من عدة أجناس يدربون على الجندية ويؤتى بهم إلى مختلف البلدان الخاضعة لحكم العثمانيين[6]. وقد أطلق اسم الإنكشارية على طائفة عسكري من المشاة العثمانيين يشكلون تنظيما خاصا، لهم ثكناتهم العسكرية وشاراتهم، رتبهم وامتيازاتهم، ولكن لم يعرف على وجه الدقة وقت ظهورهم[7]. كان هذا الجيش متفرغ للحرب كونته الدولة العثمانية من أبناء المسيحيين الذين فقدوا آباءهم ومن الأسرى، أنشئوا على الإسلام والولاء للدولة العثمانية فتدربوا على فنون القتال، وكانوا جنودا محترفين مدربين تدريبا عاليا[8].

يمثل إرسال السلطان "سليم الأول" لألفين من خيرة الجنود الإنكشارية ثم إتباعهم بأربعة آلاف متطوع بداية لمرحلة طويلة من عملية تجنيد المتطوعين، والتي اعتمدت عليها الجزائر طيلة العهد العثماني، وتعتبر هذه العملية من أهم المميزات التي ربطت إيالة الجزائر بالباب العالي، خصوصا أن الجزائر كانت باستمرار بأمس الحاجة لعملية التجنيد لتدعيم قواتها العسكرية التي كانت تتصدى للاعتداءات الخارجية المتكررة والقوى الداخلية المعارضة[9].

كان تجنيد الجيش الإنكشاري في الأراضي العثمانية إما بواسطة مبعوثين من الجزائر، وإما بواسطة الدولة العثمانية أو بفضل المبادرة الفردية[10]. وفي ذلك يقول حمدان بن عثمان خوجة :" أنه بمجرد حصول أحد الإنكشاريين على بعض المال يسافر إلى تركيا مسقط رأسه يأخذ معه ألبسة فاخرة ليظهر في مظهر الرخاء والترف أمام أبناء وطنه ليعجبهم، ولكن عندما يعود إلى الجزائر يصطحب معه جماعة من سكان بلاد يقدمهم الدفتر تحت ضمانته يقبلون في صفوف الميليشيا ثم يتولى تدريبهم على الجندية وتعليمهم واجباتهم الجديدة"[11].

و إذا كان عدد المتطوعين كبيرا أو تعذر جمع الشباب إلى خيمة التطوع، فإن الباشا داي أو الوكيل يطلب من الداي أن يقو بإرسال العدد الذي يراه مناسبا ليساعده في تنظيم

عمليات التجنيد، ومن الشروط التي يجب أن يتوفر في المترشح للتجنيد ما يلي : (أن يكون المجند مسلما معروفا بأخلاقه ذات سمعة طيبة وقدرة على حمل السلاح، وعند التسجيل يوزع على المتطوعين بعض النقود لشراء ما يستحقونه ليومهم ليظهر عليهم المعاملة الحسنة، وإذا قام الإنكشاري باحترام القانون فإنه يحظى بامتيازات تخوله الصعود في هرم السلطة وإلى أعلى المناصب العسكرية والإدارية) [12].

كان راتبهم العسكري زهيدا جدا يزداد كل سنة خلال السنوات الخمس الأولى، ويمكن أن يزداد بعد القيام ببعض الأعمال، فكانت الأجور تتراوح بين ثلاث دوبلات و25 دوبلة في القرن السادس عشر، وكلما جاء حاكم جديد ترفع أجورهم بل كثيرا ما كانت تطيح بحاكم حتى يأتي آخر يرفع أجورها، فكان النظام الجبائي قائم على أساس توفير الأموال لدفع هذه الأجور، هذا ما ذكره "صالح عباد" في كتابه "الجزائر تحت الحكم التركي"[13]. أما حسب رأي أحمد توفيق المدني في كتابه" محمد عثمان باشا " فإن الأجرة النقدية تبتدئ ب 14 موزونة وهي 40 صولديا تقريبا، وكل سنة تزداد هذه الأجرة ب 5 موزونات، وكانت هذه المرتبات تدفع كل شهرين، كما استغرقت مدة خدمة الجنود 3 سنوات الأولى في مدينة الجزائر، والثانية داخل البلاد، والثالثة عطلة دون عمل[14].

كما أن دفع الأجرة يعتبر من بين الحقوق الأساسية التي يتمتع بها الجندي اتجاه الحكومة، وكان يوم دفعها يمثل يوما هاما إذ يحضره الداي شخصيا إلى جانب كبار الموظفين الساميين، وبالإضافة إلى رواتب الجيش النقدية هناك نوع ثاني يتحصلون عليه عينا يدفعون فيه ثلث ثمنه في السوق ويتمثل في الخبز حيث يستلم كل واحد أربع خبزات ذات وزن 1 كلغ يوميا، بالإضافة إلى زيت الطبخ واللحم، كما يتحصل على إضافات من اللباس، ويشترط لكل مجند أن يحضر لاستلام راتبه، لأن وقت قبض الرواتب محدود ولا يجوز لأي واحد أن يتغيب[15] .

كما حافظ الإنكشاريون على نقاوة طائفتهم العثمانية حيث رفضوا انضمام العناصر الأهلية إليهم، لذا ظل بقاء ونمو الإنكشارية مرهونا بالتجنيد من الأراضي العثمانية، وأن العثمانيين رفضوا الاعتراف بالصفة العثمانية لأبنائهم من النساء الجزائريات الكراغلة. أما عن حياتهم المعيشية فقد كانت الدولة العثمانية تحرص على منع اتصال الإنكشارية بأقاربهم، وتفرض عليهم في وقت السلم أن يعيشوا في الثكنات التي لم تكن تحتوي فقط

على أماكن النوم لضباطهم بل كانت تضم المطابخ ومخازن الأسلحة والذخائر وكافة حاجاتهم المدنية[16].

2. الثكنات العسكرية:

كان الإنكشاريون يقيمون في ثكنات حيث كانت لهم حجرات يأخذون فيها طعامهم اليومي، وبخصوص عدد ثكنات مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية حددت كالتالي:

– ثكنة بابا عزون: تعتبر من أهم الثكنات لكبر مساحتها وكثرة جنودها، ولقد طرأت عليها عدة تغيرات بحيث تحولت إلى مستشفى عسكري ثم مدرسة مع مكتبة ومتحف للمدينة، إلى أن أصبحت ثانوية، ويعود بناء هذه الثكنة إلى عهد الباي لارباي حسن باشا 1548م، وتعود تسميتها إلى الجنود الذين تعودوا شرب الحليب وقت الجفاف، وكانت هذه الثكنة تتكون من ثمانية وعشرون غرفة يسكنها ألف وستة مئة وواحد وستون رجلا يشكلون ثلاثة وستون أوجاقا [17].

– ثكنة المكررين: شيدها قليج علي ما بين 1571- 1572م وأقدم إشارة إليها سنة 1603م وذلك من خلال ذكر أحد البيوت التابعة لهذه الثكنة، وقد اختلف الكتاب في تسميتها، لكن الصواب هو المكررين وذلك لوجود مسجد قرب الثكنة بناه الداي عبدلي باشا(1724-1734م)، وكان في عادة الجنود ترتيل القرآن الكريم خلال المواسم الدينية خاصة في شهر رمضان، وكان يوجد بهذه الثكنة سبعة وعشرون غرفة يسكنها ثمان مئة وتسعة وتسعون رجلا يشكلون ثمانية وأربعون أوجاقا[18].

– ثكنة صالح باشا وعلي باشا:يطلق على الثكنتين ثكنة الخراطين لوجودهما في حي تكثر فيه دكاكين الخراطة، أما سكان مدينة الجزائر فكانوا يطلقون عليهما اسم باب الصخرية لالتصاق البنايتين ببعضهما البعض، ويعود تاريخ بناء الثكنة إلى 1599-1600م، وثكنة صالح باشا: بها ستة وعشرون غرفة يسكنها 1266 ويشكلون ستون أوجاقا. اما ثكنة علي باشا: بها أربعة وعشرون غرفة يسكنها ألف وخمسمائة وستة عشر رجلا ويشكلون خمسون أوجاقا[19].

– ثكنة الأوسطي موسى : سميت بهذه التسمية نسبة إلى المهندس المعماري موسى الأندلسي، الذي كلف بانجاز شبكة المياه، كما سميت بباب الجزيرة لقربها من البحر .

ويعود تاريخ بنائها إلى عام 1674- 1675م، وكان لها واحد وثلاثون غرفة ويقيم بها ألف وأربع مائة وثلاث وثلاثون موزعين على اثنين وسبعون أوجاقا.

– ثكنة بالي : وردت لها عدة تسميات منها ثكنة القناصل، أما الوثائق العثمانية فتطلق عليها اسم دار الجشارية، كما تعتبر هذه الثكنة من أصغر الثكنات في مدينة الجزائر، وهي تحتوي على 15 غرفة يقيم بها ستة مائة واثنين موزعين على 17 أوجاقا.

– ثكنة آسكي القديمة وثكنة بني الجديدة : إن هاتين الثكنتين ملتصقتين ببعضهما البعض، وهما: الثكنة القديمة: تقع في الأعلى ويطلق عليها الفوقانية. والثكنة الجديدة: تقع في الأسفل ويطلق عليها السفلانية. ويرجع تاريخ انشاء الثكنة القديمة إلى عام 1672، وقد كانت ثكنة آسكي تحتوي على واحد وثلاثون غرفة تقيم بها ألف وتسعة وثمانين رجلا ويشكلون ستون أوجاقا، أما الثكنة الأخرى فكان بها تسعة عشر غرفة تسكنها ثمان مئة وستة وخمسون رجلا موزعين على ثمان وثلاثون أوجاقا[20].

إن حاجة خير الدين إلى الجيش الإنكشاري جعله يفكر في تجنيد الجنود من مختلف المناطق التابعة للدولة العثمانية، ومنذ ذلك الحين وإلى غاية 1830م احتلت هذه الفرقة العسكرية مركزا هاما في الجزائر .

ثالثا: تنظيم الجش الإنكشاري:

1. هيئة الجندي الإنكشاري:

يرتدي الإنكشاريون لباسا يختلف عن بقية الجنود في الجزائر، فقد كان يتسلم الجندي الإنكشاري من البايلك قميص من القماش الخشن وصدرية وسروالا من القطن، ومعطفا وحزاما أحمر وحذاء وغطاء من الصوف، وعندما يذهب إلى الثكنة يتسلم حصيرا لمنامه، وعند قدوم الجندي إلى الجزائر يتم ضبط اسمه بالدفتر الذي يمسكه الباش كاتب ويقع تعيين بلاده وتسجيل صفاته وبنيته، والثكنة التي يقيم بها والفرقة العسكرية التي يتبعها[21]. وكانت الإيالة توفر لكل مجند جديد السلاح، وتجمع الدراسات على أن ألفين إنكشاري أرسلهم السلطان "سليم الأول" فقد زودوا بالبنادق إلى جانب المدافع، وأسلحة أخرى متمثلة[22] في البندقية، السيف والمسدس ونصف رطل من الرصاص وقليل من البارود[23]. ومن أهم الأسلحة المستعملة لدى الجيش، هي:

- الأسلحة النارية (البنادق والمسدسات) : كانت من أهم وسائل فرق الانكشارية على السكان، إلا أنه رغم قوتها فإن فاعليتها محدودة، إذ كان إطلاق النار يتم ببطء.

- الأسلحة البيضاء (السيوف والخناجر) :كانت تستعمل أثناء التحام الجنود مع صفوف العدو[24].

- المدفع: كان الجيش العثماني في بداية تأسيس إيالة الجزائر، يشكو من نقص فادح من الأسلحة الثقيلة خاصة المدافع، ولكن بتعدد الحملات الأجنبية بدأ التفكير بصنع مدافع محلية، وذلك عند دخول عروج إلى مدينة الجزائر 1516 م حيث أمر المعلمين بصنع البارود لتزويد المدافع والبنادق[25] . وأيضا بطلب المساعدة من الباب العالي وبعد توافد مهاجري الأندلس إلى الجزائر وسعت هذه الصناعة [26]. وأهم المسؤولين الذين يسهرون على صناعة المدافع منهم:

أ- وكيل الحرج: المقتصد.

ب- الباشا طبيعي : قائد المدفعيين والمسؤول عن العمال والسباكين.

ت- مجموعة السباكين: المكلفون بصب المعدن وتهيئة القوالب.

ث- مجموعة الخراطين: لصقل المدافع وصناعة القنابل.

ج- مجموعة النجارين: لإعداد أسرة المدافع.

ح- العمال : مكلفون بإيصال الحطب وايقاذ النار.

خ- الحراس : كانوا قليلين، لأنه كانت توجد مسكة واحدة بالجزائر[27] بالإضافة إلى صناع البارود ومستعملوا المدافع الذين قسموا إلى أربع، وقد انحصرت مهامهم في : حامل المشعل، حامل المكيال، حامل المدك، مسؤول التسديد[28].

2. الرتب العسكرية:

خضعت فرقة الإنكشارية لترتيب تصاعدي،إذ كانت الترقية تتم بطريقة آلية، وكان المعيار الذي يستند في الترقية يتمثل في الأقدمية، أما الذي يتولى منصب سامي بالجيش لابد أن تتوفر فيه مجموعة من المواصفات، كما يكون جنديا شجاعا عادلا يحسن التصرف، وبعد أن يصل المتطوع إلى الجزائر يتم تسجيله على دفتر فيصبح جندي جديد يعرف ببني يولداشي، والذي يعمل تحت قيادته يسمى الأوداباشي.

و إذا التحق المتطوع بالجزائر كمهاجر يسمح له بالانخراط في فرق الأوجاق، والالتحاق بالمتطوعين في فرق البني يولداشي وبعد ثلاثة سنوات من التحاقه بالأوجاق فإنه يصبح قديما، ويطلق عليه اسم آسكي يولداشي، ويمكن تصنيف رتب جنود الإنكشارية[29] كالآتي :

أ- باشي يولداشي: رئيس فرقة متكونة من 20 جنديا فيرتقي إلى رتبة وكيل الحرج ثم أوصاباشي (قائد فرقة) يرتقي إلى رتبة البولكباشي، ويكون اليولداش الذين يعينون على رأس إحدى النوبات الموزعة بالجزائر العاصمة وغيرها، مثل: قسنطينة، عنابة، جيجل، بجاية، وهران وغيرهم من القيادات العسكرية[30] .

ب- الآغا : ينتخب من بين البولكباشية.

ت- أوضاباتشي: رئيس الحصن.

ث- السقاباشي:رئيس المكلفين بجلب المياه وتوفيرها.

ج- الأشجي باشي :قائد الطباخين[31].

ح- الشاوش: يختار من بين أبسط اليولداش من طرف الداي شخصيا دون اعتبار للأقدمية بين هؤلاء القادة (الشواش) بالنوبة لمدة 10 سنوات ثم يرتقون إلى أعلى المناصب في الأوجاق ومنهم من وصل إلى رتبة داي .

أما التسلسل الترتيبي للجيش العثماني النظامي، بالإضافة إلى هذه الرتب النوعية التي يمكن للجندي أن يصل إليها، والتي تعادل في الكثير منه رتب ضباط الصف، ورتب الضباط[32] هي كالآتي :

أ- الأوتراق : هم رؤساء الأوضاباشية.

ب- البادوشا: تمنح هذه الرتب لأربعة من أقدم الأوتراق فيصبح اثنان منهم مستشارين للآغا واثنين مستشارين للداي .

ت- البولكباشية : يكون على رأس عدة فرق أو فيالق غير محددة العدد، يوجد منهم حوالي 60 بولكباشيا من بين أعضاء الديوان، وبين 20 و30 بولكباشيا يترأسون فرق الجيش[33].

ث- الصولاجي : تمنح هذه الرتبة لأربعة من أقدم البولكباشية يرافقون الداي أينما ذهب.

ج- الباشي بولكباشي: وهو زعيم البولكباشي يتقدمهم ويتكلم باسمهم، وهو أكثرهم احتراما ينتخب قبلهم،وهو أقرب شخص للكاهية والمرشح الثاني للآغوية(34) .

ح- الأياباشي: يوجد بهذه الرتبة عشرون ضابطا مهمتهم مرافقة الداي إلى المسجد أيام الجمعة والمناسبات الأخرى .

خ- الكاهية: وهو نائب الآغا ومساعده وخليفته في حالة المرض أو العزل أو الموت، إذ يقوم الكاهية بالنيابة عنه حتى انتخاب آغا جديد، وغالبا ما يكون هذا الآغا هو الكاهية(35).

د- آغا الإنكشارية : وهو القائد العام للجيش البري بمثابة الأمين العام لمال الجيش، فهو المكلف بدفع مرتباته والمشرف على المؤونة والحامي لحدود الإقليم، والآغا هو أقدم جندي في الوجاق، وهذا المنصب لا يسمح لصاحبه بالتمتع به سوى لشهرين متتابعين، وهو الوحيد الذي يصدر الأوامر، وتسلم له مفاتيح المدينة كل مساء، وهو الوحيد الذي يستطيع إصدار الأوامر بالمعاقبة في حالة خرق القوانين العسكرية من طرف الجنود، وبالطبع فإن المنصب الأعلى رتبة في هرم السلطة وهو منصب الداي(36).

إن التنظيم العسكري للجيش الجزائري حسب كثير من المؤرخين، كان غاية في الانضباط إلا أنه سرعان ما تحتل به الفوضى والفعالية عند الالتحام بالعدو، أو التصادم به، وكانوا يخوضون معاركهم وفق خطة معينة مقسمة إلى وحدات، بعد ذلك يحددون مكانا استراتيجيا لنصب معسكرهم، والتنظيم الذي طبقته الانكشارية أثناء سيرهم لمواجهة العدو، كان يتم تقسيم الجيش إلى وحدات وفق الشكل التالي : مقدمة تتكون من عدد كثير من المشاة، الجناحين الميمنة والميسرة وتشكل من فرقة من الفرسان، وفي الأخير تضم عددا من الفرسان إلى جانب المشاة الذين يكونوا صفين لحماية الأمتعة والعتاد، أما الأهالي الذين يرافقون الجيش يشكلون فرقا على أجنحة لتدعيم القوات الرئيسية حالة الحاجة(37).

تشكل القيادة العسكرية العمود الفقري للجيش باعتبار الانكشارية جيشا نظاميا، فإن قيادته أوكلت إلى رجال ذوي كفاءة حربية عالية ومهارة قتالية فائقة، وبفضل

التنظيم المحكم استطاعت إيالة الجزائر أن تصبح قوة هامة في منطقة البحر المتوسط، كما أن كثرة قوة المواجهات والحروب المتتالية أدت لاكتساب الجيش الانكشاري خبرة حربية نتيجة طول ممارسة القتال، رغم تراجع قوة هذا الجيش خلال القرن الثامن عشر، إلا أنه واصل أدائه الحربي وصده للأخطار عن إيالة الجزائر[38].

عمل القادة العثمانيون بعد تأسيس الجيش الإنكشاري على تحسين أحواله، فقد صنعوا له زيا خاصا به ليميزوه عن الآخرين، كما كانت له أسلحته الخاصة كالبندقية والسيف وغيرهما، كما كان الجندي الإنكشاري منظم بحيث كان كل واحد يتقاضى أجره على حسب رتبه .

رابعا: مهام الجيش الإنكشاري:

تعددت مهام الجيش الإنكشاري في الجزائر خلال العهد العثماني بحيث مست الجانب الاقتصادي وحتى السياسي، وتتمثل هذه المهام فيما يلي :

1. جمع الضرائب :

شهدت الجزائر ضعفا في نشاطها الاقتصادي، ولذلك أولت أجهزتها اهتماما بجمع وتحصيل الضرائب بمختلف أنواعها : (الضريبة الدينية، الضريبة القانونية، أو المستحدثة)، إلا أن انتشار القبائل المستقلة في المناطق الجبلية والصحراوية جعل هذه الأخيرة تحاول الامتناع عن دفع الضرائب للحكام العثمانيين تعبيرا عن رفضها للوجود العثماني[39].

رأى الحكام العثمانيون في الجزائر أنه لابد من فرض الطاعة على هذه القبائل من خلال إلزامها على دفع اللزمة السنوية[40] ولا يأتي ذلك إلا بتجهيز محلة عسكرية من الجيش الإنكشاري، بمساعدة قبائل المخزن، وهكذا كلف العساكر الإنكشاريون بمهمة جمع الضرائب بقوة السلاح حيث كانوا يخوضون معارك مع القبائل العاصية أو المستقلة، وغالبا ما كانوا ينتصرون ولا يغادرون أراضي القبائل إلا بشروط يقبلها الأعيان، ومحور هذه الشروط الالتزام بدفع الضريبة سنويا[41].

وكان السبب في إرهاق السكان بالضرائب، وهو عجز السلطة عن توفير الأموال المخصصة لرواتب الجند وفقدانها لإتاوات نقدية، ولهذا الغرض شكلت قوات عسكرية

من الإنكشارية التي عرفت باسم فرقة المحلة التي كانت تجبر السكان على دفع الضرائب، وحسب احمد الشريف الزهار :"كان الخلفاء يأتون في أواخر الربيع فيخرجون معهم ليستخلصوا الخراج والزكاة والعشور، وهكذا وضع الأوائل الجباية على المنهج الشرعي"[(42)].

أما محلة الغرب فقد كانت تخرج في أفريل وتقيم أربعة شهور، ومحلة التيطري تخرج في الصيف وتقيم ثلاثة شهور، ومحلة الشرق تخدم في اليوم الموالي من الصيف وتقيم ستة شهور، وكانت تتشكل كل محلة من عدد معين من الخيام، وكانت تحصل هذه الأخيرة كل ما يلزمها من مؤونة وسلاح حتى يكون الجنود في مأمن من نقص الغذاء، وكانت هذه الحاميات تنطلق جميعا تحت قيادة الأغا والباي باتجاه القبائل[(43)]. ولجباية الضرائب، كانت كل محلة تنتقل من مكان لآخر متتبعة آثار القبائل غير أن هذه العملية لم تكن تتم بسهولة فكثيرا ما كان الجنود يلتجئون إلى القوة لإجبار القبائل على دفع ما عليها من الضرائب، ما أدى لاندلاع مواجهات بين الطرفين فيقوم الجنود بأخذ كل شيء من الحيوانات والمؤونة وتفرض على القبيلة المنهزمة عقوبات صارمة، وهذه الحملات تعتبر وسيلة عملية في تحصيل الضرائب من المناطق[(44)].

2. قمع حركات العصيان الداخلية :

أقامت السلطة المركزية في المدن والمناطق الإستراتيجية مراكز دائمة للمراقبة عرفت بالحامية أو النوبة، يتناوب الجنود على الإقامة فيها خلال فترة محدودة بسنة واحدة وقد اكتسبت أهمية كبرى وإستراتيجية داخل الإيالة، إذ ساعدها هذا العمل على تركيز وجودها في كامل أرجاء البلاد من أجل مراقبة السكان[(45)].

كانت الحكومة العثمانية ترسل حامية تحمي سكانها من كل هجوم، ولقد كثرت الحاميات في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر في أنحاء البايليكات لإخضاع المتمردين، وذلك بفضل سياسة التحالفات مع القبائل وامتلاكها للأسلحة النارية، ولم تكن بحاجة لإقامة الأبراج والحصون، لكن الأوضاع تغيرت نتيجة امتلاك السكان للأسلحة النارية، مما دفع الجنود الإنكشاريين إلى إقامة نقاط لمراقبة القبائل المتمردة والتحصين وراء الجدران والأبراج، ولكي تقوم الحامية بمهمتها في أحسن حال كانت الحكومة توفر لهم مؤونة متنوعة، وإلى جانب ذلك كان البايلك يوفر البارود والرصاص لهم، وهذا يكفي الجندي لمدة سنة[(46)]. وكانت المهمة الملقاة على عاتق جنود النوبة المنتشرة داخل المدن أو في المناطق المعزولة تنحصر فيما يلي:

– حماية وحراسة الطرق الرئيسية التي كانت تسلكها القوافل التجارية أو القوات الإنكشارية، وحتى البايات عند قدومهم إلى مدينة الجزائر، والحقيقة أن الدور الرئيسي لهذه التحصينات تمثل في :

– توفير الأمن والحماية لحركة الجيوش أثناء تنقلاتهم لصد هجومات القبائل المتمردة، فعملت على تقويتها وتدعيمها.

– فرض النظام والاستقرار في المدن التي تعلن تبعيتها للسلطة المركزية حيث ترسل إليها حاميات للدفاع عن سكانها وفرض الانضباط بينهم، وهكذا أصبحت تمثل حكومة الداي على المستوى المحلي .

– محاصرة القبائل المتمردة التي شكلت شبه مناطق مستقلة داخل مناطقها الجبلية حيث أصبحت تشكل خطرا على الوجود العثماني في الجزائر، مما دفع الإيالة أمام صعوبة التوغل إلى محاصرة هذه المناطق في مواقعها، ببناء مراكز مخصصة بمكانها لصد هجوماتها ومحاصرتها، لكن جنود هذه الأبراج انحصرت مهمتهم في الدفاع عن الحصن دون التورط في عمل عسكري خارج عنه.

3. قيادة قبائل المخزن:

ركزت الكتابات التاريخية على النشاط العسكري للفرق الإنكشارية النظامية والقبائل المخزنية المحاربة وغير النظامية، والملاحظ أن المحلة العثمانية أو الحامية العثمانية، كانت على الدوام مكلفة بقيادة الجيش المخزني بمختلف الغزوات التي خاضها، سواء لرد الاعتداءات أو لتحصيل الضرائب للقبائل العاصية،ومراتب وملابس الإنكشاري إلا دليل على نظاميته الذي يسمح له بقيادة الجيش الغير نظامي أي جيش المتطوعين[47] .

كان الجيش الإنكشاري منظم بحيث أنه كان يعتمد على خطط إستراتيجية في المعارك ضد العدو، ولكن تعددت مهامه حتى جعله يتدخل في شؤون الحكم والدولة، كجمع الضرائب ومعاقبة المتخلفين،وقيادة قبائل المخزن وغيرها، وبالتالي يمكن القول أنه بقدر أهمية الجيش وفائدته في الجزائر بقدر سلبياته التي أثرت على الحكم وحتى الأفراد الذين لم يتقبلوا تدخله في شؤونهم[48].

خامسا: علاقاته الاجتماعية:

يمكن تمييز نوعين من العلاقات الاجتماعية لأفراد الجيش الإنكشاري، علاقات تجمعهم فيما بينهم، وعلاقات بالسكان المحليين، والتي كانت ضئيلة جدا طيلة تواجدهم بالجزائر .

1. العلاقة بين أعضاء الفرقة :

كانت التركيبة الاجتماعية لأعضاء الفرقة من بلدان مختلفة، منهم المسيحيين الذين أسلموا يحملوا أسماء مختلفة، لكن أكثريتهم يعرفون باسم بلدهم الأصلي. وعندما يصل الإنكشاريون إلى الجزائر كانوا يعتبرون أنفسهم غرباء داخل البلاد لذلك كانوا متضامنين فيما بينهم ويدافعون على مبادئ فرقتهم، كما كانوا حريصين على احترام تقاليدهم واتسموا بروح التفاهم داخل القطاعات والثكنات، لكنهم اختلفوا في بعض الأحيان في حال وجود صراع من أجل السلطة(49).

تعتبر التركية لغة الوجق العامة، يستعملونها للتواصل فيما بينهم وهي عبارة عن مزيج من الكلمات العربية والفارسية والتركية، تكتب بالخط العربي وقد جلب توارد الموظفين إلى الأوجاق من الأناضول شكلا آخر من التركية أكثر بساطة. وكان الأعضاء القدامى للإنكشارية يحظون باحترام كبير من قبل جميع الأفراد، خاصة الآغا الذي له حق العدالة والتسيير، إذ أن العدالة التي كانت تشمل الإنكشاريين خاصة وسرية جدا فلا يمكن معاقبة الانكشاري أمام السكان كي لا يتعرض للإهانة. أما ما يخص داخل الثكنات فكان على الإنكشاريين احترام القانون العام للنظام العسكري، فكان إذا ما ارتكب أحدهم مخالفة يعاقب في بيت الآغا(50).

2. علاقة الانكشاريين بالسكان المحليين :

شكل الإنكشاريون في المجتمع طبقة أرستقراطية، أستثني منها السكان المحليون، حيث احتكروا جميع المناصب الإدارية لأنفسهم، فبمجرد وصولهم إلى الجزائر اعتبروا أنفسهم من الطبقة الحاكمة في المجتمع، ولذلك لم يقبل الإنكشاريون انضمام الجزائريين إلى فرقتهم، بل قاموا بإقصائهم كما تم إبعاد الكراغلة أيضا، لذا وجد الإنكشاريون في السنوات الأولى صعوبة في التكيف(51).كما عرف الانكشاريون بميلهم وتجنيدهم للخروج ضمن مواكب جباية الضرائب، لأنها تعتبر وسيلة للربح كما أنهم يقاتلون طوال الطريق

من سكان القرى التي يمرون بها، كما كانوا يقومون بسلب العائلات بالقوة . وعندما يخرجون إلى الشوارع يتباهون فكان السكان الجزائريين يحييون الجندي بكلمة أفندي' فكان إذا اشتكى السكان منهم يكون الحق معهم وعلى حسابهم، فاتصفوا بالتكبر والوقاحة، لكن هذا لم يمنع من وجود بعض العناصر التي اتصفت بالأخلاق الحسنة[52].

أما فيما يخص طائفة الرياس فكان سكان العاصمة يساندونها حيث اعتبروها مصدر عيشهم الأساسي، لما كانوا يعودون من غزواتهم التي نشطت التجارة، على عكس ما كان يفعله الإنكشاريون بإثقال كاهل السكان بالضرائب، فعاشوا في عزلة عن أهالي مدينة الجزائر لرغبتهم في المحافظة على امتيازاتهم، وميل غالبيتهم إلى التمسك بعاداتهم، لهذا فإن الانكشاريين لم يؤثروا في البنية الاجتماعية لسكان المدن، ولا في طريقة الحياة، رغم المدة التي قضوها في الجزائر، إذ أن تأثيرهم لم يتعدى سوى الأنظمة الإدارية[53].

مثلت الإنكشارية القوة الأساسية للعثمانيين في الجزائر، كما لعبت أدوارا بارزة على المستويين السياسي والعسكري، ما جعلهم يتميزون بعلاقتهم مع سكان الجزائر، وتميزت من الناحية الاجتماعية بمجموعة من الخصائص عن السكان المحليين، وكانوا عبارة عن أداة في يد الدولة العثمانية أثناء حروبها، فتمكنت بفضلها من توسيع رقعتها وحدودها

الخاتمة:

عرف الانكشاريون بكفايتهم القتالية ووفرتهم العددية،و هذا ما ميزهم عن باقي الفرق الأخرى، حيث كانت لهم ضرورة في الحرب .كما تميزت الإنكشارية في الجزائر عن باقي الإيالات بأنها لم تسمح لغير العثماني بالانخراط في صفوفها، فقد كان حكام الجزائر يرسلون دورية بعثات للتجنيد إلى الأناضول من أجل استقطاب العثمانيين في صفوف جنودها، واستمر هذا طيلة فترة الحكم العثماني بالجزائر، وخلالها قاوم العثمانيون انخراط غيرهم في صفوف الإنكشارية بل إنهم لم يسمحوا حتى للكراغلة بذلك .كما كان سلوكهم في بادئ الأمر يتسم بالطاعة والهدوء، استفادت منه الدولة في ساحات القتال، لكن بعد ذلك زاد تدخلهم في شؤون الدولة فلجئوا إلى حمل السلاح والتمرد والعصيان، وإشعال نار الفتنة والثورات.

الهوامش:

1. يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص 261.
2. صالح العقاد، المغرب العربي (الجزائر، تونس، المغرب الأقصى)، د.ن، القاهرة، 1962، ص 37.
3. صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830م)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص 311.
4. محمد مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964، ص 116 .
5. الجيش الإنكشاري : تعددت المفاهيم حول مصطلح الإنكشارية الذي كان يسمى في الجزائر بالإنجشارية، وتعني بني شيري أي الجيش الجديد، وهو جيش نظامي بري أنشأه السلطان العثماني "مراد الأول" أواخر القرن 14 م، وهناك من يقول على يد "أبي يزيد " 1389م. ينظر: ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ العثماني، ج4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت، ص85.
6. هلال عمار، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1962، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت، ص32.
7. ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي، المرجع السابق، ج4، ص85.
8. سونيا محمد السعيد البنا، فرقة الإنكشارية نشأتها ودورها في الدولة العثمانية، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2006، ص13.
9. وديع أبو زيدون، تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2003، ص 111.
10. Mouloud gaid , « l'Algérie sous les Turks » , Edition mimouni, Alger , 1991, p93.
11. حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب : محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت، ص 119.
12. عبد الحميد بن زيان بن أشنهو، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، د.ن، الجزائر، د.ت، ص 281.
13. صالح عباد، المرجع السابق، ص ص313 – 314.
14. أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر (1760-1791م)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 186.

15. علي خلاصي، الجيش الجزائري في العصر الحديث، دار الحضارة، الجزائر، 2007، ص 163.

16. هلال عمار، المرجع السابق، ص 27.

17. علي خلاصي، القلاع والحصون في الجزائر.المنشآت العسكرية الجزائرية في العصر الحديث، د.ن،د.م، 2008، ص41.

18. علي خلاصي، القلاع والحصون، ص ص 40 -41.

19. صالح عباد، المرجع السابق، ص317.

20. علي خلاصي، القلاع والحصون، ص43.

21. Mahfoud kaddache, « l'Algérie durant la période ottomane » , office des publications universitaires, Alger , 2003 , p23.

22. كانت الدولة العثمانية لا تسلم للجندي الإنكشاري السلاح، إن لم يكن عنده بل تقدمه على وجه السلف سيفا وبندقية، وكان يشتري البارود بنقوده . ينظر: Mahfoud kaddache , op.cit, p23.

23. درياسة لخضر، المدفعية الجزائرية في العهد العثماني، ط1، دار الحضارة للطباعة والنشر، الجزائر، 2007، ص 64.

24. علي خلاصي، الجيش الجزائري، ص151.

25. مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق : نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية، الجزائر، د.ت، ص 64.

26. أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492-1792م)، ط1، دار البصائر، د.م، 2007، ص 99.

27. درياسة لخضر، المرجع السابق، ص 64.

28. أحمد باي، مذكرات أحمد باي، ترجمة وتحقيق : محمد العربي الزبيري، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 15.

29. علي خلاصي، الجيش الجزائري...، المرجع السابق، ص 59.

30. الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق : يحي بوعزيز، ج1، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 270.

31. كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب : بنيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط1، د.ن، بيروت، 1988، ص 475.

32. مصطفى بركات، الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية من خلال الوثائق والمخطوطات، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2000، ص 224.

33. أمين محرز، الجزائر في عهد الآغوات، دار البصائر، الجزائر، 2011، ص 3.

34. وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص55 .

35. كارل بروكلمان، المصدر السابق، ص 465.

36. مصطفى بركات، المرجع السابق، ص 173.

37. إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط2، مكتب العبيكات، دون مكان نشر، 1998، ص91.

38. وليام سبنسر، المرجع السابق، ص 75 .

39. عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة : محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1989، ص 133.

40. هي ضريبة سنوية كانت تدفع من طرف الناس خاصة على المحاصيل الفلاحية . ينظر: المرجع نفسه، ص 133.

41. أحمد عبد الرحيم مصطفى، أصول التاريخ العثماني، ط2، دار الشروق، دون مكان نشر، 1993، ص 113.

42. أحمد الشريف الزهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار – نقيب أشراف الجزائر 1574-1830 م، تحقيق : أحمد توفيق المدني، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص23.

43. وديع أبو زيدون، المرجع السابق، ص 112.

44. عزيز سامح التر، المرجع السابق، ص133.

45. أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 310.

46. علي خلاصي، الجيش الجزائري...، المرجع السابق، ص 236.

47. بوحوش عمار، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، د.ن، الجزائر، 2008، ص 65.

48. علي خلاصي، الجيش الجزائري...، المرجع السابق، ص 237.

49. Mouloud gaid , op.cit, p102.

50. شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية من الفتح الإسلامي إلى 1830، تعريب : محمد مزالي، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1978،ص ص 4-5.

51. Henri-Delmas de grammont, Histoire d’Alger sous la domination turque, édition bouchène, 2002, p 59.

52. Laugier de tassy, Histoire du royaume d’Alger, S.E, S.D, p209.

53. Ibid , P209.

واقع التعليم في الجزائر أواخر العهد العثماني

د حميد ايت حبـــوش
أحمد بن بلة/ وهران

مقدمة

تجمع معظم المصادر المحلية أن التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني منتشر انتشارا واسعا حتى غطى كل المناطق بما في ذلك القرى والمداشر، رغم أن السلطة العثمانية ركّزت فقط على المحافظة على الاستقرار السياسي والدفاع عن الحدود وجمع الضرائب لبيت المال ولم تتدخل في شؤون التعليم باستثناء بعض البايات مثل: محمد الكبير وصالح باي.

و موضوع التعليم في الجزائر لم يحظى بنفس القسط من التعمق والبحث التاريخي الذي حظيت به الأوضاع العسكرية والسياسية خلال العهد العثماني، باستثناء بعض الإشارات والتلميحات التي أفردها مؤرخو هذه الفترة في مؤلفاتهم، من بينهم الأستاذ أبو القاسم سعدالله في مؤلفه بعنوان : " تاريخ الجزائر الثقافي"، وحتى هذه الإشارات لا تعطي لنا النظرة الشاملة والعامة حول واقع التعليم في الجزائر من خلال مدى انتشاره في كل ربوع الوطن، مؤسساته، وسائله ومستواه الذي كان يختلف من جهة إلى أخرى، فكانت تتحكم فيه الأوضاع العامة للبلاد، فالتعليم بصفة عامة كان مزدهرا نسبيا قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830، وأن الميل إلى العلم والمعرفة كان متأصلا في نفوس الجزائريين . ولهذا فهذا الموضوع يستحق الدراسة باعتباره حلقة ضائعة لاستكمال النظرة الشاملة للفترة العثمانية بالجزائر خاصة في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي.

اولا: مؤسسات التعليم:

1-الأوقاف[1]:

يستعمل الوقف في أغراض كثيرة، منها العناية بالعلم والعلماء والطلبة، والفقراء والعجزة واليتامى وأبناء السبيل، وكذلك العناية بنشر وتدريس المذهب الحنفي العثماني. والوقف بالنسبة للدولة هو بمثابة وزارة الثقافة والتعليم والدين والشؤون الاجتماعية مجتمعة اليوم رغم أنه لم يكن هناك وزارة بهذا العنوان ولا بهذا المحتوى الشامل[2]. ومن أشهر مؤسسات الوقف الجماعية:

-إدارة سبل الخيرات الحنفية: لقد ساهمت بإنشاء المدارس ودفع مرتبات لحوالي ثمانية وثمانين طالبا[3].

-إدارة أوقاف مكة والمدينة[4]: هذه المؤسسة لها أهمية اجتماعية وتعليمية واقتصادية وحتى السياسية.

كما ساهمت الأوقاف الأخرى التي هي منتشرة بكثرة في كافة المناطق الجزائرية، في بناء المدارس وتشجيع التعليم.

إذا كانت مؤسسة الوقف في الجزائر خلال العهد العثماني قامت بنشر التعليم الديني ورعاية المجتمع، غير أن هناك عوامل أخرى تدخلت فجعلت الأوقاف غير فعالة في خدمة التعليم والنهوض بالمجتمع، كما ساعدت على نشر الغموض والتصوف والشعوذة ومظاهر التخلف الاجتماعي[5].

2-المساجد:

إن العناية بالمساجد ظاهرة بارزة في المجتمع الجزائري المسلم فلا تكاد تجد قرية أو حيا في المدينة بدون مسجد. فالمسجد في العهد العثماني كان ملتقى العباد ومجمع الأعيان ومنشط الحياة العلمية والاجتماعية[6]. وحسب ديفوكس الذي بحث موضوع المؤسسات الدينية في مدينة الجزائر أن عددها عشية الاحتلال وصل إلى مائة وست وسبعون مؤسسة[7]. وفي معظم المساجد أو الجوامع توجد المكتبات الموقوفة على القراء والطلبة والأساتذة، تحتوي على كتب في العلوم المختلفة من أدب وطب وفقه وتاريخ ورياضيات وغيرها[8].

و لقد خصص محمد بن عثمان والد محمد الكبير لجامع العين البيضاء الذي بناه بمعسكر وقفية تضمنت مايلي: أربعة (4) سلطانية ذهبا للطلبة الذين يحضرون درس صحيح البخاري في كل سنة، أربعون (40) ريالا لمدرّس صحيح البخاري، ستون (60) ريالا لكل مدرّس في الفقه وغيره[9].

ولقد اشترك في تأسيس هذه المساجد التي لا تعد ولا تحصى الأهالي والعثمانيون على السواء، وكان اهتمامهم ببناء المساجد لدوافع دينية محضة كما جعلوها لخدمة المذهب الحنفي، بل أن وظيفة المدرس عندهم كانت لا تخرج عن ذلك أيضا[10].

3- الزوايا:

إن أبرز ميزة عرفها العهد العثماني في الجزائر، انتشار الطرق الصوفية وكثرة الزوايا المتخصصة لها. ففي مدينة الجزائر نجد عدد كبير من الزوايا، أهمها زاوية عبد الرحمن الثعالبي وزاوية عبد القادر الجيلالي[11].

و في مدينة قسنطينة بلغ عددها ستة عشرة زاوية، أهمها زاوية سيدي عبد المؤمن، سيدي الكتاني وغيرها. كما اشتهرت أيضا تلمسان وضواحيها بزواياها نذكر منها زاوية سيدي الطيب، زاوية بومدين[12]، وأشهرها زاوية عين الحوت.

بينما منطقة القبائل تعتبر من أغنى مناطق الجزائر بالزوايا، وصل عددها خمسين زاوية، أهمها زاوية تيزي راشد المشهورة يقصدها التلاميذ من النواحي المجاورة والبعيدة، وممن تخرجوا منها محمد الفريرا الذي تولى ولاية التيطري، وأيضا زاوية الشيخ محمد التواتي ببجاية أخرجت أجيالا من المعلمين وكانت تضم أكثر من مائتي طالب[13].

و كانت للزوايا الريفية دور إيجابي في نشر التعليم، غير أن معظم زوايا المدن كانت معطلة عن التعليم لوجود الكتاتيب من جهة والمساجد والمدارس المتخصصة من جهة أخرى[14].

4- المدارس والمعاهد العليا:

كثرت في الجزائر المدارس الابتدائية في المدن وحتى في القرى وهذا ما جعل جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني يبهرون من كثرة المدارس بها وانتشار التعليم وندرة الأمية بين السكان[15]. وخير شاهد على هذا الانتشار كتابات الأوروبيين أنفسهم

التي أثبتت أنه غداة الاحتلال كان عدد المتعلمين في الجزائر يفوق عدد المتعلمين في فرنسا، ففي عام 1836 كتب بيليسي Pellissier de Rexnard[16] يقول: "إن التعليم الأولي منتشر بينهم بقدر انتشاره عندنا. ففي معظم القرى والبلديات مدارس للقراءة والكتابة، ووصل عدد التلاميذ إلى ثلاثة آلاف تلميذ في كل مقاطعة، من بينهم 800 تلميذ يصلون إلى دراسة علوم الحقوق (الفقه) والشريعة ويحصلون على لقب علماء[17] وكانت تلمسان مشهورة بوفرة المدارس والعلماء، فالفرنسيين قد وجدوا فيها بعد احتلالها خمسين مدرسة ابتدائية ومدرستين للتعليم الثانوي والعالي.

أما في قسنطينة كان عدد المدارس الابتدائية عند دخول الفرنسيين حوالي تسعين مدرسة، أما التعليم الثانوي والعالي هناك سبع مدارس[18].

و في العاصمة، حسب فانتور ديبارادي، هناك ثلاث جامعات لتعليم المذهب المالكي وهي مدارس عليا[19]. بينما المدارس الابتدائية والثانوية عددها مائة، إضافة إلى وجود كتاتيب التي خصصت عادة لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادئ القراءة والكتابة للأطفال[20].

أما في المدرسة الابتدائية فالتلميذ يتعلم مبادئ العلوم ويتلقى رصيدا من المعارف التي تساعده على شق طريقه في المجتمع بعد خروجه منها عندما يبلغ عادة الرابع عشرة سنة[21]. ومن أشهر المدارس في العاصمة، المدرسة القشاشية، التي ساهمت مساهمة كبيرة في نشر التعليم الابتدائي والثانوي وحتى العالي، وبعد احتلال فرنسا للجزائر حولوها إلى مخازن الجيش سنة 1831 وأيضا مدرسة الأندلسيين، فالتعليم فيها كان على مستوى راق لأن الأندلسيين يتقنون فن التدريس وحسن التربية ومراعاة التطور العقلي للتلميذ[22].

و يعتبر الجامع الكبير بالجزائر العاصمة ومدرسته العليا نواة جامعة الجزائر، ففي الجامع كانت الدروس كثيرة يقوم بها أبرز العلماء، أشهرهم سعيد قدورة وعلي الأنصاري وأحمد بن عمار وغيرهم، وقد كلف هذا الجامع خمسة عشرة ألف دينار جزائري بعملة ذلك الوقت[23].

و كانت قسنطينة من أكثر المدن اهتمام بالمؤسسات العلمية وذلك لاستقرارها السياسي نسبيا ولقربها من تونس ومن أشهر مدارسها، المدرسة الكتانية التي أنشأها صالح باي التي خصص لها أوقافا كبيرة، فقد كان المدرس بها يأخذ ثلاثين ريالا والطالب الداخلي يأخذ ستة ريالات، وهذه المدرسة العليا تنشر تعليما في مستوى الثانوي والعالي وهناك

من يقارنها بمدارس فرنسا العليا المعاصرة لها، ولعبت دورا كبيرا في الحياة الثقافية في الجزائر حتى في العهد الفرنسي، وهي ما تزال فاتحة إلى اليوم تؤدي نفس المهمة مع اختلاف الظروف(24).

أما مدرسة مازونة فقد كانت على درجة كبيرة من الأهمية في الجهة الغربية من البلاد وهي من أقدم المدارس التي أسست في العهد العثماني وقد اشتهرت بالخصوص في علم الفقه والحديث وعلم الكلام واستمرت المدرسة حتى بعد انتقال العاصمة الإقليمية من مازونة إلى معسكر ثم إلى وهران، وكانت مقصد طلاب النواحي الغربية، لاسيما ندرومة، مستغانم، تلمسان، سيدي بلعباس، تنس ووهران ومن أبرز خريجيها، أبوراس الناصري(25) الذي تحدث عن شيوخه فيها في رحلته (فتح الإله)(26)

1- وسائل التعليم:

لا يمكن أن يقوم التعليم إلا إذا توفرت لديه الشروط والوسائل الضرورية كالعناصر المادية والبشرية.

- المعلمون:

كانت حركة المعلمين داخل الجزائر جد نشيطة ومستمرة، ذلك أن تكوين المعلمين لم يكن له مدرسة أو مدينة معينة، فقد كانت شهرة المعلم أو المدرس هي التي تحدد مكانه وكان الطلاب يقصدون المدرس المشتهر أينما حل وأينما وجد ولو كان ذلك بعيدا(27).

و كان أولياء التلاميذ هم الذين يختارون مؤدب أطفالهم، وكان من حقهم ومن صلاحياتهم إعفاء المؤدب من وظيفته، إذا اشتبه فيه علميا وأخلاقيا خاصة، واختيار غيره لأنهم هم الذين عينوه ونصبوه للمهمة التربوية والعلمية فالمؤدب يخضع لرقابة أولياء التلاميذ والرأي العام وليس لرقابة الحكومة(28). وكان التعليم عند بعض رجال التصوف وخصوصا في الريف نوعا من العبادة والجهاد(29).

أما أجور هؤلاء المعلمين، فكانوا يتلقونها في شكل هدايا وصدقات كالحلوى والملابس في مناسبات معينة ودينية كشهر رمضان، العيدين وعاشوراء(30). وكانت مصدر هذه الهدايا والأجور هي الأوقاف، بينما الباي محمد الكبير خصص رواتب شهرية للأساتذة بقطع النظر عن الأوقاف، من ميزانية الولاية(31).

كما يتولى بعض المدرسين الأساتذة وظائف أخرى كوكالة الوقف والإمامة والخطابة والقضاء ونحوها، وكانوا يجنون من ذلك أموالا هامة، تتراوح رواتبهم السنوية من الأوقاف بين مائة ومائتي فرنك[32].

2-التلاميذ:

تتراوح أعمار التلاميذ المترددين على الكتاتيب والمدارس الابتدائية بين السادسة والرابعة عشرة، وفي هذا السن الأخير يكون التلميذ تعلم القراءة والكتابة وقواعد الدين والحساب، وقد يصبح مساعدا للمؤدب في تعليم الأطفال الأصغر منه سنا[33].

و كان عدد التلاميذ في كل مدرسة يتراوح بين العشرين والثلاثين، ففي تلمسان هناك خمسين مدرسة تحتوي على نحو ألفي تلميذ[34]. بينما في قسنطينة هناك تسعين مدرسة ابتدائية يزاولها حوالي 1350 تلميذ[35]. ونفس العدد تقريبا موجود في الجزائر العاصمة. وبهذا نستنتج أن كل الأطفال في سن الدراسة كانوا يجدون مقاعدهم في هذه المدارس.

أما البنات حسب شالر الذي عاش في الجزائر يتعلمن في مدارس تشرف على إدارتها نساء[36]. ويشمل تعليم البنات على العموم القراءة والكتابة والقرآن الكريم وقواعد الدين والسلوك.

أما في التعليم الثانوي، وصل عدد الطلبة إلى ما بين ألفين وثلاثة آلاف طالب في كل إقليم من الأقاليم الثلاثة، أي بين ستة وتسعة آلاف طالب في القطر كله[37].

و في التعليم العالي، يتراوح عدد الطلبة بين ستمائة وثمانمائة طالب في كل إقليم، أي بين ألف وثمانمائة وألفين وأربعمائة طالب في كل قطر[38].

3-الكتب والمكتبات:

لا يكون التعليم نشيطا ومتطورا إلا إذا توفرت مجموعة كبيرة من الكتب والمكتبات. فقد كانت في الجزائر في العهد العثماني كتبا عديدة تحتوي على أغلب الاختصاصات وخاصة الدينية، وكانت على شكل مخطوطات قديمة ونادرة اهتم أصحابها بجمعها من مناطق مختلفة خاصة في المشرق العربي والأندلس أثناء رحلاتهم وتنقلاتهم وزياراتهم العلمية وكذلك أثناء حجهم[39].

ويعترف الفرنسيون أنفسهم بوفرة الكتب والمكتبات في الجزائر، فراحوا يجمعون هذه الكتب والمخطوطات من مكتبات المدن الجزائرية التي وقعت في أيدي الاحتلال، وحتى البعيدة منها فقد وصلها الفرنسيون لاقتناء كتبها مقابل أثمان زهيدة أو بعض الهدايا أو نهبها[40].

و إذا كانت بعض الكتب تستورد من الخارج، فقد كانت تنتج كذلك محليا أي في الجزائر عن طريق التأليف والنسخ، واشتهرت عدة مدن في الجزائر باهتمامها بجمع الكتب وتصنيفها وإنشاء مكتبات وهذه المدن هي تلمسان، قسنطينة، بجاية، مازونة، الجزائر العاصمة، معسكر كما كانت بعض المدن ذات مكتبات تضم مجموعة من الكتب العلمية والآلات الجهادية كمدينة وهران أي أنها كانت تضم مكتبة ومتحفا في الوقت نفسه[41]. وكثرة الكتب والمكتبات دليل على اهتمام وعناية الجزائريين لها لاقتنائها والاستفادة منها. فقد ذكر أحد الكتاب الفرنسيين، لالوي أن المخططات التي جمعها بيربروجر من قسنطينة كانت جميلة في الشكل والتجليد وأنها كانت واردة من مصر وتركيا[42].

وكانت المكتبات تنقسم في الجزائر إلى عامة وخاصة[43]، وكانت هذه المكتبات مفتوحة للطلبة ولجمع الناس بشتى شرائحهم الاجتماعية بالطريقة نفسها التي تتم بها الأوقاف فكان يوقف الكتاب في سبيل الله على الطلبة وجميع القراء المسلمين[44].أما محتويات هذه الكتب تشمل كتب التفاسير والقراءات والأحاديث النبوية وشروحها وكتب الفقه والأصول والتوحيد والمصاحف، وغيرها، كما تشمل كذلك على الكتب العقلية واللغوية كالنحو، الأدب، الفلسفة، التاريخ والجغرافيا والمنطق وغيرها، إلا أن الكتب العلمية كانت قليلة مثل الحساب والطب والفلك... ولا غرابة من ذلك لأن طبيعة العهد العثماني كانت فيه السيادة والأولوية للعلوم الدينية[45].

2- مناهج التعليم:

- **في الابتدائي:**

كان التعليم في المرحلة الابتدائية يقتصر على تعليم القراءة والكتابة وإتقانها تمهيدا لحفظ القرآن الكريم ثم تعليم المبادئ الأساسية والأولوية للحساب. وكانت طريقة التدريس بسيطة ببساطة التعليم نفسه، فالمؤدب كان يجلس في صدر الكتاب متربعا على حصير مسندا ظهره إلى الجدار وبيده عصا طويلة يستعين بها لحفظ النظام ولإثارة انتباه الطلبة[46].

و عند الإملاء يملي المؤدب بصوت عال على التلاميذ. وكان هؤلاء التلاميذ يتحلقون حول المؤدب في نصف دائرة وبيد كل واحد لوحة من خشب يمكن الكتابة عليها ومحو ما كتب بسهولة، وعلى كل لوحة تكتب بوضوح سورة من القرآن الكريم، ثم يقوم بقية التلاميذ بنقلها بعناية كل على لوحته بالتوالي، والتلميذ الذي يتعلم معنى الكلمة وطريقة كتابتها يقوم بتعليم ذلك للتلاميذ الآخرين(47).

و كانت طرق التعليم جيدة ومناسبة، مع بساطة التعليم ومادته الثقافية، تراعي تطور قدرات التلميذ على القراءة والكتابة لأنها تجعله يتعلم الطريقتين في آن واحد، ويعترف شالر نفسه بجدية هذه الطريقة نظرا لوجود الوحدة فيها وجمال خطها العربي(48).

و لقد أشاد عدد كبير من المؤلفين بالطريقة البيداغوجية الجيدة التي كانت متعبة في هذا المستوى من التعليم، وكانت العلاقة جيدة بين التلميذ والمعلم، وهي تقوم على مبدأ الاحترام الكبير، حتى من طرف المجتمع كله، وتظل هذه العلاقة محفوظة حتى عندما يصبح التلميذ رجلا مسئولا فهو دائما ينظر إلى مؤدبه نظرة احترام، فهو بمثابة والده الروحي(49).

- **في الثانوي:**

لقد كان التعليم الثانوي والعالي مجانا، بل يحصل كل طالب على منحة مالية إلى جانب السكن والأكل إن كان بعيدا، ويتم التعليم في المساجد الكبرى وبعض الزوايا من بينها:

- -في الغرب: الجامع الكبير بتلمسان، جامع سيدي العربي.
- -في الجزائر العاصمة: زاوية القليعة، زاوية مليانة، زاوية بن محي الدين وزاوية بني سليمان والجامع الأعظم.
- -في الشرق: جامع سيدي الأخضر بقسنطينة، زاوية سيدي عقبة ببسكرة، زاوية ابن علي الشريف في القبائل وبعض المساجد بوادي مزاب بالصحراء(50).

والمدرس حر في وضع البرنامج الدراسي وفي تحديد أوقات التدريس في الغالب، فبعضهم كان يعد دروسه في الصيف ويلقيها في الشتاء، وكانت ميزة الدروس في التعليم الثانوي والعالي هي الشرح والإملاء أما ميزة المدرس أو الأستاذ فهي الحفظ والرواية، فالمدرس الكفء هو الحافظ لعدة علوم مع أسانيدها، وليس المراد حفظ المتون ونحوها بل حفظ بعض الكتب كاملة(51).

فقد كانت الإجازة (الشهادة) المكتوبة في البداية محددة ومقننة فلا يتحصل عليها أي طالب، ولكن بمرور الوقت وضعف التعليم والتعلم وتدهور الحياة العقلية بصفة عامة أصبح منح الإجازات سهلا وشائعا[52].

وكما كان مستوى التعليم بين الأساتذة والطلبة في الحواضر أحسن من البوادي، بحكم وفرة الكتب وحركة العلماء، وكثرة الاختلاط والتنافس على الوظائف. فأبوراس الناصري قد عاد من الريف إلى معسكر لأن التعليم فيها كان أقوى منه في الريف الذي لم يجد فيه ضالته، بل كاد يقتل فيه موهبته. ولا شك أن مستوى التعليم في الحاضرة لم يكن في درجة عالية أيضا، ولكن الأمور تقاس بنسبتها إلى غيرها[53].

أما المواد المدروسة في البرنامج الثانوية والعالمية كانت مقتصرة على العلوم الدينية واللغوية والتاريخ بينما العلوم الأخرى لم تكن متطورة وهي محدودة مثل الحساب، الوثائق، علم الفلك، الطب والصيدلية. ولعل عدم توسع الجزائريين في هذه العلوم هو ما جعل بعض الملاحظين الأجانب يهاجمون بشدة التعليم الجزائري في العهد العثماني ولا شك أن هجومهم فيه كثير من الحقيقة[54].

مشاهير وأكبر العلماء، الأدباء والمدرسين:

الجزائريين في العهد العثماني:	
في فترة الدايات	
المشاهير	**الفترة الزمنية بالهجرية**
محمد بن أحمد ساسي البوني	1116 هـ
أحمد بن عثمان التلمساني	1151 هـ
محمد بن حواء المستغانمي	1179 هـ
علي بن محمد الجزائري	1185 هـ
محمد أمزيان الملياني	1199 هـ
عبد الرحمن باش تارزي	1222 هـ
محمد بن علي الطلحي	1232 هـ
أبو منصور عمار الشريف	1241 هـ
محمد الصالح بن سليماني الزواوي	1242 هـ
عمار بن شريط القسنطيني	1250 هـ

أحمد الطيب بن محمد الصالح الزواوي	1251 هـ
أبو طالب الغريسي	1257 هـ
أحمد بن عمار الجزائري	1270 هـ
أبو عزة التلمساني	1277 هـ

الخاتمة:

إن انتشار حركة التعليم وازدهارها في الجزائر أواخر العهد العثماني، معترف به حتى من طرف الفرنسيين أثناء الاحتلال، إلا أنه يبقى تعليما دينيا بسيطا وأوليا، يعتمد فقط على القراءة والكتابة ولا يخرج في مجمله عن تعليم القرآن الكريم وحفظه، فهو لا يقدم كثيرا لأمة ولا يحرك آمال الشباب ولا يثير فضولهم على عوالم جديدة وأفكار حرة. كما أن لم يكن للعثمانيين في الجزائر سياسة تعليمية ولا خطة أو برنامج رسمي لتشجيع التعليم وتطويره أو العناية بأهله، وإنما كان تعليما خاصا يخضع للمبادرات الفردية والعائلية والمؤسسات الإسلامية الخيرية ومن ذوي البر والإحسان وكانت تغذيه الأوقاف التي تعتبر مصدر تمويله الأول. والهدف العام من التعليم هو ديني وليس دنيوي ما دام العلم لا يؤهل لأعمال اجتماعية وسياسية واقتصادية بارزة.

الهوامش:

1. هي مؤسسات خيرية تهدف إلى تحسين أوضاع الفقراء والتخفيف من مصائبهم، تسير حسب المذهب المالكي والمذهب الحنفي، أكثر تفاصيل أنظر إلى حمدان خوجة، المرآة ص 293/269.
2. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16، 20م)، ج1، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب 1985 ص 231.
3. نفسه ص 235.
4. يعود تأسيسها إلى ما قبل العهد العثماني، وهي أكثر ثروة تملك 840 منزل، 258 دكانا، 33 مخزنا، 57 بستانا... تمثل تقريبا ثلاثة أرباع الأوقاف العامة وتدير بعض الأوقاف المحلية سواء كانت مالكية أو حنفية، أكثر تفاصيل أنظر أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع.

5. أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع السابق، ص 242.

6. المرجع نفسه ص 243.

7. Davoux fils, les edifices religieux de l'ancienne Alger,in R.A ,T 6, 1862, P 372

8. Brosse lard, les inscriptions arobes de Tlemcen, in. R.A, T5, 1861, P323.

9. أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع السابق، ص 256.

10. المرجع نفسه، ص 261.

11. المرجع نفسه ص 263.

12. المرجع نفسه ص 263، 264

13. Féraud, L, Note sur Bougie, Lége,des, Tradition, Domination, Turque, in R.A, T3, 1859, P302

14. أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 267، 268.

15. المرجع نفسه ص 274.

16. كان حاكما عاما للجزائر من نوفمبر 1860 إلى ماي 1864.

17. .Rinn (L), note sur l'instruction Publique Musulmane en Algérie, Alger 1882, P10

18. أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق ص 276.

19. Venture de Paradis, Alger au 18 eme siècle 2eme édition, édition Bouslama, Tunis, P 158 .

20. أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق ص 277.

21. المرجع نفسه ص 279.

22. المرجع نفسه ص 282.

23. المرجع نفسه ص 284.

24. المرجع نفسه، ص 285.

25. أبوراس الناصر (فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته) مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم 2263، 2332.

26. أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق ص 286.

27. نفسه ص 323.

28. عبد القادر حلوش، السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر 1871-1914، رسالة لنيل الماجستير، دمشق *1985* ص *8*.

29. أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق ص 329.

30. E, Foumestraux : L'instructuon puplique en Algérie de 1830-1880, P 31-

31. أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص 331.

32. المرجع نفسه ص 333.

33. عبد القادر حلوش، المرجع نفسه، ص 9.

34. أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص 336.

35. محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري 1792-1830 الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 49.

36. شالر وليام، مذكرات وليام شالر (قنصل أمريكا في الجزائر)، 1816-1824، تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي 1982، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ص 82.

37. أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 339.

38. المرجع نفسه، ص 340.

39. عبد القادر حلوش، المرجع السابق، ص 11.

40. المرجع نفسه ص 12.

41. أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 286.

42. Francie Laloe, les manuscrits Arabes de Constantine in R.A N°66, 1925, P109-

43. المقصود بالمكتبات العامة هي تلك التي كانت ملحقة بالمدارس والمساجد والزوايا أما الخاصة فهي التي كان يملكها الأفراد والعائلات.

44. عبد القادر حلوش، المرجع السابق ص 13.

45. أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق ص 299-300.

46. وليام شالر، المرجع السابق، ص 57.

47. المرجع نفسه، ص 58.

48. المرجع نفسه ص 59.

49. أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 346.

50. عبد القادر حلوش، المرجع السابق ص 7.

51. أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 349-351.

52. المرجع نفسه، ص 353.

53. المرجع نفسه،ص 354.

54. المرجع نفسه ص 356-360.

واقع الحياة الثقافية والفكرية
أواخر العهد العثماني في بايلك الغرب

د.حمدادو بن عمر
جامعة أحمد بن بلة / وهران

تمهيد:

لقد كانت الحياة الثقافية ببايلك الغرب – قبل ان يتولى الباي محمد الكبير الحكم متدهورة للغاية [1]، وتتسم بالجمود والتحجر[2]. وكان التعليم ينقصه وسائل التشجيع والتنشيط المعنوي والمادي، وقد وجد ذلك في عهد الباي محمد الكبير، وكانت المدن الرئيسية اليومية التي تشتهر بالعلم تكاد تكون خالية من مؤسسات التعليم وأدواته[3]،كما كان انتشار الأمية بشكل مريع لمدينة معسكر التي كانت تعد عاصمة بايلك الغرب يومئذ[4]. ولم يكن مجال العلم مفتوحا أمام عامة الناس، بل كان يقتصر فقط على بعض الخاصة، لأنه يتطلب نفقات باهضة ليست في استطاعة كل واحد يرغب في التعلم أو الدراسة، بل كانت قلة هي التي تحتكر هذا الجانب الثقافي، وتتميز به دون غيرها[5].

ويتجلى هذا الجمود الفكري والركود الثقافي في قول أبي راس الناصر: "...إذ في زمن عطلت فيه مشاهد العلم ومعاهده، وسدت مصادره وموارده، وخلت دياره ومواسمه، وعفت اطلاله ومعالمه، لا سيما فن التاريخ والأدب، وأخبار الأوائل والنسب، قد طرحت في زوايا الهجران ونسجت عليها عناكب النسيان، واشرفت شمسها على الأفول، واستوطن فحولها زوايا الخمول، يتلهفون عن أنداس العلم والفضايل، ويتأسفون من أنكاس أحوال الأذكياء والأفاضل، إلى الله المشتكى من الدهر، إذا أساء صبر على إساءته"[6].

على أية حال، فإن بايلك الغرب الجزائري كان يعاني من ركود ثقافي وتحجر معرفي، مثله مثل الجهات الأخرى من الوطن، خاصة طوال القرنين الاول والثاني من الحكم

العثماني للبلاد، ذلك أنه قبل مجيء العثمانيين كانت معظم المدن الجزائرية خاصة تلمسان -عاصمة الزيانيين- مجالا خصبا للمجابهات الثقافية والتيارات الفكرية، كما كانت تزخر بكثرة مؤسساتها الدينية والتعليمية التي أصبحت إشعاعا معرفيا ينير جميع أرجاء القطر الجزائري وخارجه، خاصة في القرن التاسع الهجري[(7)].

وقد كان بعث الحركة الثقافية على يد الباي محمد الكبير الذي كان له ايادي بيضاء في تشجيع الثقافة والنهوض بها على أكمل وجه، فشجع العلماء بمساعدات وأجازهم بأموال، وقد نال أبو راس نفسه من هذا العطاء[(8)].

أولا: مظاهر ازدهار الحركة الفكرية والثقافية ببايلك الغرب:

يمكن إبراز المستوى الفكري والأدبي والعلمي لهذه الفترة بالوقوف على أهم مظاهر هذه المساهمة العلمية لمتصوفة بايلك الغرب خلال القرن17و18م، وتتجلى هذه المظاهر فيما يلي:

أ- النشاط التعليمي:

أهم ما يستوقفنا ونحن نطّلع على المصادر المشار إليها في هذا البحث، ذلك الإقبال المتزايد على الطلب والتحصيل، والتسابق إلى الأخذ عن العلماء، وحضور مجالسهم في الفنون العلمية المختلفة، بالمراكز الثقافية المنتشرة في البوادي والحواضر.

ويذكر ابن سحنون الراشدي أن له ببلاد بني راشد مطالعة العديد من أمهات الكتب الأساسية التي تخدم الثقافة العربية الإسلامية، كما يذكر أن بها – بني راشد- عددا من خيرة الشيوخ العلماء الذين كان تحصيله العلمي على يديهم وفي مسقط رأسه[(9)]. ويلتقي أبو راس الناصر في شهادته مع ابن سحنون الراشدي في أنّ المناطق البدوية كانت تعرف نشاطا علميا وتعليميا، تعج بالعلماء والفقهاء كذلك، ففي مازونة يوجد عدد من العلماء المتضلعين في علم الفقه، يؤخذ عنهم[(10)].

أمّا الحواضر العلمية فكانت تعرف حركة علمية ممتازة، يندر وجودها في مثل البيئة التي وصفنها آنفا، وإذا كانت هذه الحواضر العلمية جميعها في مختلف بايلك الغرب، قد أسهمت في هذه الحركة، فإنّ حاضرة بني راشد تظلّ المركز والقطب في هذا المجال، لتأتي

بعدها حاضرة مازونة بتعدد مجالسها، وكثرة الطلاب بها، ومن أهم العلوم التي كانت تدرس بهذه المدارس الفقه والتفسير، والحديث، والنحو، الفرائض، والسيرة والتوحيد، والمنطق والشعر،...

وقد تعرض ابن سحنون إلى أهم ما يميز العملية التعليمية على عهد الباي محمد بن عثمان من النهم العلمي والإقبال المتزايد على حضور المجالس العلمية المختلفة والحرص على التدوين والكتابة والنسخ، فقال:"وكم من تأليف نشأ بأمره ونال مؤلفه به وافر بره"، ثمّ كتب:"كان يشتري كتبه بالثمن البالغ ويستكثر منها ويستنسخ ما لم تسمح نفس مالكه ببيعه"[11].

فهذا الوصف وحده كفيل بإعطاء صورة جلية عن واقع الحركة العلمية والفكرية ببايلك الغرب، وهذا حافز آخر يجعل الكثير من الباحثين والمهتمين بالانكباب على دراسة تراثنا الذي لا يزال يحتاج إلى الكشف عن ذخائره ونفائسه دراسة وتحقيقا وتصنيفا وترتيبا. ثم إن تشجيع السلطة العثمانية على بعث الحركة العلمية والفكرية، زاد من عزيمة العلماء المتصوفة الذين وجدوا بعض بايات السلطة العثمانية ملاذ لاستمرارية العملية التعليمية والفكرية عموما. إن طبيعة واقعية الفكر ببايلك الغرب الجزائري، لم تقف عند رؤيتها لفنون التصوف والعلم والأدب، بل تجاوزت إلى تجسيد هذه الرؤية في منهج التأليف والتدريس، وما يحمله من اهتمامات فكرية. وسيحاول هذا البحث أن يقف عند بعض الجوانب المتعلقة بالموضوع.

من خلال هذه الحركة الفكرية وملابساتها، برزت جملة من القضايا عبرت عن مدى الاهتمامات الفكرية ببايلك الغرب الجزائري، فمسائل التوحيد وتغيير المنكر والنقد، لقيت عناية عند العلماء الذين انكبوا على دراستها ومناقشتها؛ سواء في مناظراتهم أو في مؤلفاتهم. وعرفت هذه القضايا اختلافا بين العامة والخاصة، ودار نقاش حول البدع بين العلماء باعتبارهم علماء الشريعة الإسلامية، وبين المتصوفة باعتبارهم شيوخا للزوايا والطرقية. كما ظهرت آراء حول العرف والفتوى... هذه جوانب من اختلاف الرأي كانت متفاوتة في حدة مناقشتها. فحينًا تشتد فتمثل صراعا محتدما كما في قضية خلق الأفعال. وحينا آخر تقل حدةً فتمثل مجرد. اختلاف في أوجه النظر كما في قضية علم النبي للغيب. وحينا ثالثا تتباين الآراء وتتعارض الأهداف كما في قضية تحديد المصطلح الصوفي

والعلمي والسياسي. وسيحاول هذا البحث إبراز بعض الخطوط العريضة لأهم الآراء المتباينة التي تعكس اهتمامات فكرية في فكر متصوفة بايلك الغرب خلال هذا العصر.

ب- المؤسسات التعليمية والثقافية خلال العهد العثماني:

تعد بعض المؤسسات التعليمية ببايلك الغرب من أهم مراكز الاشعاع الثقافي آنذاك، والتي كانت نقطة تحول في حياة أبي راس الذي كان من بين الطلبة الذين اجتهدوا في طلب العلم، والرقي إلى درجة العلماء والفقهاء. وكانت هذه المراكز تتمثل أساسا في المساجد والزواياوالمدارس والمكتبات، ومن بين هذه المعاهد نذكر على سبيل المثال:

1- المساجد:

كثيرا ما يختلط على الباحث اسم الجامع والمسجد والزاوية، ذلك ان بعض الجوامع والمساجد كانت تابعة لزوايا معينة، كما أن بعض الزوايا كانت تابعة لجوامع ومساجد معينة، فالتداخل ليس في الاسم فحسب، بل حتى في الوظيفة، فالجوامع والمساجد كانت للعبادة والتعليم، كما أن الزوايا كذلك احيانا، ولكن في الغالب كانت رباطا أو ملجا أو مسكنا للطلبة والغرباء، ومركزا لتلقين الأذكار واستقبال المردين(12).

وعلى كل فقد كانت العناية بالمساجد ظاهرة بارزة في المجتمع الجزائري المسلم. فلا تكاد تجد قرية أو حيا في المدينة بدون مسجد. "فقد كان المسجد هو ملتقى العباد، ومجمع الأعيان، ومنشط الحياة العلمية والاجتماعية، وهو قلب القرية في الريف، وروح الحي في المدينة. إذ حوله كانت تنتشر المساكن والاسواق والكتاتيب"(13).

كما كان يجمع بين اهل القرية والمدينة أو الحي خاصة في بنائه وأداء الوظائف فيه، فقد كان تشييد المساجد عملا فرديا بالدرجة الأولى، فالغني المحسن هو الذي يتولى ويقود عملية بناء المسجدوالوقف عليه وصيانته. كانت المساهمة بالتبرعات ونحوها من طرف أعيان القرية أو الحي(14)، وكان مجهود السلطات الحاكمة في هذا المجال لا يتعدى مجهود الأفراد.

فالدولة غير مسؤولة على بناء هذه المساجد، وإذا بنى أحد البشوات أو البايات مسجدا فإنما يبنيه من ماله الخاص، مثل الباي محمد الكبير الذي شيد جامعا كبيرا بحمل اسمه (جامع محمد الكبير) بمعسكر، وهو المعروف عند أهالي معسكر بجامع العين

البيضاء، "وقد أقام به الباي ستة عشر حوضا للوضوء جلب لها الماء عن طريق القنوات من أرض تتوفر على ينابيع ماء قد اشتراها لهذا الغرض"[(15)].

كما أعاد بناء مسجد معسكر العتيق الذي شيد عام 1205هـ/1791م المعروف بجامع سيدي حسن الذي شهد المبايعة الثانية للأمير عبد القادر على الجهاد فهدمه وقام بتوسيع مساحته وإحداث خمسة احواض للوضوء به جلب لها الماء عبر قنوات وسواقي، كما أبدل محراب هذا المسجد بمحراب آخر بديع الصنع"16، الذي به منارة قريبة من قصر الباي[(17)].

ولذا كان مسجد عين البيضاء قليل الوجود من بلد المعسكر[(18)]فبالرغم من ظهور المدارس ابتداء من القرن الخامس الهجري إلى غاية مجيئ العثمانيين بالجزائر فإنها لم تستطع أن تنافس المساجدأو تقلل من قيمتها العلمية، وإنما تعايش الإثنان جنبا إلى جنب والاضطلاع برسالة التربية والتعليم في العالم الإسلامي[(19)]، لتتحول هذه المساجد فيما بعد إلى جامعات تستقطب عددا كبيرا من الطلبة والعلماء.

2- الزوايا:

إن مفهوم العلم في الفكر الإسلامي يخدم العقيدة، فيثبت أركانها ويعمق الإيمان بها ويجلو إشكالاتها. وترتكز أسس هذه العقيدة على المجهود الروحي والأخلاقي الذي يبذله الإنسان في دخيلة نفسه، ليحقق مجالا أرحب يحمله على إدراك الحق والنور. ومن خلال هذا الحضور كان اهتمام متصوفة بايلك الغرب الجزائري من علماء ورجال زوايا بالسنة والتصوف. وخاصيته في نزوع رؤيته إلى الفقه؛ مركزا على الزوايا حيث قامت بحركة علمية حققت نشاطا، تفاوتت فعاليته، فحفظ تراث الأمة الروحي من الزوال. ولم يكن عملها يقتصر على الذكر والأوراد، بل تعدى ذلك إلى التعمق العلمي في أكثر الفنون. كما كانت الزوايا مؤسسات تعليمية اضطلعت بدور محاربة الجهل في شتى صوره، إلى جانب نشر الوعي الفكري في مختلف حقوله.

ولعل الزاوية القادرية تأتي في مقدمة الزوايا التي حققت نهضة علمية، فاعتنت بالعلم وتكوين العلماء، وتنوير أفراد المجتمع اعتناء بالغا، فكانت " أعظم زاوية كانت ببايلك الغرب، انتشر منها العلم وانتعش، بعد أن اضمحل أو كاد"[(20)]. وقد تبعتها عدة زويا أخرى مثل زاوية مصطفى الرماصي، وزاوية أبي راس الناصر، وزاوية المشرفي، وزاوية المازوني، وزاوية الخطابي، وزاوية التلمساني؛ حيث تكاثر فيها عدد المشتغلين بالتدريس لما

كان بها من معاطات العلوم، والدؤوب على درسها وإقرائها ليلا ونهارا، ما تخرّج به من جماعة من صدور العلماء وأعيانهم حتى كانت الرحلة إليها (ببايلك الغرب) لا يعدوها الطالب ولا يأمل سواها الراغب. وكانت بها خزائن عظيمة للمخطوطات. فبدت بهذه المكانة العلمية تضاهي حاضرة فاس ومراكش والقيروان وغيرها. وقد حاول الباي محمد بن عثمان الكبير وقبله الباي مصطفى بوشلاغم، أن يشجع الدراسة في كل من الحواضر العلمية ذات الإشعاع الفكري آنذاك كمازونة والراشدية وتلمسان، لمحاولة النهوض بنفوذ الزاوية العلمي[21].

3- المدرسة:

هي المكان المخصص لإلقاء الدروس بها، ولا توجد إلا في بعض المدن الرئيسية أمثال: معسكر، وهران، تلمسان ...، وكانت بهذه المدارس غرف يسكنها الطلبة المسافرون[22]، وقد عرّف أبو راس الناصر المدرسة التي نحن بصددها، مدرسة التعليم الثانوي والعالي إن صح التعبير، بأنها هي التي "تبنى لدراسة العلم، أي لتعليمه وتعلّمه"[23].

فمن الواضح والجلي ومن خلال رأي أبي راس، أن المدرسة لم يكن المقصود من ورائها الزاوية أو المسجد. بل هي مدرسة مستقلة متخصصة في التعليم وحده بشطريه الثانوي والعالي[24]. وفي هذا الصدد ذكر أبو راس أنه كان في مدينة الجزائر على عهده "مدارس" كبيرة، مثل المدرسة القشاشية[25]، كما كانت المدرسة المحمدية في معسكر، وعندما وصل إلى وهران قال: "إن المدارس بالمعنى الذي قصده: قد درسها الكفرة (أي الإسبان) وكفوا رسمها" فلم يبق في رأيه في وهران لدراسة العلم سوى المساجد[26]، وتلعب المدرسة في المدينة نفس الدور الذي تلعبه الزوايا في الريف[27].

ولا يختلف التعليم في المدارس عن التعليم في الزوايا[28]، وكان من أهداف المدرسة تحفيظ القرآن الكريم إلى جانب تعليم مبادءئ القراءة والكتابة وبعض العلوم الأخرى، كالحديث والنحو واللغة والفقه والتوحيد، واستكمال هذه الدراسات بعلم الحساب وقراءة المؤلفات الطبية لابن سينا، إلا انها كانت قليلة بسبب اشتغال العلماء بالعلوم الآنفة الذكر[29]. ولم يكن العلماء يقتصرون على ما في الكتاب من المادة العلمية وإنما كانوا يثرونها بروافد أخرى من أمهات الكتب...، ولم يقتصروا على طريقة لشرح النصوص وحدها، وإنما كانوا يناقشون المسائل ويرجحون رأيا على آخر[30]. ومن أهم المدارس بمعسكر نذكر منها:

1- المدرسة المحمدية:

تعد من أهم المدارس التي أسسها الباي محمد بن عثمان، بالغرب الجزائري، والتي كان لها صدى واسع في العالم العربي والإسلامي[(31)]. والتي تعتبر أكبر معهد علمي يضم أساتذة أكفاء[32]، متفرغين لمهنة التعليم لا غير، إلى جانب الآلاف من الطلبة والتلاميذ الذين سارعوا إلى الإقبال على العلم بلهف شديد[(33)]، وهي التي أشار إليها أبو راس بقوله: "وهي المدرسة التي كاد العلم أن ينفجر من جوانبها"[(34)].

وما يمكن الإشارة إليه هو أنه رغم اهتمام الباي بالجامع الأعظم الذي بناه بمعسكر، فإنه قد أسس مدرسة بجانبه. لأن فكرة المدرسة المستقلة عن الجامع لم تكن تدور في خيال هذا الباي، فبناؤها على هذا النحو المذكور كان متماشيا وتقاليد التعلّم الاسلامي عموما، فالواضح أن المدرسة كانت ثانوية بالنسبة للجامع، فالأوقاف مثلا تنص على نفقة المدرسين في الجامع دون المدرسة[(35)]. ولقد تول أو راس مهمة التدريس بهذه المدرسة فالتف حوله عدد هائل من الطلبة.

كان الطلبة يبادلون شعور اساتذتهم فيقدرونهم ويحترمونهم لما يحملونه من علم، واعترافا بما عليهم من فضل بما بذلوه من جهود جليلة من أجلهم. ثم إن المتصفح لكتب التراجم، ومذكرات العلماء، وما كتبوه عن مشايخهم، يلمس مدى الحب الذي كانت تنبض به قلوب الطلاب نحو أساتذتهم، وما فاضت به أقلامهم.

ونستشهد في هذا الصدد بما ذكره محمد بن علي السنوسي في معرض حديثه عن أساتذته الذين تتلمذ على أيديهم: "ومنهم شيخنا وشيخ مشايخنا الهمام الحافظ الإمام، سيدي محمد بوراس المعسكري البلد –رحمه الله- كنت أتردد إليه كثيرا واستفيد منه استفادة عظيمة، لتمام حفظه وإتقانه لكل فن حافظا لمذاهب الائمة الأربعة، جواب كل ما سئل عنه بين شفتيه، وغالب منأخذنا عنه من أهل ناحيته أخذ عنه"[(36)].

ومن أهم العلوم التي كانت تدرس في هذه المدرسة، لاسيما في المرحلة الخيرة من العهد العثماني،كتب الفقه مثل:حواشي شرح الشيخين الزرقاني والخرشي[(37)]. وهما الحاشيتين اللتين اعتمدهما أبو راس في تدريسهما للطلبة، وحاشية الشيخ مصطفى الرماصي الذي كان آية عصره. إلى جانب كتب النحومثل:شرح الشيخ المكودي، وفي اللغة كتاب القاموس للشيخ فيروزآبادي، ومقامات الحريري، وفي الأصول شرح الشيخ المحلي.

فضلا عن كتب التصوف، المنطق، الفلك وعلم البيان إلى غير ذلك من العلوم النقلية والعقلية الأخرى.

وكان العلماء يحظون بمنزلة عظيمة لدى المواطنين، وكان نفوذهم على طبقة العامة كبيرا. وكانت الطبقة الموسرة من جانبها تقلد أنماط سلوكهم، وكل فرد منهم يجد أنه من الشرف له أن يستقبل واحدا من هؤلاء العلماء في بيته. ومهما يكن. فقد حفلت مظان السير والتراجم بصفحات ناصحة لما كان عليه العلماء في ذلك العصر من عفة وتواضع وسماحة وإيثار، وعلاقاتهم بطلبتهم، ومحاولةمنهم في افادتهم وتزويدهم بما ينفعهم من علوم دنيوية وأخروية.

2- مدرسة القيطنة:

هي الأخرى من المدارس التعليمية الكبيرة بمعسكر خلال المرحلة الأخيرة من العهد العثماني بالجزائر.فقد تأسست هذه المدرسة بمنطقة القيطنة، بالقرب من بوحنيفية، حوالي سنة (1200هـ/1787م)، على يد مصطفى بن المختار بعد رجوعه من بغداد. وبعد وفاته في عين الغزال بليبيا، تسلم أمور ادارتها الشيخ محي الدين والد المير عبد القادر.

وكانت هذه المدرسة من المدارس التعليمية الهامة في الجزائر،حيث جمعت بين كل مراحل التعليم من أدنى مرحلة حتى اعلاها.كما كان بها ست حلقات تعقد لجلسات العلم،بمعية عدة أساتذة.وكانت تضم عددا كبيرا من الطلاب يتراوح عددهمما بين(700و1800)طالب علم دائمي الدراسة، مع العلم بان عدد الطلاب في كافة انحاء الجزائر كان هائلا حول العلماء[(39)].

وقد تطورت المدرسة تطورا كبيرا،وأصبحت تلقب "بمعهد القيطنة" نظرا لتوافد الطلبة والعلماء عليها.واكن من العلماء الذين درسوا بها أبو راس الناصر.وهذا مما يدل على علو همتها،وذكرها في الآفاق.فنجد أن أبا راس قد درس في هذا المعهد الديني الكبير،بدليل قوله:" فذهبت للقيطنة، وقد اجتمعت جموع من الطلبة"[39].فهذا مما لا جدال فيه أن مدرسة القيطنة كانت مدرسة معترف بها من قبل علماء الوطن أولا ثم من علماء الأمصار ثانيا.

ونشير إلى أنه لم تقتصر معسكر على المدرستين المذكرتين سالفا،بل تعدتها إلى مدارس أخرى كانت في الوقت نفسه زوايا تقوم بالدراسة والتعليم.نذكر منها:مدرسة زواية سيدي

علي شريف بسيق، مدرسة زاوية سيدي محمد بن قالة الحسني بالكرط، مدرسة زاوية مصطفى بن الطيب بعقاز، مدرسة زاوية سيدي قادة التي كان لها الفضل الكبير في اعطاء المعلومات، وتزويد الطلبة بالأفكار والفتاوى والآراء الفقهية وغيرها.

أما عن أهم العلوم التي كانت تدرس في هذه المدرسة، ففي غالبيتها علوم شرعية وعقائدية، وبعض من المجالات الأدبية. وبما أن مؤسس هذه المدرسة من المتصوفة، فإن الطابع الغالب عليها هو المجال العقائدي أكثر من العلوم الدينية الأخرى من بين هذه العلوم ذكر على سبيل المثال:كتب التوحيد للشيخ السنوسي،كتب الحكم العطائية، أما الفقه:كتب مختصر الشيخ خليل، وحواشي الشيخ الداسوقي والشيخ الدردير، وفي الحديث:كتاب صحيح البخاري، وكتب الأئمة الستة المعتمدة. لقد كانت المدارس اشعاعا ثقافيا ساعد على تخريج.

لقد كان لهذه المدارس تأثيرا كبيرا على شخصية أبي راس وحتى في تكوينه العلمي والمعرفي، وهذا يتجلى من خلال تعليمه بهذه المدارس من جهة ومن خلال تدريسه بها، وإشرافه على مجموعة هائلة من الطلبة الذين يبلغ عددهم في غالب الأحيان780 طالب.

3- مدرسة مازونة الفقهية:

عرفت مدرسة مازونة بكثرة شيوخها ومجالسها العلمية، وكثرة طلبتها، حيث اشتهرت بتخصصها في العلوم والدراسات الفقهية. ولقد كان تأسيس المدرسة حسب بعض الوثائق التاريخية؛ والتي تؤرخ لمدرسة مازونة أنها كانت في سنة 1029هـ على يد الشيخ امحمد بن الشارف. ويعتبر محمد أبو طالب المازوني من أشهر المدرسين بمدرسة مازونة حيث درّس بها مدّة 64 سنة، إلى جانب الشيخ هني.

لقد تخصصت مدرسة مازونة في العلوم الدّينية والفقه وأصوله، وتفسير القرآن، وعلوم الحديث النّبويّ، وتحتفظ المدرسة بجزء من كتاب "صحيح مسلم" أهداه الباي عثمان سنة 1212هـ لشيخ المدرسة آنذاك، كما تحوي أيضا خزانة تضم حوالي 300 مخطوطة يدوية في حالة جيّدة، منها ستة أجزاء كبيرة من شرح "صحيح البخاري ومسلم"، كما لا زالت تحوي المدرسة تحتوي على كرسي يعود تاريخه إلى باي معسكر الذي أهداه لشيخ مدرسة مازونة عام 1700م.

وقد تخرّج من مدرسة مازونة الفقهية عدّة علماء أجلّاء ذاع صيتهم في الآفاق من بينهم: أبوراس الناصر المعسكري، ومحمّد بن عليّ السّنوسي، عدّة بن غلام الله، محمّد الميسوم، أحمد بن الشارف وغيرهم كثير لا يسع المقام لذكرهم(40).

4- المكتبات وخزائن المخطوطات:

لا تقل المكتبات أهمية عن سابقاتها من مساجد وزوايا ومدارس. وتشمل المكتبات العامة والخاصة، وهي التي كانت تضم أشتات المخطوطات في مختلف فنون الوقت، كما كان يقصدها الطلبة والأساتذة من جميع النواحي للمطالعة فيها، لا سيما المكتبات العامة التي كانت وقفا وحبساعلى المساجد والزوايا والمدارس.

وقد كانت من بين المكتبات ذات الأهمية البالغة بمعسكر مكتبة أبي راس الضخمة التي تضم أنفس الذخائر، والمخطوطات النادرة وحتى المؤلفات التي ألفها أبو راس نفسه، والتي لم تحقق ولم تطبع إلى يوم الناس هذا. وتعرف هذه المكتبة باسم "مكتبة المذاهب الأربعة"، نظرا لاحتوائها على مؤلفات أئمة المذاهب الأربعة، وحسب قول أحد الباحثين أن هذه المكتبة كان يقصدها علماء عدة من فاس ومكناس وتونس وليبيا وغيرها من البلدان.

وتشهد عبارات الباحثين الفرنسيين الذين شاهدوا وجمعوا المخطوطات من مكتبات المدن الجزائرية غداة الاحتلال، أنهم كانوا مندهشين من كثرة الكتب المؤلفة التي وجدوها، ومدى تنوعها، ومن جمالها، والعناية بها. فقد اعترف بذلك أدريان بيروبرجد الذي رافق الحملة الفرنسية على قسنطينة وتلمسان ومعسكر(41). لقد لعبت المكتبة دورا كبيرا وفعالا في حياة أبي راس العلمية والثقافية في العصر العثماني، مما جعلته يسعى جاهدا في خدمة العلم. ولا زالت إلى حد الآن تؤدي ما عليها من أجل تسهيل عملية البحث والمطالعة للباحثين. وهناك واقع آخر له علاقة بالمجال المراد دراسته؛ إن لم نقل جزء لا ينفك عن بالواقع الثقافي والفكري ببايلك الغرب خلال أواخر العهد العثماني.

ولعل من أهم خزائن المخطوطات التي انتشرت في بايلك الغرب نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

1- خزانة الشيخ عبد الباقي(قرية وادي الجمعة غليزان): ترجع إلى مؤسسها الشيخ عبد الباقي بن زيان الشعاعي (1274-1345 هـ/1857-1927)؛ بعد أخذ الشيخ لمبادئ

القراءة والكتابة على يد علماء منطقته، كان لزاما عليه أن ينمي معارفه على يد علماء خارج منطقته أولا ثمّ خارج وطنه الأم ثانيا، وكان الأمر كذلك؛ فأخذ علوم الشريعة والحقيقة علي يد الشيخ عبد الرحمن العزاوي السالف الذكر بزاويته بجبل تاغيت، ليسافر إلى مدينة أخرى وهي مدينة تنس ويأخذ العلم الشرعي على يد الشيخ المولود بن الحسين الشعيبي. وفي حدود سنة 1305هـ الموافق لـ1888م يحج الشيخ عبد الباقي حجته الثالثة وهناك حصل للشيخ عبد الباقي الإذن المحمدي من طرف شيخه عبد الرحمن العزاوي الشهير بالهبري. كما سافر الشيخ إلى فلسطين ليأخذ من علم شيخه الشيخ علي نور الدين اليشروطي، ويحصل له الاذن في الطريقة الشاذلية اليشروطية. وفي حدود 1910م فرّ الشيخ من وطنه بسبب فرض فرنسا الاستعماري لقانون التجنيد الاجباري، وقررّ الهجرة إلى بلد إسلامي فاختار بلاد الشام وراح يتنقل ما بين بلاد الشام وفلسطين. واستقر المقام به بمدينة نابلس وهناك وضعت زوجته مولودا سمته النابلسي في 14 جمادى الأولى 1313هـ . لقد ضمت خزانته بين دفتيها عددا لا يستهان به من المخطوطات القيمة، مثل: قوت القلوب لأبي طالب المكي، شرح القرآن الكريم لابن عرابي الحاتمي، العقد الفريد لابن عبد ربه وبهامشه زهر الآداب وثمر الألباب للحصر المالكي، سلوة الأنفاس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس[42].

2- خزانة الشيخ عمر بن دوبة(قرية البرج معسكر)(1906-: وقد ورثها الشيخ البشير محمودي بن الحاج قدور بن البشير بن قدور بن محمودي بن المكي بن البشير بن الجيلاني بن أحمد بن عمر عن جده الشيخ عمر بن دوبة ولد بقرية عمراوة ؛ وهي واحدة من تلك الخزانات التي تحوي كماً هائلا ومعتبرا من نفائس المخطوطات وذخائر الكتب النادّرة. وقد كانت خزانة جدّه عمر بن دوبة، تحتوي على 400 أو 500 مخطوط نفيس لكنّها أحرقت في عهد الاستعمار الفرنسي، ولم يسلم منها سوى 06 أو 07 مخطوطات، وبما أنّ الشيخ كان كاتبا، وناسخا، وشاعرا، إلى جانب اطلاعه الواسع وحبّه للعلم والمعرفة، فإنّ ذلك دفعه إلى بذل الجهود من مال وقيام برحلات وأسفار داخل الوطن وخارجه، مكنته من تنوع إنتاجه في مختلف الفنون والعلوم والتي بلغت 73 مخطوطا حيث لم يبق منها سوى 09 أو 10 مخطوطات[43].

3- خزانة الشيخ عبد القادر بن يسعد(قرية الدبة غليزان) المتوفى سنة 1055هـ: دفين قرية "الدبة" قرب مدينة "قلعة بني راشد"، وكان مؤسسها وهو من علماء القرن

السادس عشر ميلادي الذين تخرجوا من معهد مجاجة ينتهي نسبه إلى الحسين بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. كانت تضم هذه الخزانة عدد كبير من المخطوطات النفيسة، وقد استفاد منها الشيخ المهدي البوعبدلي، والشيخ البشير محمودي، والشيخ النعيمي. من بين المخطوطات التي وجدت بها: تقييد نسب صاحب الخزانة الشيخ عبد القادر بن يسعد، كتاب الدرر المكنون في نوازل مازونة لأ**بي** زكريا **يحيى** بن موسى بن عيسى المازو**ني**. (ت 883هـ/1478)، عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من اشراف غريس، إلى جانب كتب في التفسير والحديث واللغة المشهورة. كيف لا والشيخ عبد القادر بن يسعد كان يشجع مجيء الناسخين إلى القلعة لينقلوا له ولخزانته عشرات المخطوطات الأصلية؛ لاسيما أمره بكتابة نسخ المصحف الشريف ورسمه، حتى تخصصت قلعة بني راشد بتخصصها برسم وضبط المصحف الشريف[44].

ج- الواقع الأدبي:

إذا كان الفكر ببايلك الغرب الجزائري قد سادته النزعة الفقهية، فإنّ هذه النزعة قد انعكست على ثقافته وحضارته، فبروز المتصوفة في مجال الفقه، وعنايتهم بالاتجاه السني في التصوف، ودفاعهم المستميت عن الإسلام، وانصرافهم عن الذات، تلك عوامل جعلت شخصية الأديب منزوية خلف شخصية الفقيه الذي يهتم بالعلم قبل الفن، وبالحقيقية قبل الجمال[45]، غير أن ذاك الفن وهذا الجمال ليسا منقطعين عنه، فقد لونتهما الاهتمامات الفكرية بالواقع لدى المغاربة عموما. ومن ثم كان "الأديب لا ينال حظوة إلا إذا كان له مع أدبه إلمام بالفقه"[46]. فيتخذ الأدب بحديه- الشكل والمضمون- مفهوما يصطبغ بالصبغة الدينية، وإذ ذاك يتم الالتزام بالواقع وبالفن.

إنّ للأدب في بايلك الغرب حضورا في الفكر المغاربي، وتنوعا في الثقافة المغاربية، وتميزا في الإنتاج الفكري عموما. لكن غياب الصورة الأدبية واستقلالية الإبداع، جعل الأدب ببايلك الغرب الجزائري حقلا معرفيا يتطور ببطء عبر عصوره، نظرا لغلبة النمطية في التفكير، وسيادة التبعية في الرؤى، ممّا لّون ذلك الحضور بثقافة إسلامية تفسر عمق صوره، وتحدد مدى خياله. فوفرة قصائد المولديات، والرسائل الديوانية والإخوانية والرحلات العلمية، تعكس اهتماما أدبيا واضحا مع الاهتمامات الفكرية الأخرى. لأن الطابع الموسوعي للثقافة ببايلك الغرب الجزائري، وكذا للثقافة الإسلامية، يتميز بمدى

الالتزام بالواقع وبالتعبير عن مجالاته قصد تحقيق مستوى لمسؤوليات المفكر، كي يفهم واقعه ومن ثم يتطور وينمو.

هذه الرؤى الشائكة هي التي جعلت مدلول كلمة أدب يتميز بطابع العصر، ويتحدد مفهومه بموسوعية بعيدة عن تحديد ضيق، أو تقصير في الرؤية. والأدب بهذا المعنى يعكس الثقافة والحضارة في مجال تأثرها بالمقومات العامة لشخصية البايلك[47]، التي تعتمد في تكوينها الثقافي على العلوم الشرعية، والعلوم الأدبية؛ ومن ثم يعبر التداخل بينهما عن التمازج الثقافي في الفكر ببايلك الغرب الجزائري. غير أن هذا التمازج حين تتغلب فيه النزعات الذاتية يكون أقرب إلى الإبداع، وحين تتغلب النزعات الموضوعية يكون اقرب إلى التأليف.

لكن رغم تلك العوامل التي حددت المفهوم العام للفكر الجزائري عموما وببايلك الغرب الجزائري خصوصا، ينزع الأدب الجزائري إلى التعبير عن الذات وهمومها، والعصر ومشاكله، ويقوى هذا الاتجاه خلال القرن الحادي عشر الهجري نظرا لتأثير الأحداث وتنافر الزعامات.

وقد لعبت الزوايا ببايلك الغرب دورا هاما في الحركة الأدبية، وبلغت الزاوية القادرية شأوا عظيما، فالثقافة الأدبية واللغوية المتينة التي كانت تدرس فيها هي التي أحيت دماء الأدب ببايلك الغرب بعد عدم[48]. كما نشطت الحركة الأدبية في الحواضر العلمية التي برزت؛ وقد احتفظت لنا المصادر المختلفة بالعديد من الأشعار والرسائل[49]. وقد أسهمت الزوايا الأخرى بحركة أدبية تمثلت في الرسائل الإخوانية والمدائح النبوية.

إنّ طبيعة واقعية الفكر ببايلك الغرب الجزائري، لم تقف عند رؤيتها لفنون التصوف والعلم والأدب، بل تجاوزت إلى تجسيد هذه الرؤية في منهج التأليف والتدريس، وما يحمله من اهتمامات فكرية وأدبية وتاريخية.

الخاتمة:

لقد كان عهد الباي محمد بن عثمان الكبير ببايلك الغرب، عاملا مهما في بعث الحركة الثقافية والفكرية آنذاك. فتشجيعه للثقافة والنهوض بها، كان له بالغ الأثر على انتعاش

الحياة التعليمية والعلمية عموما، فنجده يشجع العلماء بمساعدات ويجيزهم بأموال، وقد كان أبو راس نفسه من الذين شملهم هذا العطاء.

كما شهدت فترة العهد العثماني بالجزائر عموما وببايلك الغرب تحديدا؛ تشييد العديد من المباني وقصور الدايات، ومساجد كبرى لازالت آثارها شاهدة عيان على مدى انعكاس الحياة الثقافية والفكرية على الحياة العمرانية المباني بها مثل مسجد "الباي" بكل من معسكر ووهران وبعض القرى التابعة لهما؛ وتعتبر هذه المساجد إحدى التحف المعمارية الراقية التي شيدها الأتراك بالجزائر.

الهوامش:

1. والسبب في ذلك راجع إلى أن اهتمام السكان كان منصبا – في تلك الفترة- وبالدرجة الأولى على التجارة والاقتصاد بصفة عامة، لأن التجارة كانت تدر عليهم أرباحا طائلة، إلى جانب أنهم كانوا يضمنون بواسطتها على حاجياتهم اليومية. أحمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني،، تح: المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، د ط، 1973،. ص: 135.

2. صالح فركوس، الباي محمد الكبير وبعث الحركة الثقافية ببايلك الغرب الجزائري، مجلة الثقافة، الجزائر، ع71، 1986، ص: 16.

3. ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص: 133.

4. Mémoires de Thédénat,R.A.Anneé1948.Tome 92,pp :181.

5. أبو راس الناصر، عجائب الاسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم: 1632، ص: 18.

6. المصدر نفسه، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم: 1632، ص: 02.

7. عبد الحميد حاجيات، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، مجلة الأصالة، ع.خاص، جويلية-أوت 1975، ص ص: 136-155.

8. سي يوسف الزياني، دراسة مخطوط عجائب الاسفار ولطائف الأخبار، ص: 140.

9. ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص:126.

10. المهدي البوعبدلي، "أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التركي"، مجلة الأصالة، ع8، س2، 1972، ص ص:273-274.

11. المهدي البوعبدلي، "الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى"، مجلة الأصالة، ع13، س1973، ص:27 .

12. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 243.

13. المرجع نفسه، ص: 243.

14. المرجع نفسه، ص:243.

15. ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر – العهد العثماني- المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1984، ص: 249.

16. ناصر الدين سعيدوني، الجزائر في العهد العثماني، ص: 248.

17. أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 260.

18. الآغا ابن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، تحقيق يحي بوعزيز، ص: 295.

19) العيد مسعود، حركة التعليم في الجزائر، العهد العثماني، مجلة مسيرتا، وزارة التعليم والبحث العلمي، ع3 1980، ص: 64.

20) ناصر الدين سعيدوني، الجزائر في (التاريخ) العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1984، ص: 100.

21) الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تح: يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، ط1، ص:275.

22) ابن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية، ص: 59.

23) أبو راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ص: 79

24) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص: 281

25) المدرسة القشاشية التي أشار إليها أبو راس حسب ترجيح جمع من الباحثين إلى جامع القشاش، والذي يعود غلى العهد السابق بالعثمانيين، ومدرسة القشاش تعود إلى سنة 1162هـ حسب أقدم وثيقة تتحدث عن هذه المدرسة (الزاوجة) وبمجرد احتلالها من طرف الفرنسيين حولوها إلى مخازن للجيش. المرجع نفسه،ص:281

26) أبو راس الناصر، عجائب الأسفار، المصدر السابق، ص: 90 (مخطوط).

27) Turin. y. Affrontement culturels dans L'Afrique coloniale, Paris,1971 .P :126

28) Turin.y.Affrantement culturels dans

29) L'afrique colonial,p :126

30) I.bid,pp :125-126.

31) المهدي البوعبدلي، الثقافة والتوجيه بالجزائر، (بتصرف من محاضرة ألقاها في المؤتمر الإسلامي المنعقد سنة 1970م)، ص: 13.

32) سميت بهذا الاسم نسبة إلى محمد بن عثمان الكردي، إنما لقب بـ"الكبير" نظرا لتفوقه وبراعته في إدارة شؤون بايلكه، خاصة بعد استرجاع مدينة وهران والمرسى الكبير من الاحتلال الإسباني.

33) A.Gorgnos, RA, 1ere Année, n 5 juin 1857. P :40

34) من بينهم: أبو راس الناصر، محمد بوجلال (الجيلالي)، الطاهر بن حواء، محمد المصطفى بن زرقة الدحاوي.

35)صالح فركوس، الباي محمد، المرجع السابق، ص: 17.

36) أحمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، المصدر السابق، ص: 127.

37) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 281.

38) ابن سحنون الراشدي، الثغرالجماني، ص: 66 (من هامش مقدمة المحقق رقم:53.

39) وجدنا تعليقا على هذه الحاشية ضمن مخطوط من مسائل الرعاة، بدايته: " الحمد لله، فالمؤلف أي أبو راس، سلك طريقة في كتابه منهاجا عجيبا، فجعل الباب فصلا، وجعل الفصل رأس كلام نصيب، وجعل الكتاب بابا فقسمه بين تفصيل وتبويب. "مؤلف مجهول، من مسائل الرعاة، زودنا به الأستاذ بليل حسني، الورقة الأخيرة من المخطوط.

40) En Relisant les Nawazils Mazouna Marabouts et Chorfa Au Maghreb Central au xv[e] siècle, Studia Islamica, N LxIx(69)Paris 1989, pp75-94.

41) مجموعة أساتذة، معسكر رجال وتاريخ، الحياة الروحية في الإسلام، ملتقى الفكر الإسلامي الواحد والعشرين، وزارة الشؤون الدينية، معسكر، 26 أوت/ سبتمبر1987،ج1، ص ص:13-15.

42) ينظر: ؛حمدادو بن عمر، من نفائس التراث المغاربي: تقييد فهرسة خزانة الشيخ عبد الباقي بن زيان الشعاعي بالغرب الجزائري (1857- 1927/1274-1348م)، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ع32، 2012، ص ص:225- .236

43) أبو راس الناصر، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر،ط1990،ص:24.

44) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص: 287. وأنظر أيضا: تاريخ الجزائر، ج3، ص: 317.

45) محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، ص:5.

46) تصدير لمحمد الفاسي لكتاب أبي المطرف بن عميرة المخزومي للدكتور محمد بن شريفة، ص:3.

47. Cour Auguste, L'établissement des dynasties des chérifs au Maroc et leur rivalité avec les turc de la régence d'Alger, 1509- 1830, Emest-Leroux éditeur, Paris, 1904, p:223.

48. الخداري محمد، دور الزوايا والطرق الصوفية في العلاقات بين المغرب وولاية الجزائر، حالة الزاوية الدرقاوية من 1786 إلى 1823م، دكتوراه دولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية 2004- 2005، ص:33.

49. الخداري محمد، الدور الاجتماعي والثقافي والاقتصادي في العلاقات بين البلدين، ص ص:141-160.

الخلافات بين ايالتي تونس والجزائر في نهاية العهد العثماني وأثره في اندلاع الحروب والغارات من خلال وثائق الأرشيف التونسي

د.رياض بولحبال
جامعة محمد الشريف مساعدية / سوق اهراس.

تعتبر مسالة المشاكل الحدود بين اياليتي الجزائر وتونس خلال العهد العثماني من القضايا الشائكة التي كثيرا ما كانت تازم العلاقات بينهما. وهذا راجع الى التداخل الطبيعي والقبلي بينهما، وقد اثرت هذه الازمات سلبا على العلاقات السياسية بينهما، وأدت الى قيام حروب ومواجهات في فترات متقطعة خاصة في نهاية العهد الثماني، وتحديدا منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي، وقد أثرت هذه الأحداث بشكل كبير في اضعاف نظام الحكم في ايالة الجزائر وخاصة في بايلك الشرق إلى غاية سقوطه في يد الفرنسيين سنة 1837. وتتضمن اشكالية الموضوع قضية تداخل الحدود بين الايالتين وأثرها في قيام الحروب والاغارات بينهماّ، من خلال عرض واستنتاج لما جاء في وثائق الأرشيف التونسي . وقد اعتمدت في هذا المقال على مادة أرشيفية هامة تدعم ما قدمته المصادر المحلية سواء الجزائرية أو المصادر المحلية التونسية، وكذا المصادر الفرنسية التي تحدث عن ابرز التطورات والأحداث في بايلك الشرق في نهاية العهد العثماني والتي اعتمدت هي الأخرى على ما هو متوفر من مصادر محلية وروايات شفوية، وتضيف هذه الوثائق التي اعتمدتها في البحث تفاصيل أخرى هامة حول ابرز الأحداث التي عرفها المناطق الحودية لبايلك الشرق في هذه الفترة .

لم تكن هذه الخلافات جديدة وإنما تعود الى فترات سابقة منذ خضوع الايالتين للحكم العثماني، ولكن منذ مقتل صالح باي 1792م انتهت فترة الرخاء في بايلك الشرق لتعم

الفوضى والاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتي أصبحت فرصة لكي تسعى من خلالها تونس الى التخلص من هيمنة بايات الشرق عليها خاصة منذ فترة حكم حمودة باشا(17..-1814م) في تونس[1] الذي عمل على النهوض ببلاده، وأول الإجراءات العملية التي قام بها بعد تسليح جيشه هي القيام بحملة على مدينة قسنطينة سنة 1807، وقد احتوت هذه المادة الأرشيفية على معلومات مفصلة عنها، والتي اتفقت مع ما هو موجود في المصادر الاخرى على غرار ما ذكره نقيب اشراف الجزائر الحاج احمد الشريف الزهار في مذكراته[2] والعنتري في كتابه فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلاءها على اوطانها[3]والحاج احمد مبارك العطار في كتابه تاريخ حاضرة قسنطينة[4]، او مخطوط اخبار بلد قسنطينة لمؤلف مجهول[5]. وكذلك بعض المصادر التونسية واهمها ابن ابي الضياف [6] .

تحدثت إحدى الوثائق التونسية بشكل مفصل عن هذه الموقعة وخصت لها عنوان (موقعة وادي سيراط)،[7] وهي وثيقة هامة هي عبارة عن نسخة من رسالة والي تونسي لم يذكر اسمه إلى مأمور الوجق التونسي بأزمير محمد خوجة ووكيل الوجق شريف أغا، ليعرف فيها برد فعل تونس بعد إغارة عبد الله باي, باي قسنطينة من1219ه/ 1221ه. الموافق لـ 1804/ 1806، عندما تسلم البايلك وجد الخزينة فارغة وربما حملاته في تونس كانت بهدف اصلاح اوضاعه، وتذكر المصادر انه عرف باغاراته المتكررة على تونس وقيامه بالنهب والسلب[8]. وكانت حملته على عرش أولاد بوغانم قد تسببت فيما بعد في الهجوم على قسنطينة سنة 1222ه/ 1807م، ثم موقعة وادي سيراط ويرجع تاريخ هذه الرسالة إلى ثلاثة عشر شهرا من هذه الأحداث .

وقد بدأت الرسالة بعرض ظروف هذه الوقائع التي بدأت أولا بحملة عبد الله باي سنة1804...على عرش اولاد بوغان على الحدود، والخسائر التي تعرض لها هذا العرش التونسي، وكرد فعل قامت تونس باخراج محلة بقيادة سليمان أغا الى مدينة قسنطينة عاصمة البايلك ليقوم بمحاصرتها لمدة شهرا كاملا، ثم تعرضت الوثيقة إلى الدعم الذي أتى بمحلتين برية من الجزائر وبحرية من عنابة مما ادى الى تراجع المحلة التونسية، وانحصارها داخل الاراضي التونسية، ثم تعرضت الوثيقة إلى تقدم قوات الايالة الجزائرية (الباي والاغا) بعد جمع ما يزيد عن الخمسة ألاف فرد ومائتي خيمة وضم العساكر القادمة من الجزائر وعنابة ووادي الزيتون وبلاد زمورة بالاضافة الى تجهيز العتاد الحربي

حيث جاء في الوثيقة:(بالاضافة الى التريس[9]والعربان المجتمعة للغزو، وهدفهم اخذ تونس)...ثم تعرضت الوثيقة إلى الاستعدادات التونسية من جمع الخيام والقوات والعتاد تحت قيادة يوسف خوجة صاحب الطابع حيث جاء في الوثيقة :(وبناءا عليه تم ترتيب خمسون خيمة من العسكر وخمسون من الزواوة وتم تجهيز سائر التريس وعربان شتى أخرجناهم بمعرفة مهردارنا يوسف خوجة[10].

وتضيف الوثيقة انه في بداية الاقتتال كان النصر لصالح تونس حيث تم اسر أكثر من خمسين رجل والاستحواذ على مدفعين وتم جرح حوالي أربعمائة وخمسين شخصا، وهرب الباقين، ثم قدمت الوثيقة تفاصيل أخرى تتمثل في استمرار الاقتتال بعد يوم من الراحة في يوم الأربعاء 9جمادى الاولى وصمود القوات التونسية لمدة نصف يوم اين تم التغلب على المحال الجزائرية وفرار قادتها، حيث جاء في الوثيقة :(وفر حاكمهم وضباطهم واستاسرنا ثمانمائة شخص وهلك حوالي ألفان وتم الاستيلاء على جميع الامحال من مدافع وكورهم والأدوات الحربية والو طاقات وأربعمائة خيمة)

ومن خلال مقارنة هذه الوقائع مع ما كتب في المصادر المحلية الجزائرية وحتى المصادر التونسية نجد تطابقا كبيرا في المعلومات، فقد ذكر الزهار في مذكراته وكذلك مخطوط أخبار بلد قسنطينة رواية تتفق علىأن الحملة التونسية كانت برفقة الباي السابق لقسنطينة مصطفى انجليز المتعاون مع التونسيين[11]، وقضية تعاون هذا الباي السابق بقسنطينة مع باي تونس تعرضت لها وثيقة أرشيفية ترجع الى بدايات الاحتلال الفرنسي للجزائر والمؤرخة في محرم 1271 الموافق ل وهي عبارة عن طلب اللجوء إلى تونس من قبل احد أحفاد مصطفى انجليز في قسنطينة أي بعد سقوطها والاستيلاء عليها من قبل الفرنسيين ويدعى حسان بن علي ابن الحاج مصطفى انكليز باي الذي بعث رسالة طلب لجوء إلى محمد باشا بتونس يذكر فيها بانه من قسنطينة ويريد الانتقال إلى تونس والعيش فيها كلاجئ، وقد اعترف بان أباه وجده كانا قد قدما دعما لتونس في عهد حمودة باشا سنة 1222 أي فترة الحرب والحملة على قسنطينة، ويضيف بأنهما قد لعبا دورا في إثارة المشاكل الداخلية على حد قوله:(وعملوا الشر في دولة الجزائر وانه قد لحقه الضر بقسنطينة واخذ أملاكه الأتراك وهدموا الديار والتراب ووضعوه في السجن أعوام عديدة كونه ابن الذين خدموا تونس) [12].

من العوامل التي ساهمت في توتر العلاقات وظهور النزاعات تدخل اطراف خارجية فقد دعمت بعض القوى الأوربية سياسة حمودة باشا خاصة في فترة تكوين قدراته العسكرية،[13] وارتباط تونس باتفاقيات خاصة تجارية مع هذه القوى خاصة في مجال صيد المرجان في السواحل وقد احتوى الوثائق التونسية على عدة اتفاقيات خاصة مع سردينيا وفرنسا وانجلترا حول استغلال السواحل وصيد المرجان خاصة على الحدود البحرية بين تونس والجزائر[14]، ثم الاهتمام الانجليزي بتونس خاصة بعد حملة اللورد اكسموث على الجزائر سنة حيث سارعت انجلترا الى اخبار تونس بانتصار حملتها على الجزائر وهذا ما نستنتجه من إحدى الوثائق الارشيفة الصادرة في 31 اوت 1816م عن قنصل انجلترا في تونس بعد انتصار حملة اللورد اكسموث على الجزائر والتي اكد فيها القنصل على ضرورة احترام تونس للاتفاقيات التي أبرمت مع انجلترا سابقا دون إحداث أي تغيير مع الإبقاء على امتيازاتها[15].

من جهة أخرى طبيعة الخلافات بين تونس والجزائر حول قضية صيد المرجان بالسواحل والتي كانت إحدى العوامل في ظهور النزاعات في فترات معينة وهذا ما نستنتجه من خلال بعض الوثائق حول النزاع بين مراكب صيد المرجان البحرية رقم اتفاق الايالتين سابقا على حدود صيد المرجان [16]، ومن بينها رسالة من المدعو الحاج عمار بن الحاج احمد المركانتي بعنابة الى قرصان باي تونس وهي دون تاريخ لكنها ترجع الى عهد الداي حسين أي بعد سنة 1818، مضمونها تقديم شكوى من الجزائر حول قيام بعض مراكب الصيد التونسية باعتراض بعض الصيادين في سواحل الجزائر وقد حذر صاحب الرسالة من هذه الأعمال وأكد على ضرورة الاحترام وعدم التعرض لأي من المراكب حفاظا على الصلح وتجنب الفتنة بين الطرفين.

لم تتوقف الخلافات الناتجة عن الحدود بعد موقعة وادي سيراط وبسبب نقض الجزائريين للصلح الذي تم سنة 1816 (1232ه)، واستعداد تونس للحرب كما ذكر المؤرخ التونسي ابن ابي الضياف[17] وتأثير الاوضاع التي كان يعيشها بايلك الشرق في هذه الفترة من بسبب المجاعة ونقص السلع والمؤونة خاصة القمح والشعير حتى ان الاوامر قد اعطيت للخروج الى البوادي لاخذ الحبوب المدخرة[18]، بل استمرت هذه الخلافات والاغارات المتبادلة خاصة من قبل الاعراش الحدودية من الجانبين على الحدود البرية بسوق اهراس وتبسة، ومنطقة الكاف التي تعد منطقة هامة لتواجد الجزائريين فيها

واعتبارها سوق رئيسية، وقد ذكرت إحدى الوثائق التونسية المؤرخة في جمادي الثانية 1236ه/ 1820م، عودة النزاع والتوتر بسبب الخلافات بين الرعايا المتواجدين على حدود الايالتين، ودليل ذلك ما ورد في بعض الوثائق حول توغل بعض القبائل التونسية في المناطق الحدودية للايالة الجزائرية وقيامها باثارة بعض المشاكل اعتبرتها الجزائر تحريضا على الثورات ضد الحكم العثماني، وهذا ما نستنتجه من مضمون ما جاء في رسالة احمد باي الى باي تونس حسين باشا في 22رمضان 1242ه، يخبره بان بعض الاعراش التونسية الحدودية مثل عرش الزغالمة وشارن وأولاد بوغانم التونسية قد اعتدت على بعض الاعراش الجزائرية داخل حدودها وان عرش ورغة التي تجمعها حدود بالحنانشة قد توغل بعض أفراده داخل حدود الجزائر وقد قام هؤلاء باثارة المشاكل والاعتداءات وسرقة المواشي،[19]، وكذلك الرسالة التي بعثها الحاج احمد باي في شكل انذار الى السيد صالح بن محمد بالضياف قائد الزعالمة يخبره بتوغل هذا العرش داخل الحدود الجزائرية ورفضه للرحيل مما يستوجب معاقبته، ورسالة أخرى الى نفس القائد حول المشاكل التي تثيرها اعراش أولاد يحيي علي داخل الحدود الجزائرية[20].

وما نستنتجه من خلال هذه الوثائق ان جوهر الخلافات لم يكن مصدره السلطة في كلا الايالتين، وانما النزاع القائم بين الاعراش الحدودية التي ترتبط ببعضها البعض بروابط جغرافية واجتماعية واقتصادية وغيرها لا يمكن التحكم فيها.

ومن جهة أخرى تضمنت الوثائق الارشيفية وثيقة هامة مؤرخة في منتصف شهر جمادى الثانية1236ه الموافقة لسنة 1820م (وهو تاريخ عقد الصلح الأخير مع الجزائر)وهي عبارة عن مجموعة من التقارير قدمت عرضا مفصلا عن الحملات التي قامت بها الجزائر داخل تونس والتي تبدأ بحملة عبد الله باي منذ 1219ه-1804م، عبر هذه المناطق وتوغلها إلى الحدود التونسية في شكل أغارات وحملات انتقامية ونهب وسلب نفذت من قبل بايات الشرق أنفسهم او بعض الشيوخ من القبائل والاعراش الجزائرية المتاخمة للحدود التونسية[21]، وتحمل هذه التقارير اختام خاصة بقادة ومشايخ الاعراش التونسية الغربية حول منطقة الكاف وبعض العلماء والقضاة والمفتيين، الذين اتفقوا على مجموعة من التقارير حول الاغارات الجزائرية ووما نستنتجه من خلال قراءة هذه الوثيقة أنها قد قدمت تفاصيل هامة حول الاعراش التونسية التي تعرضت للغزو وكانت ضد جهات عديدة بلغت في مجملها ثمانية عشر تقريرا حولها، وتعدد الجهات التي

انطلقت منها، بدات منذ عهد عبد الله 1804 لان فترته تميزت بكثرة الحملات على الحدود التونسية،، ويمكن تقسيم هذه التقارير حول الاغارات حسب الجهات التي قامت بها :

الحملات التي قام بها باي قسنطينة عبد الله باي سنة1804 على منطقة الكاف وعددها ثلاث حملات، وتذكر الوثيقة بن الحملة قتلت مائة وسبعون شخصا واستولت على ألف وثمانمائة من الإبل وغيرها وحوالي 2000محبوب ذهب و2500ريال دورو، و5000 ريال سكة تونس، وحملة أخرى قام بها هذا الباي رفقة شيخ الحنانشة والحراكتة على عرش الفراشيش سنة 1804 قتل خلالها ثلاثة آلاف شخص حسب التقرير الوارد في الوثيقة، وتم الاستيلاء على 36الف ريال سكة تونس، وتتحدث الوثيقة أيضا عن الحملة التي قام بها على عرش جندوبة بغرب تونس وتذكر الوثيقة انه قتل مائة وخمس وثلاثون شخصا واستولى على حوالي الف ومائتان ناقة مع 12الف ريال سكة تونس، والحملة التي قام بها على عرش القواسم التونسي، وذكرت انه قتل منهم عشرون شخصا واستولى على 10الاف ريال تونسي. بالاضافة إلى حملة أخرى قام بها حسن اغا[22]على عرش الزغاملة سنة 1807. وتذكر الوثيقة أن الحملة كانت من الفرسان والراجلين ونتج عنها مقتل مائتان وخمسون شخصا من بينهم الأطفال والنساء.

تذكر الوثيقة كذلك عدة حملات قام بها شيوخ وقادة الاعراش الشرقية الجزائرية المتاخمة للحدود التونسية على الاعراش التونسية الغربية ومنها الحملة التي قام بها عرش أولاد ذياب بالجزائر على عرش أولاد بوغانم بتونس، والتي قتل خلالها اثنان وسبعون شخصا، منهم الأطفال والنساء، والاستيلاء على ألف وخمسمائة رأس من الابل، وغيرها واخذ 2500 محبوب ذهب و3000 ريال دورو.

تذكر الوثيقة نفسها الحملة التي قام بها عرش الحنانشة على ورغة التي تجمعها حدود مع الحنانشة، ونتج عنها قتل حوالي ثلاثين شخصا بين الذكور والاناث وحتى العبيد منهم وقد تم الاستيلاء على حوالي 12000ريال ومواد غذائية من قمح وشعير، كما قام عرش الحنانشة بحملة على عرش أولاد عرفة التونسي قتل خلالها ثلاثين شخصا، واستولى على 10الاف ريال. بالإضافة الى الحملة التي قام بها عرش المحاتلة بحدود سوق اهراس على عرش التوابع بتونس، وتذكر الوثيقة انه قتل حوالي ستة وعشرون شخصا بين الذكور والاناث، بالاضافة الى استيلاءه على مائتي بندقية و11الف ريال من سكة تونس، وتضيف

نفس الوثيقة تقريرا آخرا حول الحملة التي قام بها شيخ أولاد علي بن يحي بالجزائر على عرش أولاد يعقوب بتونس قتل خلالها حوالي ستة عشر شخصا واستولى على 12الف من الدراهم التونسية وغيرها، كما قام هذا العرش بحملة على عرش أولاد علي التونسي، وتذكر الوثيقة انه قتل ثمانية أشخاص وتم الاستيلاء على ألفي رأس من الاغنام، واستولى على 12الف ريال وغيرها، ورغم هذه التقارير المفصلة حول هذه الاغارات إلا انها قد بالغت في الأرقام التي قدمتها والتي تخص أعداد القتلى والغنائم من الابل والابقار والماشية التي استحوذت عليها، وربما هذه المبالغة لتبرير موقف تونس من هذا النزاع وتحميل الجزائر مسؤولية هذه الأحداث أمام السلطة العثمانية التي توسطت للصلح بين الطرفين.

الصلح بين الطرفين: لقد كانت هنالك جهود متعددة لعقد صلح بين الطرفين وتجنب الحرب سواء كانت من قبل شخصيات الايالتين أو كانت بوساطة عثمانية، وقد تضمنت الوثائق الأرشيفية التونسية على عدة رسائل حول هذا الموضوع، وهذا يبين دور الخلافة لعقد الصلح وإنهاء النزاع بين الطرفين، ونذكر منها:

المبادرة التي قام بها السلطان العثماني سنة1227هالموافق ل1812، بين تونس والجزائر وهي دعوة صريحة لعقد للصلح من خلال إصدار ما يعرف بالخط الهمريوني الذي بموجبه ألزم الطرفين على إنهاء الخلاف، بعدما أرسلت تونس شكوى للخلافة حول بعض المراكب الجزائرية المستقرة في سواحل تونس وربما كانت في حالة الهجوم على جربة، وكان الخط الهمريوني في شكل انذار للمراكب الجزائرية لوقف عملياتها، وهددت الخلافة الطرف غير الملتزم بالشروط بمعاقبته من قبل السلطان العثماني[23]، وربما هذه الحادثة ترجع أسبابها الى سنة1810، فقد ذكر الزهار في مذكراته انه خلال سنة1225هالموافق ل 1810م قد قام الرايس حميدو بأخذ مركبا تونسيا ثم جهز مراكب نحو جربة لاخذها وبدا يقوم بعمليات رمي نحو البر فهرب أهلها، وهربت المراكب التونسية [24].

وقد بينت بعض الوثائق رغبة الايالتين في الصلح وهذا ما نستنتجه من مضمون رسالة موجهة من حسين باشا بتونس الى داي الجزائر حول طلب الجزائر الصلح من تونس[25]، وهي لا تتضمن تاريخ معين ولكنها ربما ترجع إلى فترات بعد وفاة حمودة باشا ودليل ذلك ما جاء في الوثيقة(وقد كان المرحوم سيدي حمودة باشا اخذ مركبا بها بضائع كثيرة ومال له بال من تجارة بلادكم وقت الفتنة ولكنه أبقى على الجمرك سنين عديدة)،

ومضمونها حول قضية الصلح بين الايالتين لكن الطرف التونسي قام برفض شروط الصلح التي تمسكت بها الجزائر وكأنها في نظر تونس بمثابة الجزية فقد كانت مجبرة على دفع كميات من الزيت الى الجزائر كشرط أساسي للصلح، وتضيف الرسالة أن مسالة الزيت قد تسببت في اندلاع الحروب بين الطرفين سابقا وبالتالي يكون الصلح بتنازل الجزائر عن شروطها السابقة حسب الوثيقة.

وقد استمرت الخلافة في سعيها للصلح وهذا ما نستنتجه من مضمون الرسالة الصادرة بتاريخ 11ذي الحجة سنة1232ه الموافق لسنة1817 حول قبول دعوة الخلافة للصلح من قبل أهل الجزائر الذين قدموا لأجل الصلح إلى الاستانة[26]، لكن بالرغم من هذا المسعى إلا أن هذه الصلح الذي عقد بهذا التاريخ تم نقضه وعودة النزاع بين الايالتين من جديد.

كما تذكر إحدى الوثائق الصادرة بتاريخ18جمادى الأولى 1229ه، 1822م لا تحمل عنوان[27] وهي مبتورة السطور الأولى على لسان احدى الشخصيات دعوة تونس للصلح مع الجزائر بالرغم من عدم استجابة الجزائر لدعوة السلطان العثماني وان الجزائر لم تقدم جوابا للسلطان والأكثر من ذلك قد أساء مبعوثها في خطابه واعتبرت السلطة العثمانية هذا الموقف بانه تمردا عن الطاعة، فقامت باسقاط الشروط الجزائرية على تونس.

هذه الرواية قد فصل فيها احمد الشريف الزهار في مذكراته[28]بان السلطان محمود خان قد بعث إلى تونس والجزائر بان يرسل كل منهما مبعوثا من الاوجاق بشان الصلح فذهب من تونس رجلا عاقلا وذهب من الجزائر رجل اقل الناس عقلا على حد قوله:"(لو أن الأمير بعث برجل من المرسطان[29]لكان أحسن ولما وصلوا إلى الحضرة العلية أمر وزيره الأعظم الكلام من الرجلين فسؤلا عن أسباب العداوة بين أمراء الوجقين فاخبره التونسي وعرف كيف يتكلم واظهر له الحق...)، لكن المبعوث الجزائري لم يكن كذلك بقوله:(هذه تونس كنا أخذناها سابقا وأصبح أهلها رعية لنا وكنا نأخذ منهم الغرامة كل سنة ثم أنهم عصونا فصرنا نأخذهم ولا نزال نأخذهم ونأخذ بلادهم أن التوانسة رعية لنا مثلما الكريك رعية لكم) هذا الموقف أدى إلى غضب الوزير وأكد أن تونس ليست مجبرة على تقديم العطاء للجزائر وفرض الصلح بين الطرفين سنة 1232 الموافق ل1816، وهذا العرض الذي قدمه الزهار في مذكراته يتطابق في معناه مع مضمون الوثيقة السابقة بأن الخلافة

العثمانية قد فرضت صلحا على الطرفين دون الشروط متعارف عليها من قبل، لكن مسالة النزاع والاغارات على حدود الايالتين استمرت خلال الاحتلال الفرنسي للجزائر خاصة على حدود منطقة سوق أهراس ومن بينها اغارات المدعو بن نصر بن شهرة على الحدود التونسية، وكذلك توغل القبائل التونسية داخل الحدود الجزائرية وأصبحت هذه القضايا مبررات للخلاف بين تونس فرنسا انتهى بخضوع تونس للحماية الفرنسية.

الملاحق

رسالة القنصل الانجليزي حول النصر الذي حققته حملة اللورد اكسموث

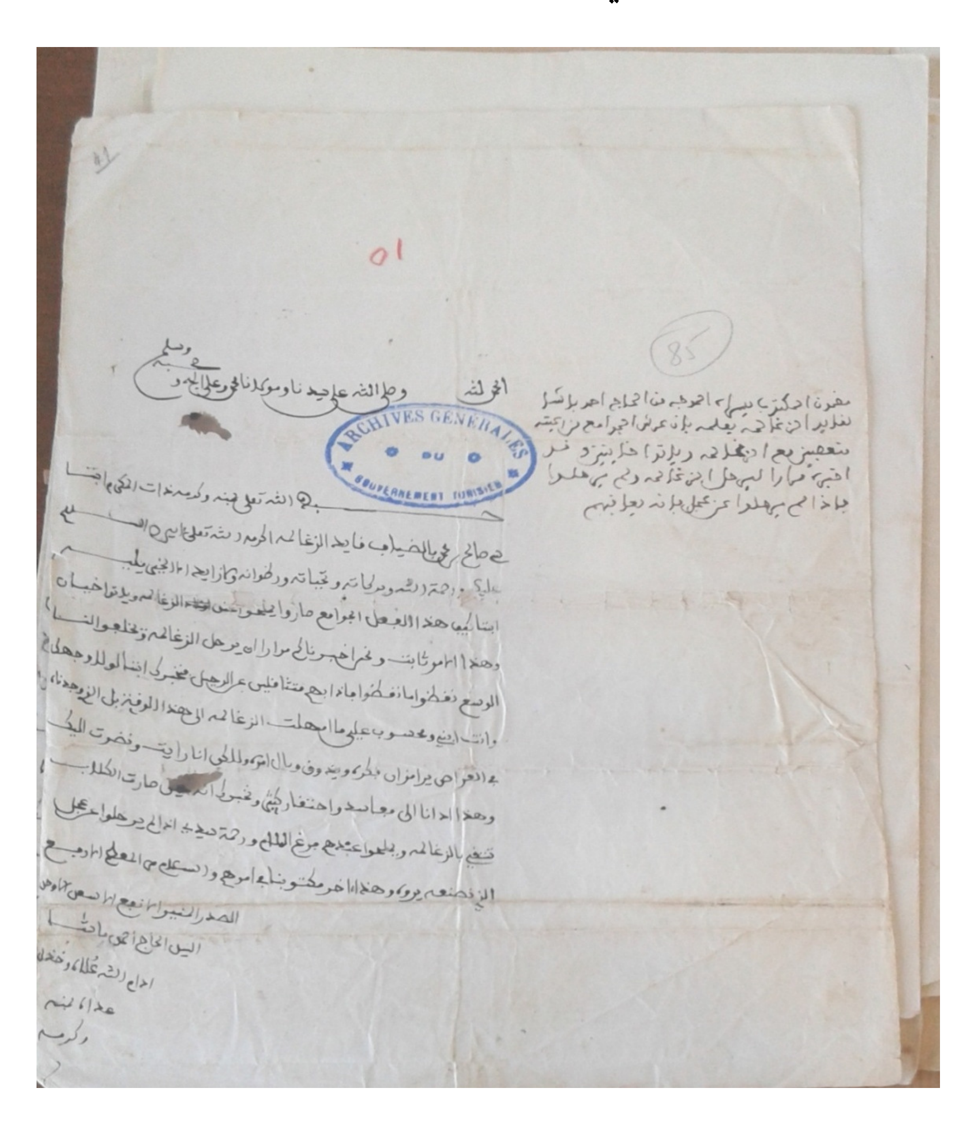
31 اوغست 1816

كتبنا في مركب دي البريتان المسمات [illegible]
في مرسة الجزاير ٣١ في اغشت ١٨١٦ سنة

نعلم الجناب العلي وانا رغبنا قنصل جنرال الانقليز بتونس ليعلم
جنابكم العلي بالنصر الكبير الذي تنصرت به دولة الانقليز الذي
هي تحت حكم الامرال اللورد اكسموت في خراب المراكب وقلع
جناب العلي داي الجزاير الذي بعد النصر وقع به الصلح والاتفاق
كما يبينه لكم القنصل
ولنعلمكم بعد ما توجه لورد اكسموت من تونس وقع لنا السرور
الكلي لنعلمه ونعلم ايضا الدولة الانقليزية بدوام الشروط
والمرابطة التي وقعت بينكم وانتم ابقيتموها على حالها من
غير تبديل ولا خلاف والان سيادتكم تنظروا بعد من ذا و ف
داي الجزاير غلب وسلم في شروط وانها صعيبة كثيرة
والان حيث كانت محبتنا كبيرة عندي ونشتهي لجنابكم العلي رضاء
منا لتبيين لدى الانقليز وان اشتهيا فقط لموافقة مطلوبه وتنظروا
بعد من ان اشتهيا الراي في تلك المطلوب
والان نتكلم معكم جهارا برضا. نعتقد وطاعة مني لنبين محبتنا ونفرح
بغبة ما عند من اسارى النصارى الذين اخرناهم من هنا عصبا
وامر مثل هذا ينشا عنه زيادة المحبة بيننا وبين دولة الانقليز ومن غير شك
وان الامر يتم لكم بمنفوع كبير لجنابكم العلي ولجميع اهل وطنكم
وارسلنا لكم من على يد قنصلنا بتونس وبعد ايام قليلة نرسل لكم مركبا فيه
لنعلم به الجواب الذي اقتضاه نظركم ونطلب من الله ان يوفق جميع عباده
ويكون في عز ورفعة لنكون خديما لكم من الثانة ادمرال [illegible]
بن روسي

رسالة الحاج احمد باي لقائد الزعالمة حول توغل عرش الجوامع الى الحدود الجزائرية، دون تاريخ

تقارير حول اغارات الجزائريين على الاعراش الغربية لتونس، مؤرخة في اواسط جمادة الثانية 1236هـ


٥١

85

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ARCHIVES GENERALES DU GOUVERNEMENT TUNISIEN

رسالة من والي تونس إلى مأمور الوجق بتونس حول إغارة عبد الله باي، وموقعة وادي سيراط، دون تاريخ

(١٥٤)

مكتوب من والى تونس الى مأمور الوجق المنصورة ببلدة ازمير بدون تاريخ
وبدون امضا وهذه ترجمته :
الى جناب ذوى السعادة والعزة ابنى ونور عينى محمد خوجه المأمور الآن
فى خدمة الوجق المنصور ببلد ازمير والى ذى السعادة والرافة و
المودة اخى الاعز سلطانى شريف اغا وكيل الوجق المنصور
بعد تبليغ درر الدعوات الصالحات وغرر التسليمات الوافيات الى ذوى
العزة حضرات اولادنا الشجعان الموجودين بمعية ولدنا محمد خوجه المومى
اليه كبيراً وصغيراً نعرف جنابكم ان قبل تاريخه بمدة خمسة او ستة
شهور وقع الهجوم من عبد الله بيك باى قسنطينيه بغتة بالغارة
على عرشى اولاد بوغانم الكائنين فى راسى الحدود بما اوجب شيئاً من
الخسارة وبعد ما اخرجنا محلة الشتاء مرتبة من طرفنا على حسب القاعدة
جهزنا محلة اخرى مرتبة ايضا على مقتضى الوقت والحال واخرجناها بمعرفة ذى
السعادة ولدنا سليمان اغا وارسلناها جملة واحدة على قسطنطينه و
بعناية الله تعالى فانهم فى اول الامر عند وصولهم الى قسطنطينه اخذوا محلتها
ثم بعد ذلك حاصروها ودامت المحاربة هناك شهراً كاملاً ثم ظهر من طرف

جواب من محمد عربنود إلى والي تونس حول الالتزام بدعوة الصلح التي طلبها السلطان العثماني، مؤرخة في 7جمادى الاولى 1227ه

(١٥٦)

تعريب جواب من محمد عربنود المقيم بازمير الى والي تونس مؤرخ في ٧ من جمادى الاولى
عام ١٢٢٧ هجري ٢١ مايو ١٨١٢

ذوا الدولة والعناية والرأفة والمروئة ولي النعم وفور الكرم حضرة سيدي وسلطاني
جناب الواحد الذي لا شبيه له يحفظ وجودكم العالي المبارك من كافة الاكدار
ويجعل ايام عمركم ودولتكم متزايدة كثيرة امين

فالذي يعرضه العبد هو ان في اثناء مدة مكث عبدكم هذا واقامته بازمير
قد اتاني مكتوب عالي من جانب قبطان البحر ذوا الدولة ولي النعم حضرة سيدنا
خسرو محمد باشا يدعو فيه عبدكم للذهاب الى دار السعادة وذلك بموجب
ارادة صادرة من طرف الدولة العلية فبموجب مطلوبه وامتثالا للامر ذهبت
الى الاستانه وتشرفت بتقبيل اذيال دولته وبعد مراسم الملاقات كان
امره وجوابه كما ياتي : ما هي كيفيات احوال تلك الجهات وما هذه
المنافسة الموجودة بين الوجاقات وما السبب في عدم مصالحتهم وفي بقاء
الوحشة بينهم . فعبدكم هذا اجاب عن تلك الاسئلة بما امكنه وبموجب افادته
وقع التلخيص للحضرة الهمايونية وعليه صدرت ارادة سلطانية بالخط الهمايوني
وهذا نصها : ان الحضرة السلطانية قد اهتمت بمصالحة الوجاقات وتامر
بتهيئة سفينة وبتعيين رجل فصيح من معتبري الترسانة العامرة كي يصل
الى تلك الجهة ويمحو ما هو موجود من المنافسة بين الوجاقات ويصالحهم
وان احد خالف خط الهمايوني هذه المرة ايضا فان ضابطات ذلك الوجاق

الهوامش:

1. عمل حمودة باشا على اتباع سياسة داخلية اعتمدت على اصلاح احوال بلاده وفرض نظام جباية خاص، وتنظيم الادارة المحليةواتباع سياسة عسكرية اعتمد خلالها على تسليح بلاده واستيراد الاسلحة= =واستقبال الهدايا الخاصة بالسلاح من السويد والدانمارك، وان يتحصل على دعم فرنسي لانشاء مصنع للبارود سنة1787م ووما ان حلت بدايات القرن التاسع عشر حتى اعترفت فرنسا بتفوق اسطوله على الاسطول الجزائري، انظر: نبيهة السلطاني،القوى العسكرية بتونس وتكاليفها المالية من 1756الى1814، رسالة دكتوراه، جامعة تونس الاولى، 1999-2000،ص181-195.وكذلك:تونس أعلام ومعالم (مؤلف جماعي)،المعهد الوطني للثراث، تونس1997ـص191-192.
2. مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار، تحقيق احمد توفيق المدني،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1980،ص96-98
3. محمد الصالح بن العنتري، فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلاءهم على اوطانها، تحقيق يحيي بوعزيزنة دار هومة للنشر، الجزائر،2005،ص92-100.
4. الحاج احمد بن مبارك بن العطار، تاريخ قسنطينة، تحقيق عبد الله حمادي، دار الفائز للطباعة والنشر،قسنطينة 2011،ص114-122.
5. مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم2717.
6. ابن ابي الضياف، اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان،ج2، الدار العربية للكتب، تونس1999،ص37-49.
7. الحافظة رقم 223، الملف384،موقعة وادي سيراط.
8. جاء في مخطوط اخبار بلد قسنطينة، ورقة 7 ما يلي:(فلما ان تم امره عبد الله المذكور في البلد عمر محلة وخرج قاصدا لبلد الشرق من ناحية تونس واحاط فيهم بالاخذ والنهب فمن جملة ذلك اخذ لهم عرشا يقال له الفراشيش...)
9. التريس اي المدافع.
10. المهردار هو صاحب الطابع.
11. مذكرات الشريف الزهار، المصدر السابق،ص96-98، وكذلك اخبار بلد قسنطينة لمجهول، المصدر السابق، ورقة 7-
12. مراسلات صادرة بين مؤلفين جزائريين موجهة الى باي تونس، الحافظة 223، الملف384.
13. انظر: ابن ابي الضياف، اتحاف اهل الزمان،المصدر السابق،ص38-39.
14. هذه الوثائق ضمن الحافظة رقم247، الملف634بعنوان:علاقات الدولة التونسية بامارة سردينيا الايطالية
15. الحافظة رقم 223، الملف384، العلاقات التونسية الجزائرية.

16. الحافظة رقم. 238 الملف رقم550 مراسلات حول صيد المرجان بالسواحل التونسية.

17. ابن ابي الضياف، اتحاف الزمان،ج3ص134.

18. اوجين فايسيت، تاريخ بايات قسنطينة، ترجمة صالح انور، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر،2010،ص219-220.

19. الحافظة رقم223، الملف384، مكتوب من الحاج احمد باي إلى السيد حسين باشا بتونس في شان نزاع وقع بين رعايا تونس ورعايا الجزائر.

20. الحافظة رقم 223ـ الملف 384،مكتوب من الحاج احمد باي لقائد الزعاملة، دون تاريخ.

21. الحافظة223، الملف384، حول اغارات الجزائريين على الاعراش الحدودية التونسية

22. هو قائد الحملة العسكرية التي اتت من الجزائر لدعم قوات عبد الله باي لفك الحصار التونسي على قسنطينة.

23. الحافظة رقم 223.الملف384.العلاقات التونسية الجزائرية، رسالة المدعو محمد عربنود الباش داي تونس بازمير 7جمادى الاولى 1227ه،

24. مذكرات احمد الشريف الزهار، المصدر السابق،ص106.

25. الحافظة رقم223، الملف 384 حول العلاقات التونسية الجزائرية بعنوان:مضمون المكتوب الموجه من السيد حسين باشا الى باشا الجزائر في شان طلب الصلح.

26. الحافظة رقم221،الملف 354 بعنوان مراسلات تتعلق ببعثة احمد قبطان المورالي إلى الاستانة في شان الصلح بين تونس والجزائر.

27. الحافظة رقم223 الملف384 حول العلاقات التونسية الجزائرية.

28. مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار،ص146-147.

29. اي دار المجانين.

معاهدة 1786
محاولة لتهدئة الصراع بين اسبانيا والجزائر

د. صباح نوري هادي العبيدي
جامعة ديالى/ العراق

مقدمة:

شهدت منطقة غرب البحر الأبيض المتوسط خلال القرن الثامن عشر الميلادي تطورات سياسية هامة، وأحداثاً بارزة ساهمت في إعادة بلورة العلاقات بين الدول القائمة على ضفتيه الشمالية والجنوبية. وقد شكلت إيالة الجزائر[1]، محوراً للعلاقات الإقليمية التي أخذت الطابع السلمي أحياناً والطابع العدائي والحروب في أحيان أخرى. لذا يمكننا القول إن الجزائر ارتبطت بدول جنوب غرب أوربا المتوسطية بعلاقات تاريخية، أخذت اتجاهات سياسية واقتصادية تتغير أبعادها وفق توازنات القوى ومدى قدرة الجزائر على مواجهات التحديات الخارجية. وهذا بطبيعة الحال، كرست تاريخاً مشتركاً يربط بينهما، وهو التاريخ الذي تأرجح بين التحالف والتعاون أحياناً، والصراع والصدام المسلح في أحياناأخرى.

كانت هناك عوامل عدة جعلت منتأرجح تلك العلاقة بين صورة السلم تارة والحرب تارة أخرى، وفي مقدمتها التحولات السياسية التي مّرت بها دول غرب أوربا المتوسطية في هذه المدة [2]، وما أفرزته من انعكاسات على الجزائر. ومن خلال هذا البحث سوف نركز على جزئيه من جزئيات تلك العلاقات التي ارتبطت بها الجزائر مع تلك الدول الأوربية، واعني هنا العلاقات الاسبانية الجزائرية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، والتي توجت بعقد الصلح بينهما إيذاناً بمرحلة جديدة من العلاقات السياسية والدبلوماسية. والاهم

من هذا، كانت خطوة دبلوماسية أعقبت صراعاً مسلحاً من اجل تحرير مدينة وهران من الاحتلال الاسباني.

اتسمت العلاقات الجزائرية الاسبانية طيلة العهد العثماني بالعدائية والصراع المسلح الذي كثيرا ما كان يفضي إلى احتلال مناطق من الساحل الجزائري[3]، برز السلوك العدائي من جانب الأسبان تحديدا نتيجة النشاط البحري للأسطول الجزائري الذي هدد خطوط المواصلات الاسبانية خاصة، والأوربية عامة، وتمسك الأسبان باحتلال وهران والمرسى الكبير. ولكن هذه العلاقة المتوترة تراجعت حدتها في أواخر القرن الثامن عشر، وتحديداً في عهد الداي محمد عثمان باشا(1766-1791م)[4]، حينما أرادا الطرفين الجزائري والاسباني إيجاد الحلول التي تخفف من حدة الخلافات وتنقل العلاقة بينهما إلى حالة السلم والاستقرار. ويبدو إن هناك أسباباً داخلية وخارجية فرضت نفسها على الطرفين جعلتهما يفكرا مليا بهذه المسالة. ومن خلال هذا البحث سوف نسلط الضوء على تلك المحاولات الجادة للسلم بين الطرفين من خلال دراسة الظروف والأسباب التي أدت إلى هذه الرغبة ونتائجها .

أولاً: مفهوم القوة: وسيلة الأسبان للصلح مع الجزائر

منذ اعتلائه عرش اسبانيا عمل الملك كارلوس الثالث(1759-1788م)[5],على استعادة مكانة اسبانيا في منطقة الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط[6]، إذ وضع في أولويات سياسته الخارجية مسألة إنهاء التهديدات الجزائرية للمصالح الاسبانية في المنطقة، واعدّت كل السبل مقبولة لتحقيق ذلك، بما فيها الوصول إلى تسوية مع إيالة الجزائر، وشجعه على ذلك استقرار الأوضاع الداخلية في بلاده منذ نهاية حرب الوراثة، فضلاً عن ذلك تمكنها من المحافظة على مستعمراتها فيما وراء البحار، وتدفق خيرات العالم الجديد عليها، وللمحافظة على هذا الاستقرار والرخاء الاقتصادي كان لابد من تأمين طرق المواصلات البحرية لبلاده والتي كانت البحرية الجزائرية تشكل تهديداً لها[7].

وتمكنت أسبانيا في مدة حكم كارلوس الثالث من تعزيز قدراتها العسكرية عبر بناء أسطول بحري، ووجد الملك في تنامي قدراته العسكرية وسيلة للضغط على الجزائر للاستجابة لما يريد ويسعى إليه في سياسته الخارجية. ونتيجة ذلك، وجد في التلويح بالعصا الغليظة لإجبار إيالة الجزائر على القبول بالتفاوض والوصول إلى التسوية تعيد الهيبة

الدولية للإسبان في غرب المتوسط ممكنه. ولكن ذلك، لم يحقق للاسبان المبتغى، بعدما رفض الداي رفضاً قاطعاً الدخول في أي مفاوضات ما دامت اسبانيا تحتل وهران والمرسى الكبير[8]. واستمرت سياسة التلويح بالقوة من قبل الاسبان، إذ حينما تولى الداي محمد عثمان باشاتسير شؤون الإيالة الجزائرية، أرسل الملك كارلوس الثالث مبعوثاً عنه لتهنئته الداي الجديد، كما دعاه لعقد الصلح مع مملكته مقابل مبالغ مالية كبيرة، غير أن الداي محمد عثمان باشا رفض المقترح، وخاطب المبعوث الإسباني، قائلا :"إني لا أخاف من القوات الإسبانية، وإن السلاح هو الفاصل بيننا"[9].

وحينما اقتنع الملك الاسباني من إن التلويح بالقوة للجزائريين لن يجد نفعاً، حاول قبل اللجوء إلى استخدامها، اللجوء للسلطان المغربي محمد بن عبد الله (1171- 1204)[10] طالباً منه التوسط من أجل ذلك، لاسّيما وأن العلاقات بينهما أخذت طابعاً ودياً بعد عقدهما معاهدة صلح في عام 1767[11]. وبالفعل بذل السلطان المغربي جهوده الدبلوماسية لإقناع الداي في الجزائر بأهمية الصلح بين اسبانيا والجزائر، إذ أرسل كتابا يرجوه فيه بالموافقة على التصالح، واخبره من انه سيحصل مقابل الصلح على أموال كثيرة من الإسبان [12]. ولم تثمر محاولات السلطان المغربي في هذا الاتجاه إلا عن موافقة الداي على تبادل الأسرى بين الطرفين في عام 1767 [13]. وفي عام 1773، حينما أريد تبادل الأسرى بينهما من جديد، اشترط الداي محمد عثمان باشا إطلاق سراح أسيرين مسلمين مقابل كل أسير إسباني، وبذلك أطلقت إسبانيا سراح 1106 أسيراً مسلماً مقابل إطلاق سراح 570 أسير من الاسبان[14].

ويمكننا عدّ عملية تبادل الأسرى هي أول اتصال سياسي بين الجزائر وإسبانيا، إلا أنهالم تساعد على تقريب وجهات النظر بينهما نتيجة رفض الداي محمد عثمان باشا المستمر لأي اتفاق سلام مع إسبانيا مادامت متمسكة باحتلال وهران والمرسى الكبير. ونتيجة ذلك، لم يكن أمام اسبانيا إلا استخدام القوة التي كانت تلوح بها من قبل. فانتقلت العلاقات من حالة التهدئة الى حالة إعلان الحرب من قبل الاسبان، وهي السمة الطبيعية للعلاقات بينهما.

ثانياً: حملة الكونت اوريلي على الجزائر 1775 وفشل الحلول العسكرية:

كان القرار الاسباني بشن هجوم على السواحل الجزائرية عبر حملة عسكرية بهدف إخضاعها إن أمكن أو إجبارها على الاستجابة للمطالب الاسبانية بخصوص التهدئة

والتصالح في عام 1775. والمخطط كان يقوم على أساس المباغتة عبر هجوم بحري وبري في الآن واحد، بعد أن حدد المكان وهو مدينة الجزائر، وتم إسناد قيادة الحملة إلى الأميرال الكونت أوريلي[15].

كانت الحملة كبيرة جدا وتألفت من 500سفينة حربية مجهزة تجهيزا حديثا، و20000 من المشاة، وحوالي 800 فارس و900 من رجال المدفعية مع مدافعهم، وقد بلغ عدد البحارة حوالي 3500 بحار، فضلاً عن ذلك أعداد كبيرة من العبيد[16]. حاول الاسبان الإعداد للحملة بسرية تامة، ولكن أخبارها وصلت مسامع الداي محمد عثمان باشا[17]. والذي عجل بالاستعداد لها حتى بلغ عدد قواته قرابة 150 ألف جندي[18].

انطلقت الحملة الاسبانية في يوم الثالث والعشرين من جوان 1775، ووصلت إلى قبالة مدينة الجزائر في الأول من شهر تموز، تم الانزال في يوم الثامن من جويلية على الساعة الرابعة فجراً شرق مدينة الجزائر قرب وادي الحراش[19]. ودامت المواجهات بين الطرفين عشرة أيام، والتي انتهت بفشل الحملة من تحقيق أهدافها المبرمجة لها، وتم الانسحاب في يوم الثامن عشر من جويلية، وقد تكبدت القوات الاسبانية خسائر مادية وبشرية فادحة[20] .

كان من الطبيعي أنيكون للفشل الاسباني آثاره السياسية والدبلوماسية، إذ أدى هذا الفشل في الحط من مكانة إسبانيا الدولية، وجعل الدول الأوربية تتردد في موقفها المؤيد للاسبان في سياستهم في منطقة غرب المتوسط، كما هو الحال بالنسبة لفرنسا الطرف الثالث المهم في توازنات المنطقة. واتخذت موقفاً برغماتياً من الصراع القائم بين الطرفين بما يؤمن مصالحها في المنطقة، أي على العكس مما كانت عليه من قبل عندما انحازت إلى جنب الاسبان[21]. كما ساهم الانتصار الذي حققته إيالة الجزائر في رفع شأنها في المنطقة، وهو ما دعا الدول الأوربية أن تسعى لعقد معاهدات سلم معها[22].

ثالثاً: مساعي إسبانيا لمهادنة الجزائر :

أدرك الإسبان، على اثر فشل حملة أوريلي عام 1775، صعوبة حسم الصراع عسكرياً مع الجزائر، وأدرك الملك كارلوس الثالث ضرورة البحث عن الحلول الدبلوماسية في اقناع الجزائر بإقامة علاقة ودية تضمن المصالح الاسبانية غرب المتوسط. وعليه كان الحل التفاوضي هو الأنجع لحل المشكلات الخارجية بالطرق السلمية. واختلفت استراتيجية

التفاوض في هذه المرحلة عما كانت من قبل، اذ وجد الاسبان أن القضاء على القرصنة البحرية التي عطلت مصالح إسبانيا التجارية، لا يمكن أن تحقق إلا من خلال سلم عام مع جميع القوى المحلية والاقليمية. ومن هنا، بدا التحرك الاسباني اتجاه الدولة العثمانية وسلطان المغرب الاقصى كخطوة أولى. وقد تمكن الاسبان من إبرام معاهدة صلح مع الدولة العثمانية في يوم الرابع عشر من سبتمبر 1782، وكان مبتغى الإسبان هو جعل الباب العالي يضغط على حكام إيالة (الجزائر) لابرام معاهدة سلم وصداقةمعها[23].

كما نجح الاسبان من إبرام معاهدة سلم وصداقة مع سلطان المغرب الاقصى في ماي 1780، ومع الاسرة القرمانلية في ايالة طرابلس الغرب في سبتمبر 1784. ولكن حينما وصلت المساعي للجزائر اصطدمت الارادة الاسبانية بالرفض الجزائري، حينما رفض الداي محمد عثمان باشا أي نوع من انواع الصلح والصداقة مع الاسبان لكون اسبانيا تسعى الى تحقيق مصالحها على حساب الجزائر، وأن التعامل معها يجب أن يكون عسكريا فقط. وهذا الموقف دفع أسبانيا الى أن تعيد استعمال ورقة العمل العسكري من جديد[25].

رابعاً: حملة دون أنطونيو برثلو الأولى ورغبة استعراض القوة:

بعد فشل الحملة الدبلوماسية الاسبانية في الضغط على الداي محمد عثمان باشا لإمضاء معاهدة سلم وفق شروط إسبانية تعيد لها هيبتها بين دول البحر الأبيض المتوسط، فضلاً عن ذلك فشلها في فك الحصار البري على مدينة وهران والمرسى الكبير. جاء القرار بأن يكون الرد عسكري، وعليه تقرر تجهيز حملة عسكرية أوكلت قيادتها للأميرال دون انطونيو برثلو، وكان هدف الحملة مهاجمة ميناء الجزائر بشكل خاطف وتدمير جميع السفن الراسية فيه، فضلاً عن قصف المدينة.

انطلقت قوات الحملة من ميناء قرطاجنة في السابع عشر من جويلية 1783، وتمكن من الوصول إلى قبالة مدينة الجزائر يوم التاسع والعشرين من تموز، وبدأت عملية قصف المدينة في الأول من شهر آب [25]. ونتيجة استعمال تقنيات حربية جديدة من قبل الاسبان، تمكنوا من ايقاع خسائر كبيرة في مدينة الجزائر[26]. ولكن سرعان ما تمكن قادة الاسطول الجزائري من ايجاد الحلول في مواجهة هذه التقنيات الحديثة، وابعاد الخطر الاسباني مرة اخرى [27] .وذلك بعد تسعة أيام من المعارك الضارية بين الطرفين، انسحب

الاسطول الاسباني بعدما نضبت ذخائره من دون ان يحقق هدفه[28].إلا أن هذه الحملة لم تكن بنفس القوة من حيث التجهيز مثل حملة أوريلي، ما يدل أنها كانت استعراضية، فكانت محاولة اسبانية للضغط على الداي محمد عثمان باشا، للرضوخ لمطالبها والقبول بالصلح معها .

خامساً: حملة دون أنطونيو برثلو الثانية:

لم يحول فشل الحملة الاسبانية التي قادها برثلو من عام من معاودة الاسبان المحاولة من جديد بمهاجمة الجزائر. وحاولوا الاستفادة من أخطاء التجارب الماضية، وكانت الخطوة هذه المرة بتشكيل تحالف أوربي والحصول على مباركة البابابيوس السادس في الفاتيكان، وبالفعل انضمت البرتغال ومالطا إلى جانب اسبانيا، في حين أعلن البابا مباركته للحملة عندما نشر البابا بيوس السادس يوم الثامن عشر من حزيران مرسوماً بابوياً يعلن فيه أنه وهب البركة والغفران لكل مسيحي يشارك في هذه الحملة[29].

انطلقت الحملة الاسبانية وكانت مؤلفة من حوالي 130 سفينة حربية مابين كبيرة الحجم وصغيرة ومن ضمنها إحدى عشرة سفينة جاءت من نابولي، وثماني سفن من مالطا، وفرقة من البحرية البرتغالية[30]،بالمقابل استعد الداي محمد عثمان باشا لمواجهة الحملة الإسبانية[31]، كما وصلت الجزائر دعما عسكريا من هولندا والسويد والباب العالي لمساعدة إيالة الجزائر لصد هذه الحملة الإسبانية[32] .

انطلقت الحملة من قرطاجنة في الثامن عشر من جوان عام 1784 ووصلت إلى الجزائر في 9 جويلية، وبدأت المعركة بين الطرفين في الثاني عشر من تموز[33]، إذ أخذت 70سفينة إسبانية مواقها استعدادا للهجوم وبالمقابل تصدت لها 63 سفينة جزائرية، وقد بادرت الجزائر بالقتال فرمت قنابلها مكان رسو السفن الإسبانية، والتي ردت بالمقابل بقصف عنيف، إلا أن القذائف الاسبانية كانت لا تصيب السفن الجزائرية،لأنها كانت تسقط وراءها،كما أنها لم تستطع اصابة مدينة الجزائر لبعدها عنها[34] .

في بداية المعركة انسحبت ثلاث قوارب إسبانية نتيجة لإعطاب أصابتها،ثم تلاها إنسحاب كامل للأسطول الاسباني، وفي الخامس عشر من تموز استؤنف القتال وكان أشد وأقوى من المرة الأولى إلا أن السفن الجزائرية بقيت محافظة على مواقعها رغم قوة

النيران الإسبانية [35] .ظهرت قوارب إسبانية للمرة الثالثة في السابع عشر من تموز، مكونة من ثلاثة فرق، الأولى مهمتها الدفاع عن الاسطول والثانية مقاتلة للسفن الجزائرية، أما الثالثة فمهمتها قصف مدينة الجزائر بالمدافع، ودام القتال في هذه المرة ساعتين ثم انسحب بعدها الاسبان لأن معظم قذائفه كانت تسقط في البحر[36]، ثم تجدد القتال في اليوم التالي الثامن عشر من جويلية، فتقدمت فرقة منالاسطول الاسباني وأصابت المرسى، فتصدت لها القوارب الجزائرية وأرغمتها على الانسحاب، وتواصل القتال إلى غاية يوم الحادي والعشرين من تموز,إذ أطلقت السفن الاسبانية ما نحو 15150 قذيفة، لكن أغلبها سقط في البحر، وبقيت المعارك على نفس الوتيرة، إلى أن قرر الاسبان في اليوم 22 إيقاف القتال والانسحاب في 23 جويلية عائداً إلى إسانيا دون ان يحقق أي نتيجة تذكر[37].

وبعد فشل كل الحملات العسكرية الإسبانية المتتالية أدرك الإسبان عجزهم عن القضاء على الجزائر أو الضغط عليها عسكريا لإجبارها على عقد صلح وفق شروطهم،كما لم يتمكنوا من تحقيق آمال المسيحية،الأمر الذي جعلهم يفكرون جدياً في الحل السياسي، فقاموا بجهوداً دبلوماسية حثيثة من أجلاقناع الجزائر بقبول معاهدة سلم معهم[38].

سادساً: الصلح الثنائي وبداية مرحلة التحرير: معاهدة السلم الجزائرية الإسبانية1786:

كلما تفشل اسبانيا في حلولها العسكرية تعاود الكره في مسألة ايجاد حلولاً سلمية للقضايا العالقة مع الجزائر، والتي كان في مقدمتها مهاجمة السفن التجارية الاسبانية في منطقة الحوض الغربي للمتوسط. وعلى هذا الاساس تحركت اسبانيا دبلوماسيا لاقناع الجزائر بما تصبو اليه، وهو ما تحقق في هذه المرحلة.

1. متغيرات الأحداث وبدء المفاوضات:

كان من الطبيعي إن تظافر عدة متغيرات دفعت كلا البلدين على الدخول في مفاوضات مباشرة، وهو الذي اسهم في النهاية الى رسم مسار جديد للعلاقات بينهما،

أ. دوافع الموقف الاسباني:

فرضت جملة من المتغيراتعلى الاسبان الدخول بمفاوضات مباشرة مع الجزائر، وبإلحاح، والتوصل إلى السلم والصلح المنشود، ومنها:

1. فشل الحلول العسكرية ضد الجزائر، وادراك الاسبان عدم جدوى ذلك في اجبار الجزائر على الرضوخ وعقد معاهدة صلح وفق شروطها[39].

2. فقدان اسبانيا لهيبتها في البحر المتوسط نتيجة الفشل المتكرر في نشاطها العسكري تجاه الجزائر، وهذا ما اجبرها جدياً على إعادة النظر في مستقبل علاقتها مع الجزائر.

3. تراجع مكانة إسبانيا الدولية، لاسّيما بعد الهزائم التي منيت بها في صراعها مع بريطانيا، ورفض الأخيرة العرض الاسباني عام 1780 بخصوص مقايضة مستعمرة جبل طارق بمدينة وهران[40].

4. دور الوساطة الذي قامت به فرنسا من خلال مساعيها الدبلوماسية لاقناع إسبانيا بضرورة تغيير سياستها تجاه الجزائر، واقناع الجزائر بقبول مبدأ التفاوض مع الاسبان. وذلك مرتبط في طبيعة المصالح الفرنسية المتنامية في الجزائر ورغبتها في الوقت ذاتهفي ابقاء اسبانيا قوية لمواجهة تحديات اوربية قد تهدد المصالح الفرنسية في المنطقة[41].

ب. دوافع موافقة الجزائر على التفاوض مع الاسبان:

على ما يبدو،إن الدوافع التي حركت الداي محمد إلى الاستجابة لمسألة التفاوض مع الاسبان والتوصل إلى معاهدة صلح معهم تنوعت ما بين إستراتيجية وأخرى داخلية. لايمكننا تجاهلها، لاننا نتذكر الموقف الرافض من جانب الداي لاي نوع من انواع التفاوض مع الاسبان[42]، ويتجلى ذلك واضحا في رده الحاد للمقترح الذي اشار به وكيل الحرج حسن باشا بعد عودته من استانبول، وربما انه كان ينقل وجهة نظر السلطان العثماني بهذا الخصوص، إذ رد قائلا:" لا أصالحهم ما دمت حيا "[43].

وعليه، ما الذي جعل الداي يوافق على التفاوض مع الاسبان؟. على ما يبدو، ان الموافقة جاءت نتيجة ظروف ومتغيرات أجبرته على ذلك، ومنها ما هو استراتيجي، إذ نجحت الجزائر في استنزاف القدرات العسكرية الاسبانية بالشكل الذي افقدها قدرتها العسكرية وهيبتها بين الدول الأوربية بما يجعل من مسألة تحرير وهران قاب قوسين أو أدنى، وهو ما أكدته الأحداث حينما حررت وهران بعد سنوات قليلة. إلى جانب ذلك، علينا أن نشير إلى مسألة مهمة، وهو ما تعرضت إليه البلاد من كوارث طبيعية وانتشار

للأوبئة[44]، وهذه الأمور لايمكن تجاهلها، إذ شهدت الجزائر خلال عامي 1786- 1787، انتشار وباء الطاعون، وهو الوباء الأعنف الذي شهدته الجزائر، إذ خلف نحو 16712 حالة وفاة في مدينة الجزائر وحدها[45]، كما تسبب في وفاة ثلثي سكان مدينة عنابة، وانعكس ذلك سلباً على الحياة في الجزائر في مختلف الجوانب، وهذا الوضع فرض على الداي إعادة النظر في موقفه من مسالة المفاوضات مع الإسبان، وضرورة التوصل إلى الصلح، ولكن شرط تحقيق مكاسب سياسية واقتصادية قد تساعد البلاد على تجاوز المحنة، ويتجلى ذلك في حديث الداي مع اعضاء مجلس الديوان حين قال:" لقد صرنا منذ اليوم لا نخاف ذلك الكافر الذي هزمناه في البر والبحر، شأنه في ذلك شأن أجداده، وإن عقد الصلح معه لايعدّ أبداً عاراً بالنسبة إلينا، لأن ذلك الصلح سنعقده معه وهو تحت سلطان سيوفنا، وعلاوة على ذلك فإنه هو الذي طلب الصلح ولسنا نحن الذين طلبنا ذلك،كما أن الصلح الذي سنعقده معه لمدة ثلاث سنوات سيوفر للإيالة أموالاً كثيرة من خزائن ذلك الكافر، مما يمكنها من تعويض الخسائر التي لحقتها. وإلى جانب ذلك فإن عقد الصلح مع الباب العالي أيد الله حكمه، وكذلك مع سلطان فاس، وبقينا نحن بينهما، ولذلك فإن صلحنا نحن لمدة ثلاث سنوات مع ذلك الكافر لن يمس أبداً بسمعتنا أمامه، لأننا سبق وأن أعطيناه حقه [الانتصار عليه عسكرياً] في البر والبحر"[46]. وهو ما سيتحقق فعلاً في قادم الأيام.

وهناك مسألة أخرى لايمكن تجاهلها في هذا الأمر، وهي تراجع عمليات مهاجمة السفن الأوربية من قبل رياس البحر الجزائريين وما يتم اغتنامه منها مصدرا مهما من مصادر تمويل ميزانية الايالة. وهذه العمليات كانت تخضع لإشراف الإدارة العثمانية في الجزائر، إذ كان الداي يحصل على نسبة 12% من مجموع الغنائم، وهناك ما نسبته الـ 1% لصيانة أرصفة الميناء، والخمس لخزينة الدولة،والباقي يوزع على أصحاب السفن المساهمين في تجهيز السفن[47]. وتراجعت عائدات هذا النشاط في عهد الداي محمد عثمان باشا التي بلغت 100000 فرنك فرنسي، وذلك بسبب تراجع أعداد السفن الناشطة في هذا الميدان، إذ يشير الكاتب شارل اندريه جوليان إلى إن عددها انخفض من 24 قطعة عام 1724 إلى عشر قطع عام1788 [48]. وهذا أمر طبيعي أن يشكل ضغطاً على الإدارة العثمانية والداي لإعادة النظر في المسألة.

2. سير المفاوضات :

بدأت المفاوضات بين الطرفين مع وصول أول وفد اسباني رسمي إلى مدينة الجزائر في حزيران 1785، يتألف من المندوبان الساميان: الكونت ديسيبلي (D'Espilly)، والأميرال مازاريدو(Mazzredo)[49]،وقد استقبلهما الداي محمد عثمان باشا في قصره ودام اللقاء معه قرابة ربع ساعة، وعدّ الوفد الاسباني ذلك علامة ايجابية من أجل التوصل الى اتفاق مشترك[50].استغرقت المفاوضات بين الطرفين قرابة سنة كاملة وتم توقيع المعاهدة في الرابع عشر من جوان 1786[51]، من قبل الداي محمد عثمان باشا، بينما أمضاها عن الجانب الاسباني الوزير الأول الكوندي دي فلوريدا بلانكا في السادس والعشرين من اوت من العام نفسه، وكتبت في ثلاث نسخ، الأولى بالإسبانية وإحتفظ بها الملك الاسباني، والثانية باللغة التركية احتفظ بها داي الجزائر، وثالثة احتفظ بها القنصل الاسباني المقيم بالجزائر[52].

3. تحليل بعض بنود المعاهدة [53]:

عَدّ هذا الإتفاق أول معاهدة سلم وصداقة بين الجزائر وإسبانيا بعد مرحلة طويلة من الصراع الدامي بينهما. ومن خلال الاطلاع على بنود المعاهدة نجدها مطابقة تقريبا لبنود المعاهدة التي عقدتها الجزائر مع فرنسا عام 1689، وهو ما أصر الاسبان عليه خلال المفاوضات[54]، وقد احتوت هذه المعاهدة على خمسة وعشرين بنداً تناولت مسائل عديدةتتمحور أساساً حول الملاحة البحرية، والمبادلات التجارية ووضعية الجالية الإسبانية، والصلاحيات الممنوحة للقنصل الإسباني، ويمكننا إلقاء الضوء على أهم بنودها[55]:

1. تأكيد البنود الأول، الثاني، الثالث والسابع عشر على أن هذه المعاهدة معاهدة سلم بين الطرفين، والغرض منها هو ضمان حرية الملاحة للطرفين، وتنمية التبادل التجاري بينهما مع بيان إجراءات عملية تفتيش السفن وإمكانية إلتجائها إلى المرافئ التابعة للطرفين مع شرط التعامل بالمثل.

2. أكد البندان الرابع والثامن على توفير الحماية لسفن الطرفين داخل الموانئ أو عند مغادرتها، مع الإلتزام بعدم تقديم يد العون للدول المعادية لأحدهما .

3. تضمنت البنود السابع والتاسع والثامن عشر على مسألة تنظيم الرسوم الكمركية وإجراءات شحن البضائع بينهما.

4. ركزت البنود العاشر والثاني عشر والرابع عشر والخامس عشر والتاسع عشر على تحديد صلاحيات القنصل الإسباني بالجزائر، وهي ذات حقوق الدبلوماسية التي كان يتمتع بها القنصل الفرنسي بالجزائر، كما حددت هذه البنود وضعية الرعايا الإسبان بالجزائر.

5. بينما ركزت البنود الحادي عشر والثالث عشر والسادس عشر على مسألة حرية ممارسة الشعائر الدينية للرعايا الإسبان بالجزائر .

6. أما البندان العشرون والواحد والعشرون فقد أشارا إلى قضية حساسة، والتي جوهر الصراع بينهما، وهي قضية احتلال الاسبان لوهران والمرسى الكبير، اذ أشارا إلى إبقاء الوضع على ما هو عليه، فضلاً عن ذلك ضمان عدم مهاجمتهما والتضييق عليهما من طرف الجزائر، بالمقابل إمتناع الإسبان عن إرسال أي سفينة عسكرية وهو ما قد تعدّه الجزائر عملا عدائيا.

7. وتناولت البنود الثالث والعشرون، الرابع والعشرون والخامس والعشرون الإجراءات المتخذة في حالة تجدد العداء بين البلدين حيث يمنح رعايا الطرفين مهلة ثلاثة ايام لتسوية اعمالهم والمغادرة، اما في حالة السلام فإن البحارة الجزائريين يمتنعون عن مهاجمة السواحل الإسبانية والبابوية، كما طرحت قضية العبيد أو الأسرى الفارين من الجزائر أو إسبانيا والذين قد يستغلون تواجد سفن بلدانهم عند ترددها على السواحل أو الموانئ للهروب فعلى بحارة البلدين إعادتهم دون شرط او قيد.

ومن خلال هذا التحليل السريع لأهم بنود المعاهدة، يظهر لنا أنها كانت نصراً سياسياً لإسبانيا، بالدرجة الأولى، لأنها تمكنت بموجبها الحدمن التهديدات التي كان يسببها مهاجمة البحار الجزائريين للسفن التجارية الاسبانية في غرب المتوسط، وهو الأمر الذي جعلت الملك كارلوس الثالث، يجرب كل الوسائل لوضع نهاية لذلك، بالمقابل نجد ان الجزائر حققت بعض المكاسب، ولكن مطلبها بخصوص استرجاع مدينة وهران والمرسى الكبير لم تحقق، لأن المعاهدة أكدت على بقاء الأمور على ما هي عليه. قابلها المبالغ المالية الطائلة، التي كان بحاجة اليها، التي كانت كفيلة بصرف الداي عن اصراره على التمسك بمطلب استرجاع وهران والمرسى الكبير[56].

4. نتائج المعاهدة :

لقد أفرزت معاهدة 1786 عدة نتائج على الدولتين، ومن الملاحظ أن اسبانيا هي المستفيد الأكبر منها إذ استفادت من الحصول على امتيازات تجارية في منطقة الغرب الجزائري، تماثل الامتيازات الفرنسية في الشرق الجزائري، وهذا ما كانت تسعى إليه إسبانيا، فتمكنت من تحقيق مبدأ التعامل بالمثل في إطار المنافسة الفرنسية الاسبانية في المنطقة، كما تمكنت إسبانيا من تحقيق الأمن لسواحلها الشرقية، والتي عانت كثيراً من هجمات الجزائريين، وبفضل هذه المعاهدة استطاعت تأمين الطرق التجارية للسواحل الايطالية(57).

أما من جانب الجزائر فإن هذه المعاهدة وفرت مبالغ مالية معتبرة للخزينة الجزائرية، ويعلق احمد الشريف الزهار على ذلك بالقول:" ودفع الإصبانيول(الاسبان) ثمن الصلح وغرامة مائة سنة سلفا ... وقد تعمرت بذلك المال الخزينة الأولى والثانية ووضعوا في الثالثة هذا خلاف ما دفع عن الأسرى لأهل البلاد"(58)، وقد بلغت قيمة الأموال التي طلبها الداي من إسبانيا مقابل هذا الصلح:خمسمائة ألف قطعة ذهبية وخمسين مدفعا وألف قنطار من الخشب المخصص لبناء السفن وعشرة آلاف قذيفة مدفع وإثنتي عشر ألف قنطار من البارود(59)، وذلك كتعويض على ما خلفته الحملات الإسبانية الثلاث، وهو ما وافق عليه المفاوضان الإسبانيان كاملا. كما تم تحرير كامل الأسرى الجزائريين الموجودين بإسبانيا، والبالغ عددهم 100 أسير، بالمقابل افتدت إسبانيا أسراها والبالغ عددهم 1350، ودفع 1000 دورو اسباني للأسير الواحد (60). واستفادت البحرية الجزائرية من توسيع مناطق نشاطها، وذلك بالخروج إلى المحيط الأطلسي، وأصبح بمقدورها مواجهة السفن الأمريكية والبرتغالية مما دفع البلدين إلى السعي لعقد معاهدة سلم مع الجزائر نظراً لتضرر سفنهما من نشاط البحارة الجزائريين في المحيط،(61).

يرى بعض المؤرخين أن المعاهدة كانت وسيلة ضغط على إسبانيا بغرض الانسحاب من وهران والمرسى الكبير، لذلك لم يرفع الباي محمد الكبير الحصار على المدينة إلى أن حررت المدينة في عهد الداي حسن، إذ يقول الزهار في ذلك: " ووقع الصلح بينهم على مائة سنة، وذلك في البحر فقط وأما البر من جهة وهران فلم يقع الصلح إلى أن فتح الله على المسلمين في أول ولاية حسن باشا" (62).

الخاتمــة:

نستنتج مما تقدم أن معاهدة عام 1786 وضعت أسس للتفاهم بين إيالة الجزائر وإسبانيا، وذلك بتصفية كل الخلافات والمشكلات التي كانت عالقة بين البلدين قرابة ثلاثة قرون وأدت الى وقوع صدامات ومعارك بحرية عدة بينهما كانت الغلبة فيها للاسطول الجزائري بفضل قوته ومؤازرة الشعب الجزائري له فضلاً عن الدعم العثماني والاوربي للجزائر للوقوف بوجه الأطماع الاسبانية فيها للمحافظة على توازن القوى في العالم أنذاك، هذه المعاهدة فرضتهاعدة ظروف داخلية وخارجية خاصة بالدولتين، وبمنطقة الحوض الغربي للمتوسط،وعدّت لدى كثير من المؤرخين أنها مقدمة لسلم حقيقي بين الجزائر واسبانيا استكمل عام 1791 بانهاء أغلب القضايا العالقة بين البلدين، والتي كانت سبباً في الصراع الحاد، بالانسحاب النهائي لإسبانيا من وهران والمرسى الكبير،وذلك في عهد الداي حسن باشا الذي خلف الداي محمد عثمان باشا بعد وفاته عام 1791م,وبذلك حققت الجزائر مكاسب داخلية فضلاً عن ذلك المكاسب الخارجية ووظفت المعاهدة المصالحها مع مراعاة مصالح أسبانيا فيها وبما يحقق أهداف وطموحات الشعب الجزائري وقتذاك.

ملحق رقم (1)
معاهدة الصلح بين الجزائر وإسبانيا 1786

الحمد لله العلي القدير.

في 17 شعبان 1200 انعقدت معاهدة السلم والصداقة دائمة بين إسبانيا والجزائر، وتمت الإتفاقية في إطار الإنسجام الكامل والإيطار الحسنة، بين صاحب الجلالة المعظم دون كارلوس الثالث ملك إسبانيا والهند، من جهة، وصاحب السمو محمد باشا الداي والديوان والإنكشارية، بمدينة الجزائر ومملكتها من جهة أخرى.

البند الأول: سيكون السلم دائما بين صاحب القوة ملك اسبانيا وأصحاب السمو: الداي، الديوان والإنكشارية، بمدينة الجزائر ومملكتها. وكذلك بين من ينتمي إلى الدولتين والذين يستطيعون تعاطي التجارة بناء على معاملة بالمثل في كلتا المملكتين والتنقل بحراً في أمن تام دون أي عائق أو إزعاج من كلا الطرفين مهما تكن الحجة.

البند الثاني: إن بحارة الإيالة أو العاملين لحسابهم بالجزائر، إذ إعترضوا سفناً إسبانية في البحر، عليهم أن يتركوها تسير إلى حيث تشاء ويقدموا لها كل الاسعفات والامدادات اللازمة إذا تعرضت لأي عائق.وإذا أرادوا الصعود إلى متنها لمراقبة يجب عليهم ألا يرسلوا سوى رجلين ذوي ثقة إلى ظهر المركب. ونفس الامر ينطبق على البحارة الاسبان. والمراكب الجزائرية وكذلك البحارة الذين يعملون لحسابهم الخاص بشرط أن يسلموا من قنصل اسبانيا بالجزائر جوازات السفر حتى لا ترتكب ضدهم أخطاء.

البند الثالث: يسمح لمراكب الجزائرية بالرسو في جميع موانئ اسبانيا. وفرضها إذا تعرضت للزوابع، أو أخطار أو إعتداء وتقدم لها كل الخدمات اللازمة مقابل أجور عادية. أما في غير هذه الأحوال فلا يسمح لها بالاتجار، والتموين، إلا في موانئ: اليكانت، برشالونة ومالقا ولا تبقى بها إلى الوقت المطلوب لانجاز أعمالها. وبالمثل تعامل المراكب الاسبانية نفس المعاملة في الموانئ الجزائرية.

البند الرابع: إذا وجد المركب الاسباني في ميناء الجزائر أو أحد موانيها الأخرى بالمملكة، وتعرض لهجوم من طرف أعداء اسبانيا، فإن كان داخل المرمى مدفعية الحصون فعليها أن

تحميه وعلى قائدها أن يجبر المغيرين على إمهال المركب الاسباني وقتا كافيا لايقل عن 24 ساعة للخروج والابتعاد، وذلك بحجز سفن العدو ومنعها من ملاحقته، وتتخذ نفس الإجراءات من طرف ملك اسبانيا لفائدة مراكب الجزائر. لاينبغي لهذه المراكب التي تستولي على شيء لعدوها إذا وجد على مرمى المدفع بالشواطئ الاسبانية كلها. وينتقل المركب المذكور بالأشرعة ويكون الأمر كذلك كان راسيا على مرأى السواحل لأن المركب في هذه الحالة يعتبر محتمياً بالسواحل.

البند الخامس: إذا وجد معادون للجزائر على مراكب اسبانية أو اسبان على مراكب معادية للجزائر فلا يسترقون مهما كانت الحجة، حتى ولو نشب القتال بين الطرفين يحترم الجانب الاسباني نفس القرار بالنسبة لأعداء إسبانيا الموجودين على مراكب جزائرية أو الجزائريون الموجودون على مراكب معادية لاسبانيا وعلى المسافرين أن يبرهنوا أنهم جزائريون أو إسبان بإظهار جواز سفر يسلمه لهم قنصل بلادهم في موانيء الإقلاع، وان يعلنوا على أمتعتهم وكل ما هو تابع لهم .

البند السادس: إذا أشرف مركب إسباني على الغرف قرب السواحل الجزائرية أو لاحقه الأعداء بنفس المكان أو أجبرته رداءة الطقس على اقتراب من الشواطىء يجب أن يتقدم ويقدم له ما يلزم لصلاحه واسترداد حمولته على أن يدفع مقابل الخدمات والإسعافات ولا يطالب بدفع أي مكس أو أتاوة على السلع التي أفرغت الا إذا بيعت أو كان القصد بيعها في مرسى المملكة المذكورة.

البند السابع : يستطيع كل التجار الاسبان بالموانيء والسواحل الجزائرية أن ينزلوا بضائعهم ويتاجروا بحرية دون أن يدفعوا أكثر ما يدفعه الاهالي. ويتمتع التجار الجزائريون بنفس الحقوق في الموانيء الخاضعة للسيادة الاسبانية والمنصوص عليها في البند الثالث، وإذا أنزل التجار المذكورون سلعهم بقصد الايداع فقط يكون من حقهم شحنها دون أن يدفعوا عليها أية ضريبة، ويدفع الجزائريون باسبانيا والاسبان بالجزائر نفس الرسوم الكمركية التى يدفعها الفرنسيون في هذين البلدين ويمثل الطرفان إلى ما تعامل به هذه الدولة.

البند الثامن: لايقدم الجزائريون أي مدد لمراكب دولة في حالة حرب مع اسبانيا، ولا يحمونها حتى ولو كانت لمسلمين، ويعينون من حصل على شهادة ضريبة المهنة من طرف

الدولة المعادية، ويستطيعون استعمال هذه الشهادات للدخول في الغزو البحري ضد الأسبان. وتتعهد اسبانيا باتخاذ نفس الموقف إزاء الجزائريين.

البند التاسع: ليس لأحد أن يكره الاسبان بأي سبب أو دعوى على شحن بضائع في مراكبهم بموانى الجزائر وفرضها إذا رفضوا ذلك ولا أن يجبروهم على القيام باسفار إلى نواحي لا يرغبون في الذهاب اليها.

البند العاشر: سيقيم قنصل اسبانيا بالجزائر ويكون له نفس الامتيازات التي يتمتع بها قنصل فرنسا ويتكلف بجميع شؤون الاسبان بنفس الكيفية التي يعالج بها قنصل فرنسا قضايا مواطنيه وستكون له سلطة قضائية في الخلافات بين الاسبان دون أن يتدخل فيها قضاة مدينة الجزائر.

البند الحادي عشر: لكل الاسبان الموجودين بمملكة الجزائر كامل الحرية في ممارسة شعائر الدين المسيحي سواء كانوا بالمستشفى الملكي الاسباني التي تديره منظمة الافتدائيين الثالوثيين المنتعلين بمدينة الجزائر أو في منازل القناصل أو دور نوابهم أو التي يستحسن في المستقبل إنشاؤها في أماكن أخرى.

البند الثاني عشر: يسمح للقنصل لاختيار ترجمانه ووكيله التجاريوبزيارة السفن الاسبانية متى شاء، وله أن يرفع علم اسبانيا فوق زورقه أو على منزله.

البند الثالث عشر: عندما تشب مشاجرة أو نزاع بين اسباني وتركي أو مغربي لايكون الأمر من اختصاص قضاة المدينة العاديين، وإنما ينظر فيه مجلس الباشا والداي والديوان والانكشارية، بمحضر القنصل أو قائد أحد الموانئ خارج العاصمة حيث نشب الخلاف، ويحكم بالعدل ويحاول الصلح بين الطرفين.

البند الرابع عشر: لا يتحمل قنصل اسبانيا بحكم وظيفته، مسؤولية ما يرتكبه بعض التجار أو الأشخاص الإسبان من ديون، إلا إذا التزم بذلك كتابه. وتوضع أملاك الموتى الإسبان بمملكة الجزائر تحت تصرف القنصل الاسباني ليسلمها لمستحقيها من الاسبان أو غيرهم وتطبق نفس الإجراءات لفائدة الجزائريين الذين يرغبون في الاقامة بإسبانيا.

البند الخامس عشر: يعفى القنصل الإسباني بالجزائر من جميع رسوم الكمارك فيما يتعلق بمؤونته وأثاثه .

البند السادس عشر: إذا اعتدى إسباني على تركي أو مغربي لا يعاقب في غياب قنصل بلاده الذي سيدافع عنه وإذا فر منهم إسباني فلا يتحمل القنصل مسؤولية فراره.

البند السابع عشر: إذا صادف أحد القراصنة الإسبان أو الجزائريين، في البحر، مركباً جزائرياً أو إسبانياً، وألحق به ضرراً يعاقب، ويقوم الذين جهزوه بدفع التعويض المطلوب عن الخسائر.

البند الثامن عشر: إذا اضطر مركب إسباني بسبب حدوث طارئ، ونفاذ الماء أو أي سبب آخر، إلى الإرساء بالموانئ الخاضعة للسيادة الجزائريةولم يشحن أو ينزل بضائع، ليس للأغوات أو أصحاب المراسي المذكورة، ألحق في أخذ رسوم الإرساء من المركب الإسباني أو مطالبته بها.

البند التاسع عشر: يستطيع الباشا داي أن يعين، متى شاء، شخصاً مناسباً ليستقر بإحدى مراسي إسبانيا بصفته ممثلاًللأيالة الجزائرية.

البند العشرون: تبقى مدينة وهران وحصونها، وقاعدة المرسى الكبير على ما كانت عليهما من قبل دون إتصال في الضواحي، ولن يهاجمها داي الجزائر أبداً ولا يقوم أي معسكر بأية غارة عليها إذا لم يتلق أمرا من الداي، وبما أن هذا الباي يحكم الناحية بإستبداد، فإن داي الجزائر العظيم سيوافق على أي اتفاق يحصل بين اسبانيا والباي المذكور الذي تلقى أمرا بمنع الإعتداء على القواعد والحصون الإسبانية. وإذا قام بعض العصاة والمشردين والمتغطرسين من الأهالي، بأعمال سلبية، فإن ذلك لا يفسد الوئام الذي حل بين الدولتين. غير أن النصارى لايكونون في أمن وسلامة في مكان أبعد من رمية المدفع.

البند الواحد والعشرون: لايمكن للمراكز الإسبانية أن تقصد إلى مرسى يكون من نتيجته إعتبار ذلك عملا عدوانيا، إلا إذا تم النفي القاطع لذلك الحق.

البند الثاني والعشرون: لايمكن للمراكب الإسبانية أن تقصد إلى المرسى الجزائرية خارج العاصمة لكي تفرغ أو تشحن حمولتها، إلا برخصة من الحكومة الجزائرية، كما هو معلوم به في جميع الدول الأخرى.

البند الثالث والعشرون: إذا قطعت العلاقات لا قدر الله، بين البلدين فللقنصل، وجميع الإسبان بمملكة الجزائر، وللجميع الجزائريين بإسبانيا، مهلة ثلاثة أشهر لمغادرة البلاد، وحمل أمتعتهم ولا يعرقلهم في ذلك أحد سواء قبل السفر أو أثناء السفر.

البند الرابع والعشرون: لايمكن للبحارة الجزائريين بموانئ إسبانيا وللسفن الحربية الإسبانية بموانئ الجزائر، أو يأووا في مراكبهم الرقيق أو المؤدين في الأشغال الشاقة من ذوي جنسهم، والذين يلجؤون إليهم. بل يجب عليهم أن يسلموهم شريطة ألا يعاقبوا بسبب الفرار.

البند الخامس والعشرون: يحترم الجزائريون إجلالا للملك الكاثوليكي ليس السواحل الإسبانية، إنما السواحل البابوية. وعملا بشعور الإجلال هذا فإن الداي يستقبل بفرح وسرور كل شخصية تمر بالجزائر تحت حماية الملك الكاثوليكي، وعلمه. كما أن جلالة الملك الكاثوليكي يستقبل من يمر بإسبانيا تحت رعاية داي الجزائر وعلمه، ويكون الداي مستعدا للدخول في المفاوضات مع الدول التي يحث عليها جلالته، وتكون في حالة سلم مع الباب العالي الذي يقتدي الداي بسياسته دائما.

باسم الله العلي القدير

إن المعاهدة الحالية من أجل السلم الدائم صودق عليها بين إسبانيا وأيلة الجزائر، أملا في أن يقبله ويوافق عليه صاحب العزة دون كارلوس الثالث، أبقاه الله في الإزدهار، كما قبله الداي محمد الباشا العظيم، أبقاه الله في الإزدهار، بعد الموافقة الشاملة من طرف الديوان والمفتي، والقاضيين، والعلماء الأخيار. والآغا، ويجب التوقيع والبصم بالخاتم على النسخ الأصلية الثلاث المحررة باللغتين: الإسبانية والتركية- الأولى لجلالة الملك الكاثوليكي، والثانية للداي الباشا العظيم والديوان والإنكشارية،والثالثة تبقى في حيازة من القنصل الذي يقيم في هذه المدينة.

نشر هذا النص بقصرنا يوم 17 من شهر شعبان 1200 هـ/ 14 جوان 1786.

خاتم وتوقيع محمد باشا.

قبلت الإقرار والموافقة على هذه الإتفاقية بالصيغة التي تمت بها كما أنني بمقتضى هذا المكتوب أقر وأوافق عليه أحسن الموافقة وأشملها وأتعهد إيمانا ووعدا من الملك بتنفيذه ومراعاته، والأمر بتطبيقه وإحترامه.

الهوامش:

1. أصبحت الجزائر إيالة تابعة للدولة العثمانية عام 1518 بعد الطلب الذي ارسله خيري الدين بأسم الاعيان والفقهاء والائمة والتجار والامناء وكافة اهل مدينة الجزائر العامرة , مع وفد برئاسة الحاج حسين الى السلطان سليم الاول الذي كان موجودا في مصر وعرض عليه فكرة إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية فقبل السلطان سليم الاول عرضهم وأرسل(2000) جندي انكشاري مسلحين بالبنادق وعدد من رجال المدفعية, مع مدفعيتهم وعدداً من المتطوعين ومعهم مجموعة من السفن الحربية, وتدل فكرة طلب الانظمام هذه على ذكاء خير الدين , وبعد نظره إذ ادرك انه مع تصاعد الخطر الإسباني على الجزائر أن الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة القادرة على دعمه, حتى يكتسب نوع من الحماية الدولية , ويستطيع خير الدين يهذه الحماية, بناء قوة برية وبحرية قادرة على مجابهة الأمم الاوربية. للمزيد من المعلومات ينظر: عطلي محمد الأمين, نشاط البحرية الجزائرية في القرن السابع عشر وأثره في العلاقات الجزائرية الفرنسية , رسالة ماجستير غير منشورة , معهد العلوم الأنسانية والاجتماعية, المركز الجامعي بغرداية , الجزائر, 2012, ص 44- 45.

2. شهد التاريخ الأوربي الحديث انطلاقا من القرن السادس عشر متغيرات جذرية غيرت الكثير من الرؤى والتوجهات وحتى الايديولوجيا في مختلف مجالات الحياة. وان قلنا أن النهضة الأوربية كانت بداية الانطلاقة، وما رافقها من متغيرات كالاستكشافات الجغرافية وحركة الإصلاح الديني، وصولا إلى ظهور مفهوم الدول القومية وحركات التنوير ويمكن أن نختمها حينما نشير إلى الثورة الفرنسية 1789 التي غيرت مجريات الأحداث في القارة الأوربية. ساهمت تلك الأحداث في تعزيز مكانة الجزائر الإقليمية وأعطتها الثقل السياسي والاقتصادي خلال مدة الحكم العثماني. للمزيد من المعلومات ينظر: عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.م.؛ عبد العزيز سليماننوار ومحمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى،دار الفكر العربي، القاهرة،1999.

3. تمكنت اسبانيا في بعض الاحيان من السيطرة على بعض المدن الساحلية الجزائرية لفترات معينة، كما هو الحال في احتلال بجاية ووهران، الذي جثم عليها الغزو الاسباني لمدة طويلة.

4. للتفاصيل عن حياته، ينظر: محمد عثمان باشاداي الجزائر1766-1791 سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

5. ولد الملك كارلوس الثالث في مدريد في العشرين من كانون الثاني عام 1716 , ملك إسبانيا وجزر الهند الإسبانية بين 1759-1788 وملك نابولى وصقلية ودوق بارما. كان الابن الأكبر لفليب الخامس ملك إسبانيا وزوجته الثانية الأميرة إليزابيث من بارما في 1731, أصبح كارلوس (خمسة عشر

عاماً) دوق بارما وبياتشينوا بأسم كارلوس الأول , توفي في كانون الاول عام 1788. للمزيد من المعلومات ينظر: موقع المعرفة على شبكة المعلومات الدولية (الانترنيت) على الموقع: www.marefa.org

6. جون ب. وولف، الجزائر وأوربا، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 403.

7. يحيى بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر،ج2, ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007،ص 214.

8. أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492- 1792،ط2, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976، ص 473.

9. شكيب بن حفري، العلاقات الاسبانية الجزائرية في القرن الثامن عشر من خلال مخطوط عثماني، مجلة الاداب والعلوم الانسانية، العدد 1، قسنطينة , الجزائر, 2002،، ص 124 .

10. اتبع السلطان المغربي محمد بن عبد الله، ومنذ توليه العرش عام 1757، سياسة خارجية قائمة على الحوار الدبلوماسي، واعدّها أولوية على الحروب في حل المشاكل الدولية، وقد أنفق مبالغ مالية كبيرة لتحرير الأسرى من المسلمين والمسيحيين دعما لهذا التوجه السياسي، وهو ما جعله يحظى بمكانة خاصة لدى بعض الدول الأوربية، ومن بينها إسبانيا. ينظر: يحيى بوعزيز، المصدر السابق، ص 215.

11. .شكيب بن حفري، المصدر السابق، ص 123- 124 .

12. .المصدر نفسه، ص 124 - 125.

13. .يحيى بوعزيز، المصدر السابق،ص 215 .

14. .حفيظة خشمون، مهام مفتدي الاسرى والتزاماتهم الاجتماعية في مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية,جامعة قسنطينة، الجزائر,2007، ص 25.

15. . جون ب. وولف، المصدرالسابق،ص 403 .

16. ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة، ج 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص 156 .

17. أحمد توفيق المدني، المصدر السابق،ص 474.

18. عزيز سامح إلتر,الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا،ترجمة:محمود علي عامر، ج 1،دار النهضة العربية، بيروت، 1989،ص ص 527-528.

19. أحمد توفيق المدني،المصدر السابق،ص 474.

20. عبد الرحمان محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام،ج3،دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، 2010،ص 244.

21. جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا(1619-1830)،وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص 208 .

22. عزيز سامح إلتر،المرجع السابق، ص 532-533.

23. يحيى بو عزيز، المصدر السابق، ص 214-216.

24. مولاي بلحميسي،"صفحات من تاريخ العلاقات الجزائرية الإسبانية معاهدة 1786 بين الجزائر وإسبانيا، مجلة تاريخ وحضارة المغرب،العدد 11، الرباط, 1996، ص10،

25. .عزيز سامح إلتر، المصدر السابق،ص 541.

26. . أحمد الشريف الزهار، ذخائر المغرب العربي (1754-1830)، ط2, ترجمة: أحمد توفيق المدني، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص 32.

27. .المصدر نفسه، ص 32.

28. .وليم سبنسر،الجزائر في عهد رياس البحر،ترجمة وتقديم :عبد القادر زبادية،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،1980،ص 154.

29. . عبد الرحمان بن محمد الجيلالي,المصدرالسابق،ص 249 .

30. .عزيز سامح إلتر، المصدر السابق،ص 543.

31. .المصدرنفسه،ص 543.

32. . عبد الرحمان محمد الجيلالي، المصدر السابق،ص 249.

33. .عزيز سامح إلتر، المصدر السابق،ص 543 .

34. .بوبكر محمد السعيد، العلاقات السياسية الجزائرية الإسبانية خلال القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر ميلادي (1119ـ1206هـ /1708ـ1792 م)، رسالة ماجستير غير منشورة، المركز الجامعي غرداية، الجزائر,2011،ص 129.

35. .أحمد توفيق المدني، المصدر السابق،ص 480.

36. . المصدرنفسه، ص 481 .

37. .عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، المصدر السابق، ص 249 .

38. .أحمد توفيق المدني، المصدر السابق،ص 483.

39. .جون ب. وولف، المصدر السابق،ص 408.

40. .مولاي بلحميسي، المصدر السابق،ص 10.

41. .على الرغم من كون الفرنسيون كانوا يرون في حالة تقارب بين الجزائر وإسبانيا تهديداً لمصالحهم، الا انه في ذات الوقت كانت مسألة استمرار الصراع المسلح يعني تهديداً استراتيجياً لمصالحها في المنطقة. فهي لديها مصالح متنامية في الجزائر، وفي الوقت ذاته تعدّ اسبانيا حليفاً استراتيجياًضد بريطانيا. ولكون الإستراتيجية الفرنسية تقوم على أساس إبعاد بريطانيا عن البحر الأبيض

المتوسط، لان ضعف اسبانيا سوف يؤدي إلى تشجيع أعدائها لضم مستعمراتها إلى ممتلكاتهم، لاسّيما بريطانيا، وهذا ما قد يسبب في اندلاع صراع مسلح بين الدول الطامعة، وهو ما كانت تحاول فرنسا تجنبه آنذاك. ينظر: عبد القادر فكاير،آثار الإحتلال الإسباني على الجزائر خلال العهد العثماني (16- 18 الميلاديين)،أطروحة دكتورة غير منشورة,جامعة الجزائر، 2009،ص 265؛ جمال قنان،المصدر السابق، ص 281.

42. .يحيى بوعزيز،المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد (1780ـ 1798)،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1985، ص 30-31.

43. .أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق،ص 34.

44. .تعرضت الجزائر لمواجهات من الكوارث والأوبئة التي كان لها الأثر السلبي على الأحوال الإقتصادية، فعلى سبيل المثال ما حدث في عام 1766 حين شهدت الجزائر حدوث فيضانات وكوارث بحرية. كما شهدت الجزائر خلال عامي (1778- 1779) عندما زحفت أسراب من الجراد على المناطق الزراعية وأتلفتها، وتسبب في حدوث مجاعة نتيجة ذلك. للمزيد من المعلومات ينظر: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة،ج 2، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1988،ص127؛ أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني،دار الكتاب العربي، الجزائر،2009،ص 411-412.

45. .أرزقي شويتام، المصدرالسابق،ص 412-414.

46. .شكيب بن حفري، المصدرالسابق، ص 132 .

47. .المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، العملةـالأسعاروالمداخيل، الجزء1،دار القصبة للنشر،الجزائر،2009، ص 466- 467

48. .شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية،ط1,ج2، ترجمة:محمد مزالي والبشير بوسلامة،دار النشر التونسية،تونس،1983،ص 371.

49. .مولاي بلحميسي، المصدر السابق،ص 12 .

50. .شكيب بن حفري، المصدر السابق،ص 131 .

51. .مولاي بلحميسي، المصدر السابق،ص 12.

52. .يحيى بوعزيز، المصدر السابق، ص 38 .

53. .للاطلاع على المعاهدة كاملة ينظر الملحق رقم (1) .

54. .أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 34 .

55. مولاي بلحميسي، المصدر السابق، ص 13ـ17 .

56. المصدرنفسه،ص 77 .

57. أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق،ص 33.

58. المصدر نفسه،ص 34.

59. شكيب بن حفري، المصدرالسابق،ص 132.

60. أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق،ص 34.

61. كاثكارت، مذكرات أسير الداي كاثكارت (قنصل امريكا في الجزائر) ،ترجمة وتعليق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 18.

62. أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق،ص 34 .

إشكالية العلاقات البريطانية - الجزائرية
1816-1580

د. سلوان رشيد رمضان
جامعة تكريت/ العراق

مقدمة

وصلت الجزائر إلى أوج عظمتها حين دخلت تحت الحكم العثماني عام 1519، إذ حاربت الدول الأوربية بكل جرأة، وبسطت سيطرتها على حوض البحر المتوسط من دون منازع بعد القرن السادس عشر حتى بدء القرن التاسع عشر نتيجة للجهاد البحري الكبير الذي بدأه عروج وخير الدين بربروسا، واستمر عليه الحكام الجزائريون من بعدهما، وشكل ذلك أهم الموارد المالية للولاية، فضلاً عن باقي الموارد الأخرى، وبعد حصول انكلترا على امتيازاتها عام 1580 في أغلب الولايات العثمانية والجزائر بشكل خاص، وقفت إلى جانب الجزائر في مراحل مهمة من تاريخها للوصول إلى أهدافها المتمثلة بمنافسة الفرنسيين من جهة، وللوصول إلى البحر المتوسط وإرضاء الحكام الجزائريين من جهة أخرى، إذ سرعان ما ظهرت الخلافات بين الطرفين وترجمة إلى هجمات بحرية متكررة قام بها الانكليز بشكل منفرد أو بتحالف ضد الجزائر، ولم يكتب النجاح لتلك الهجمات كافة، بسبب التحصينات الجزائرية وعدم السماح للسفن الأوربية بالاقتراب من ميناء الجزائر، إلا الحملة العاشرة في عام 1816 التي فرض عن طريقها البريطانيون شروطهم على الجزائر، وبذلك انتهت سيطرة الأخيرة على البحر المتوسط، إذ صار متاحاً للأوربيين. وهو ما سنحاول دراسته من خلال صفحات البحث القادمة.

أولاً: أهمية الجزائر الدولية:

تعرضت الجزائر إلى التهديد الإسباني بعد احتلاله لأجزاء واسعة ومهمة منها بين 1505- 1513، الذين أدخلوا تحت سيطرتهم عدداً من المدن الكبرى، كان من بينها المرسى الكبير ووهران وبجاية وتلمسان، وقد برز الأخوة عروج وخير الدين[1] في مواجهة الإسبان حتى مقتل عروج عام 1518، وتسلم أخوه خير الدين الملقب بربروسا (ذو اللحية الحمراء) الحكم من بعده، وبعد أن رأى الأخطار المحيطة بالجزائر، أرسل رسالة إلى السلطان العثماني سليم الأول (1512-1520) باسم أهالي مدينة الجزائر[2] رجاه فيها إدخال الجزائر تحت الحماية العثمانية[3]، وقد أُعلن عن إلحاق الجزائر رسمياً بالدولة العثمانية بعد موافقة السلطان العثماني، وتكونت إيالة (ولاية) الجزائر، ودعي للسلطان العثماني على المنابر وضربت السكة باسمه وخضعت الجزائر لإدارة ذات تنظيم عسكري لم يطرأ عليها تغيير كبير حتى سقوط الجزائر بيد فرنسا عام 1830[4].

منذ ذلك الوقت اكتسبت الجزائر أهميتها السياسية والاقتصادية، وأخذت بالهيمنة على سواحل البحر المتوسط عن طريق الجهاد البحري أو ما يطلق عليه الغرب بالقرصنة[5] البحرية، وانتقلت من الدفاع إلى الهجوم وصارت تتبع القراصنة الأوربيين إلى عقر دارهم، وفرضت على الدول الغربية دفع الإتاوات والضرائب السنوية مقابل مرور السفن وحمايتها(أي اشترت السلام الأوربي وتجارته من الجزائر)، أو فداء الأسرى[6] أو إطلاق سراح السفن التي يتم السيطرة عليها في البحر، مثلت عمليات الجهاد البحري المصدر الرئيس للخزينة الجزائرية، فبعد إقامة العثمانيين حكمهم في الجزائر اعتمدوا على الجهاد البحري ليكون المورد الأساس الذي وفر لحكومتها موارداً طائلةً، فضلاً عن الموارد الأخرى[7].

ثانياً: الخلافات البريطانية الجزائرية حتى عام 1815.

اقتحمت انكلترا ميدان التجارة في البحر المتوسط منذ عام 1580، إذ بدأت علاقة التجار الانكليز مع الجزائر بتبادلات تجارية كبيرة، تمثلت بتصدير الأسلحة والبارود، ولم تلتزم انكلترا بأوامر الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تفرض حظراً على تصدير الأسلحة إلى بلاد المسلمين كونها بروتستانتية، وكانت السفن الانكليزية ترفع العلم الفرنسي على سفنها في بداية الأمر عند دخولها البحر المتوسط، لقدم الامتياز الفرنسي في الدولة العثمانية[8].

لم يكن لانكلترا أية اتصالات مباشرة بالجزائر في القرن السادس عشر، لأنها لم تكن تهتم بما يجري في البحر المتوسط من أحداث، وكان اهتمامها مكرساً باتجاه الهند، ولاسيما بعد انتصار أسطولها على الارمادا "Alarmada" الإسبانية عام 1588 لأخذ نصيبها من التجارة الشرقية، فقد أسست شركة الهند الشرقية البريطانية عام 1600 واحتكرت التجارة في المحيطين الهندي والهادي[9].

بعث السلطان العثماني مراد الثالث (1574-1595) رسالة إلى ملك فرنسا هنري الثالث[10] "Henry III" (1574-1589) أعرب فيها عن ترحيبه بصداقة الانكليز، وذلك في تموز 1580 قائلاً:" إذا أرادت ملكة الانكليز مصادقتنا، فيلكن عن طريقكم"[11] لقوة العلاقات الفرنسية الجزائرية آنذاك، وكانت الاستعدادات قائمة في انكلترا ليأتي طلب الصداقة عن طريق الملكة اليزابيث "Elizabeth" (1558-1603) نفسها، بإرسال التاجر الانكليزي وليم هاربورن "William Harborne " إلى الولايات العثمانية لإقامة علاقات تجارية في عام 1581م، وطلبها من السلطان العثماني إرسال مبعوثها الخاص لتدعيم الامتيازات[12] وتعميمها على التجار الانكليز، الأمر الذي نتج عنه تأسيس الشركة الشرقية بمرسوم ملكي في 11 سبتمبر 1581، وامتياز تكون من (5) بنود في البداية، وقد خفضت الحكومة العثمانية الضرائب على التجار الانكليز إلى (3%) في حين كان أمثالهم من الأوربيين يدفعون (5%) حتى عام 1673، وفتحت انكلترا سفارة رسمية في الدولة العثمانية في 20 نوفمبر 1582، وجددت امتيازاتها بإضافة (17) بنداً جديداً (15) منها تهتم بشؤون التجارة وحياة الجالية بصورة عامة، وأصبحت بنود الامتياز (22) بنداً[13].

طمأن عقد الامتياز مع انكلترا الدولة العثمانية لوجود قوة مناوئة تقف ضد أطماع الإسبان والبرتغاليين في البحر المتوسط، وليتفرغ للقضاء على سيطرة الأوربيين في الشرق، ولوضع حد لتعاونهم مع شاه فارس محمد خود (1579-1587)، وأوعز السلطان العثماني مراد الثالث إلى إيالات البلاد العربية شرقاً وغرباً لممارسة التجار الانكليز نشاطاتهم فيها، وأكد على حرية تعيين واستبدال القناصل التابعين للتاج البريطاني المتواجدين في تلك المدن لخدمة التجار الانكليز[14].

أوجد الصراع المذهبي بين انكلترا وإسبانيا مناخاً ملائماً للتقارب بين الانكليز والدولة العثمانية نظراً إلى العوامل المشتركة التي كانت تجمعهما بشأن إسبانيا الكاثوليكية

المتعصبة، مع ظهور الدولة العثمانية قوةً في ذلك الحين بإمكانها تلبية حاجات الساسة الانكليز والتجار معا، أما السلطان العثماني، فقد أراد من منحه الامتياز للانكليز تمزيق الصف الأوربي الصليبي، فضلاً عن الإسهام في تكريس الاستقطاب العقائدي في أوربا[15].

رحب الجزائريون بالانكليز بسبب عدائهم المشترك للإسبان، وحصلوا على امتيازات مشابهة للامتيازات الفرنسية التي حصلت عليها منذ عام 1535، وبدأت انكلترا تستورد الحبوب والزيوت والأصواف والشموع والجلود ومواد أخرى من الجزائر معفاة من الرسوم التي كانت تسمى التذكرة"Tesqra " وتفرض على عدد من الدول الأوربية، وبدت العلاقات بين الجانبين طيبة وسلمية وتعاونية في القرن السادس عشر[16].

دخلت الجزائر في بداية القرن السابع عشر مرحلة جديدة بعد تطور الجهاد البحري على سواحل البحر المتوسط، تمثل بالاستيلاء على السفن الأوربية، واقتياد من فيها عبيداً أو أسرى يباعون للدول التي ينتسبون إليها مقابل فدية كبيرة، إذ دفعت تلك الأنشطة الدول الأوربية الكاثوليكية (إسبانيا وفرنسا وإيطاليا ومالطا[17]"Malta") إلى القيام بهجمات بحرية تلتها بعد ذلك الدول الأوربية البروتستانتية (انكلترا وهولندا والدنمارك وأمريكا وبروسيا)[18].

اكتسبت الجزائر مكانة دولية، تمثلت باعتراف أغلب الدول الأوربية بأهميتها ومكانتها، وصارت تدفع لها الضرائب والهدايا بانتظام، والجدول الآتي يوضح تلك المبالغ[19].

جدول رقم(1)

أهم الدول وقيمة المبالغ والهدايا التي تدفعها للجزائر بين (1600-1815) [20]

الدولة	المبلغ المدفوع
أمريكا	عشرة آلاف دولار نقداً وهدايا قنصلية تقدر قيمتها بنحو 4 آلاف دولار
انكلترا	هدايا قنصلية قدرت بنحو ستمائة جنيه.
فرنسا	عشرة آلاف جنية على شكل بضائع وحبوب وفواكه.
هولندا	ستمائة ليرة بعضها نقداً وبعضها آلات وبضائع وأسلحة.
مملكة صقلية	ستة آلاف ريال.
سردينيا	ستة آلاف ليرة.

الدنمارك	ستة آلاف ريال وآلات حربية كهدايا
السويد والنرويج	ستة آلاف ريال.
مملكتا هانوفر وبريم الألمانيتين	ستمائة ليرة.
إمارة هامبورغ الألمانية	أسلحة واعتده حربية وهدايا أخرى.
جمهورية البندقية	ثلاثين ألف نصف دورو جزائري.
النمسا	مائتي ألف فرنك.
إسبانيا	هدايا قنصلية تقليدية وضرائب وغرامات حربية.
نابولي	أربعة وعشرين ألف ليرة.
البرتغال	أربعة وعشرين ألف ليرة.

يتضح من الجدول أعلاه، أن الجزائر قد بلغت أوج قوتها بحيث أرغمت الدول الأوربية على دفع الضرائب والهدايا القنصلية للداي لتأمين سفنها عند دخولها حوض البحر المتوسط.

قامت انكلترا بعدد من الهجمات البحرية على الجزائر، بدأت منذ عام 1620 بلغ مجموعها (10) هجمات[21] باءت جميعها بالفشل عدا الحملة الأخيرة عام 1816، بسبب استعمال الخدعة في الدخول إلى ميناء الجزائر، وكانت خسائر الأسطول الانكليزي حتى ذلك العام باهظة، ولم تحقق أية نجاحات أو تمنع دفع الإتاوات لحكام الجزائر مقابل أعطائهم الأمان لدخول البحر المتوسط[22].

أما عن علاقات الجزائر بالدولة العثمانية، فقد حدثت الاضطرابات في عهد الأغوات (1659-1671) وخلفت مشاكل بين الجانبين، بسبب انعدام الاستقرار في الجزائر كونها ولاية عثمانية وفصلت الولايات الثلاث(الجزائر وتونس وطرابلس الغرب) عن بعضهما، مما عرض أملاك الدولة العثمانية للخطر، وأسهم في إقامة دول متصارعة بعد أن كانت جميعها تُحكم من بكلربيك الجزائر[23]، وزاد الأمر سوءاً بعد التمردات التي حصلت بين الجزائريين وقوات الانكشارية والبحرية، فضاق السلطان العثماني محمد الرابع (1648-1687) ذرعاً من تلك الاضطرابات، وعلى أثر ذلك أرسل الصدر الأعظم كوبرلو محمد (1656-1661) إلى القائمين على الحكم في الجزائر رسالة غاضبة جاء فيها:" أخيراً لن نرسل إليكم والياً، بايعوا من تريدون، السلطان ليس بحاجة إلى عبوديتكم لدينا آلاف الممالك

مثل الجزائر، فالجزائر إن كانت وانْ لم تكن شيئاً واحداً، ومن بعد ذلك أن اقتربتم من الممالك العثمانية فلم تكونوا راضين"، وتلك الرسالة جعلت الأغوات يغيرون الحكم من نظام تبعية إلى نظام مستقل عن الدولة العثمانية[24].

لم تتمخض الهجمات المتوالية ضد الجزائر عن مكاسب كبيرة للانكليز، لذلك جرى توقيع أول معاهدة انكليزية مع الجزائر في 10 نيسان 1682 بفضل جهود قنصلها صموئيل مارتن "Samuel Martin" (1674-1682) تضمنت تحديد عدد المسافرين الأجانب على متن السفن الانكليزية، وكذلك عدم التسبب في إثارة الهجمات ضد البحارة الجزائريين مقابل عدم الإساءة للسفن الانكليزية أو مطالبتها بالخضوع لطريقة الحصول على الأذن والتفتيش من البحارة الجزائريين[25].

تخلت انكلترا بحكم المعاهدة لصالح الجزائر عن (350) وحدة بحرية تجارية، مع ردَّ الأسرى الجزائريين الموجودين لدى انكلترا من دون مقابل، وعدم المطالبة بالأسرى الانكليز الموجودين لدى الجزائر، إذ لم يهتم الملوك الانكليز كثيراً بفداء رعاياهم، وقد سوغوا ذلك بحجة أن إنقاذهم سيقنع البحارة الجزائريين بأن أسر الانكليز مغامرة تجارية رابحة، وقد وصفت المعاهدة بالسلّم المهين[26].

بدأت بريطانيا[27] برفع علمها على أكثر السفن الإيطالية والإسبانية، بل أحياناً يرفع على سفن ليس فيها فرد بريطاني واحد، وقد حدثت أزمة حادة عام 1711 حين أطلق بحار بريطاني النار على سفينة جزائرية، وكانت المعركة بين الطرفين غير متكافئة، إذ كانت السفينة البريطانية تحمل (44) مدفعاً في حين ضمت السفينة الجزائرية (12) مدفعاً، لذلك خسر الجزائريون نصف الطاقم بين قتيل وجريح، وتداركت بريطانيا ذلك بإرسال برقية إلى الداي علي باشا شاوش (1710-1718) مفادها، معاقبة الضابط المسؤول عن الحادث مع عدد من الهدايا، لتدارك قيام حرب محتملة بين الجانبين[28].

لم تتجاوز علاقة بريطانيا بالجزائر تحقيق مصالحها وترسيخ نفوذها على حساب المصالح الفرنسية، وقد حاولت تعكير أجواء العلاقات الفرنسية الجزائرية عن طريق قناصلها هناك، وذلك بسبب منافستها لفرنسا بشأن الحصول على الامتيازات داخل الأراضي الجزائرية، واستمرت على ذلك النهج طوال القرن الثامن عشر[29].

شهدت الجزائر خلال القرن الثامن عشر انهياراً في اقتصادها، بسبب كساد الحركة التجارية ومقاومة الدول الأوربية للجهاد البحري الجزائري، والفوضى السياسية بسبب نزاع الدايات مع رجال الجيش ومع رياس البحر[30] حتى فقدت البلاد تقدمها واضطرب الأمن فيها، وأصبحت بفضل المعاهدات مع الدول الأوربية مجالاً للنفوذ الأوربي على حساب استقلال البلاد وعلى حساب مصلحة أهلها، وجاءت تلك الحالة بسبب عدم رجوع الحكام الجزائريين للسلطان في عقد المعاهدات وتعيين الحكام والتصرف بإيرادات البلاد من الجهاد البحري التي أصبحت تصرف على الحكام ولم تكن ترسل شيئاً منها إلى السلاطين العثمانيين[31].

توترت العلاقات بين الجانبين، بعد أن قام الداي محمد عثمان[32] بطرد وإهانة القنصل البريطاني فريزر "Fraser" عام 1767 في قاعة الاستقبال أمام جميع الدبلوماسيين، قائلاً له:" سأكسر لك سيفك على رأسك بيدي إذا ما عدت إلى تقلده على جنبك"[33]، وذلك بسبب تعالي القنصل البريطاني واستكباره على أقرانه من الدبلوماسيين وحمله السلاح في حضرة الداي.

تحسنت العلاقات البريطانية الجزائرية، وذلك بعد الفتور الذي شابها بسبب إهانة قنصلها، وكذلك رفض عقد معاهدة سلام مع الولايات المتحدة الأمريكية إرضاءً لبريطانيا، وقيام الداي حسن[34] الذي جاء بعد الداي محمد عثمان بعدم السماح لوفد أمريكي رسمي بزيارة الجزائر عام 1792، لأنه كان لا يثق بالأمريكان قائلاً:" إذا كانوا يودون إرسال مبعوث خاص إلى الجزائر لعقد السلم، فما عليهم إلاَّ أن يزوده بأوراق اعتماد من ملك الانكليز"[35]، وهكذا بدا الأمر وكأن القوتين البحريتين الكبيرتين في البحر المتوسط قد وحدتا سياستهما.

عاد التوتر إلى العلاقات البريطانية الجزائرية بين عامي 1803- 1804 بسبب طرد القنصل البريطاني فالكون"Falcon" من الجزائر، لأنَّ الأخيرة طلبت استبداله بعد اتهامه بجنحة أخلاقية إلاَّ أنَّ بريطانيا رفضت ذلك وهددت بإرسال أسطولها لقصف العاصمة الجزائرية، بالمقابل قبلت الجزائر ذلك التحدي واستعدت للمواجهة، إلاَّ أن البريطانيين تراجعوا في النهاية وعينوا شخصاً آخر على رأس القنصلية[36].

أرهقت الاعتداءات البحرية الأوربية المتكررة الأسطول البحري الجزائري، فأضعفته شيئاً فشيئاً في بعض المراحل مع تنامي القوة العسكرية لتلك الدول في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وفي المقابل ظهرت اضطرابات داخلية في الجزائر منها: فقدان الغنائم والإتاوات وصعوبة جمع الضرائب، واغتيال الداي مصطفى (1798-1805)، وقتل عدد من اليهود ونهب حيّهم، بسبب ظهور نابليون الأول وهيمنته على أوربا، وامتناعه عن دفع الضرائب والإتاوات مع تهديد الجزائر قائلاً:" إذا لم تشتغل الايالة بأمور نفسها وتخضع للإدارة الفرنسية وتتوقف عن مضايقة رعايا القنصل الأول، فإنه سيفعل ما فعله بدولة مماليك مصر[37].

انتصرت القوات البريطانية على القوات الفرنسية في معركة الطرف الأغر[38] يوم 21 نوفمبر 1805، الأمر الذي رسخ مركزها في الجزائر وسمح لها أن تحل محل الفرنسيين بالجزائر، وفي عام 1807 حصلت بريطانيا على مركز(قالة) الفرنسي في الجزائر واستغلته لمدة (10) أعوام مقابل (10) الآف جنية إسترليني[39].

حتمت المصالح الذاتية لبريطانيا مراعاة المصالح الجزائرية ففي عام 1810 سعت بريطانيا إلى هدنة بين البرتغال والجزائر، أعطت للبرتغاليين بموجبها منفذاً ضيقاً على البحر كانوا في أشد الحاجة إليه في الوقت الذي كانوا يرضخون فيه تحت الاحتلال الجزئي والهجوم العسكري الفرنسي والإسباني، وحدثت تلك الوساطة بسبب مكانة بريطانيا لدى داي الجزائر[40].

قضت المعارك البحرية في البحر المتوسط على تجارة الدول المحايدة في المحيط الأطلسي، وعجزت تلك الدول عن دفع الضرائب والعتاد الحربي والبحري للجزائر وفق المعاهدات المعقودة معها، وإزاء ذلك الموقف شعرت الجزائر باليأس وأوشكت على وقف أعمال جهادها البحري، وهنا برز الدور البريطاني الذي جهز للجزائر ثلاث سفن كبيرة مشحونة بالصواري والكابلات والحبال والبارود للمدافع ومادة الرصاص ومواد حربية أخرى، وصلت إلى الجزائر يوم 16 ماي 1810[41].

قامت بريطانيا كذلك بوساطة بين إسبانيا والجزائر بعد اتهام الإسبان بإغراق سفينة شاطئية جزائرية يوم 22 آيار 1811 كانت سفن القراصنة الصقلية قد أغرقتها، لذلك أمر الداي الحاج علي[42] بجلب نائب القنصل الإسباني مكبلاً بالحديد، وتم استخدامه في

الأعمال الشاقة بالمحاجر وعومل معاملة غير إنسانية وألقي القبض على سفينتين إسبانيتين تحملان شحنات تبلغ قيمتها (20) ألف دولار مع مطالبة الداي للمملكة الإسبانية بدفع مبلغ كبير ثمناً لتجديد علاقات السلام بين البلدين، وهنا أرسلت بريطانيا سفينة تحمل مبلغ (70) ألف دولار لتعزيز تلك المفاوضات، وعلى أثر تلك الأحداث، قامت بريطانيا بحماية الملاحة الشاطئية وسكان جزيرة صقلية من هجمات البحارة الجزائريين، بذريعة أن الموانئ الإيطالية التي تحتلها فرنسا تتمتع بالحماية نفسها، واستعملت بريطانيا نفوذها كذلك لدى الجزائر لتحصل على هدنة لصالح صقلية حررت بموجبها الأسرى الصقليين المحتجزين في الجزائر[43].

عرض ملك بريطانيا وايرلندا جورج الثالث " George III"[44] في 4 جانفي 1812 على الداي الحاج علي التحالف ضد الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك في رسالة بعثها إليه يعده فيها بمساندة أسطوله في حالة أي عدوان خارجي أمريكي، ورجاه منه إلا يسمح لأعداء بريطانيا (أي الأمريكان) بأن يعكروا الانسجام السائد بين الدولتين، وإلا يسمع بأقوال السوء التي يتفوهون بها ضد بريطانيا"[45].

أنَّ اضطراب الأحداث في الدول الأوربية، غطى على هجمات البحارة الجزائريين وعلى الحرب الصغيرة التي كانت تجري بين الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا[46] بين (1812 – 1814) التي انتهت بموجب معاهدة غنت[47]"Ghent"، ونتيجة لعدم إرسال الولايات المتحدة الإتاوة، أعلنت الجزائر الحرب عليها عام 1815، وقررت مصادرة السفن الأمريكية المارة في البحر المتوسط[18].

مَثَّلَ التنافس البريطاني- الفرنسي إحدى نتائج الحرب الأوربية وأثرها على الساحة الجزائرية، وينبغي أن لا يتبادر إلى الذهن بأن ذلك التنافس كان من أجل الظفر بالنفوذ والسيطرة، بل كان من أجل كسب ودّ الحكومة الجزائرية قبل مؤتمر فينّا، ولامتلاك موطئ قدم في تجارة البحر المتوسط، إذ إنَّ التفكير باحتلال الجزائر لم يكن وارداً في تلك المدة[49].

استهدفت سياسة بريطانيا تجاه الجزائر الأهداف نفسها التي سعت فرنسا إلى تحقيقها مثل الحملات والمفاوضات وإيجاد موطئ قدم لها في سواحل الجزائر، ولكن بريطانيا اتبعت وسائل وحيل دبلوماسية أخرى للوصول إلى أهدافها، فحين كان السلم والرخاء يعم أوربا، لم تفكر في الجزائر حليفاً استراتيجياً لها، بل كانت ترسل هدايا يسيرة

ورجال لا يمتازون بالحنكة والدراية، ولأن همها الوحيد هو الوصول والهيمنة على حوض البحر المتوسط.

ثالثاً: مؤتمر فينّا وأثره على الموقف البريطاني

عقد الساسة الأوربيون في 13 سبتمبر 1814 مؤتمراً للمرة الأولى في مدينة فينّا[50] "Congres de Vienne"، طرحت فيه عدة مشاكل منها ما سموه بالقرصنة المغربية ومسألة تجارة الرقيق[51]، وتحرير الأسرى النصارى الموجودين لدى الجزائر وبقية نيابات المغرب، إذ انبرى الأميرال البريطاني سيدني سميث"Sedny Smeth" ذو الخبرة الطويلة في البحر المتوسط إبان الحروب النابليونية، وقدم إلى المؤتمر مذكرة طالب فيها الدول الأوربية بضرورة قيامها بعمل جماعي ضد دول المغرب العربي من دون التدخل الأوربي في احتلال الجزائر، بل الاكتفاء بتحطيم حكومة الدايات ووضع حدٍّ للقرصنة البحرية وإنهاء تجارة الرق، فضلاً عن مطالبته بتغيير حكومات تلك الدول لتكون أفضل استجابة لمطالب الدول الأوربية[52] ولخص ذلك قائلاً:" في الوقت الذي تناقش فيه وسائل إلغاء تجارة الرقيق الأسود في سواحل أفريقيا الغربية فإنه لمن الدهشة أن لا تنتبه إلى الساحل الشمالي لهذه القارة التي يقطنها العثمانيين الذين يضطهدون حيازاتهم ويخطفونهم ليستخدمونهم في جدف سفنهم، أن مثل تلك الأعمال لا تغضب الإنسانية فحسب، بل إنما تعرقل التجارة، إذ أصبح من الصعب اليوم أن يبحر بحار في البحر المتوسط أو المحيط الأطلسي على سفينة تجارية من دون أن يتعرض لاعتداءات القراصنة"[53] ووضح أن مثل تلك الأعمال لا تمس سيادة السلطان العثماني لأن الجزائر تتصرف بمعزل عن السلطة العثمانية، واقترح على الدول المشاركة في المؤتمر دعوة السلطان للتعاون معها، ووقف كل إمداداته للجزائر وسحب الحامية العثمانية الموجودة فيها، ومنع رعاياه من الانخراط في قواتها البحرية والبرية منها[54].

لقي مشروع سدني سميث تأييد سفير فرنسا في بريطانيا بوليناك"Polinak"[55] الذي رأى أن اشتراك فرنسا في مثل تلك العمليات سينسي الفرنسيين أحزانهم القومية ويرضي تعطشهم للعمل العسكري، ويكون سوقاً للصناعات الأوربية، ولاسيما الحربية منها، وخالفت الحكومة الفرنسية رأي سفيرها لأنها رأت أن المشروع يؤكد التفوق البريطاني في البحر المتوسط، في الوقت الذي عانت فيه فرنسا من الضعف السياسي والعسكري، بسبب تواجد قوات أجنبية على أرضها، لذا سيكون دورها ثانوياً[56].

أما عن موقف بريطانيا فقد وضحه وزير الخارجية البريطاني كاسترلي[57] قائلاً:" إن بريطانيا ما زالت تحتفظ بسياستها التقليدية التي تفضل بقاء النيابات حتى لا تتعرض شمال أفريقيا لحالة من الفوضى تمكن فرنسا من إخضاعها من دون عناء"[58].

وتأسيساً على ما ذكر قدمت بريطانيا تقريراً إلى حكومة استانبول شكت فيه من تصرفات الأوجاق[59]، وطالبت بوضع حدّ لتصرفاتهم السيئة، وفي حال عدم قيامها بعمل جاد، فإن الدول المطلة على البحار ستعمد إلى اتخاذ إجراء قاسٍ ضد الأوجاقات، فردت الحكومة العثمانية قائلةً:" بأنها لن تتدخل في حال قيام حرب بين تلك الدول وأوجاقات الغرب"[60]. وبذلك رفعت الدولة العثمانية يدها عن الجزائر، وأباحت للدول الأوربية التصرف ضدها بشكل فردي أو جماعي، لتبعد نفسها عن مشاكل الجزائر والتحالف الدولي الجديد.

قبل نهاية أعمال مؤتمر فينّا وتحديداً في 7 جوان 1815 التقى الأسطول الأمريكي بالأسطول الجزائري في البحر[61]، وحدثت اشتباكات بينهما، أسفرت عن استشهاد عدد من البحارة وأبرز القادة البحريين الريس حميدو[62]، وأسر سفينة جزائرية من قبل الأمريكيين، ومن ثم تحمس الأمريكيون لتلك العملية وجددوا هجومهم يوم 16 من الشهر نفسه، ليغنموا زورقاً بحرياً جزائرياً مجهزاً بـ (22) مدفعاً، وفي يوم 24 رسى الأسطول الأمريكي قبالة مدينة الجزائر لإظهار القوة والتفوق ولوقف عملية زيارة وتفتيش السفن التي تقوم بها البحرية الجزائرية، وكانت النتيجة توقيع الصلح بين الطرفين في 7 تموز 1815، وبذلك أمنت الولايات المتحدة الأمريكية على تجارتها في البحر المتوسط، وعدم اعتراض السفن الأمريكية[63].

انتهى المؤتمر إلى إجماع أوربي، أعلن عنه يوم 9 حزيران 1815 بالتأكيد على تحريم القرصنة والاسترقاق في الجزائر وتونس وطرابلس، وضرورة القضاء عليهما، ولم يشمل ذلك ولايات شمال أفريقيا فقط، بل امتد ليطبق على دول العالم كافة، وتم تفويض بريطانيا بتطبيق تلك الإجراءات، وبذلك تم دعم مركزها في البحر المتوسط[64].

كان وقع المؤتمر سيئا في نفوس القادة الجزائريين الذين رفضوا مقرراته، وعززه موقف السلطان العثماني محمود الثاني (1808-1839) الذي جاء مؤيداً له، إذ أصدر أوامره بعدم التعرض لكل رعايا الدول الأخرى أو أسرهم، ليخفف من حدة التوتر، لكن الجزائر لم توافق على تلك التعليمات على الرغم من وصول المندوب البريطاني للجزائر، ليخبر الداي

عمر بن محمد[65] بما تم الاتفاق عليه مع السلطان، إلاَّ أنه تعرض للضرب من وكيل الحرج[66]، الأمر الذي سبب أزمة سياسية مع بريطانيا كانت عواقبها خطيرة[67].

عدَّ مؤتمر فينّا من أهم المؤتمرات الدولية الأوربية بعد مؤتمر وستفاليا عام 1648، إذ عمل قادة أوربا على ترتيب الشؤون الأوربية بعد مرحلة من الحروب المتواصلة، وهي محاولة لرسم خارطة أوربا الجديدة، وقد توصلت تلك الدول إلى الحلول الناجحة من دون خلافات ملحوظة، وفيه دخل مصطلح الدول الكبرى والدول الصغرى، وعلى الرغم من الانتقادات الموجهة إلى المؤتمر إلى أنه نجح في تدعيم أسس السلام في أوربا لمدة طويلة بتحطيم ودمج دول وإمارات صغيرة وإجراء التسوية اللازمة لها[68].

بعد انتهاء أعمال مؤتمر فينّا بنجاح، عمل وزير الخارجية البريطاني كاستلري "Castlereagh" بجهد كبير من أجل إقامة تحالف رباعي" Quadruple Alliance" ضم (روسيا والنمسا وبروسيا وبريطانيا)، ونجحت جهوده بتوقيع أطراف الحلف في 20 نوفمبر 1815، أعلنت فيه الدول الموقعة أنها ستحافظ على استقرار أمن أوربا، وعلى الوضع السياسي الراهن، وتكون مدة التحالف (20) عاماً، ومتابعة نتائج مؤتمر فينّا[69].

رابعاً: حملة اكسموث على الجزائر عام 1816

رأت بريطانيا أن تأمين مصالحها في حرية التنقل في البحر المتوسط سيسهم في نمو تجارتها، لذا عادت إلى مقترح سدني سميث الذي تقدم به في مؤتمر ڤينّا للقيام بعمل ضد الجزائر، لاستغلال الأوضاع التي مرت بها فرنسا بعد حروب نابليون، وليكون لأسطولها الدور الأكبر في عمليات البحر المتوسط، ولاسيما بعد أن سيطرت على الجزر الأيونية[70]، وللسيطرة على الفعاليات العسكرية والتفكير في كيفية النفاذ إلى السواحل الجزائرية بحرية أوسع من قبل لإظهار تفوقها واكتسابها مركزاً جديداً في البحر المتوسط[71].

حاولت بريطانيا تنفيذ سياستها في البحر المتوسط عن طريق توجيه اللورد اكسموث[72] "Lord Exmouth" على رأس وحدات من أسطولها البحري إلى الجزائر في افريل 1816، وكان الهدف المعلن هو تحرير أسرى الجزر الأيونية من قبضة السلطات الجزائرية كونهم أصبحوا من رعاياها بعد فرض حمايتها عليها، إلاَّ أن هدفها الأهم كان يتمثل بتصفية حساباتها القديمة مع الجزائر، وكل ذلك تحت عنوان تنفيذ مقررات مؤتمر فينّا[73].

تألف الأسطول البريطاني من سفينة ذات ثلاثة عنابر، وخمسة قليونات[74] وأربع فرقاطات، وسبعة زوارق، وقد بعث قائد الأسطول إلى الداي عمر تهديداً يبلغه بإجراء المباحثات وقبول الصلح مع حكومات سردينيا وصقلية وهولندا، وفي حالة عدم القيام بالمباحثات خلال ساعتين فإنه سيبدأ بقصف المدينة، فأضطر الداي إلى قبول تلك المباحثات مرغماً، وانضمت كلٌّ من جنوه وعدد من جمهوريات إيطاليا إلى مفاوضات الصلح، لأن قائد الأسطول كان يتكلم باسم جميع الدول الأوربية[75].

كانت مطالب قائد الأسطول بإطلاق سراح الأسرى النصارى مقابل القليل من المال وبموجب تلك المباحثات فقد دفعت مملكة سردينيا مبلغ (500) دولار فدية عن كل محتجز لدى الجزائر، مع إطلاق الجزائريين المحتجزين في مملكتها من دون فدية، وأن تقدم هدية قنصلية قيمتها القصوى (5000) جنية إسترليني على أن تعاملها الجزائر على قدم المساواة مع بريطانيا، أما مملكة نابولي فقد دفعت فدية مقدارها (1000) دولار عن رعاياها، وأن تقدم الهدية القنصلية مرة واحدة كل عامين، فضلاً عن ضريبة مماثلة لضريبة البرتغال، أما الأسرى الذين ينتمون إلى جزيرة مالطة وجبل طارق الذين بلغ عددهم (33) أسيراً، فقد أطلق سراحهم من دون فدية كونهم رعايا بريطانيين[76].

اشترطت المطالب حرية مرور السفن البريطانية والصقلية والأيونية، وهي بذلك تجرد الجزائر من نفوذها السابق، وتحد من تنامي القوة البحرية الجزائرية، يقابل ذلك ازدياد النفوذ الأوربي في البحر المتوسط، إذ أصبح من الصعب المحافظة على القوات العسكرية الجزائرية، الأمر الذي أثار حفيظة الجزائريين بشكل كبير، إذ عدوه تدخلاً سافراً في شؤون البلد الذي حفظت مكانته المواثيق الدولية[77].

يتضح مما سبق أن التحول الكبير في سياسة بريطانيا تجاه الجزائر جاء بعد عودة السلم إلى أوربا، وأصبحت لديها القوة الكافية لاستكمال السيطرة على البحر المتوسط، وهو من مسلمات السياسة البريطانية تجاه حلفائها، إلاَّ أن عدم وعي الساسة الجزائريين للأهداف البريطانية أسهم في ترسيخ النفوذ البريطاني في البحر المتوسط.

فرض اللورد اكسموث على الداي عمر شرطاً آخر جديداً، تمثل بمنع استخدام الأسرى النصارى في الأعمال الشاقة بالمحاجر وصناعة السفن والترسانة الحربية وغيرها من الأعمال، وأن يدفع عن كل أسير مبلغ خمسين قرشاً ثم يمنح حريته، وذلك الشرط سبب

مشكلة كبرى، لأنه لا يتعلق بالجزائر فقط، بل بتونس وطرابلس الغرب، فقال له الداي:" ينبغي استشارة الدولة العثمانية"، فقبل اللورد ذلك الشرط، ووضع اللورد اكسموث سفينة بريطانية تحت تصرف الداي لكي تتولى نقل سفيره المكلف بالذهاب إلى استانبول على متنها، الأمر الذي أثار الأهالي، إذ تجمع نحو (2000) شخصاً واتجهوا إلى مصيف القنصل البريطاني ماك دونيل"Mc.Donel"، ولم يعترضهم أحد، فاعتقلوه، وجرى اعتقال (200) رجلاً من صيادي المرجان بمدينة عنابة في آيار 1816، بعد أن سلموا أنفسهم إلى السلطات الجزائرية، وأمر الداي بهدم المؤسسات التجارية النصرانية الموجودة على الساحل وقتل من فيها[78]. وبذلك أعطى الداي رسالة غير مباشرة عن رفضه للشروط المقدمة عن طريق الأعمال التي قام بها.

على أثر دخول الأسطول البريطاني ميناء الجزائر وتهديده وإرسال التهديد للداي عمر، أرسل الأخير برقية إلى السلطان العثماني محمود الثاني يبلغه بالأحداث التي جرت بين الجزائر والبريطانيين قائلاً:" عقدت الدول المسيحية اتفاقاً بينها، وعهدت إلى الجنرال اكسموث قيادة أسطوله اللعين ضد اوجاقكم، وعندما وصل إلى الجزائر طلب إلينا عقد الصلح مع الدول الأعداء والكف عن مطالبتهم بالأموال التي كانوا يدفعونها إلينا، غير أن اوجاقكم بالجزائر، قد عبروا عن عدم رضائهم بتلك الشروط، كما ورفضوا تسريح الأسرى المسيحيين بدون فدية، كما طالب بذلك اللورد اكسموث، وعليه عقدنا اجتماع مع المسؤولين في الديوان والانكشاريين المسنين لدراسة الوضعية، وقد خلصنا إلى القول، أننا بأسرنا المسيحيين قد اقتدينا بسلوك النبي محمد(ﷺ) والسلاطين، إذ أن بعض الأسرى كانوا يستخدمون في كثير من الأعمال، والبعض الآخر يعملون في الترسانة، إلاَّ أن الانكليز رفضوا قبول هذا الأمر... أننا نطلب من حضرة سلطاننا إصدار فرمانه ومدنا بدون تأخير كبير بالذخائر والعساكر، ذلك أن الكفار غير الأمناء قد ضايقوا اوجاقكم بعدم احترامهم بنود المعاهدة المعقودة"[79].

يتضح من النصَّ أعلاه أن الداي كان في وضعية حرجة على الرغم من عزمه على المجابهة البحرية للقوى الأوربية، لأنه اعتمد فيما سبق على استيراد الذخيرة الحربية من الدول الأوربية، بدليل طلبه من السلطان المزيد منها ومن القوات الانكشارية، بعد أن أخذت الدول الأوربية زمام المبادرة واتفقت على إنهاء سيادة الجزائر ومحاصرتها، وعدم تصدير الذخيرة والسلاح لها.

جاء الرد العثماني:" عدم تعلق الاتفاقية المبرمة بين انكلترا والجزائر حول أسر مواطنين الدول الأوربية بالدولة العثمانية، وذلك لتمتع الجزائر بالحرية في عقد الاتفاقيات مع الدول الأخرى باستثناء روسيا والنمسا"[80].

استشار الداي عمر، القنصل الفرنسي الكونت بيير دوڤال[81]"Pierre Duvale" بشأن المطالب التي قدمها اللورد اكسموث، ولاسيما فيما يتعلق بموضوع استرقاق الأسرى، وكان الرأي الذي أبداه:" أنه لا يوجد فرق جوهري بين أسرى الحرب في أوربا واسترقاق الأسرى في الجزائر، فالفرق في الشكل فقط، ففي الجزائر توضع الأغلال في أرجل الأسرى، أما في أوربا، فبدل الأغلال يوضعون تحت الحراسة المشددة إلى نهاية الحرب، وبدل الفدية التي تطلبها الجزائر عن كل أسير، فإن الدول الأوربية تطلب مبلغاً مالياً إضافياً تعويضاً عن المصاريف التي تحملتها في إعاشتهم والنفقة عليهم، كما تطلب مبلغاً مالياً تعويضاً عن أضرار الحرب التي تكبدتها، فحكومة الجزائر يمكنها أن تُلزم الدول الضعيفة التي تكون في حاجة إلى إبرام صلح معها بدفع مبلغ مالي من أجل ذلك، ومبلغ إجمالي آخر لإطلاق سراح الأسرى"[82]، تلك الاستشارة شجعت الداي على مقارعة الشروط البريطانية والاستعداد للمعركة.

بعد تلك الحادثة عمل الداي على إقامة الترتيبات الدفاعية وتزامن ذلك مع وصول أمراء السناجق وجنودهم إلى مدينة الجزائر، وعلى الفور باشروا باتخاذ مواقعهم القتالية، في حين حاول القنصل البريطاني ماك دونيل نصحه بالصلح مع الدول الأوربية، إلا أن الداي عمر أجابه بالرفض قائلاً:" الحكومات الصغيرة غدت تمانع القرصنة، ولكي نضمن إطعام أفراد الانكشارية ينبغي أن تستمر أعمال القرصنة"[83].

وجهت بريطانيا اللورد اكسموث بشن حملة بحرية ثانية على الجزائر بعد رفض الداي المطالب التي قدمها في المرة الأولى، وعند عبوره مضيق جبل طارق انضمت إليه سفن هولندية، ليبلغ مجموع السفن (36) سفينة مختلفة الأحجام[84]، فرست قبالة الجزائر في 22 اوت 1816، وأرسل اللورد اكسموث مركباً يحمل علم الهدنة (الراية البيضاء) ومبعوثين حاملين إنذاراً أخيراً، وفي الوقت الذي كان فيه الجزائريون يدرسون صيغة الإنذار، تحرك الأسطول بسرعة واتخذ وضعاً يسمح له بإطلاق النار، ومع عودة المبعوثون إلى السفينة برد سلبي على الإنذار، اكتشف الجزائريون الحيلة، وحدث أن وِجّه أمر للمدافع المنصوبة على الرصيف البحري بإطلاق النار، فأطلقت (3) طلقات، فردت سفن الأسطول البريطاني الهولندي بوابل من النيران[85].

بدأت المعركة في الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر يوم 28 آب من العام نفسه، واستمرت لمدة (11) ساعة، أسفرت المعركة عن خسائر فادحة في صفوف القوات الجزائرية المدافعة عن الميناء بلغت نحو (500) جندي، وقتل نحو (70) من السكان المدنيين الذي حضروا للمشاهدة، وتحطمت عدة تحصينات، وأضرمت النار في البواخر الجزائرية الراسية في الميناء، فيما بلغت الخسائر البشرية بين صفوف القوة المهاجمة نحو (863) بين قتيل وجريح، كان نصيب الهولنديين (13) بحاراً لقوا مصرعهم وجرح (32) منهم، في حين بلغت خسائر البريطانيين نحو (128) قتيل و(690) جريح[86].

استعمل البريطانيون الحيلة منذ اللحظة الأولى، برفعهم العلم الأبيض على سفينة المفاوضات، وبدأوا يقتربون من المدينة، وبتلك الوسيلة تمكنوا من تدمير ساحبات المدافع الراسية في الميناء، وتمكنوا من إخفاء نفاد ذخيرتهم عن الجزائريين الذين انشغلوا بهزيمتهم، لأن موقفهم الحربي كان أقوى بكثير من موقف الجزائريين[87]، وعلى الرغم من ذلك، شهد اللورد اكسموث بحق الجزائريين قائلاً:" لم أرَ في حياتي أعداء يحاربون بإيمان وثبات وجأش كهؤلاء"[88].

أرغم الداي على قبول شروط الهدنة بسبب الهزيمة التي تعرض لها، فضلاً عن الفزع الذي أصاب السكان نتيجة القصف الكثيف على الميناء لذلك تم التوقيع على الاتفاقية في 31 آب 1816 بحسب الشروط الآتية[89]:

1. وضع حدّ لاسترقاق النصارى، ويتم إطلاق سراح الأسرى البالغ عددهم نحو (1500).
2. تلغى الهدايا المقدمة من القناصل إلى الداي، لأن تلك العادة غير متبعة لدى الغرب.
3. تعويضاً عن الخسائر التي لحقت ببريطانيا ورعايا الدول التابعة لها، تدفع الجزائر ما قيمته نحو (360) ألف ريال.
4. يتم الصلح مع هولندا أو توابعها بالشروط نفسها على الرغم من احتفاظ الجزائر بحق عقد المعاهدات مع من تشاء من الدول الأوربية.
5. إعادة المبالغ المالية التي دفعت له في الحملة السابقة لافتداء الأسرى.

لم تتضمن الشروط وضع حدّ للقرصنة على الرغم من أنها كانت إحدى أهم مقررات مؤتمر فينّا الذي تعهدت بريطانيا بتنفيذه خدمةً لمصالحها التجارية، إذ إنهم لم يهتموا قط بمكافحة القرصنة البحرية، لأنها كانت تعرقل تجارة الدول الأوربية، ولاسيما فرنسا[90].

طلب اللورد اكسموث برسالة ثانية بعثها إلى الداي عمر في 28 اوت إطلاق سراح القنصل البريطاني والضباط والجنود الذين اعتقلوا في وقت سابق بمدينة عنابة، وإرسالهم في مركب تابع للأسطول البريطاني، فضلاً عن جميع العبيد النصارى المتواجدين في الجزائر[91].

لم يكن هدف الحملة البريطانية العاشرة احتلال أي جزء من الجزائر على الرغم من انهيار القوات المدافعة عنها، ودخول المدينة في فوضى عارمة بعد موجة القصف الكثيف عليها، إلاَّ أنَّ الهدف الرئيس للحملة كان معاقبة داي الجزائر، لأن تكاليف الحملة كانت باهظة[92].

أرسل الداي عمر برقية أخرى إلى السلطان العثماني محمود الثاني أبلغه فيها بالحوادث التي وقعت مع البريطانيين جاء فيها:" ... استعمل الانكليز الحيلة برفعهم علماً أبيضاً، كما ووجهوا إلينا رسالة طالبين منا الرد عليهم خلال ظرف ساعة واحدة، وعندما لم يستلموا أي ردَّ فقد دخلوا الميناء مجابهين قلاعنا وبواخرنا... أحرقت خلالها كل بواخرنا وسفن تجارتنا، ولم نر دقيقة راحة، لقد استشهد كثير من الاوجاق الشجعان دفاعاً عن دينهم وسلطانهم... أن عدد موتى الكفار كان أربع مرات عدد المسلمين، فضلاً عن أن عدد الجرحى كان مرتفعاً... ومن الخسائر التي لحقت باوجاقكم عدم أخذ فدية الأسرى التي بلغت مليونين من الريالات الفرنسية"[93].

يتضح مما سبق، أنَّ الداي عمر قد استنفد الخطط كافة لإبعاد الجزائر عن القوات المتحالفة، ودفع الضرر بعقد المعاهدة المذلة التي أفقدت الجزائر هيبتها الحقيقية كدولة كبرى وأرجعتها إلى الوراء بأعوام عديدة، وكان وقعها سيئاً ونتائجها خطيرة على الجزائر.

الخاتمة

توصل البحث إلى عددٍ من الاستنتاجات المهمة التي أسهمت في تعميق هوة الخلافات البريطانية الجزائرية طوال قرنين من الزمان، وهي:-

1. عملت الجزائر على الانتقال الطبيعي من الدفاع عن حصونها وموانئها ضد قراصنة الدول الأوربية إلى مرحلة الهجوم بمطاردة أولئك القراصنة إلى شواطئ دولهم وتحذيرهم من الدخول إلى البحر المتوسط والاحتكاك بالبحرية الجزائرية.

2. كانت الجزائر أقوى دول المغرب العربي، بسبب كبر مساحتها وطول سواحلها المطلة على البحر المتوسط، ووفرة تجارتها ورواجها مع الخارج بمديات واسعة، الأمر الذي جعلها تحتل الصدارة على سائر نيابات المغرب الأخرى، باعتراف الدول الأوربية لها بتلك المكانة وبدليل دفع الضرائب والهدايا، وإبرام المعاهدات لسلامة تجارتها ونيل رضاها.

3. امتازت سياسة الحكام الجزائريين بالتشدد والعصبية والتهور في اتخاذ القرارات الصائبة في أحيان عديدة، وذلك السبب أفقدها ميزة التعامل الدبلوماسي مع الدول الأوربية وغيرها.

4. ظهور الدول الحديثة في أوربا ورغبتها في التوسع الاستعماري خارج القارة، جعلها تستنفد كل طاقاتها لاقتناص أية فرص للنيل من الجزائر في بداية القرن التاسع عشر بعد أن أنهكتها الحروب البحرية والصراعات الأوربية.

5. أدى التنافس الأوربي على البحر المتوسط إلى الإضرار بمكانة وهيبة الجزائر، إذ أدخلها في حلقة من الصراعات والمؤامرات، وعزز مؤتمر فينّا ذلك بتحالفات جديدة جاءت لإنهاء سيطرة الجزائريين على البحر المتوسط، وتحييد التجارة الجزائرية وهيمنتها، وبسط النفوذ الأوربي الجديد.

6. كرس مؤتمر فينّا جهود الحاضرين، ليرمي بكل ثقله الممزوج بالحقد الديني والسياسي الموروثان عن الحروب الصليبية ضد الشعوب الإسلامية عامة، وليبدي الرغبة في الانتقام منها على أرض المغرب العربي، للهيمنة على مقدرات تلك البلدان ونهب خيراتها.

7. لم تدافع الدولة العثمانية عن الجزائر، بل تركتها وحيدة لتلاقي مصيرها، وذلك بسبب استقلالها شبه التام عن السلطان العثماني، وعدم احترامها للقرارات التي كانت تصدر وتلزم الايالات العثمانية بالعمل فيها.

8. تركت بريطانيا مسألة إنهاء القرصنة ولم تعالجها أو تضع لها حداً نهائياً على الرغم من لأنها السبب الرئيس لتوجه الحملة، وذلك لإبقاء الذرائع مفتوحة أمامها مستقبلاً للقيام بأية أمور تجري في حساباتها.

الملحق رقم (1)

جدول يبين أسماء أهم السفن البريطانية والهولندية وعدد مدافعها التي شاركت في الحملة على مدينة الجزائر عام 1816[94]

الأسطول الانكليزي		الأسطول الهولندي	
اسم المركب	عدد مدافعه	اسم المركب	عدد مدافعه
الملكة شارلوت Charlotte	100	لوملنبيس Lemelanpus	40
لانبرونابل Limprenable	98	لافريديريكا La Fridirica	40
لوسيبارب Le Superbe	74	لودكراد Le Dragaraad	36
لومندن Le Menden	74	لاديان La Diane	40
لالبيون LAlbin	74	لامستال Lamstel	44
لوليادر Le Leandre	50	لاندراخت Landracht	24
لوسوفرن Le Severn	40		
لوكلاسكون Le Glascon	40		
لوكرتنيك Le Cranique	36		
لوهبر Le Hebre	36		

الهوامش:

1. الإخوة عروج وخير الدين: ولدا في جزيرة مدلي (Midili) في البحر المتوسط من أم مسيحية وأب كان جنديا انكشارياً في الجيش العثماني، ولد عروج عام 1446م، أما خير الدين فولد عام 1466م، وهناك اختلاف بشأن أصلهما الحقيقي، تنقل الإخوة بين مصر وبلاد الشام واستانبول وبفعل براعتهما العسكرية تمكنا من تأسيس أسطول بحري قوي تمكنا عن طريقه من مهاجمة المستعمرات الأسبانية في الشمال الإفريقي ودمرا الكثير منها وأصبحت لهم شهرة واسعة حين قاما بتقديم المساعدات للمسلمين الفارين من الأندلس ونقلوا الكثير منهم إلى السواحل الجزائرية والتونسية، وقد ترك الأخوان أثراً كبيراً في تاريخ البحرية العثمانية في البحر المتوسط. بسام العسلي، خير الدين بربروس والجهاد بالبحر1470-1547، دار النفائس، بيروت،1980، ص27؛ للمزيد من التفاصيل ينظر: جاسم محمد حسن العدول، عروج ودوره في أحداث المغرب العربي وحوض البحر المتوسط الغربي، مجلة التربية والتعليم، جامعة الموصل، العدد 2، 1980، ص191-204.

2. عبد الجليل التميمي، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول 1519، المجلة التاريخية المغربية، مطبعة الاتحاد العام للشغل، تونس، العدد 6، تموز 1976، ص119-120.

3. فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي(دراسة في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصراً مطلع العهد العثماني- أواسط القرن التاسع عشر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص536.

4. أندري ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة: لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1999، ص56-58.

5. القرصنة: ظهر المصطلح كإحدى نقاط التعصب الغربي ضد العرب والمسلمين، فحركة البرتغال والإسبان ضد الأراضي العربية الإسلامية يُسمونها (استرداد) أو استعادة، وحملاتهم ضد العرب والمسلمين يطلقون عليها (وقائية) ضد المسلمين، أما ردود الفعل الإسلامي الدفاعية والانتقامية فتدعى قرصنة. بسام العسلي، خير الدين بربروس، ص72-82؛ نجم الدين عبد الستار صادق ليلاني، البحرية العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني 1520-1566م، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة تكريت، كلية التربية، 2009، ص62.

6. شكلت تجارة الأسرى النصارى مورداً مهماً للجزائر، فكل أسير له قيمة محددة بحسب مكانته، فالقابودان (قائد السفينة) تكون فديته (2500) قرش، ومساعده وصانع السفينة والجراح (1500) قرش، والبحار (1000) قرش، أما الأسرى الألمان فتكون فديتهم أعلى، وذلك لمهارتهم في شؤون البحرية، ويتكفل الآباء الكنسيين بقضية تحرير الأسرى في كل عام. ناصر الدين سعيدوني، رحلة العالم الألماني: ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1732م)، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2007، ص42.

7. محمد الخداري، بلاد المغارب تحت الحكم العثماني نموذج الجزائر، مجلة كان التاريخية، الكويت، العدد 22، السنة 6، كانون الأول 2013، ص31.

8. مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، دار البعث، ط2، الجزائر، 2007، ج1، ص182؛ العيد مسعود سعيد، المجتمع الجزائري في العهد العثماني، رسالة ماجستير، (غير منشورة)، جامعة عين شمس، معهد البحوث والدراسات العربية، 1975، ص175.

9. ياسر بن عبد العزيز قاري، دور الامتيازات الأجنبية في سقوط الدولة العثمانية دراسة تاريخية تحليلية، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، 2001، ص159.

10. الملك هنري الثالث: ولد في 19 أيلول 1551، وهو الابن الثالث لملك فرنسا هنري الثاني وكاثرين دي مدتشي، وآخر ملوك أسرة فالو "Valois"، قاد الجيش الملكي الفرنسي في الحرب الدينية ضد البروتستانت الهيغونت التي اندلعت في عهد أخيه الملك شارل التاسع عام 1562، انتخبه النبلاء البولنديون ملكاً على بولندا عام 1573، تخلى عن عرش بولندا وأصبح ملكاً على فرنسا بعد وفاة الملك شارل التاسع عام 1574، تمكن الراهب الكاثوليكي جاك كليمان من طعن الملك وهو في معسكره في

سانت كلود يوم 1 آب 1589، ولعدم وجود وريث له كون الملك كان عقيماً، لذلك اتفق مع هنري نافارا وهو على فراش الموت، واشترط عليه أن يكون كاثوليكياً ليوصي إليه بوراثة العرش الفرنسي فوافق على ذلك، لينتقل العرش الفرنسي من أسرة فالو إلى أسرة أل بوربون توفي في 2 آب 1589.

R. J. Knecht, The French Wars Of Religion 1559-1598, U.S.A, 2014, P.26; Laszlo Solymar, Anaatomy Of Assassinations: From Biblical Times to end Of Second Millennium, U.S.A- U.K, 2013,P.97.

11. نقلاً عن: إدريس الناصر رائسي، العلاقات العثمانية الأوربية في القرن السادس عشر، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2007، ص160.

12. () الامتيازات الأجنبية: اصطلاحاً هي مجموعة من الحقوق والتسهيلات التي تمنحها الدولة العثمانية للدول الأوربية بناءً على اتفاق أو معاهدة مبرمة، واشتهرت تلك المجموعة بـ " Las Capituliations" بالفرنسية، أما في المصادر اللاتينية فقد عرفت بـ كابتولوم "Capitulum"، وشملت الجوانب الاقتصادية والسياسية والدينية وتنظيم العلاقات بين الدولة العثمانية ودول أوربا، وهناك امتيازات فردية أو متبادلة أو فردية إجبارية. وليد العريض، الامتيازات في الدولة العثمانية وأثارها، مجلة دراسات، الأردن، العدد1، السنة 34، 1997م، ص145-154؛ معد صابر رجب، قراءة جديدة في الأسباب الحقيقية لضعف الدولة العثمانية من خلال الامتيازات الفرنسية والتوجه إلى المشرق العربي 1520-1798، مجلة جامعة تكريت للعلوم، مجلد 20، العدد 3، آذار 2013، ص192.

13. إدريس الناصر رائسي، المرجع السابق، ص160.

14. للمزيد من التفاصيل ينظر: ياسر بن عبد العزيز قاري، المصدر السابق، ص159-169.

15. المصدر نفسه، ص277.

16. محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، جامعة دمشق، دمشق، 1969، ص142؛ مولود قاسم نايت بلقاسم، المصدر السابق، ج1، ص183.

17. مالطا: مجموعة من جزر البحر المتوسط، تقع جنوب صقلية، استولى عليها نابليون عام 1798، ضمت لبريطانيا عام 1814، وتعدَّ أهم قاعدة بحرية بريطانية في البحر المتوسط. نجم الدين عبد الستار صادق، المصدر السابق، ص103.

18. محمد الخداري، المرجع السابق، ص31.

19. يحيى بو عزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص146.

20. المر جع نفسه، ص146.

21. للمزيد من التفاصيل عن تلك الحملات. ينظر: مولود قاسم نايت بلقاسم، المصدر السابق، ج1، ص196-210.

22. مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964، ج3، ص177.

23. بك: وتلفظ أحياناً بيك: كلمة تركية قديمة أصلها فارسي وتعني حكيم أو مقدس أو رئيس اتسع نطاق استعمالها ليشمل الأمراء والسناجق في العهد العثماني ممن هم دون مرتبة الباشا، وأضيف اللقب إلى رتبة حامله فأطلق بيكلر بك، في العهد العثماني بعد أنّ منحه السلطان لحاملي لقب باشا والعسكريين الحاصلين على رتبة القائمقام. مصطفى عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت،1996، ص83.

24. توجت تلك الرسالة بحادثة طرد مبعوث السلطان العثماني المدعو علي شاوش عام 1711، ومنعه من النزول في الجزائر، وأقر الباب العالي ذلك، ولم يعد دايات الجزائر ملزمين إزاء الدولة العثمانية إلا بالخطبة وضرب السكة باسم السلطان، مقابل تمتعهم بالألقاب الشرفية التي يخول لحاملها الحصول على الأوسمة والمنزلة، مع استمرار الدايات بإرسال الهدايا كل عام إلى السلطان العثماني، اعترافاً بأحقيته بتمثيل المسلمين، وصار الأخير يصادق على تولية الداي كلما تطلب ذلك. ناصر الدين سعيدوني، موظفوا الدولة الجزائرية في القرن التاسع عشر، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، 1987، ص10-11؛ عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ج2، ص344.

25. وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زيادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص180.

26. حفيظة خشمون، مهام مفتديي الأسرى والتزاماتهم الاجتماعية في مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية، رسالة ماجستير (غير منشورة)، الجزائر، جامعة منتوري قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، 2007، ص23.

27. سميت مملكة بريطانيا العظمى "Great Britain" بعد اتحاد العرش والبرلمانات (إنكلترا واسكتلندا وويلز) في 1 تموز 1707، سميت المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وايرلندا في 1 كانون الثاني 1801، وقبل ذلك كانت تسمى مملكة إنكلترا، لذلك سيتم استعمال تسمية بريطانيا بعد عام 1707.

Swillimm Francis. History Of the British Empie .London, 1896.P.254-359; Eugene Lawrence, The Days of Queen Anne, Chicago 1905, PP.26-29.

28. جون ب. وولف، الجزائر وأوربا 1500-1830، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعدالله، (د.م)، الجزائر، 1986، ص380.

29. سفيان صغيري، العلاقات الجزائرية العثمانية خلال عهد الدايات في الجزائر (1671-1830)، رسالة ماجستير (غير منشورة)، الجزائر، جامعة الحاج لخضر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، 2012، ص124.

30. رياس البحر: وهم المقاتلون الذين ينجحون في أداء الاختبار الذي يعدّ من مجموعة من رجال البحر ذوي الخبرة والحنكة في فنون الملاحة، ويكون الشخص المتطوع في أغلب الأحيان ممن عمل سابقاً في مجال البحر وركوب السفن كي يمنح بعد نجاحه لقب(ريّس) ليقاتل العدو في البحر بعد توليه قيادة سفينة أو مركب خاص به أو قائد. ينظر: وليم سبنسر المصدر السابق، ص74-75 .

31. رأفت غنيمي الشيخ، التاريخ المعاصر للأمة العربية الإسلامية 1412-1992، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1999، ص87.

32. () الداي محمد عثمان: هو محمد عثمان القرماني نسبة إلى قرية قرمان التي ولد فيها وتقع جنوب الأناضول، عمل في الأوجاق في سن مبكرة، واكتسب خبرة كبيرة، تولى الحكم بوصية سلفه الداي علي بوصبع، قام بفرض ضرائب زائدة على السفن الأوربية، وحدثت في عهده خلافات كبيرة مع إنكلترا، ولمرضه المزمن وكبر سنه سلم الحكم لابنه حسن بك، توفي عام 1791. سفيان صغيري المصدر السابق، ص125-126.

33. نقلاً عن: مولود قاسم نايت بلقاسم، المصدر السابق، ج2، ص228.

34. الداي حسن: تسلم الحكم بعد وفاة والده عام 1791، وكان حليماً يتمتع بطبع حسن، ذو كفاءة كبيرة وفطنة في تسيير شؤون الإيالة، الغى عقوبة الإعدام، وقام بتحسين وضعية الأسرى النصارى، قام بمساعدة فرنسا بإقراضها نصف مليون فرنك بدون فائدة، تمكن من تحرير وهران من قبضة الأسبان عام 1792، توفي في 14 آيار 1798. سفيان صغيري المصدر السابق، ص126-127.

35. نقلاً عن: مولود قاسم نايت بلقاسم، المصدر السابق، ج1، ص187.

36. جمال قنان، العلاقات الفرنسية- الجزائرية 1790-1830، منشورات متحف المجاهد، الجزائر، 1997، ص171.

37. عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، ج2، ص373؛ جون ب. وولف، المرجع السابق، ص441.

38. الطرف الأغر: يقع إلى الشمال الغربي من مضيق جبل طارق، اشتهر بالمعركة التي وقعت قريباً منه وانتصر فيها الأميرال البريطاني نلسون على الأسطول الفرنسي الاسباني عام 1805. بسام العسلي، المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي 1830-1838، دار النفائس، بيروت، 1980، ص50؛ آلان بالمر، موسوعة التاريخ الحديث 14789-1945، ترجمة: سوسن فيصل السامر، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، 1992، ص339.

39. يحيى بو عزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ص167.

40. وليم سبنسر، المرجع السابق، ص188.

41. وليام شالر، مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824، تعريب وتعليق: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982،ص137.

42. الداي الحاج علي: عرف عن الداي قسوته الشديدة في الحكم، حسن علاقته بالدولة العثمانية، فرض على تونس دفع الضرائب للجزائر بعد حروب ونزاعات، وفي عهده أعلنت الجزائر الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية، توفي خنقاً في 22 آذار 1815. سفيان صغيري، المصدر السابق، ص132-134.

43. المرجع السابق، ص138.

44. الملك جورج الثالث: أكبر أبناء الأمير فريدريك أمير ويلز، خلف جده جورج الثاني اعتلى العرش البريطاني عام 1760، حظي بشعبية كبيرة بفضل ما عرف به من تقوى، دخل بنوبة من الكآبة وحالة من الجنون منذ عام 1765، دخل في نوبة عصبية بين عامي 1788-1789، تعرض لانهيار عصبي في عام 1810، واستمر على ذلك الحال حتى وفاته في قصر وندسور في كانون الثاني 1820. آلان بالمر، المرجع السابق، ص323-324.

45. مولود قاسم نايت بلقاسم، المصدر السابق، ج1، ص188؛ يحيى بو عزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ص152.

46. اندلعت الحرب في 18 حزيران 1812، نتيجة تأزم العلاقات البريطانية الأمريكية بعد استياء الأخيرة على تصرفات البحرية الملكية البريطانية الهادفة للتأثير على القوة البحرية الأمريكية، وفرض الحصار على موانئها، فضلاً عن وضع القرارات قيد التنفيذ، وتشجيع بريطانيا غارات الهنود الحمر ضد المستوطنات الأمريكية، هاجت القوات الأمريكية كندا من عدة محاور، فيما أرسلت بريطانيا (4) الآف جندي احتلوا واشنطن في 24-25 آب 1814، وحدثت سلسلة من المناوشات البحرية، انتهت الحرب بمعاهدة غنت في بلجيكا. آلان بالمر، المصدر السابق، ص52-53.

47. معاهدة غنت: عقدت في 24 كانون الأول 1814 في مدينة غنت البلجيكية، وصادق عليها الكونگرس في 11 شباط 1815، وأصبحت سارية المفعول من وقتها، اتفق الطرفان على حلَّ المنازعات بطرق سلمية، مع بقاء الأوضاع التي كانت سائدة قبل حرب عام 1812، ولم تتمكن المعاهدة من تسوية مشكلة مناطق الصيد ومبالغ الرقيق الذين أسروا أثناء الحرب والنزاعات بشأن الحدود الشمالية والغربية للولايات المتحدة، وقد سويت في مباحثات لاحقة.

Theodore Roosevelt. The naval Operations Of the War between great Britain and the United States 1812-1815. Sampson Low. London, 1901,PP.284-285.

48. جون ب. وولف، المرجع السابق، ص444.

49. جمال قنان، المرجع السابق، ص170.

50. مؤتمر فينّا: مجلس دولي انعقد في 13 أيلول 1814 حتى 9 حزيران 1815 تقرر فيه تسوية الأوضاع في أوربا بعد حروب نابليون، واتخذت فيه الدول الأربع الرئيسة (النمسا، وبريطانيا وروسيا وبروسيا) معظم قرارات المؤتمر، تم استحداث ثلاثة أقاليم جديدة هي: (بلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ)،

ومملكتان جديدتان، هما: فينيسيا وبولندا، وأدان المؤتمر رسمياً تجارة الرق، وأوصى بزيادة الحقوق لليهود، وأنشأ نظام الدبلوماسية الدولية، وطرحت: مسألة تحرير الأسرى الموجودين بالجزائر وبقية إيالات المغرب العربي. زيدان حسان حاوي الشويلي، مؤتمر فينّا 1814– 1815، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة بغداد، كلية التربية، 2004؛ آلان بالمر، المرجع السابق، ج2، ص371-373.

51. عملت العصور الحديثة على تحرير الإنسان الأوربي من الرق، إلا أنها احتفظت بنظام الرق للعناصر غير الأوربية (الأفريقية بشكل خاص)، وكان الهدف منها التزود بالأيدي العاملة التي تتحمل المناخ الاستوائي أو المداري، وبقيت أوربا تعتمد على الرقيق بعد أن اخترعت الآلات، فوقفت ضد تلك التجارة بعد أن كانت تشجعها نتيجة لتغير الحاجات وظهور الثورة الصناعية، إذ شكلت أول جمعية في بريطانيا لتحرير الرقيق عام 1783، وساندتها جماعة الكويكرز في الولايات المتحدة الأمريكية، وتطورت الفكرة إلى إصدار مجلس العموم البريطاني قراراً في عام 1806 حرم فيه تجارة الرقيق على الأراضي البريطانية، وحصلت موافقة مجلس اللوردات على ذلك القرار بعد عام واحد، وكذلك صدر قانون حرم نقل الرقيق على السفن البريطانية عام 1811، وانتهت تلك التجارة نهائياً في بريطانيا عام 1814، ومن ثم كرست بريطانيا جهودها لوقف التجارة العالمية للرقيق وضمنتها كأحد أهم المواد في مؤتمر فينّا. للمزيد من التفاصيل ينظر: جلال يحيى، تاريخ افريقية الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1999، ص197-199؛ فيصل محمد موسي، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، منشورات الجامعة المفتوحة، بنغازي، 1997، ص87-90.

52. صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر(الجزائر، تونس، المغرب الأقصى)، مصر الجديدة، 1993، ص73-74.

53. نقلاً عن: أرزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره (1800-1830)، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2001، ص148.

54. يحيى بو عزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ص168؛ محمد خير فارس، المرجع السابق، ص143.

55. بوليناك: هو أحد المهاجرين في عهد الثورة الفرنسية، اشترك في مؤامرة (كادودال) لاغتيال نابليون، وحكم عليه بالإعدام شنقاً، لكن زوجة نابليون جوزفين توسطت له وتمكنت من تحويل الحكم إلى السجن مدى الحياة، ولما عاد ال بوربون إلى الحكم أخرجوه ورفعوه على الأكتاف لأنه ناصر الملكية، وهو من المقربين للملك شارل العاشر، وقد عينه على رأس الوزارة، وأصدر أشد القوانين المتطرفة والرجعية وحاول تنفيذها، وناصر إرسال حملة الجزائر عام 1830م للحصول على نصر عسكري لدعم مكانته ومكانة الملكية. آمال السبكي، أوربا في القرن التاسع عشر فرنسا في مئة عام، عالم المعرفة، جده، 1985، ص245.

56. محمد خير فارس، المرجع السابق، ص143-144.

57. كاستلري: ولد روبرت ستيوات كاستلري في اولستر بأيرلندا 18 حزيران 1769، درس في الثانوية الملكية بايرلندا وتخرج فيها عام 1785، ثم انتقل إلى كلية سانت جونز في جامعة كامبردج، وهو من طبقة راقية كان والده حاصل على لقب باروان وآيرل وماركيز، وبفضل علاقات كاستلري الابن حصل على لقب فيكونت وهي درجة رابعة من النبالة، دخل عالم السياسة مبكراً في عام 1790 بدخوله مجلس العموم الايرلندي، انضم عام 1795 إلى الحزب التوري، أصبح السكرتير الرئيس لايرلندا، وعين وزيراً للحرب والمستعمرات عام 1805، تولى منصب وزير الخارجية وزعامة مجلس العموم في حكومة ليفربول عام 1812، انتحر في مكتبة يوم 12 آب 1822.للتفاصيل ينظر: نرجس كريم خضير جدران الخفاجي، دور كاستلري السياسي في أوربا 1812-1822، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة ذي قار/ كلية التربية، 2010.

58. صلاح العقاد، المرجع السابق، ص74.

59. الأوجاق: بمعنى الموقد، أطلقت في اللغة التركية على البيت ثم على الجماعة التي تلتقي في مكان واحد، ثم على طائفة من طوائف أرباب الحرف، ثم أطلقت في العهد العثماني على صنف من أصناف الجند، وعلى كل الهيئات المختلفة من القبول إن يقال: أوجاق الانكشارية أوجاق الغرب، أوجاق التنفكجية، والاوجاقي اصطلاحاً هو الجندي أو العسكري. شوكت باموك، التاريخ المالي للدولة العثمانية، تعريب: عبد اللطيف الحارس، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2005، ص91؛ محمود رئيف أفندي، التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية، تعريب: خالد زيادة، مطبعة جروس_ برس، لبنان، 1985، ص39-40؛ نجم الدين عبد الستار صادق ليلاني، المصدر السابق، ص11 .

60. عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1989، ص606.

61. جاءت معاهدة غنت لتعطي المجال الحيوي للولايات المتحدة الأمريكية ولتتحرك نحو الدول التي تمارس القرصنة البحرية، إذ دخل أسطول صغير مكون من (3) سفن صغيرة إلى البحر المتوسط، واشتبكت مع السفن الجزائرية، وكان لها الانتصار الكبير، إذ قتل عدد كبير من البحارة الجزائريين وأُسر نحو (500) بحاراً، ووصل الأسطول الأمريكي إلى الجزائر ليعلن نتيجة المعركة، وليجري عقد معاهدة جديدة بين الجانبين، تضمن الحرية لتجارة الولايات المتحدة الأمريكية من دون دفع الإتاوة. جون . ب. وولف، المصدر السابق، ص419-420؛ سلوى سعد الغالبي، العلاقات العثمانية الأمريكية 1830-1918، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2002، ص33-34.

62. الريس حميدو: هو بن علي، بربري الأصل، استوطنت أسرته مدينة الجزائر، بدأ حياته خياطاً، وهو في سن العاشرة، ثم حول اهتمامه إلى العمل في البحار، وجذبته حياة الرياس البحريين، فانخرط في قوات باي وهران، واسند إليه الباي قيادة مركب من نوع شبك، ثم عينه قائداً على مراكبه البحرية، تحصل على مركب بـ (44) مدفعاً، نال شهرة واسعة حتى استشهد في معركة بحرية ضد

الأمريكان عام 1815. سارة العيدودي، التنظيم العسكري العثماني في الجزائر 1518-1830، رسالة ماجستير (غير منشورة)، الجزائر، جامعة تبسة، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2009، ص28.

63. Tome Premier, Lafrique Septentrionale (Berberie), Depuis Les Temps Les Plus Recul, Jusqu Ala Conquete Françoise (1830), Rue Bonaparte, 28, Paris, 1888, PP.490-491.

64. جلال يحيى، المصدر السابق، ص204؛ شوقي الجمل، عبدالله عبد الرزاق، تاريخ أوربا، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2000، ص169.

65. الداي عمر بن محمد: جندي انكشاري ولد عام 1780م، جاء إلى الجزائر عام 1810م، أصبح أحد كبار ضباط الانكشارية في الايالة، تولى منصب الداي عام 1815م، قتل في أثر ثورة الانكشارية عليه بسبب امتناعه عن دفع رواتبهم عام 1817م . للمزيد من التفاصيل ينظر: مبارك بن محمد الهلالي الميلي, المصدر السابق، ص210 -213.

66. وكيل الحرج: موظف سامي يراقب النشاط البحري وأعمال الترسانة البحرية من تهيئة عتاد الحرب وتوزيع الغنائم، ويمتد نشاطه في بعض الأحيان ليشمل العلاقات الخارجية والدولية، ولتعطى له صلاحيات وزير البحرية والخارجية في آن واحد، وعلى الرغم من ذلك فإن نفوذه بقي محدوداً، والسبب في ذلك تقهقر الجهد البحري، ومعاداة الأوجاق والانكشارية له كونه من المنافسين لهم في حكم البلاد. ناصر الدين سعيدوني، موظفو الايالة الجزائرية في أوائل القرن التاسع عشر صلاحيتهم الإدارية مهامهم الاقتصادية والاجتماعية، مجلة المؤرخ العربي، العدد 31، السنة 13، بغداد، 1987، ص188.

67. علي خلاصي، قصبة مدينة الجزائر، دار الحضارة، الجزائر، 2007، ص20.

68. ميلاد أ. المقرحي، تاريخ أوربا الحديث 1453-1848، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1996، ص351-352.

69. نرجس كريم خضير جدران الخفاجي، المرجع السابق، ص157.

70. الجزر الأيونية: عددها (7) جزر تقع على الساحل اليوناني الغربي، تبلغ مساحتها (963) ميلاً مربعاً، استولت عليها فرنسا في تشرين الأول 1797 على وفق معاهدة كامبوفورميو التي عقدت بين فرنسا والنمسا. هاشم صالح التكريتي، الصراع الروسي- الفرنسي في البلقان مطلع القرن التاسع عشر، مجلة المؤرخ العربي، العدد 14، بغداد، 1989، ص68.

71. آرجمنت گوران، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة: عبد الجليل التميمي، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1970، ص29؛ يحيى بو عزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ص170.

72. اكسموث: ولد في دوڤر عام 1757، أميرال بريطاني تولى قيادة البحرية في الهند عام 1803، قاد الأسطول البريطاني للهجوم على الجزائر ودمر أسطولها عام 1816، توفي عام 1833. بسام العسلي، المقاومة الجزائرية، ص53 .

73. مبارك بن محمد الهلالي الميلي، المرجع السابق، ص262.

74. قاليون: اسم أطلق على النوع الكبير من السفن الحربية في الأسطول العثماني التي تتحرك بالأشرعة، وأصل الكلمة من "Calion" الإيطالية ويتوافر فيها (60-120) مدفعاً، ولها عدة أنواع، وقيل هي السفن التجارية، ويقال غليون مأخوذة من الفرنسية "Galion" . سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة عبد الرزاق محمد حسن بركات، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000، ص175.

75. عزيز سامح الترا، المرجع السابق، ص606.

76. () وليام شالر، المرجع السابق، ص150-151؛ يحيى بو عزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ص170.

77. جون ب. وولف، المرجع السابق، ص444-445.

78. وليام شالر، المصدر السابق، ص153؛ عزيز سامح الترا، المصدر السابق، ص607.

79. للمزيد من التفاصيل ينظر الوثيقة رقم 7، رسالة من الداي عمر إلى السلطان العثماني محمود الثاني، عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، تونس- الجزار- ليبيا من 1816 إلى 1871، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972، ص252-253.

80. رئاسة دائرة الأرشيف العثماني، الجزائر في الوثائق العثمانية، ترجمة: فاضل بيات وبشار محمد صالح الشريف، مطبعة سيستام اوفسات، أنقرة، 2010، وثيقة رقم 115، ص124.

81. الكونت بيير دوڤال: ابن السيد دوڤال الذي كان يعمل مترجماً بالسفارة الفرنسية في الدولة العثمانية، اكتسب من والده خبرة في المجال الدبلوماسي وعين سفيراً لبلاده في دول آسيا الصغرى، نائب قنصل في بغداد حتى عام 1791، إذ رقي إلى رتبة قنصل في بغداد حتى عام 1794، إذ شطب اسمه من قائمة القناصل حتى عودة الملكية إلى فرنسا، وقد وصف بأنه خبير في شؤون الشرق، وكان يتبع طرقاً دبلوماسية ملتوية في الوصول إلى هدفه، وعين في عام 1815م قنصلاً لفرنسا في الجزائر بدل القنصل ديبوا تانفيل، تمكن من تخفيض الضريبة المفروضة من حكومة الجزائر على التجارة الفرنسية المارة في البحر المتوسط إلى مائة وثمانية عشر ألفاً بعد أن كانت ثلاثمائة ألف فرنك. أبو القاسم سعدالله, محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر, ط3, د.ت, ص22؛ جمال ڤنان، المصدر السابق، ص320؛ عمار حمداني، حقيقة غزو الجزائر، ترجمة: لحسن زغدار، مطبعة ثالة، الجزائر، 2007، ص42-43.

82. نقلاً عن: المرجع السابق، ص325.

83. نقلاً عن: عزيز سامح الترا، المرجع السابق، ص607.

84. للمزيد من التفاصيل ينظر: الملحق رقم (1) .

85. جون ب. وولف، المرجع السابق، ص445.

86. عزيز سامح التر، المرجع السابق، ص609؛ محمد زروال، العلاقات الجزائرية الفرنسية 1791-1830، مطبعة دحلب، الجزائر، 1994، ص64.

87. للمزيد عن تفاصيل المعركة البحرية ينظر: وليام شالر، المصدر السابق، ص289-292؛ عزيز سامح التر، المرجع السابق، ص609-610.

88. نقلاً عن: محمد زروال، المرجع السابق، ص67.

89. Tome Premier, Op. Cit.,P.497.

90. مبارك بن محمد الهلالي الميلي، المرجع السابق، ص263.

91. للمزيد من التفاصيل بشأن الرسالة المؤرخة في 28 آب. ينظر: وليام شالر، المصدر السابق، ص305؛ وليم سبنسر، المصدر السابق، ص193.

92. وليم سبنسر، المرجع السابق، ص194.

93. للمزيد من التفاصيل بشأن المعاهدة المعقودة بين الداي عمر والورد اكسموث ينظر: النص العربي في عبد الجليل التميمي، المرجع السابق، ص253-255.

94. وليام شالر، المصدر السابق، ص311-312؛ محمد زروال، المرجع السابق، ص69.

قائمة المحتويات

مجموعة من المؤلفين

شارك في انجاز هذا العمل الجماعي المميز عدد من الباحثين الجزائريين والعراقيين ، وهو من حملة الشهادات العلمية، وينشطون في مؤسسات اكاديمية محترمة وذا سمعة علمية مميزة. وكان القاسم المشترك بينهم هو اهتمامهم بتاريخ الجزائر كل حسب اختصاصه (وسيط/ حديث/ معاصر). ولهم العديد من البحوث والمؤلفات المنشورة في ميدان اختصاصهم.

هذا الكتاب:

يعتبر هذا الكتاب محاولة جريئة في تقديم لمحات من تاريخ الجزائر الوطني في فترات (الوسيط/ الحديث والمعاصر) عبر عدد من المقالات التي شارك بها نخبة محترمة من المؤرخين الجزائريين والعراقيين، ومن هنا جاء عنوانه على الشكل الآتي: «صفحات من تاريخ الجزائر (الوسيط/ الحديث/ المعاصر): دراسات تاريخية»، ومن خلال العنوان يتجلى لنا الهدف من وراء نشره، وهو إبراز محطات تاريخية هامة، وعبر إعادة رصد أحداثها من جديد بالاعتماد على ما توفر من المصادر الأرشيفية والمعاصرة لتلك الأحداث. وكانت غايتنا من هذا الجهد هو الانتقال بالقارئ العربي للغموص في ثنايا تلكم الأحداث بشكل أكثر عمقا وتفصيلاً بعيداً عن العموميات. كما أن الكتاب يمثل نوعاً من التصاهر مابين اتجاهات فكرية ومنهجية متنوعة في ميدان الكتابة التاريخية، ولاسيما وان المشاركين تمتعوا بالحرية الكافية للكتابة وإبداء الرأي فيما هم أرادوا كتابته. كما لا ننسى أن من ميزات هذا الكتاب هو الحرص الذي لمسناه من قبل الأستاذ الدكتور علي العبيدي الذي تولى عملية الإشراف والتحرير والتنسيق عبر التواصل مع عدد من الباحثين بلغ عددهم الـ(40) باحثا، وذلك لما عرف عنه من حرص وتفان في المهام التي يقوم بها، فقد بذل جهد مميزا في انتقاء الأفضل من المقالات التي رغب أصحابها في المشاركة في هذا العمل المبارك، والتي بلغت بالعشرات. وفي الختام نتمنى ان يلقى الكتاب الاهتمام والمتابعة من قبل طلبتنا وباحثينا ومثقفينا. وسيجد فيه هواة التاريخ متعة وفائدة محققة.

ISBN: 978 9947 78 047 3

9 789947 780473

النشر الجامعي الجديد طباعة - نشر - توزيع
رقم 02 تجزئة تعاونية الدواجن، حي الدالية، الكيفان - تلمسان.
الهاتف / الفاكس : 687 277 043
البريد الالكتروني : npu_editions@yahoo.fr